

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَشْكَلُ الْمُرْأَةِ الْمَامِعِيَّةِ النَّذِيرِ الْعَرَبِيِّ

خَتَّى نَهَايَةِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ الْهِيَّمَةِ

الحسن البصري وابن المقفع (موذجاً)



رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق العراقية

١٣٥٢ لسنة ٢٠١٦ م

مصدر الفهرسة: IQ-KaPLI ara IQ-KaPLI rda

رقم تصنيف: BP38.09.N7 T3 2016 LC: 2016

المؤلف الشخصي: الطالقاني، ضياء طعمة عبد الحسين.

العنوان: أثر كلام الإمام علي (عليه السلام) في النشر العربي حتى نهاية القرن الثاني للهجرة: (الحسن البصري وابن المقفع إنماذجاً).

بيان المسؤولية: تأليف ضياء طعمة عبد الحسين الطالقاني؛ تقديم سيد نبيل قدوري الحسني.

بيانات الطبعة: الطبعة الأولى.

بيانات النشر: كربلاء: العتبة الحسينية المقدسة - مؤسسة علوم نهج البلاغة.

١٤٣٧ هـ = ٢٠١٦ م.

الوصف المادي: ٤٧٢ صفحة.

سلسلة النشر: مؤسسة علوم نهج البلاغة.

تبصرة عامة:

تبصرة ببليوغرافية: يتضمن هوامش - لائحة المصادر (الصفحات ٤٣٥ - ٤٦٦).

تبصرة محتويات:

موضوع شخصي: علي بن أبي طالب (عليه السلام)، الإمام الأول، قبل الهجرة - ٤٠ هجريا - سيرة.

موضوع شخصي: علي بن أبي طالب (عليه السلام)، الإمام الأول، قبل الهجرة - ٤٠ هجريا - النشر العربي.

موضوع شخصي: الحسن البصري، ٢١ - ١١٠ هجريا - تأثر.

مصطلح شخصي: ابن المقفع، عبد الله، ١٤٢ - ١٠٦ هجريا - تأثر.

مصطلح موضوعي: النشر العربي - تاريخ ونقد.

مؤلف إضافي: الحسني، نبيل قدوري حسن، ١٩٦٥، مقدم.

عنوان إضافي: نهج البلاغة. شرح.

تمت الفهرسة قبل النشر في مكتبة العتبة الحسينية المقدسة

شِلَّا كَلَمَ الْمَاهِرِ عَلَيْكَ النَّبِيُّ الْعَرَبِيُّ
حَتَّى نَهَايَةِ الْقُرْنِ الثَّانِي لِلْهَجَرَةِ

الحسن البصري وابن المفعع إنموذجاً

تألِيفُ

ضياء طعمة عبد الحسين الطالقاني

أصدار
موسسه علم روح النّبلاء
في العبرة الحسينية المقدمة

جميع الحقوق محفوظة
للعتبة الحسينية المقدسة

الطبعة الأولى

١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م



العراق: كربلاء المقدسة - شارع السدرة - مجاور مقام علي الأكبر عليه السلام

مؤسسة علوم نهر البلاغة

هاتف: ٠٧٧٢٨٢٤٣٦٠٠ ٠٧٨١٥٠١٦٦٣٣

الموقع: www.inahj.org

Email: Inahj.org@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤسسة

الحمد لله على ما أنعم وله الشكر بما ألمم والثناء بما قدّم من عموم نعمٍ ابتدأها وسبوغ آلاءً أسدتها والصلة والسلام على خير النعم وأفضلها محمد وآلـهـ الأخيـارـ
الـذـيـنـ أـذـهـبـ اللهـ عـنـهـمـ الرـجـسـ وـطـهـرـهـمـ تـطـهـيرـاـًـ.

أمّا بعد:

لو أنصف أهل العلم والفكر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لوجدوا أثره في جميع الحقوق المعرفية إن لم يكن له النصيب الأوفر والسهـمـ الأـعـظـمـ فيـ الـبعـضـ مـنـهـاـ وـماـ هذهـ الرـسـالـةـ المـوـسـوـمـةـ بـ(ـأـثـرـ كـلـامـ الإـمـامـ عـلـيـ عـلـيـهـ السـلـامـ فـيـ التـرـاثـ الـأـدـبـيـ)ـ إـلـاـ وـاحـدـةـ منـ الـدـرـاسـاتـ الـمـنـصـفـةـ الـتـيـ تـسـتـهـضـ الأـقـلـامـ الـعـلـمـيـةـ لـلـكـتـابـةـ فـيـ أـمـرـيـنـ مـهـمـيـنـ:

أولاًً: حجم الظلم الذي جناه كثير من المصنفين في المعارف والعلوم الإسلامية ولا سيما أهل الأدب واللغة من خلال تغيب كلام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

وتحويليه بالنسبة إلى غيره تجرياً على الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.
والأمر الآخر، انتهاء حقوق الملكية الفكرية للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام
فيما لو عملت به المنظمات الحقوقية في عالم اليوم.

ونحن من هذه المؤسسة التي تعنى بعلوم كتاب نهج البلاغة وحياة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وفكره ومن هذا البحث الموسوم الذي يعدّ مادة وثائقية ثبتت وقوع هذه السرقات في مجالها المعرفي ندعوا الباحثين والعامليين في مجال حقوق الملكية الفكرية إلى اعتماد هذه القضية وبيان حجم السرقات التي وقعت في التراث الإسلامي وعوارفه العديدة والتي تعود في أصلها إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وتمت سرقتها ونسبتها إلى غيره، وهو القائل عليه السلام: «نحن الشعار والأصحاب، والخزنة والأبواب، ولا تؤتي البيوت إلا من أبوابها ، فمن أتاها من غير أبوابها سمي سارقاً».

فجزى الله الباحث عن عمله في هذه الدراسة كل خير، فقد بذل فيها جهده لبيان حق من حقوق الإمام علي عليه السلام في هذا الحقل المعرفي، وآخر دعوانا (أن الحمد لله رب العالمين).

رئيس مؤسسة علوم نهج البلاغة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين حمدا لا يحصي عدده العادون، ولا يبلغ كنهه المجتهدون،
حمدا دائماً، يصعد أوله ولا يتنهى آخره، والصلوة والسلام على خير الأنام محمد
وآله الكرام.

وبعد ... فإنه من دواعي البهجة والسرور أن نقدم دراسة تخص كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهما السلام دراسة لم يسبق أن درس هذا الكلام بمثلها، فكانت تحت عنوان «أثر كلام الإمام علي عليهما السلام في النشر العربي حتى نهاية القرن الثاني للهجرة».

وقد علمت يقيناً أن بهذه الدراسة كراكب الصعبية لأمررين هما: إن دراسة الأثر والتأثير دراسة شاقة، وعمادها الأساس هو الباحث - أي بباحث - الذي يتولى هذه المهمة.

والأمر الثاني إن التنقيب عن أثر كلام أمير المؤمنين عليهما السلام في النشر مشقة وجسامه أخرى، كون هذا الكلام هو ترجمان للقرآن الحكيم، ولكلام النبي الكريم عليهما السلام

.....أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الشر العربي

بمعنى إنّ بين هذا الثلاثي شبه كبير جدًا، وعليه من الصعوبة بمكان فرز أثر النص القرآني عن أثر النص النبوي عن أثر النص العلوي.

وبعد أن جعلت الله حسبي في أموري كلّها، فهو المدعُو للمهمّات، وهو المفزع في المهمّات، فُتحت أمامي طرُق لم أكن أتوقعها أفضت إلى اكتشاف أثِرٍ مهيب لكلام الإمام علي عليه السلام على جميع الكتاب الذين قرأت لهم مدّة الدراسة.

وبعد هذه النتائج التي حصلت عليها من عشرات الكتاب، قدمت للدكتورة المشرفة خطةً توزّعت على تمهيد وخمسة فصول، وبعد المناقشة والتعديلات أذنت لي وشرعت بالكتابة على هذا الأساس، ولكن عند وصولي إلى الفصل الثالث لاح لي أنّ الرسالة - بالفصل الثلاث - تقلُّ أو تنيف على الثلاثاء صفحة. وهنا كنت أمام خيارين:

الأول:

الانتقاء من النصوص المتأثرة التي جمعتها، بسبب عدم إمكان بث هذه النصوص في رسالة أو أطروحة واحدة، بل الأمر يحتاج إلى أكثر من ذلك، وهذا الخيار لم أفضله لأنّ النصوص التي تبقى بعد الانتقاء - وهي الأكثر بكثير - لا يمكن أن تدرس من جديد على اعتبار أنّ المدة الزمنية التي ينتمي إليها النص درست بهكذا دراسة.

الثاني:

الاكتفاء بما كتبته عن الحسن البصري وابن المقفع، علمًا أنّ أيّاً من الأديبين ينهض بدراسة تامة، لكنّي فضلت الجمع بينهما - بعد أن اختصرت من كلامهما المتأثر أيضًا - من أجل تعزيز احدهما بالأخر، لأنّ هذا التعزيز يعزز بدوره أثر كلام الإمام من جهة، ومن جهة أخرى حتى لا يكون هنالك إشكال أو تساؤل

مفادة لماذا تأثر الأديب الفلافي دون غيره بكلام الإمام عليه السلام.

وهذا الخيار الثاني هو الذي فضّله وحاورت به الدكتورة المشرفة فوجهتني ثم تفضلت عليّ بالموافقة، فأصبح العنوان بحثي النهائي «أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي حتى نهاية القرن الثاني الحسن البصري وابن المقفع أنموذجاً». وكان قد حصل هذا في الشهر الثامن من عام ٢٠١٢ م.

وبخصوص باقي النصوص المتأثرة التي تم جمعها من نشر عائل عشرات الكتاب وعددها بالمئات نذكرها لدراسات لاحقة بعونه تعالى.

أما المنهج الذي اتبعته، فكان على النحو الآتي:

التمهيد:

وفيه تم التعرض لمفهوم الأثر والتأثير في اللغة والإصطلاح. أما الفصل الأول فكان تحت عنوان «كلام الإمام علي عليه السلام من حيث التوثيق والتأثير».

ونحن هنا ندرس أثر كلام الإمام عليه السلام في القرن الأول والثاني كان لزاماً علينا أن نبيّن هل كان الكلام الذي يُدرس أثره مجموعاً ومحفوظاً ومدروساً حتى يقرأ ويؤثر أم لا؟ فإن كان الجواب بنعم، فهذا يعني إننا قطعنا شوطاً مهماً وتوصلنا - مبدئياً - إلى فاعلية هذا الكلام وتأثيره، وإلاً لماذا أهتم بجمعه في ذلك الزمن المبكر جداً. وكانت هذه النقطة الأولى من البحث الأول.

ولماً عشر الباحث على بعض الأدلة القطعية التي تُسهم في دحض الشبهات التي وُجّهت لبعض كلام أمير المؤمنين عليه السلام، آثر أن يسجلها ويردفها بأدلة أخرى خاض غمارها الباحثون مسبقاً، وكانت هذه النقطة الثانية من البحث الأول.

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الترجمة ١٠

ونحن نخوض غمار أثر كلام أمير المؤمنين عليه السلام كان من الواجب أن نقف على جماليه هذا الكلام، وأسبابها، وما قيل فيها قدّيماً وحديثاً. ولهذا خُصّص المبحث الثاني.

وجاء الفصل الثاني معنواناً بـ «أثر كلام الإمام علي عليه السلام في نشر الحسن البصري».

وعلى وفق المادة التي تم جمعها تم تقسيم هذا الفصل على أربعة مباحث:

الأول:

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في خطب البصري.

والثاني:

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في رسائل البصري.

ولما وجدنا البصري قد أتى على أكثر من خطبة علوية كاملة وفرقها في نصوص عدّة آثرنا أن نورد شاهداً حياً على هذا الفعل، فكان ذلك في المبحث الثالث، تحت عنوان «أثر خطبة المتقين للإمام علي عليه السلام في نشر الحسن البصري».

الرابع:

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في مواضع البصري،

وتجدر الإشارة هنا إلى الباحث مع كونه سار على تقسيم الأثر إلى مظاهره المتعددة التي تشخص ضمن النتاج الشري لكتلا الأديبين وبنقاط مستقلة، إلا أنه رأى من المستحسن عدم إفراد كلّ مظهر - في المباحث الثلاثة الأولى - بنقطة منفصلة، لأن رسائل البصري وخطبه - وعلى طولها - ما هي إلا جمع من كلام الإمام عليه السلام فكان يجعل مقدمة الرسالة - مثلاً - من نصّ علوي كأن يكون بالمعنى، ثم ينتقل إلى نص آخر فيورده بنصّيه، وإلى ثالث يورده بإيجاز... وهكذا.

فكان الأمر - والحال هذه - إذ قُسمت الرسالة إلى أجزاء، جزء منها في نقطة التضمين، والثاني في نقطة أخرى،... تكون النتيجة عدم تبيان الأثر العلوي بطريقة تبين ما فعله البصري كدراستنا لتلك الرسالة دون أن نجزّأها، وعلى هذا فضلنا - طمعاً في بيان الأثر أكثر - أن نشير إلى هذه المظاهر ضمناً، وذلك عندما نسلسل بالرسالة أو الخطبة.

وتكتف الفصل الثالث والأخير ببيان «أثر كلام الإمام عليه السلام في نثر ابن المقفع»، وجاء هذا الفصل مقسماً على أربعة مباحث رئيسة هي:

الأول:

أثر كلام الإمام في رسالة الأدب الكبير، وكان هذا الأثر قد ظهر بمظاهر هي:

أولاً: التضمين بنوعيه النصي والمحور.

ثانياً: التلتفيق.

ثالثاً: البسط.

رابعاً: الإيجاز.

الثاني:

اثر كلام الإمام عليه السلام في رسالة الأدب الصغير. وكان ظهور هذا الأثر بمظاهر لا تختلف عن سابقتها.

الثالث:

أثر كلام الإمام عليه السلام في رسائل أخرى لابن المقفع، وكان ذلك في نقاط ثلاث:

أولاً: أثره في رسالة الصحابة.

ثانياً: أثره في رسالة الدرة اليتيمة.

ثالثاً: أثره في رسائل متفرقة أخرى لابن المقفع.

وهذه الرسائل لقصرها لم تقسم بحسب التقسيم السابق، بل تمت الإشارة لنوع الأثر فيها ضمناً.

الرابع:

تكرار ابن المقفع لكتاب الإمام علي عليه السلام.

وكان آخر خاتمة رحلة البحث، حيث ضمت نتائج عدّة توصلت إليها الدراسة.

وبعد هذا فإن من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق، لذا لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل للمشرفة الأستاذة المساعدة الدكتورة جنان الجبوري لرعايتها وتوجيهاتها ووقفها مع الباحث ونصرتها إياه في يوم عز فيه الناصر.

كما أتقدم بالشكر الموصول لفضيلة الأستاذ المساعد الدكتور علي كاظم المصلاوي باذر بذرة الرسالة، وهذا هي إحدى ثمراتها بين يديه السخيفين.

كذلك الشكر للأستاذ الدكتور الأديب عبود جودي، فهو من شجعني على هذه الدراسة، حيث قال لي عندما شكرت له رفض الموضوع: «يا بنى موضوعك جميل فتمسك به».

وأشكر الأستاذ الدكتور أحمد شاكر غضيب أستاذ الأدب الإسلامي في جامعة بغداد، فهو أشعل بداخلي جذوة مميزة لما كتب لي عندما طلبت منه

استشهاداً «الموضوع في غاية الروعة والجمال، وسيكون دراسة تأسيسية لما بعده من دراسات» وأشاره مجدداً أينما حلّ وارتحل.

كذلك أقدم شكري وامتناني لسماحة الخطيب الشيخ عبد الحميد المهاجر، فهو أseهم إسهاماً فعالاً في هذا الموضوع - وإن كان لا يدرى - كوني حفظت بعض كلام الإمام علي عليه السلام بسببي، فكان حفظي لهذا الكلام هو من أعانتي وجعلني أشخصه لما كنت أفتتش عنه في خبيئات الشر العربي.

وأخيراً فإنني من الناس سجيتهم النقص، وحليفهم التقصير والقصور، فأدعوا الله وأولياءه، وأرجو من القراء المعاملة باللطف لا بالعدل، والحمل على التفضل لا على الاستحقاق، وصلى الله على محمد وآلـه الأطـيـبـيـنـ الأطـهـرـيـنـ.

التمهيد

مفهوم الأثر والتأثير في اللغة والإصطلاح:

تعود هذه المسميات الثلاث على وفق ما أشارت إليه المعجمات اللغوية إلى الفعل الثلاثي (أثر). قال الخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ): «الأثر بقية ما يرى من كل شيء... والأثارة البقية من الشيء والجمعُ أثارات، ومنه قوله تعالى:

﴿أَوْ أَثَارَةً مِنْ عِلْمٍ﴾^(١)^(٢).

أما ابن منظور (ت ٧١١ هـ)، فقال: «الأثر بقية الشيء... وخرجت في إثره وفي إثره أي بعده ... والتأثير إبقاء الأثر في الشيء، وأثر في الشيء: ترك فيه أثرا»^(٣). وأثره عليه فضلته. وفي التنزيل:

(١) الأحقاف ٤.

(٢) معجم مقاييس اللغة ١ / ٥٤ - ٥٥ باب (أثر).

(٣) لسان العرب ٤ / ٥ مادة (أثر).

﴿لَقَدْ آثَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾^(١) ﴿لَقَدْ آثَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾^(٢).

وبعد هذا ومن خلال هذه التعريفات اللغوية نستنتج أنَّ التأثير له علاقة مباشرة بالتفضيل، أي أنَّ درجة التأثير تتوافق على درجة التفضيل؛ فكلما كان هذا التفضيل أكثر كان أثره أكبر وأين على المتأثر الذي يسعى جاهداً من أجل تسخيره في عمله، متبعاً من أجل ذلك طرقة عدَّة هذا - بالطبع - إذا كان المتأثر أديباً.

والأمر الآخر الذي يمكن إستنتاجه هو أنَّ هذا الأثر الباقي يمكن أن يُرى أو لا يُرى^(٣). وهذا الإستنتاج مناسب تماماً لو طبَّق في ميدان الأدب، كون الأثر الأدبي يُقسم على قسمين:

القسم الأول:

الأثر الظاهر، أو هو ذلك الأثر الذي يُرى كالإقتباس، والتضمين...

القسم الثاني:

الأثر غير الظاهر وهذا الأثر - بطبيعة الحال - لا يُرى ولكن يحتاج إلى بصيرة نافذة لإثباته.

وللتدرج في معرفة هذه الظاهرة لأُبُد من معرفة إنَّها ظاهرة طبيعية، لا غنى للإنسان عنها، فهو بطبعه كائن اجتماعي جُبِل على هذا الأمر، فمرةً يؤثر وأخرى يتأثر بالآخرين - وبشتى الوسائل - لأنَّه ومهمًا أُوقي من قوة لا يستطيع تكوين

(١) يوسف .٩١

(٢) لسان العرب ٧ / ٤ مادة (أثر).

(٣) ينظر التأثير والتأثير في النص النقدي العربي .٤

نفسه «من لا شيء»^(١)، بل لا بد له من معين يعينه بُعْنَية ذلك التكوين. والذي يهمنا هنا هو التكوين الأدبي، وهذا ما دعا إليه كبار النقاد العرب، وأسموه بالتشقيق مَرَّةً، والتمرّس بما جاءت به قرائح الفحول من الأدباء أخرى، إذ أنَّ هذا التشقيق أو التمرس بتلك الآثار، وبطرق عده: حفظاً، ورواية، ودراسةً، لا شك بأنها من أهمِّ الروافد التي تسهم في تكوين الأديب و «تُظهر التأثير والتأثر على سطح نتاج الشاعر مهما حاول إخفاءه، فهو مدينٌ لغيره فيما سيبلغ أو بلغَ من منزلةٍ شعرية»^(٢).

وكان من أوائل أولئك النقاد الذين دعوا إلى إفاده اللاحق من كلام السَّابق هو الناقد الدُّوّاق^(٣) - مثلما سُمِّته هند حسين طه - ابن طبا العلوي (ت ٣٢٢ هـ)، والذي كثيراً ما كان يؤكّد على هذه المسألة، فقد كان معتقداً ومكتنعاً بأنَّ الأدباء الذين عاصرهم في محنة وهذه المحنة عبرَ عنها بقوله: «والمحنة على شعراء زماننا في أشعارهم، أشدُّ منها على مَنْ كان قبلهم، لأنَّهم قد سُبقووا إلى كُلِّ معنى بديعٍ، ولفظٍ فصيحٍ، وحليةٍ لطيفةٍ، وخلاقٍ ساحرٍ....»^(٤).

ويبدو أنَّ هذه الأزمة أو المحنة التي مرّ بها أدباء زمانه كانت إحدى الأسباب الرئيسة التي حدت بابن طبا طبا أن ينصح الأديب في أن «يُدِيم النَّظر في الأشعار التي أخترناها لتلصق معانيها بفهمه، وترسيخ أصوتها في قلبه، وتصير مواد لطبعه، ويذربُ لسانهُ بلفاظها؛ فإذا جاشَ فكره بالشُّعرِ أدى إليه نتائج ما استفاده مما نظر فيه من تلك الأشعار، فكانت تلك التّيجة كسيكة مفرغة من جميع الأصناف

(١) خصام ونقد ٢٥٧.

(٢) أبو العلاء المعري والشعر العربي في الأندلس دراسة تحليلية في التأثير والتأثر ١١.

(٣) ينظر: النَّظرية النقدية عند العرب ٢٣٣.

(٤) عيار الشعر ٨ - ٩.

التي تخرجها المعادن. وكما قد أغترف من وادٍ قد مدّته سيولٌ جارية من شعابٍ مختلفة، وكطيفٍ تركب من أخلاطٍ من الطيب كثيرة، فيستغرب عيشه، ويغمض مستبطنه، ويدهُب في ذلك إلى ما يُحْكى عن خالدٍ بن عبد الله القسري^(١)، فإنه قال: حفظني أبي ألف خطبة ثم قال لي: تناشتها، فتناستها؛ فلم أردَّ بعد ذلك شيئاً من الكلام إلا سهلَ علىَّ. فكان حفظه لتلك الخطب رياضةً لفهمِه، وتهذيبِه طبعه، وتلقيحاً لذهنه، ومادةً لفصاحتِه، وسيباً لبلاغته ولسنه وخطابته^(٢).

فابن طبا طبا في كتابه المذكور الذي يُعدُّ من أخصب الكتب النقدية التي وصلت إلينا^(٣)، يشيرُ صراحةً إلى التمرُّس بتراث الآخر كون هذا التمرُّس ينتُج التأثير الذي يستثنى من خلال ما يبقى من أثر.

ولم تغب هذه الفكرة عن ذهن القاضي الجرجاني (ت ٣٦٦ هـ)، بل أكدَها بقوله: «وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر، ويستمدُّ من قريحته...»^(٤).

أما أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) فقد عقد فصلاً تحدّث فيه عن حُسن الأخذ وطرقه مؤكّداً من خلاله على ضرورة التأثر بالآخر، مُشّبّهاً الأديب المُبدئ بالطفل الذي لا يتعلّم النُّطق الصَّحيح إلاّ بعد استماعه من البالغين، فقال «ولولا أن القائل يؤدّى ما سمع لما كان في طاقته أن يقول، وإنما ينطقُ الطفلُ بعد

(١) خالد بن عبد الله القسري أحد الخطباء المشهورين. ولد مكة سنة ٨٩ هـ، وال珂وفة والبصرة سنة ١٠٥ هـ. سجنَه يوسف بن عمر وعذبه، ثم قتله في أيام الوليد بن يزيد سنة ١٢٦ هـ. ينظر:

الأعلام / ٢٩٧.

(٢) عيار الشعر . ١٠.

(٣) ينظر: النظرية النقدية عند العرب . ٢٣٣.

(٤) الوساطة بين المتنبي وخصوصيه . ١٨٥.

استماعه من البالغين»^(١).

وهذا الدور غير المتناهي الذي أعطاه أبو هلال للمحيط المحيط بالأديب، تنبأ إليه الدكتور طه حسين، ورأى أنَّ الفرد لا يستطيع تكوين نفسه «من لا شيء وإنما جاء من أسرته أوّلاً، ولم يكُن يرى النور حتَّى تلقتْ الحياة الإجتماعية صورَتُه في صورتها، وصاغتُه على مثالها وأخضعتُه لمؤثِّراتها التي لا تُحصى. فعنصر الفردية فيه ضئيلٌ لا يكاد يحسُّ إلا أن يمتاز هذا الفرد، وامتيازه نفسه يرد في كثيرٍ من الأحيان إلى الحياة الإجتماعية التي أنشأته»^(٢).

أمّا ابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦ هـ) - ومن خلال توصياته للأديب - فإنَّه بدا موافقاً تماماً الموافقة لتوصيات بعض من سبقه من النقاد أمثال: أبي هلال، وابن طباطبا وغيرهم. ومن ذلك قوله: «وليأخذ نفسه بحفظ الشعر والخبر، ومعرفة النسب، وأيام العرب؛ ليستعمل بعض ذلك فيما يريده من ذكر الآثار، وضرب الأمثل، وليعلق بنفسه بعض أنفاسهم ويقوى بقوه طباعهم»^(٣).

ويؤكِّد القيرواني هذه المسألة بنص آخر موصيًا الشُّعراً بأنَّ «لا يستغني المولد عن تصفح أشعار الملدين؛ لما فيها من حلاوة اللفظ، وقرب المأخذ، وإشارات الملح، ووجوه البديع الذي مثله في شعر المتقدمين قليل»^(٤).

ومهما يكن من شيء فإنَّ هذه الإحاطة بالتراث الأدبي التي دعا إليها النقاد كان القصدُ من ورائها تكوين نص إبداعيٌّ جديد «يتَمثَّلُ إبداعه في بنائه النُّصوص

(١) الصناعتين ٢٠٢.

(٢) خصام ونقد ٢٥٧.

(٣) العمدة ١ / ١٩٧.

(٤) العمدة ١ / ١٩٨.

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الترجمة
**السابقة عليه ويتبعها طارحاً قوانينه الخاصة التي يعاد توظيف النصوص
 القديمة من خلاها»^(١).**

وإذا ما انتقلنا إلى حازم القرطاجي (ت ٦٨٤ هـ) وجده يشاعر أسلافه من
**النّقاد العرب مبرزاً هذا الأمر بطريقة فيها مسحة فلسفية حين جعل للأديب
 ثلاث قوى - كما يرى الدكتور منصور عبد الرحمن - تكون ثمرتها في القوّة
 الصانعة، التي تبرز فيها مقدرة الأديب على التأليف، ولكن هذه القوّة تكون
 خاضعة لقوّتين سبقتين:**

الأولى:

**القوّة الحافظة، أي الذاكرة وهذه القوّة لا تأتي للأديب إلا عن طريق مُحالطة
 النصوص والتَّبصُّر بمنهاج القول.**

الثانية:

**القوّة المائزة، تلك القوّة التي يستطيع بها الأديب أنْ يتبيّن مواضع الحال
 وأسبابه، ويتنقّي منها ما يُلائم الحاجة^(٢).**

**ولعملية التأثير والتأثير والتي أسماها الدكتور داود سلوم بـ(الإنقال) ثلاثة
 حدود تقوم عليها هي:**

الحد الأول:

المرسل من الأدب المؤثّر، وقد يكون كتاباً، أو تياراً، أو فكرة.

(١) إشكاليات القراءة والتأويل . ٢٥٧

(٢) ينظر: معايير الحكم الجمالي في النقد الأدبي . ٢١٢ - ٢١٠

الحد الثاني:

الأخذ ويقصد به الملتقي، أو هو ذلك التاج الذي وقع عليه التأثير^(١).

ويرى الباحث - هنا - أنَّ درجة التأثير تقف وتحدد على أساس هاتين الجهتين أو الحدَّين، أي بمدى قوَّة الأولى وإبداعها، ومدى إيمان - الإيمان الباطني^(٢) - وتقبلُّ الثانية، فكلما كان الإبداع من الأولى أكثر، كان التقبل من الثانية والتأثير عليها أبلغ، ومن ثُمَّ كان الأثُرُ أوضح، ويمكن أن نستدلُّ على ذلك بقول الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ): «إذا كان المعنى شريفاً، واللفظ بلغاً، وكان صحيح الطبع، بعيداً من الاستكراه ومنزهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلف، صنع في القلب صنيع الغيث في التُّربة الكريمة...»^(٣).

الحدُّ الثالث:

الوسِطُ وهو الذي قام بنقلِ ذلك العمل^(٤). وهذا الحُدُّ - مثلما يراه الباحث - ليس حتمياً كالحدَّين الأوَّلين، إذنرى كثيراً من الأدباء تأثر بعضهم بالأخر دون الحاجة إلى هذا الحد، سواءً ذلك داخل أدب الأمَّة الواحدة، أم بينَ أميَّن لآمتين مختلفتين.

(١) ينظر دراسات في الأدب المقارن التطبيقي .٢١

(٢) يشير الباحث بذلك إلى الجهات الإسلامية التي ناوأت الإمام عليه السلام في الظاهر، بينما هم في قراره أنفسهم يعتقدون صحة منهجه، وعلى ذلك أكثر من دليلٍ ودليل، فعندما دخل ضرارُ بن ضمرة على معاوية طلب منه الأخير أن يصف أمير المؤمنين عليه السلام فأبى ضرار، ولكنَّ الحَّ عليه معاوية فقال ضرار: «...فكان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويجكم عدلاً، ينفجر العلم من جوانبه، فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن، فلقد كان كذلك...»، زهر الآداب / ١٧٨.

(٣) البيان والتبيين / ١ / ٦١

(٤) دراسات في الأدب المقارن التطبيقي .٢٨

وبعد حدود التأثير تجدر الإشارة إلى الطرق التي من خلاها نتبين أو نحدّد ذلك الأثر، والتي يمكن حصرها في طريقتين:

الأولى:

الاعتراف أو التَّصْرِيف من قبل الأديب المتأثر، بأنه تأثر بأديب ما، ومثال ذلك ما قاله عبد الحميد الكاتب (ت ١٣٢ هـ) حين سُئلَ ما الذي خرَّجَكَ في البلاغة، قال: «حفظُ كلامَ الأصلع»^(١). وبطبيعة الحال يكون هكذا «اعتراف مفتاح البحث المثير الأكيد»^(٢).

الثانية:

التشابه، أي التشابه بين الأعمال الأدبية، والذي يُعدّ ضرورة لا بدّ منها في دراسة التأثير والتأثير، كونها تمثل «نقطة البدء الضروريَّة التي تُتيح لنا اكتشاف تأثير أو اقتباس، أو غير ذلك، وتتيح لنا وبالتالي أن نفسّرَ أثراً بأثرٍ تفسيرياً جزئياً»^(٣). وهذه الطريقة يلجأ إليها حتى مع وجود الإعتراف والتَّصْرِيف، إذ لا بدّ من الرجوع إلى النصين وعمل مقارنة بينهما لإثبات التأثير، ولكن مع الحيطة والحذر والأخذ بالحسبان من أن «يكون هذا التشابه بين النصين خادعاً...، بل قد يكون التشابه الأدبي نتيجة صدفة، أو من المواقف المشتركة بين قرائِحِ الإنسانية»^(٤).

ومن هذا نستنتج أنَّ هنالك نوعين من التشابهات:

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ٦١، وينظر: رسائل البلغاء ١٧.

(٢) في الأدب المقارن مقدّمات للتطبيق ١٠.

(٣) الأدب المقارن (فان تيغيم) ٢٠.

(٤) في الأدب المقارن مقدّمات للتطبيق ١١.

الأول:

تشابه مُسلم بـأَنَّه جاء نتيجة للتأثر، وهذا بطبيعته يكون في المعاني الخاصة، وكذلك يكون في الأخذ النصي كالإقتباس، والتضمين.

الثاني:

تشابه يلفه الشك، وينتابه عدم اليقين من كونه جاء نتيجة للتأثر أم لا، ودرجة الشك هذه تتوقف على درجة التشابه، إذ كلما كان التشابه أكبر، قابله شك أقل.

وإذا كان الأمر هكذا - وهو كذلك - كان لزاماً على الباحث أن لا يُعد كل تشابه بين كلام أمير المؤمنين عليه السلام وكلام غيره من الأدباء - مدة الدراسة - أثراً للنص العلوي، كون بعض مصادر الكلاميين مشتركة، وأهمها القرآن الكريم، الذي ظهر أثره بطرقتين: أوّلُهُما مباشر عن طريق اللّفظ، والأسلوب، والغرض، والمعنى. والآخر غير مباشر وذلك حين مكّنَ العرب من الإختلاط بغيرِهِمْ من الأمم ذات الحضارة الرائعة^(١)، حتى نقلهم هذا الأثر «من حجر ضب إلى ملكٍ واسع الرّفعة مُترامي الأطراف»^(٢).

ثمَّ الحديث النبوى، الذى يُعدُّ هو الآخر منهلاً لأولئك الأدباء، ولأسباب عدّة منها: إنه نقل لنفسه ما للقرآن من أثر جليل في اللغة العربية وآدابها فصار نبتاً لذلك الغرس، أو هو مرأة عاكسة، أي أنَّ الحديث النبوى الشريف أثر في اللغة العربية بالكيفية التي أثر فيها القرآن^(٣). وكان من أوائل الذين تأثروا

(١) ينظر: أثر القرآن الكريم في اللغة العربية ١١ - ١٢ .

(٢) م. ن. ١١ .

(٣) ينظر: أثر الأدب النبوى في الأدب العربى حتى نهاية العصر الأموي ٩ .

بالقرآن الكريم أمير المؤمنين عليه السلام، فكان يسير مع القرآن «جنبًا بجنب»، يدعوه، ويهدى، ويبين^(١). مثلما تأثر بالرسول عليه السلام وقد أوضح جانباً من هذا بقوله:

«وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَبِعُهُ أَتِبَاعَ الْفَصِيلِ أَثْرَ أُمِّهِ يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عَلَمًا
وَيَأْمُرُنِي بِالإِقْتِداءِ بِهِ»^(٢).

ولكن هذا - على صعوبته - لا يمنع من معرفة الابتكارات والإبداعات التي أتّحد بها الإمام عليه السلام الأدب العربي، وتأثّرها الأدباء فيما بعد.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه بعد أن عرفنا أن النص المتأثر هو ذلك النص «الذي لم يكتب ما لم يكن صاحبه قد أطلع قبل كتابته على نصّ غيره»^(٣). فهل هذا الأثر وبأي طريقة ورد لم يكن بمقدمة عيب، ولا يتنافى مع الأصالة مثلما قال: (بول فاليري): «لا شيء أدعى إلى إبراز أصالة الكاتب وشخصيته من أن يتغذى بآراء الآخرين، فما الليث إلا عدة خراف مهضومة»^(٤). أم ينبغي من أجل الاحتفاظ بمشروعية عملية التأثير والتأثر - السير على وفق شروط وقواعد لتبتعد هذه العملية عن مفهوم السرقة؟

وحقيقة هذا أمر قيل فيه كثيراً، وأهم ما يهمنا هنا هو أن الأثر يظهر بمظاهر عدة في نتاج الأديب المتأثر، كالتضمين، والإحتذاء، والبساط، وغير هذا، والتركيز على هذه المظاهر من حيث هي وإثبات أن الأديبين المخصوصين بالدراسة سلوكها أهتم بكثير من الخوض في أن التضمين هل هو سرقة محسنة، أم إبداع؟.

(١) عليٌّ من المهد إلى اللّحد ٧٣.

(٢) نهج البلاغة ٣٤٨.

(٣) الأدب المقارن (مجدي وهبة) ١٥.

(٤) الأدب المقارن (د. محمد غنيمي هلال) ١٨.

وبعبارة أخرى «إنَّ الأخذ، أو السرقة، أو التقليد، أو الإِلْتَبَاع موجود في فنون الشر جيًعاً، ولم تقتصر على فنِّ الشعر»^(١). فكل هذه المصطلحات ومثلها يراها الباحث ولادات - سواءً أكانت شرعية أو غير شرعية - للتأثير، وإلاًّ لماذا يسرق الأديب، أو يضمِّن، أو يحتذى، أو يختزل نصًا ما، أليس لأنَّه تأثر بذلك النص ورغب في أن يكون ضمن دائرة عطائه الأدبي.

ثمَّ بعد هذا لو تمَّ تحديد الأثر يبقى هنالك سؤال مفاده هل لأنَّ هذا الأثر «متَّسِّمٌ بعدم القصدية... بشكل عفوٍ، غير مقصود»^(٢)، أم هو متَّسِّمٌ بالعفوية وعدم القصد تارةً، والقصد والوعي الكامل تارةً أخرى^(٣).

أمَّا الباحث فيرى أنَّ هذه التأثيرات - لو ثبتت - فهي مقصودة في معظمها، على اعتبار أنَّ النَّصَّ المُتأثَّر مَرَّ بمرحلتين:

الأولى:

انتقال التأثير هذا من النَّصَّ الأدبي إلى فكر المُتلقي، وإعتلاجه في صدره. وهذه المرحلة لا يُنِكِّرُ أحد كونها مقصودة، وبإراده المُتلقي، كما ويرى الباحث - أيضًا - أنَّ هذه المرحلة أَهْمٌ من لاقتها لأنَّ الأثر الذي سيُحدَّد في نصٍّ ما متوقفٌ عليها، ومرتبط بها.

الثانية:

انتقال التأثير من فكر المُتلقي إلى نصِّه الأدبي إذا كان أدبيًا. وبما أنَّه المرحلة

(١) السرقات الأدبية .٦٦

(٢) المسار النقدي .١٣٩

(٣) ينظر: قضايا الحداثة .١٥١

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الشّر العربي ٢٦
 الأولى مقصودة، فعلى الأرجح تكون الثانية مقصودة أيضًا، وإن تباعدت المدة
 الْزَّمنيَّة بين المرحلتين، وبعبارة أخرى: لا يهمنا متى حدثت المرحلة الثانية ما
 دامت تلك الصور، أو التأثيرات التي رغب بها الأدباء «كامنةً في خيلتهم، حتى
 يحينَ الوقتُ ف يؤلِّفوا منها الصُّورة التي يُريدونها»^(١).

(١) في النقد الأدبي . ١٦٧



الفصل الأول

كلام الإمام علي عليه السلام

من حيث التوثيق والتأثير

المبحث الأول

نظرة توثيقية على كلام الإمام علي عليه السلام من خلال:

أولاً: جمعه المبكر وبعض مصادره.

إن المطلع على تراث أمير المؤمنين عليه السلام يجد حقيقة لا مفر منها، وهي أن هذا الكلام أو بعضه، حفظ ودون ساعة إلقائه، وهذا نابع من أسباب عده: أهمها تأثير هذا الكلام، والتأثر به؛ لأن ما يحمله من ميزات فاقت غيره من الكلام حتمت التوجه نحوه، ودعت إلى الاهتمام به وإعطائه الأولوية منذ وقت مبكر جداً، وهذا يعني إن الشريف الرضي لم يكن هو أول من جمع كلاماً لأمير المؤمنين عليه السلام، بل سبق إلى ذلك بقرون، وأمامنا على ذلك أدلة ثلاثة:

الأول:

التصريحات الواضحة والصريمحة التي جاءت من مصادر سبقت الشريف الرضي والتي أكدت جمع كلام أمير المؤمنين عليه السلام. قال الجاحظ

(ت ٢٥٥ هـ) «هذه خطب رسول الله عليه السلام مدونة محفوظة ومخلدة مشهورة، وهذه خطب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي»^(١) وفي البيان والتبيين دون الجاحظ حكمة أمير المؤمنين عليه السلام: «قيمة كُلُّ إنسانٍ ما يُحسِنُ»^(٢) ثم علق عليها بقوله: «فلو لم نقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها كافية شافية ومحزية مغنية، بل لوجدناها فاضلة على الكفاية وغير مقصّرة عن الغاية»^(٣) فقول الجاحظ: «فلو لم نقف من هذا الكتاب...» يرى فيه الباحث من الممكن أن يكون الكتاب الذي وقف عليه الجاحظ هو أحد الكتب التي جمعت كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام، فأخذ الجاحظ منه الحكمة المذكورة، علمًا أنَّ الجاحظ هو الذي قال بأنَّ خطب علي مدونة ومحفوظة، وهذا يدلُّ بوضوح على أنَّ خطبَ أمير المؤمنين عليه السلام كانت بين يديِ الجاحظ فأخذ منها. ويمكن أن يكون الكتاب هو كتاب البيان والتبيين لكنَّ الأول هو الأصوب ويدعمه أيضًا قوله: «لو لم نقف...» ويفاد من هذه العبارة أنَّه قرأ كتاباً ووقف فيه على هذه الحكمة، وإلاً لو كان كتابه لقال: لو لم ندوِّن في هذا الكتاب، أو لو لم نُؤدي في هذا الكتاب.

بعد الجاحظ أكَّدَ لنا ابن واضح اليعقوبي (ت ٢٩٢) هذه الحقيقة بقوله: «كان علي بن أبي طالب عليهما السلام مشتغلًا أيامه كلَّها بالحرب، إلا أنَّه لم يلبس ثوباً جديداً، ولم يتخذ ضيعةً، ولم يعقد على مالٍ، إلا ما كان يبنع والبغى يغاء مما يتصدق به، وحفظ الناس عنه الخطب، فأنَّه خطب بأربعين خطبة، حفظت عنه، وهي

(١) البيان والتبيين ١/١٢٧.

(٢) م. ن ١/٦١.

(٣) م. ن ١/٦١.

التي تدور بين النّاس، ويستعملونها في خطبهم وكلامهم»^(١).

أمّا المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) هو الآخر أخصى خطب أمير المؤمنين عليه السلام فقال: «والذي حفظ الناس من خطبته فيسائر مقاماته أربعين ونيف وثمانون يوردها على البديهة وتداول الناس ذلك عنه قولًا وعملاً»^(٢).

ومن الذين أخبروا بأنّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام كان مجموعاً سبط ابن الجوزي (ت ٤٦٥ هـ) مسندًا حديثه إلى الشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) قال: «وَقَعَ إِلَيْيَّ مِنْ خُطُبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَرْبَعِمِائَةِ خُطْبَةً»^(٣).

من هذا نعرف أنّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام كان مدوّناً ومحفوظاً، بل كان فاعلاً ومؤثراً، يدور بين الناس، يستعملونه ويستشهدون به، وبطبيعة الحال سيكون للأدباء الحظ الأوفر من هذا الشأن، كونهم أصحاب مهنة ويعرفون من أين ينهلون لدعم كلامهم.

وبعد هذه الاعترافات الصريحة التي شهدت وأكّدت على تأثير كلام أمير المؤمنين عليه السلام بشكل فعال يستنتاج الباحث استنتاجاً يراه مهمّاً جدّاً، وهو كالتالي:

إنّ الذين سبقو الشريف الرّضي، أو الذين لحقوه تحدّثوا عن أعدادٍ متقاربة لخطب أمير المؤمنين عليه السلام

• ابن واضح: أربعين خطبة.

• المسعودي: أربعين ونيف وثمانون.

(١) مشاكلة النّاس لزمانهم ١٥.

(٢) مروج الذهب ٤١٩ / ٢.

(٣) تذكرة الخواص ١٢٨.

• ابن الجوزي: أربعاءة.

وهذه الأعداد على الأرجح هي أعداد الخطب والرسائل معاً إذ من غير المتوقع، وغير المعقول أن تُجْمِعَ الخطب ولم تُجْمِعِ الرسائل ولم يُتَحدَّث عنها ولا عن أرقامها.

أما الشريف الرضي فجمع في نهج البلاغة «ثلاثمائة وعشرين» بين خطبة ورسالة. وينبغي أن نأخذ بعين الإعتبار انه أقرَّ بعدم جمعه لكلام أمير المؤمنين عليه السلام كاملاً، بل قال: «كتاب يحتوي على مختار كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام»^(٤). وهذا السبب أي الاختيار القائم على الاصطفاء قلل الأعداد في نهج البلاغة عن الأعداد إلى تحدَّث عن سابقاً الرضي.

وفي العصر الحديث جاء صاحب مستدرك نهج البلاغة وأردف الخطب والرسائل التي جمعت في النهج بـ(مائة وثمان وثلاثين) بين خطبة ورسالة. أي أنَّ «عدد الخطب في نهج البلاغة (٢٤١) + عدد الخطب في مستدرك نهج البلاغة (٩٣) = ٣٣٤».

عدد الرسائل في نهج البلاغة (٧٩) + عدد الرسائل في مستدرك نهج البلاغة (٤٥) = ١٢٤.

$$\text{المجموع: } ١٢٤ + ٣٣٤ = ٤٥٨ \quad (٥).$$

إذاً الحصيلة شبه النهائية التي حصلنا عليها هي (٤٥٨) خطبة ورسالة وهذه الحصيلة التي جاءت في القرن العشرين لو قارناها بالأعداد التي صدرت في

(٤) نهج البلاغة .٨

(٥) مع المشككين في نهج البلاغة .٨٢

القرون الأولى لوجودنا بينهما قرباً قريباً جدّاً، كما هو عند:

• بن واضح: أربعين

• المسعودي: أربعين ونيف وثمانين

• ابن الجوزي: أربعين

يقابلها أربعين وثمان وخمسون من النهج ومستدركه، وهذا لم يحدث بمحض الصدفة مطلقاً، وإنما هو نتيجة طبيعية شرعية لما صدر من خطب ورسائل عن مولانا أمير المؤمنين «صلوات الله عليه»، وعلى هذا فإن العدد الحديث يدعم بشدة الأعداد القديمة، والأعداد القديمة تؤكد ما صدر حديثاً.

الثاني:

أسماء الكتب التي وصلتنا والتي اختصت بجمع كلام أمير المؤمنين عليه السلام ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

١- كتاب «خطب أمير المؤمنين عليه السلام على المنابر في الجمع والأعياد وغيرها» لزريد بن وهب الجهنمي الكوفي ت ٩٦ هـ^(١).

٢- كتاب «خطب أمير المؤمنين عليه السلام» لمسعدة بن صدقة العبدى (ت ١٨٣ هـ)، يكنى أبا محمد، روى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام (استشهد ١٤٨ هـ)، وعن أبي الحسن الكاظم عليه السلام (استشهد ١٨٣ هـ)^(٢).

وهذا الكتاب كان موجوداً في زمن السيد هاشم البحري (ت ١١٠٩ هـ)

(١) ينظر: الفهرست للطوسي ١٣١

(٢) ينظر: رجال النجاشي ٣٢٢.

ونقل عنه كثيراً في تفسير «البرهان» وذكره في مقدمة التفسير^(١).

٣. كتاب «خطب على أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني (ت ٢٢٥ هـ). وله كتب أخرى منها: كتاب رسائل النبي عليه السلام، وكتاب (المغازي)، وكتاب (السرايا)^(٢).

٤. كتاب «مائة كلمة لأمير المؤمنين» اختارها وجمعها الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ).

قال عنها الخوارزمي (ت ٥٦٨) بحديث مسنده: «قال أبو الفضل احمد بن أبي طاهر^(٣) صاحب أبي عثمان الجاحظ: كان الجاحظ يقول لنا زماناً: إنَّ لأمير المؤمنين عليه مائة كلمة، كُلَّ كلمة منها تفي ألف كلمة من محسن كلام العرب. قال: و كنت أسأله دهراً بعيداً أن يجمعها ويمليها عليَّ وكان يعذني بها ويتغافل عنها ضئلاً بها. قال: فلما كان آخر عمره أخرج يوماً جملةً من مسوداتِ مصنفاته، فجمع فيها تلك الكلمات وأخرجها إلى بخطه فكانت الكلمات المائة هذه لو كُشفَ لي الغطاء ما ازدلت يقيناً...»^(٤).

وبعد ذلك كان جمع الجاحظ لهذه الكلمات السبب المباشر في تأليف كتاب «غرر الحكم ودرر الكلم» لعبد الواحد الآمي (ت ٥٥٠ هـ)، فقد احتاجَ هذا الأخير بشدةً على الجاحظ، لإختصاره على هذه المائة فقط، لذا قال وهو يقدم

(١) ينظر: مصادر نهج البلاغة ١ / ١٤٧.

(٢) ينظر: الفهرست لابن النديم (ت ٣٨٠ هـ) ١٤٩ - ١٤٧ . وينظر: معجم الأدباء ١٣ / ١٣١.

(٣) هو أحد بن أبي طاهر كان من الكتابة البلغاء، وكان شاعراً ورواياً له كتاب بغداد المصطفى في أخبار الخلفاء ولد في بغداد سنة (٢٠٤ هـ) وتوفي بالشام سنة (٢٨٠ هـ) ينظر: تاريخ بغداد ٤ / ٤٣٣.

(٤) مناقب الخوارزمي ٣٣٨ - ٣٤٠

لكتابه المذكور: «فإنَّ الذي حداي على تخصيص فوائد هذا الكتاب... ما تبَحَّجَ به أبو عثمان الجاحظ عن نفسه... وحدَّده من المائة حكمة... التي جمعها عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه. فقلت: يا الله العجب! من هذا الرَّجل وهو علامة زمانه، ووحيد أقرانه... كيف عشَّى عن البدر المنير؟ ورضي من الكثير باليسير؟... وإنِّي مع كسوف الباٰل... جمعتُ يسيراً من قصص حكمه... يخرس البلوغ عن مساحته... سميتُه غُرر الحِكْمَ ودُرُرُ الْكَلْم»^(١).

وهذه المائة كلمة ونسبتها للجاحظ أكَّدَّها حديثاً بروكلمان واسماها «أمثال سَيِّدِنَا عَلِيٍّ، يُنْسَبُ جَمْعُهَا إِلَى الْجَاحِظِ، كَمَا رَوَى ذَلِكَ ابْنُ قَتِيبةِ فِي عِيُونِ الْأَخْبَارِ»^(٢)^(٣).

الثالث:

التأثيرات الكبيرة والكثيرة جَدًّا التي تركها كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه، بما يدلُّ على أَنَّ كلامه كان مجموعاً منذ القرن الأول للهجرة، وهذا ما ستتكلفَ الدراسة بيانِه في الفصلين القادمين.

أمّا بالنسبة للمصادر التي من المحتمل أن يكون جامعاً نهج البلاغة نقل عنها كونها روت كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه الموجود في نهج البلاغة فهي كثيرة جَدًّا. وقبل الحديث عن بعضها تجدر الإشارة إلى أمرين مهمين هما:

(١) غُرر الحِكْمَ ودُرُرُ الْكَلْم . ١٤

(٢) بعد الرجوع إلى كتاب (عيون الأخبار) لم أجده فيه فأمّا بروكلمان أشتبه في إسم الكتاب الذي نقلَ عنه وإنَّما يُدْعَى عبيث بالكتاب. وعلى كُلِّ الأحوال فإنَّ كتاب (المائة كلمة) مطبوع ومتوفر بالمكتبات.

(٣) تاريخ الأدب العربي / ١٧٩ .

١- إنّ الشريف الرضي عندما جمع كلام أمير المؤمنين عليه السلام وأودعه في الكتاب الذي أسماه (نهج البلاغة) لم يُرد له أن يكون كتاباً فقهياً أو تاريخياً مدعوماً بالأسانيد والأحداث وتواريختها، بل أراد له أن يكون كتاباً أدبياً ومثلكما قال هو: «يتضمن من عجائب البلاغة، وغرائب الفصاحة، وجواهر العربية...»^(١) علمًا أنّ الرضي لم يكن عاجزاً عن ذكر تلك الأسانيد. ودليل الباحث على ذلك أنّ الرضي نفسه وفي كتابه خصائص أمير المؤمنين كان قد ذكر كلاماً عن أمير المؤمنين عليه السلام مع سنته التام، فقال: «ومن كلامه عليه السلام لكميل بن زياد النخعي على الثمّام حدثني هارون بن موسى قال: حدثنا أبو علي محمد بن همام الإسکافي قال: حدثنا أبو عبد الله جعفر بن محمد الحسيني قال: حدثنا محمد بن علي بن خلف قال: حدثنا عيسى بن الحسين بن عيسى بن زيد العلوى عن إسحاق بن إبراهيم الكوفي عن الكلبى عن أبي صالح عن كميل بن زياد النخعي قال: أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فأخرجنى إلى الجبانة، فلما أصرح تنفس الصعداء، ثم قال: يا كميل بن زياد، إنّ هذه القلوب أوعية، فخيرها أو عاها، فأحفظ عنّي ما أقول لك: الناس ثلاثة...»^(٢).

بينما في نهج البلاغة ذكر الرضي هذا الكلام مرفوعاً إلى كميل بن زياد دون المرور بهذا السنن «قال كميل بن زياد: أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فأخرجنى إلى الجبانة...»^(٣).

(١) نهج البلاغة .٨

(٢) خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام .٨٦

(٣) نهج البلاغة .٥٧٨

وحقيقة ومن جانب الذوق الأدبي لو كانت هكذا أسانيد في نهج البلاغة لذهب من متعته ورونقه الكثير، كون القارئ يبقى منشغلًا بهذه العنعة الملأة إلى حد ما، والتي تؤثر سلباً على التلقى، لأنّ المتلقى يريد التفاعل مع النص وما يشيره فيه من عاطفة وخیال... بعيداً عن هكذا أسانيد هي ليست من وکده، ولعلّ الرضي كان متبنّهاً لذلك، كونه أدیباً يعرف أين تتحقق المتعة الأدبية كاملة، في أيّ طریقة، وأيّ نصّ.

٢- إنَّ الكتب التي كانت متوفرة بين يدي الرضي، أو في زمانه لا يمكن التكهن الدقيق بإعدادها وأسمائها، لأنها كانت كثيرة جدًا من جهة. ولم يبق منها إلَّا صباة كصباة الإناء من جهةٍ أخرى. فقد كانت لأخيه السيد المرتضى (ت٤٣٦هـ) مكتبة تحتوي على ثمانين ألف كتاب، ولكنها دُمِرت من قبل السلاجقة^(١)، مثلما أحرقت قبل هذه مكتبة الصاحب بن عباد (ت٣٨٥هـ) التي كانت فهارسها فقط عشر مجلّدات^(٢). أما مكتبة (دار العلم) التي أسسها سابور^(٣) بن أردشير (ت٤٥٠هـ) والتي كانت من أغنى دور الكتب في عاصمة العباسيين، فقد تعرضت هي الأخرى للإحراق^(٤)، قال عنها الحموي (ت٦٢٦هـ): «لم يكن في الدنيا أحسنُ كتبًا منها كانت كلها بخطوط الأئمة المعترة وأصولهم المحرّرة، واحتقرت فيها أحراق من

(١) ينظر: المحرقة الكبرى. ١١٠.

(٢) ينظر: م. ن. ١٢٩.

(٣) هو سابور بن أردشير وزَرَ لبهاء الدولة أبي ناصر بن عضد الدولة ثلاث مَرات وكان كاتباً شديداً أنسن في بغداد مكتبة أسمها دار العلم فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد أحرقت عند مجيء طغرل بك. توفي ببغداد سنة ٤٥٠هـ. ينظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. ٤٩ / ١٦.

(٤) ينظر: الشافي في الإمامة ١ / ١٠.

محال الكرخ عند ورود طغرل بك أول ملوك السلجوقية إلى بغداد سنة ٤٧٤هـ^(١)، وإلى هذا المصير أيضاً ذهبت كتب الفاطميين التي بلغ عددها مليون وستمائة ألف كتاب^(٢).

ومن هذه الأمثلة ما أورده صاحب كتاب شذرات الذهب في معرض ترجمته للإمام الصادق عليه السلام، فقال: «..الإمام سلالة النبوة أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق بن الإمام محمد الباقر... قد ألف تلميذه جابر بن حيان الصوفي كتاباً في ألف ورقة يتضمن رسائله وهي خمسين رسالة»^(٣) ولكن لم يصلنا لا الكتاب ولا الخمسين رسالة.

والذي يهم الدراسة من هذه المجازر التي تعرضت لها أمات المصادر العربية هو كم هي الكتب التي كانت بين يدي الشريف الرضي، والتي قرأها وأخذ عنها؟ ثمَّ كم هو العدد الذي وصلنا منها؟ أليس «الباقي من الكتب التي ألفها المسلمون..إلا نقطة من بحر ما أحرقه الصليبيون، والتر،...»^(٤).

وإذا كان الأمر هكذا فهل يُلام أحد إذا بقيت خطبة أو خطبتان من نهج البلاغة لم يُثغر عليها في كتاب سبق النهج؟ والأعجب من ذلك أن هناك كتاباً جاءت بعد النهج بمئات السنين لم يطالها أحد بسند، بل ما جاء فيها يؤخذ به وبدون تشكيك خذ مثلاً كتاب صبح الأعشى وصاحبه

(١) معجم البلدان / ١ / ٥٣٤.

(٢) ينظر: تاريخ التمدن الإسلامي / ٣ / ٢٣١. وعن هذا الموضوع أيضاً ينظر: مصادر نهج البلاغة

.٢٦ / ١ - ٣٧.

(٣) شذرات الذهب .٢٢٠.

(٤) المحرقة الكبرى .١٤١.

وعلى أية حال فلما ظهرت هذه الشبهة حديثاً - شبهة المصادر. إنبرى لها من الباحثين وذكروا للنهج من المصادر الكثيرة ومنهم: عبد الزهراء الكعبي في كتابه «مصادر نهج البلاغة وأسانيده» إذ ذكر فيه مائة وتسعة مصادر لنهج البلاغة^(١). وكذلك الدكتور إبراهيم السامرائي في كتابه (مع نهج البلاغة دراسة ومعجم) فكان قد جعل لنهج البلاغة ذكرًا من سبعة مصادر^(٢)، ولكن مصادر السامرائي ليست فيها زيادة تذكر على مصادر الكعبي.

أما الباحث فيردف تلك المصادر بمصدرٍ واحدٍ وهو كتاب «التعازي والمراثي» للمبرد(ت ٢٨٥). فقد ذكر المبرد في هذا الكتاب مقطوعات كثيرة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام كان قد دوّنها الشريف الرضي في نهج البلاغة ومن ذلك: «قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه للأشعث بن قيس^(٣) وقد عزّاه عن ابن له يا أشعث، إن تخزع على ابنك فقد أستحقّت ذلك منك الرحم، وإن تصرّف في الله الخلف - يا أشعث -، إنك إن صبرت جرى عليك القدر وأنّت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنّت مازور»^(٤). فهذا الكلام موجودٌ في نهج البلاغة مع تغيير طفيف^(٥). وغير هذا فقد استشهد المبرد بحکم لأمير المؤمنين عليه السلام في

(١) ينظر مصادر نهج البلاغة وأسانيده ٢٧-٣٧.

(٢) ينظر: مع نهج البلاغة دراسة ومعجم ٣٠.

(٣) هو معد يكرب بن قيس وسمى الأشعث لشعش رأسه وهو من كندة أنجب محمدًا شرك في مقتل الإمام الحسين عليه السلام وجعده التي سمت الحسن عليه السلام وهو شرك في قتل أمير المؤمنين عليه السلام. ينظر: طرائف المقال ٣/١٦٥. وينظر: الكنى والألقاب ٢/٣٤ - ٣٥.

(٤) التعازي والمراثي: ٢٠٥-٢٠٦.

(٥) ينظر: نهج البلاغة ٦٠٦.

مواطن عدّة^(١) دوّنت فيما بعد في (نهج البلاغة)، فمن الممكن رجع الشريف الرضي إلى هذا الكتاب وأخذ منه تلك الحكم، أو إلى غيره.

ثانياً: التشكيكات فيه:

لعلّ الحديث عن الشكوك التي أثيرت على كلام الإمام علي عليه السلام يُعدّ من نافلة القول، ولكن بعد أن عنت للباحث مسائل تتعلق بهذا الأمر وتسهم في الدفاع عن حياض كلام أمير المؤمنين عليه السلام بحضور ما أثير من شبه حول كلامه عليه السلام وبخاصة المجموع منه في نهج البلاغة، سجّلها معزّزاً إياها بردود سابقة.

قبل الخوض في هذه الشكوك، وإلى كلّ من ألقى السّمع وأصبح شهيداً ينبغي الإلتفات إلى سببين يُددان كلّ الإثارات التي أثيرت حول كلام الإمام عليه السلام لحصتها الدكتور زكي مبارك بقوله: «عندنا في هذا المقام مشكلتان: الأولى عقريّة على بن أبي طالب عليه السلام، عقريته الخطابية والإنسانية، والثانية ضمير الشريف الرضي... فقد كان معروفاً إنَّ ابنَ أبي طالب له مجموعة من الخطب تحدّث عنها الجاحظ في مطلع القرن الثالث، وهل يعقل أن تضيع آثار ابن أبي طالب ضياعاً مطلقاً وكان في زمانه وبشهادته خصومه من أفضح الخطباء، فأين ذهبت آثاره في الخطابة والإنساء؟ وهل يعقل أن تضيع آثاره وحوله أشیاع يحفظون كلَّ ما يُنسب إليه؟ هل يعقل أن يحفظ الناس أشعار العابثين والماجنين من أهل العصر الأموي وينسوا آثار خطيب قتلَ بسيفه الوفاً من أبطال الحروب؟ ومن الذي يتصور أنَّ الذاكرة العربية تحفظ أشعار النصارى واليهود وتنسى خطب الرجل الذي غسلَ بدمه في يومٍ من أيام الفتنة؟... أما ضمير الشريف الرضي فهو عندي فوق الشُّبهات، وهو خدم التشريع بالصدق لا بالإفتراء، فإنْ كان جمع

(١) ينظر: التعازي والمراثي ٢، ٩٧، ١١٨، ٢٠٦، ٣٠٢.

آثار علي بن أبي طالب لله خدمة سياسية لمذهب التشيع فهو ذلك ولكنها خدمة بأسلوب مقبول، هو إبراز آثار أمير المؤمنين لله، ولا يُعاب على الرجل أن يخدم مذهبة السياسي بجميع الوسائل والأساليب ما دام في حدود العقل والذوق»^(١).

إذاً هنالك دعامتان أساسيتان تمنعان وتبعدان الشكوك هما:

١- عبرية الشخص الذي جمع كلامه، وقدرته على الإبداع في كل حين، وكل موضوع.

٢- وثاقة ونراة الشخص الذي جمع هذا الكلام.

٣- ثم نردفها بثالثة وهي حفظ الكتاب - نهج البلاغة - من الدس والتحريف؛ لأن النسخة التي وصلت إلى عبد الحميد المعزلي (ت ٦٥٦هـ) واعتمدها في شرحه هي بخط الرضي نفسه^(٢)، فضلاً عن أن هناك نسخاً موجودة اليوم لنهج البلاغة منها في مكتبة السيد محمد الطباطبائي في طهران وتاريخها (١٢٥هـ) وغيرها^(٣).

وعليه فالكتاب سالم من التحريف، والجامع موثوق، ومنشئ الكلام عبري، إذاً من أي باب يدخل الشك؟.

وما دام ورد ذكر وثاقة الرضي يوّد الباحث عمل مقارنة سريعة بين جامع النهج (الرضي)، وبين باذر بذرة التشكيك الأولى (ابن خلkan ت ٦٨١)؛ ليتبين منْ منهم يستحق التصديق والإتباع؟

(١) عبرية الشريف الرضي / ١ - ٢٢٣ - ٢٢٢.

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ١٩، ٢٠ / ٣٧٤.

(٣) ينظر: نهج البلاغة لمن ٤٥ (المأمش).

أمّا الشّريف الرّضي، فـما قاله عنه الدكتور زكي مبارك: من أنّ ضميره فوق الشّبهات، هو أمر مسلّم به، معروف قدّيماً، يجتمع عليه عند أهل العلم. قال العالبي (ت ٤٢٧هـ) وهو من معاصر الرّضي: «هو أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام... وهو اليوم أبدع أبناء الزمان، وأنجب سادة العراق، يتحلّى مع محتده الشريف، ومفخره المنيف، بأدب ظاهر وفضل باهر، وحظٌ من جميع الناس وافر، ثمّ هو أشعر الطالبيين، من مضى منهم ومن غير على كثرة شعرائهم... ولو قلت إنّه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق»^(١). وكان ابن أبي الحديد يسميه عدلاً وقال عنه: «خبر العدل معهول به»^(٢).

وأمّا ابن خلكان، فقد قال عنه الصّفدي (ت ٧٦٤)، وابن شاكر الكبيّ (ت ٧٦٤هـ)، وهما أقرب أصحاب التراجم له زمناً وفكراً: «وكان له ميل إلى بعض أولاد الملوك ولهم فيه الأشعار الرائعة، يقال إنه (...)^(٣)

ثم قال الصّفدي: أخبرني.. القاضي جمال التبريزـي... قال: كان الذي يهواه القاضي شمس الدين هو الملك المـسعود، وكان قد تـيمـه حـبـه فكـنتـ أـنـامـ عـنـهـ فيـ العـادـلـيـةـ فـتـحـدـثـنـاـ فـيـ بـعـضـ الـلـيـلـيـاتـ إـلـىـ أـنـ رـاحـ النـاسـ مـنـ عـنـهـ فـقـالـ لـيـ نـمـ أـنـتـ،ـ وـأـلـقـىـ عـلـيـ فـرـوةـ،ـ وـقـامـ يـدـورـ حـوـلـ الـبـرـكـةـ فـيـ الـعـادـلـيـةـ وـيـكـرـرـ هـذـيـنـ الـبـيـتـيـنـ إـلـىـ أـنـ أـصـبـحـ وـتـوـضـأـ وـصـلـيـنـاـ.ـ وـالـبـيـتـانـ المـذـكـورـانـ:

(١) يتيمة الدهر / ٣ / ١٥٥.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ١٨ / ٣٢٨.

(٣) الخبر لا يليق ذكره هنا.

أنا والله هالك آيس من سلامتي

أو أرى القامة التي قد أقامت قيامتي

ويقال إنّه سأّل بعض عما يقوله أهل دمشق عنه فاستعفاه فألحَ عليه فقال:
يقولون إنّك تكذب في نسبك، وتأكل الحشيشة، وتحب الغلمان، فقال: أمّا
النسب والكذب فيه فإذا كان ولا بدّ منه فكنت أنتسب إلى العباس، أو إلى
علي بن أبي طالب، أو إلى أحد الصحابة، وأمّا النسب إلى قوم لم يبق لهم بقية
وأصلهم فرس مجوس فما فيه فائدة، وأمّا الحشيشة فالكلُ ارتكاب محْرّم، وإذا
كان ولا بد فكنت أشرب الخمر لأنّه أللّد، وأمّا محبة الغلمان فإلى غدِ أجيبك عن
هذه المسألة»^(١)

نخلص من النص إلى ما يأتي

١- كان لابن خلكان ميلٌ شديد للغلمان !

٢- لم يجد ابن خلكان لنفسه نسبًا معينًا، بل كان يخier نفسه حسبما قال مرّة
لابن عباس وأخرى لأمير المؤمنين عليه السلام أمّا المجوس فلم ينتسب لهم لأنّ ذلك
ليس فيه فائدة !

٣- كان يفضل الخمرة على الحشيشة؛ لأنّ الأولى أللّد !

وفعلاً لم يتعرض لتراث أمير المؤمنين عليه السلام ويقبح فيه إلا هكذا نهادج. ولم
يدافع عنه إلا الشرييف الرضي وأمثاله.

وعلى الرغم من ذلك ينبغي الوقوف على بعض التشكيكات، والتي منها:

(١) الوافي بالوفيات ٧/٢٠٣ - ٢٠٤، وينظر: فوات الوفيات ١/١٥٥ - ١٥٦.

الوقفة الأولى

وقفة مع المشككين الرواد وتشكيكاتهم

مثلياً سبق، وبحسب المصادر التاريخية يُعد ابن خلkan رائداً لبذرء التشكيك في كلام أمير المؤمنين عليه السلام المجموع في نهج البلاغة، وذلك بقوله: «وقد اختلف الناس في كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، هل هو جمعه - أي المرتضى - أم جمع أخيه الرضا». وقد قيل أنه ليس كلام علي، وإنما الذي جمعه ونسبه إليه هو الذي وضعه، والله العالم»^(١).

وكلام ابن خلkan هذا مردود بنظر الباحث من وجوه عدّة منها:

أ - إن هذه التهمة قائمة على عبارتين وهما في الحقيقة مجهولتين بوضوح «وقد اختلف الناس - وقد قيل». من هؤلاء الناس الذين اختلفوا أو قالوا؟ لماذا لم يتكلموا هم؟ ولماذا لم يذكر ابن خلkan أسماءهم وتصرّيّحاتهم دعماً لحجته وهو المؤسس ومن ثم يكون بحاجة ماسةً لمن يدعمه ويعضد ما ذهب إليه؟

ب - أين الأدباء والنقاد الذين سبقو ابن خلkan، ثم أين الأدباء والنقاد العابقة الذين عاصروا الرضا أو جاؤوا بعده؟ إذ المدة التي تفصل نهج البلاغة عن أول تشكيك هي ما يقارب ٢٨٠ عاماً؛ لأن النهج ألف في تمام المائة الرابعة للهجرة، وابن خلkan (ت ٦٨١هـ) علمًا أن هذه المدة المديدة عرفت من الأدباء، والنقاد، وأصحاب الذوق ما أعجز الدهر أن يأتي بمثلهم فكيف خفي عليهم ذلك؟

(١) وفيات الأعيان ٣/٣١٣.

ج - ليس في كلام ابن خلkan شيء واضح يستطيع أحد الرد عليه إلا قوله: «هل هو جمعه أم جمع أخيه» وفي هذه العبارة اعترف ابن خلkan من حيث يدري أو لا يدري بأن الكلام هو ليس من إنسانهما، بل هو من جمع أحدهما هذا أولاً، ثانياً: إن نهج البلاغة مثبت ومؤكّد جمعه من قبل الشريف الرضي، وبشهادة الرضي نفسه إذ قال في كتابه (حقائق التأویل): «... فلينعم النظر في كتابنا الذي الفناه ووسمناه بـ«نهج البلاغة»»^(١). وقال في كتابه (المجازات النبوية): «وقد ذكرناه... في كتاب نهج البلاغة»^(٢) هذا فضلاً عن مقدمته التي قدم بها للنهج. ثم شهادة معاصريه كالنجاشي (ت ٤٥٠ هـ) الذي قال في ترجمة الرضي «محمد بن الحسين بن موسى... له كتب، منها: حقائق التنزيل،... كتاب نهج البلاغة»^(٣) وشهادة المعاصرین ومنهم شوقي ضيف - الذي يُعدّ من أشد المشككين - الذي قال: «فالكتاب من عمل الشريف الرضي»^(٤).

وبعد ابن خلkan سارَ منْ سار على نهجه ومنهم الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) الذي قال في ترجمته للشريف المرتضى: «علي بن الحسين العلوى الحسيني الشريف المرتضى المتّكلم الرافضي المعترلي... ولـنقابة العلوية، ومات سنة ست وثلاثين وأربعينائة.. وهو المتّهم بوضع نهج البلاغة.. ومن طالع نهج البلاغة جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين علي (رضي الله عنه).. ففيه السبّ الصراحت على السيدين أبي بكر، وعمر رضي الله عنهم، وفيه التناقض والأشياء الركيكة،

(١) حقائق التأویل . ١٦٧

(٢) المجازات النبوية . ٣٩١

(٣) رجال النجاشي . ٣٩٨

(٤) الفن ومذاهبه في الشّعر العربي . ٦٢

..... أثر كلام الإمام علي عليه السلام في التحرير العربي

والعبارات التي مَنْ له معرفة بنفس القرشين الصحابة ونفس غيرهم ممن يعدّهم من المتأخرين جزم بأنَّ الكتاب أكثره باطل^(١).

وهذا مردودٌ أيضًا بال التالي:

أ - أممًا تهمة الخلط بين مَنْ جمع النهج فقد عرفتها سابقاً.

ب - المرتضى لم يكن معتزلياً، بل هو من علية أتباع مدرسة أهل البيت، وإنَّ كيف «ولي نقابة العلوية» مثلما قال الذهبي نفسه، ثم أليس الذهبي هو من قال في كتاب آخر له - عن المرتضى: «عالم الإمامية أبو طالب علي بن الحسين... الشريف المرتضى»^(٢). إذًا فما هذا التناقض عند الذهبي بين كتاب وآخر؟ مرّة يعدّ المرتضى علوياً رافضياً إمامياً، وأخرى يعدّه معتزلياً؟

ج - ليس في الكتاب أية ركاكة في العبارة، بل الذين طلب الذهبي الرجوع إليهم أو قال عنهم إنَّهم لهم «معرفة بنفس القرشين..» ذهبوا، بل أجمعوا على خلاف ما ادعاه الذهبي تماماً، سواءً في القديم أو الحديث. قال ابن أبي الحديد في وحدة كلام أمير المؤمنين عليه السلام الأسلوبية وتناسقه من أوله إلى آخره: «مَنْ قد أنس بالكلام والخطابة، وشدا طرفاً من علم البيان، وصار له ذوقٌ في هذا الباب لا بُدَّ من أن يفرق بين الكلام الركيك والفصيح، وبين الفصيح والأفصح، وبين الأصيل والمولَّد،... ألا ترى إنَّا مع معرفتنا بالشعر ونقدِّه، ولو تصفّحنا ديوان أبي تمام، فوجدنا قد كتب في أثناءِ قصائد أو قصيدة واحدة لغيره، لعرفنا بالذوق مبaitتها لشعر أبي تمام ونَفْسه، وطريقته ومذهبِه في القريض، ألا ترى أنَّ العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولة إليه، لمبaitتها لمذهبِه

(١) ميزان الاعتدال / ٣ / ١٢٤.

(٢) تذكرة الحفاظ / ٣ / ١٠٩.

في الشعر... وأنت إذا تأمّلت «نهج البلاغة» وجدته كله ماءً واحداً، وأسلوباً واحداً، كالجسم البسيط الذي ليس بعض من أبعاضه مخالفًا لباقي الأبعاض في الماهية، وكالقرآن العزيز، أوله كأوسطه، وأوسطه كآخره»^(١).

أما في العصر الحديث فقد علت الأصوات التي أكدّت هذه الميزة في نهج البلاغة، فقد قال محمد محيي الدين عبد الحميد: «ليس من شك عند أحد في ذلك، وليس عند أحد في إنّ ما تضمنه الكتاب جارٍ على النهج المعروف عند أمير المؤمنين عليه السلام، موافق للإسلوب الذي يحفظه الأدباء والعلماء من كلامه الموثوق بنسبيته إليه»^(٢)، حتى عُدّت الوحدة الإسلوبية هذه في كلام أمير المؤمنين عليه السلام سندًا قوياً على صحة كلام الإمام وصدوره القطعي عنه عليه السلام، إذ قال الأستاذ الهنداوي: «لا نكاد نرى كتاباً انفرد بقطعات مختلفة يجمعها سلك واحد من الشخصية الواحدة والإسلوب الواحد، كما نراه في نهج البلاغة، لذلك نقرر ونكرر إنّ النهج لا يمكن أن يكون إلاً لشخصٍ واحدٍ نَفَخَ فيه نفس واحد»^(٣).

هذا هو طرفٌ من شهادات أولئك الذين قال عنهم الذهبي لهم معرفة بنفس القرشيين من الصحابة وغيرهم، لكن رياحهم جاءت تماماً بها لا تشتهيه سفينةٌ شَكَّهُ، وكان الأجرد بالذهبي أن يستشهد ولو بعبارة واحدة من تلك التي وصفها بالرّكيكة حتى يثبت ما ادعاه، ويجعل القارئ على بيّنة من ذلك.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد /١٠٤٣.

(٢) مجلة تراثناع /١٠٣١.

(٣) فضائل الإمام علي ٧٢ (الهامش).

إذاً فنهج البلاغة ينتظم بأسلوب واحد رفيع المستوى، ومن طرازٍ خاصٍ، لا يصدر إلا عن واحد، ولا يستطيع أحدٌ أن يتقمصه.

ثمَّ من هذا الذي وصل إلى هذا المستوى وكتب بإسلوب وببلاغة لا يُميِّزان عن كلام أمير المؤمنين عليه السلام؟ لماذا لا يُظهر نفسه حتى ينال من الخلود ما ناله أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الجانب؟ بل كيف خفي قدِيمًا ولا يزال مخفياً عند قوم لا يخفى عليهم هكذا أمر لشدة تقدسيهم له؟

ومن المناسب هنا إيراد رأي الأمير شكيب أرسلان لما سُئلَ عن صحة ما في نهج البلاغة، فقال: «إذا كان نهج البلاغة موضوعاً فمن هو واضعه؟ هل هو الشريف الرضي؟ فقالوا له: نعم. فقال: إنَّ الشريف الرضي لو قُسِّمَ أربعين رجلاً ما استطاع أن يأتي بخطبة واحدة قصيرة من خطب نهج البلاغة، أو جملة من جمله»^(١).

د - لم يكن في نهج البلاغة السب الصراف مثلما قال الذهبي، لكنه أشار بكلامه هذا إلى الخطبة الشقشيقية، التي قال عنها الدكتور إبراهيم السامرائي - وهو من طائفة المشككين طبعاً -: «وليس لدارسي أن يقول أن الشقشيقية ليست على، بل هي له، وهي تشير أشارات صريحة إلى ما كان يعتلج في نفسه مما يشعر أن حقَّه قد سُلِّب»^(٢).

والشقشيقية من خطبه وقد أكدتها المؤرخون وبطريق متعددة. قال ابن الحشاب^(٣) (ت ٦٧٥هـ): «وإني لأعلم أمْهَا كلامه - يعني الإمام علي - والله لقد

(١) أعيان الشيعة / ١ / ٥٤٠.

(٢) مع نهج البلاغة دراسة ومعجم ١٠.

(٣) هو عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن الحشّاب، كان أعلم أهل زمانه بال نحو وكانت له =

ووقفت على هذه الخطبة في كُتُبٍ صُنِّفتْ قبل أن يُخلقَ الرضي بهائِي سنة، ولقد وجدتها مسطورة بخطوطٍ أعرفها، وأعرف خطوطَ مَن هو من العلماء وأهل الأدب قبل أن يُخلقَ النقيب أبو أحمد والد الرضي^(١)، وبعد ذلك قال ابن أبي الحديـد: «قد وجدت أنا كثيـراً من هـذه الخطـبة في تصـانيف شـيخنا أبي القـاسم البـلخي^(٢)... ووجـدت أيضـاً كثـيراً منها في كتاب أبي جـعفر^(٣) بن قـبة أحد مـتكلمي الإـمامـية وـهو الـكتـاب المشـهور المعـرـوف بـكتـاب (الـإـنصـاف)^(٤)»

أمـا الـباحث فـيؤكـد هـذه الخطـبة من خـلال طـريق آخر لا يـقبل الضـلال أـيضاً، وـهو اـعتمـاد بعض أـصـحـابـ المـعـجمـاتـ الـلـغـويـةـ عـلـى بـعـضـ فـقـرـاتـهـ، وـهـذا دـلـيلـ عـلـى صـدـورـهـ مـنـ الـمـنـبـعـ الـمـؤـسـسـ الـأـصـيـلـ لـلـكـلامـ الـعـرـبـيـ، وـهـذا السـبـبـ دـعـاهـمـ لـلـإـسـتـشـهـادـ بـكـثـيرـ مـنـهـ. وـمـنـ تـلـكـ المـعـجمـاتـ التـيـ عـثـرـنـاـ فـيـهـاـ عـلـى بـعـضـ مـنـ

=معرفة بالحديث واللغة والفلسفة والحساب والهندسة. روى كثيراً من الحديث، صنفَ الرد على الحريري في مقاماته. وشرح اللمع لابن جني ولم يتمه وغيرهما كثير توفي سنة (٥٦٧هـ) ينظر: الوافي بالوفيات ١٧ / ١١.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديـد ١٥٨ / ١.

(٢) هو عبد الله بن أحمد بن محمود يكنى أبا القاسم من متكلمي المعتزلة، وأسس طائفة عندهم تسمى بالكتعيبة. أقام ببغداد ثم عاد إلى بلخ فأقام بها وتوفي هناك (سنة ٣١٩هـ). ينظر: تاريخ بغداد ٣٩٢ / ٩. وينظر: وفيات الأعيان ٣ / ٤٦.

(٣) هو محمد بن عبد الرحمن بن قبة الرazi متـكلـمـ عـظـيمـ الـقـدـرـ حـسـنـ الـعـقـيدـةـ، قـوـيـ الـكـلامـ كـانـ مـعـتـزـلـيـاـ ثـمـ أـصـبـحـ إـمـامـيـاـ. لـهـ كـتـبـ عـدـدـ مـنـهـ (الـمـسـتـبـتـ) وـ (الـإـنـصـافـ فـيـ الـإـمامـةـ) نـقـلـ مـنـهـ الشـيـخـ المـفـيدـ فـيـ كـتـابـ الـعـيـونـ وـالـمـحـاسـنـ. يـنـظـرـ: مـعـجمـ رـجـالـ الـحـدـيـثـ ١٦ / ١٣٦ـ، وـيـنـظـرـ: مـعـجمـ الـمـؤـلـفـينـ ١٠ / ١٨٤ـ - ١٤٩ـ.

(٤) شـرحـ نـهجـ الـبـلـاغـةـ ١٥٩ـ / ١.

فقرات الخطبة الشقشيقية:

١- النهاية في غريب الحديث، فقد ذكر منها:

- «حديث عليٌّ في خطبته له: تلك شقشقة هدرت ثم قرَّت»^(١).

- «حديث عليٌّ رضي الله عنه: أصول بيد جذاء»^(٢).

- «حديث عليٌّ: والناس حولي كربلاية الغنم»^(٣).

٢- لسان العرب، فقد ذكر منها:

- «وفي حديث عليٍّ (رضوان الله عليه) في خطبته له تلك شقشقة هدرت ثم قرَّت»^(٤).

- «وفي حديث عليٍّ كرم الله وجهه: أصول بيد جذاء»^(٥).

- «وفي حديث عليٍّ رضي الله عنه: والناس حولي كربلاية الغنم»^(٦).

٣- القاموس المحيط، فقد جاء فيه: «والخطبة الشقشيقية العلوية لقوله، لابن عباس، ... هيئات، تلك شقشقة هدرت ثم قرَّت»^(٧).

٤- تاج العروس، استشهد ببعضها فقال:

(١) النهاية في غريب الحديث / ٢ ٤٩٠. (باب الشين مع القاف).

(٢) م. ن / ٢٥٠ (باب الجيم مع الذال).

(٣) م. ن / ٢ ١٨٥. (باب الراء مع الباء).

(٤) لسان العرب / ١٠ ١٨٥ مادة (شقق).

(٥) م. ن / ٣ ٤٧٩ مادة (جذذ).

(٦) م. ن / ٧ ١٥٣ مادة (رض).

(٧) القاموس المحيط / ٣ ٢٥١.

- «والخطبة الشقشيقية: وهي الخطبة العلوية... سميت بذلك: لقوله لابن عباس رضي الله عنهم ... يا ابن عباس هيئات، تلك شقشقة هدرت ثم قرّت»^(١).

- «وفي الحديث: كرببضة الغنم»^(٢).

وصاحب المعجم المذكور هنا اكتفى بقوله: وفي الحديث دون أن ينسبه لمن. ولكنُهُ عُرِفَ ممّا مضى.

- «وفي حديث عليٍّ رضي الله عنه: أصول بيد جذاء»^(٣).

٥- المعجم الوسيط: «ويقال: شقشقة هدرت ثم قرّت»^(٤).

وأصحاب هذا المعجم لم يذكروا صاحب هذا القول وأكتفوا بـ(يُقال)، وبحسب ظنيّ الأمر يعود إلى أن من بين مؤلفي هذا المعجم هو الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات، والزيارات هو من المشككين بكلام أمير المؤمنين عليه السلام ولهذا ذكر هذه الكلمات لأهميتها دون ذكر قائلها حتى لا يكون حجة على المشككين هو وغيره.

هذا هو ذكر بعض المعجمات وبعض الجمل التي أخذت من الخطبة الشقشيقية.

ومن أولئك الذين وثّقوا هذه الخطبة وأكّدوا عليها هو ابن الجوزي

(١) تاج العروس ١٣ / ٢٥٠ باب (شفلق).

(٢) م. ن ١٠ / ٥٧ باب (ربض).

(٣) م. ن ٥ / ٣٥٤ باب (جذ).

(٤) المعجم الوسيط إبراهيم مصطفى وآخرون ١ / ٤٩١ (باب الشين). وينظر: المعجم الوسيط

إبراهيم أنيس وآخرون ١ / ٤٨٩ (باب الشين).

(ت ٦٤)، الذي قال عنها: «ذكر بعضها صاحب نهج البلاغة وأخلَّ بالبعض، وقد أتيتُ بها مستوفاة: أخبرنا بها شيخنا أبو القاسم التفيس بإسناده عن ابن عباس قال: لما بُويعَ أمير المؤمنين عليه السلام بالخلافة ناداه رجل من الصف وهو على المنبر: ما الذي أبطأك إلى الآن؟ فقال بيديهَا: أما والله لقد تقمصها فلان وهو يعلم أنَّ محلَّ منها محلُ القطب من الرَّحَا... الخ الخطبة»^(١).

و واضح هنا من كلام سبط ابن الجوزي إنَّه مطلع على الخطبة من غير طريق نهج البلاغة، بل هي برواية شيخه أبي القاسم وبسند إلى عبد الله بن عباس، ثمَّ بعد المقارنة التي أجراها سبط ابن الجوزي بين الخطبتين، أي الخطبة التي عنده والخطبة التي دونها الرضي في نهج البلاغة خرج بمحصلة هي إن الرضي لم ينقلها كاملةً بل «ذكر بعضها... وأخلَّ ببعض».

ومن المناسب هنا أن نقف مع ما ذكره الأستاذ الكبير أحمد زكي صفوت حول الخطبة، وبعد ما ذكره - أي الأستاذ - من كلام ابن أبي الحديد السابق الذكر حول الخطبة صرَّح قائلاً: «من ذلك يتبيَّن لك أن الشقشيقية كانت معروفة قبل مولد الرضي من أكثر من طريق. فلا تبعة إذن عليه، ولا سبيل إلى إتهامه بإ衲تحالها ولكنَّا مع ما نرى فيها من جزالة اللفظ، وروعَة الأسلوب التي تغرينا أن ننظمها مع كلام علي في سلك واحدٍ. نتراجع حين يبدو شَبُّух الشك ماثلاً فيها...»^(٢).

فما جاء في ذيل كلام الأستاذ فيه من الغرابة شيء؛ فالأستاذ هنا يقرُّ بأنَّها كانت موجودة قبل الشريف الرضي، ثم جاء الرضي وأكَّدَها هذا من ناحية

(١) تذكرة الخواص ١١٧.

(٢) ترجمة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ١٣٤.

السند والرواية التاريخية. أمّا من ناحية الأسلوب فقد رأى الأستاذ أنها دخلة ضمن إسلوب الإمام وطريقته. ولكن مع هذا كله لماذا تراجع الأستاذ الكبير؟ ثم أي دليل تقتضيه الوثاقة أكثر من الدليلين اللذين ذكرهما هو: الرواية التاريخية، وموافقة الأسلوب؟

الوقفة الثانية

وقفة مع شبهة الطول في كلام الإمام علي

اتّخذ بعض الباحثين الطول الذي ورد في بعض خطب أمير المؤمنين (عليه السلام) كالخطبة المسماة بالقاصعة وبعض رسائله كعهده لمالك الأشتر (رضوان الله عليه) ذريعة للتشكيك في نهج البلاغة. فقد ذكر الدكتور نايف معروف في كتابه الأدب الإسلامي هذه الشبهة قائلاً: «كثرة الخطب وطوها، لأنّ هذه الكثرة وهذا التطويل مما يتعدّر حفظه، وضيّقه قبل عصر التدوين»^(١).

وقال الأستاذ المرحوم أحمد زكي صفوت: «فإنا يخالج نفوسنا الشك في عهد الأشتر لا من حيث ما ورد فيه من النظريات السياسية وال عمرانية، لأنّا لا نستبعد صدور مثل هذا من الإمام... وإنّما يخالجنا الشك فيه من حيث طوله وإسهابه»^(٢).

وبنظر الباحث هذا مردود بالتالي:

أ - أما بالنسبة لكثره الخطب، وردّاً على ما ذكره الدكتور نايف معروف؛ فإنّها كانت معروفة ومؤكدة قبل أن يُجمع نهج البلاغة، بل حتى قبل أن تُعقد للرضى

(١) الأدب الإسلامي . ٥٤

(٢) ترجمة الإمام علي بن أبي طالب . ١٢٨

.....أثر كلام الإمام علي عليه السلام في التشر العربي
نُطْفَة، بل إنّ الذين تحدّثوا عن عدد خطب أمير المؤمنين عليه السلام ومن سابقي الرضي
تحدّثوا عن (٤٨٠ ونيف) خطبة، بينما الرضي دوّن في النهج (٢٤١) خطبة، أي
نصف العدد المذكور تقريباً، وهذا ما أفرغ منه الباحث سابقاً^(١).

ب - وبالنسبة للإطالة في الخطب، وبصورة إجمالية، فهذا أمر قد عُرِفَ عند
العرب، وذكر أرباب المصنفات في مصنفاتهم أطرافاً عنه، فقد نقل لنا الجاحظ
عن قيس بن خارجة أنه خطب بخطبة: «يوماً إلى الليل فما أعاد فيها كلمة ولا
معنى»^(٢). ولنتصور هنا كم سيملأ هذا الخطاب المذكور لو دوّن. ولنذهب أنّ في
هذا الكلام شيئاً من المبالغة، ولنفترض أنّه خطب بنصف يوم، أو ضحى من
نهار أيضاً كم سيملأ من الكرايس؟ وهل سيقى العهد أو الخطبة القاسعة
قباله طويلاً؟.

أمّا ما ذكره الدكتور بدوي طبابة من أنّ «الخطيب صار فيه انحناء فساعدته
العصا على انتصار قامته»^(٣) أليس هذا الإنحناء راجع إلى طول الموقف وطول
الموقف عائدٌ بدوره إلى طول الخطبة؟

وعليه فالطول في الخطب ورغبة الخطيب في ذلك موجودة قبل أمير
المؤمنين عليه السلام.

ج - لوعدنا للتوضيل عند الإمام علي بخاصة، لوجدنah من مزايا خطابه التي
قد عُرِفَ بها قبل أن يجمع بعض كلامه في نهج البلاغة. وهذا ما أكدّه الجاحظ
بقوله: «لم يكن عمر من أهل الخطب الطوال، وكان كلامه قصيراً، وإنّما

(١) تنظر: الرسالة ٣-٤.

(٢) البيان والتبيين ١/٧٩.

(٣) السرقات الأدبية ٢١.

صاحب الخطب الطوال على بن أبي طالب عليهما السلام^(١); فالجاحظ الذي هو مضطلع في الأدب العربي باتفاق الجميع، كان متبنّاً إلى ميزة طول الخطب عند أمير المؤمنين عليهما السلام دون غيره من الصحابة.

وقال ابن دأب^(٢): «فأدراكُ النّاس وهم يعيرون كُلَّ مَن استعان بغير الكلام الذي يشبه الكلام الذي هو فيه، ويعيرون الرّجل الذي يتكلّم ويضرب بيده على بعض جسمه، أو على الأرض، أو يدخل في كلامه ما يستعين به. وهم يقولون: كان عليهما - أي أمير المؤمنين - يقوم فيتكلّم من ضحوةٍ إلى أن تزول الشمس لا يدخل في كلامه غيرَ الذي تكلّم به»^(٣).

وهذه هي ميزة ممتازة أخرى من مزاياه عليهما السلام فعندما يعمد إلى التطويل لا يدخل في كلامه ما لا طائل منه، ولا يستشهد بكلام غير مصوبٍ ومسبوّب في المعنى الذي أراد. ومهما طال كلامه عليهما السلام فإنه يُبقي المتلقى في حالة شدٌّ وشوقٌ دونها ملالةٌ أو سأم حتى غدا ينتج الخطب والعقود الطوال بطريقة خاصة تتميز عن كل من طوّلوا في ذلك، وهذا قال هبة الدين الشهري: «إِنَّ الْخَبَرَاء لَوْ تَأْتَلُوا نِسْجَهُ هَذَا الْعَهْدُ الْعُلُوِّيُّ وَمَوَادِهِ حَكَمُوا مُبَدِّئًا عَلَى أَنَّ ... الْمُنشَىءُ لَهُذَا الْعَهْدَ أَمِيرُ عَرَبٍ قَضَائِيٌّ فَقِيهٌ فَلَسْفِيٌّ سِيَاسِيٌّ إِدَارِيٌّ رُوحَانِيٌّ اجْتِمَاعِيٌّ وَلَمْ يُسْمِحْ الدَّهْرُ لِلْعَربِ بِرَجْلٍ جَامِعٍ لَهُذَا الْمَزَايَا بَعْدَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّىٰ وَلَا يَدْنُو مِنْ ذَلِكَ نَفْسِيَّةُ الشَّرِيفِ الرَّضِيِّ أَيْضًا»^(٤). ولربما نسي الشهري أن يقول: عسكري.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد /١٢ /٢٦٥.

(٢) هو عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب يكنى أبا الوليد كان من أكثر زمانه علمًا وأديباً وعرفةً بأخبار الناس. وكان معاصرًاً لموسى المادي العباسي. ينظر: الكنى والألقاب /١ /٢٨١ - ٢٨٢.

(٣) الاختصاص ١٥٥.

(٤) الراعي والرعية ٧ - ٦.

هذا بعض مما قيل في قدرة أمير المؤمنين عليه السلام على تطويل الخطب والرسائل. أما هو عليه السلام فقد تحدث عن هذا الأمر فقال:

«وَاللَّهُ لَوْ أَمْرَتُكُمْ فَجَمِعْتُمْ مِنْ خَيَارِكُمْ مائَةً، وَلَوْ شِئْتُ لَحَدَّثُكُمْ مِنْ غَدوَةٍ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ؛ لَا أَخْبُرُكُمْ إِلَّا حَقًّا»^(٥).

فهنا أكد أمير البيان عليه السلام على أنه قادر على ذلك التطويل المهيّب وبشرطٍ صعبٍ مستصعب وهو جعله ضمن دائرة الحق والصدق «لا أخبركم إلا حقًا». وهذا غير داخل في باب المبالغة البطلة لأنَّه عليه السلام معصوم والمعصوم لا يتوكأ على عنصر المبالغة.

د - أما الشكوك الخاصة بالعهد حصرًا. لأنَّه طويل. فقد دُفعت بالأدلة السابقة، مثلما تُدفع بأدلة أخرى قائمة على التأثير والتآثر وهي بال什رات ستأتي بعونه تعالى - ومنها: قال أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ): «ومن حسن الإتباع.. قول إبراهيم بن العباس^(٦) حيث كتب: إذا كان للمحسن من الثواب ما يقنعه وللمسيء من العقاب ما يقمعه، ازداد المحسن في الإحسان رغبةً، وانقاد المسيء للحق رهبةً. أخذه من قول علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أخبرنا به أبو أحمد، قال: أخبرنا أبو بكر الجوهري^(٧) قال: أخبرنا أبو يعلى المنقري^(٨) قال:

(٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦/٢٦٢.

(٦) هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول الأصولي البغدادي شاعر، وكاتب مشهور له ديوان شعر. وهو ابن أخت العباس بن الأحنف الشاعر. أتصل بذوي الوياسين (الفضل بن سهل ثم نقل في أعمال السلطان ودواوينه إلى أن توفي سرًّا من رأى سنة ٢٤٣هـ. ينظر: وفيات الأعيان ٤٤. ينظر: الوافي بالوفيات ٦/١٩).

(٧) هو محمد بن شاذان يكتنأ أبو بكر الجوهري البغدادي، مقرئ معروف، ومحدث مشهور، ثقة صدوق. توفي سنة ٢٨٦هـ. ينظر: تاريخ بغداد ٢/٤٢٨.

(٨) أبو يعلى زكرياء بن يحيى بن خالد المنقري من أهل البصرة. كان من جلسات الأصمسي. ينظر:

أخبرنا العلاء بن الفضل بن جرير^(١) قال: قال عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) يحب على الوالي أن يتبعه أموره، ويتفقد أدعوه، حتى لا يخفى عليه إحسان محسن ولا إساءة مسيء. ثم لا يترك واحداً منها بغير جزاء، فإن ترك ذلك تهاون المحسن، واجترأ المسيء..»^(٢) وهذا المقطع من كلام أمير المؤمنين عليه السلام من مقاطع العهد، لكن الرضي أودعه نهج البلاغة مع تغيير طفيف:

«وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةِ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيدًا لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ، وَتَدْرِيبًا لِأَهْلِ الْإِسَاعَةِ»^(٣).

ثم إننا نجد ابن المقفع (ت ٤٢ هـ) أخذ هذا الكلام أيضاً، فقال: «ثم على الملوك بعد ذلك، تعاهد عما لهم وتفقد أمورهم حتى لا يخفى عليهم إحسان محسن ولا إساءة مسيء. ثم عليهم، بعد ذلك، أن لا يتركوا محسناً بغير جزاء، ولا يغروا مسيئاً، ولا عاجزاً على الإساءة والعجز. فإنهم إن تركوا ذلك تهاون المحسن، واجترأ المسيء»^(٤).

وما أخذه بن المقفع مؤكداً عن العهد قوله: «حق الوالي أن يتتفقد لطيف أمور رعيته، فضلاً عن جسمها، فإن للطيف موضعًا يتتفع به، وللجسم موضعًا لا يُستغنى عنه»^(٥).

=الثباتات ٢٥٥ / ٨

(١) هو العلاء بن الفضيل بن عبد الملك يكنى أبا الهذيل. بقي حياً إلى سنة ٢٢٠ هـ. ينظر ميزان الاعتدال ٣ / ١٠٤.

(٢) الصناعتين ٢٢٠.

(٣) نهج البلاغة ٥٠٤.

(٤) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٤٦.

(٥) الأدب الصغير والأدب الكبير ٣١.

فهذا عن قوله عليه السلام:

«وَلَا تَدْعُ تَفْقَدَ لَطِيفٍ أُمُورِهِمْ إِنَّكَالاً عَلَى جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعًا يَتَفَقَّعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعًا لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ»^(١).

فواضح جداً هنا كيف أخذ ابن المقفع قول الإمام عليه السلام:

«تفقد لطيف أمورهم اتكالاً على جسيمهها».

وقال:

«يتفقد لطيف أمور رعيته فضلاً عن جسيمهها».

وقول الإمام عليه السلام:

«فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعًا يَتَفَقَّعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعًا لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ».

الذي حوره قليلاً ابن المقفع: «فَإِنَّ لَطِيفَ مَوْضِعًا يَتَفَقَّعُ بِهِ، وَلِلْجَسِيمَ مَوْقِعًا لَا يَسْتَغْنَى عَنْهُ». وغير هذا كثيرة جداً هي التأثيرات التي تركها العهد على نتاجات ابن المقفع، وسيعرف هذا لاحقاً بعونه تعالى.

إذاً فالعهد كان موجوداً ومقروءاً ومؤثراً. والطول في الخطابة كان موجوداً أيضاً وبخاصة عند أمير المؤمنين عليه السلام.

هـ - إن من الأسباب المهمة وراء طول الخطب والرسائل عند أمير المؤمنين عليه السلام مثلما يرى الباحث هو القرآن، نعم القرآن نفسه؛ لأن العلاقة بين القرآن وترجمانه علاقة وطيدة متداخلة لا يمكن أن تحد بمدى سواعده من ناحية الشكل الكلي أو المضمون. القرآن - كما هو معلوم - فيه سورة البقرة وفيها

(١) نهج البلاغة . ٥٠٧

(٢٨٦) آية، وفيه سورة الكوثر وفيها(٣) آيات.

وهكذا كان كلام أمير المؤمنين عليه السلام فيه العهد ما يقارب (٢٨٥) سطراً، وفيه الحكمة «النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهَلُوا»^(١) وعلى هذا فمن الطبيعي جداً أن يكون القرآن ألقى فيها ألقى بظلاله على أمير المؤمنين مسألة التطويل، فورثها عليه السلام عن القرآن.

و - «ما وقع بين المسلمين من إختلاف مذهبي وسياسي أوجب على الخطيب الإطالة إياضًا لفكته ودفعاً عن مذهبة وتفنيداً لأقوال خصومه. ومن الخطب الطوال... طائفة من خطب علي»^(٢).

ى - مراعاة مقتضى الحال، قال الدكتور زكي مبارك: «وكان من الخطباء من يطيل، وكان منهم من يوجز... وسحبان بن وائل الذي عُرفَ بالتطويل وبأنه كان يخطب أحياناً نصف يوم أثَرَت عنه الخطب القصيرة الموجزة... وذلك يدلُّ على أنَّ الفطرة كانت غالبة على ذلك العصر وأنَّ القاعدة المطردة لم تكن شيئاً آخر غير مراعاة الظروف. ورسائل علي بن أبي طالب عليه السلام وخطبه ووصاياه وعهوده إلى ولاته تجري على هذا النمط، فهو يطيل حين يكتب عهداً يبين فيه ما يجب على الحاكم في سياسة القطر الذي يرعاه، ويوجز حين يكتب إلى بعض خواصه في شأنٍ معِينٍ لا يقتضي التطويل»^(٣).

فأمير المؤمنين عليه السلام عندما كان يكتب لمن ولاه يأمره بأن لا يقصّر لا في حقوق الخالق ولا المخلوق، موضحاً له صغار الأمور وكبارها وفي وظائف الدولة كافة

(١) م. ن. ٥٨٤

(٢) الخطابة العربية في عصرها الذهبي ٤١

(٣) الشر الفني في القرن الرابع الهجري ٦٩ / ١

وعلى هذا لا بد من أن يطول كتابه عليه السلام.

وهنا بود الباحث الإشارة إلى أنّ الأثر الذي تركه العهد بخاصة كان ظهوره جلياً على طبقة خاصة وهي طبقة الحكام ومن كان في أرقوتهم وتحت ظلهم وأمرتهم من الكتاب أمثال عبد الحميد، وابن المفعع وهذا ما سيُعرف في قابل البحث إن شاء الله. ولعل السبب في ذلك يكمن فيها ذكره ابن أبي الحديد - وهو الراجح عند الباحث - إذ قال في حديث مسنده: «أنّ علياً لما كتب إلى محمد بن أبي بكر هذا الكتاب، كان ينظر فيه ويتأدب بأدبه، فلما ظهر عليه عمرو بن العاص وقتله، أخذ كتبه أجمع، فبعث بها إلى معاوية فكان معاوية ينظر في هذا الكتاب ويتعجب منه، فقال الوليد بن عقبة، وهو عند معاوية، وقد رأى إعجابه به: مُرْ بِهِذِهِ الْأَحَادِيثِ أَنْ تُحرقُ، فَقَالَ معاوِيَةُ: مَهُ؟ لَا رَأَيْ لَكَ! فَقَالَ الوليد: أَفَمِنَ الرَّأْيِ أَنْ يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّ أَحَادِيثَ أَبِي تَرَابٍ عَنْكَ تَعْلَمُ مِنْهَا؟! قَالَ معاوِيَةُ: وَيَحْكُمُ! أَتَأْمَرُنِي أَنْ أَحْرِقَ عَلَيْهِ مِثْلَ هَذَا! وَاللَّهُ مَا سَمِعْتُ بِعَمَلٍ هُوَ أَجْمَعُ مِنْهُ وَلَا أَحْكَمُ. فَقَالَ الوليد: إِنْ كُنْتَ تَعَجَّبُ مِنْ عِلْمِهِ وَقَضَائِهِ فَعَلَامٌ تَقَاتِلُهُ! فَقَالَ: لَوْلَا أَنَّ أَبَا تَرَابٍ قُتِلَ عُثْمَانَ ثُمَّ أَفْتَانَا لِأَخْذِنَا عَنْهُ. ثُمَّ سَكَتَ هَنِيَّهُ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى جَلْسَائِهِ فَقَالَ: إِنَّا لَا نَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ مِنْ كُتُبِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ؛ وَلَكِنَّنَا نَقُولُ: هَذِهِ مِنْ كُتُبِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ كَانَتْ عِنْدَ ابْنِهِ مُحَمَّدٍ فَنَحْنُ نَنْظُرُ فِيهَا، وَنَأْخُذُ مِنْهَا. قَالَ أَبِي الْرَّاوِي -: فَلَمْ تَزُلْ تَلْكَ الْكِتَبُ فِي خَزَائِنِ بَنِي أُمَّيَّةِ؛ حَتَّى وَلِيُّ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَهُوَ الَّذِي أَظْهَرَ أَنَّهَا مِنْ أَحَادِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ^(١).

وفي هذه الرواية يبدو أنّ الذي أخذ بعد إشهاد محمد بن أبي بكر (رضوان الله عليه) أكثر من كتاب، بل كتب عدّة «أخذ كتبه أجمع»، «إنّ هذه من كتب...»

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ٦٢٢٣.

كانت». وعلى كل الأحوال فيمكن أن يكون من بين تلك الكتب عهد الإمام مالك الأشتر، حيث قال عنه ابن أبي الحميد بعد ذكره لهذه الرواية «الأليق أن يكون الكتاب الذي كان معاوية ينظر فيه، ويعجب منه، ويفتي به، ويقضى بقضايا واحكامه هو عهد علي عليه السلام إلى مالك الأشتر... وهذا العهد صار إلى معاوية لما سُمِّيَ الأشتر ومات قبل وصوله إلى مصر؛ فكان ينظر فيه ويعجب منه، وحقيقة من مثله أن يقتني في خزائن الملوك»^(١).

وبعد هذا يمكن القول: أن معاوية ومن جاء بعده قد أطلاعوا كتابهم على العهد المذكور لهذا كثُر تأثيرهم به.

الوقفة الثالثة

شبهة الصيغ الفلسفية والإصطلاحات الكلامية

أو مباحث علم التوحيد والعدل الإلهي

يُعرَّف علم الكلام أو علم التوحيد بأنه «علم يتضمن الحاجة عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، وهذا العلم - فيما أعتقد - هو النتاج الخالص لل المسلمين»^(٢) ومن أوائل أولئك المسلمين هو أمير المؤمنين عليه السلام، فقد اشتهر بالبحث الدقيق والعمق في هذا العلم، لأنَّه أراد نشر الصفات الإلهية الحقة غير المتلبسة بالترسبات اليهودية والمسيحية مثل التجسيم والتشبيه وهذه العملية «لم تكن عملية سهلة أبداً بل كانت ضرباً من ضروب المجازفة والمخاطرة بأعزَّ ما يملكه المبلغ التوحيدِ»^(٣). وهذا العلم هو وحده من أنصاف الذات الإلهية،

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحميد ٦ / ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام .٣٠

(٣) الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر .٣٩٥

وهو الذي ردَّ ويردَّ على أولئك الذين كأنَّهم «خلقوا أهتمهم بأيديهم»^(١).

وأمير المؤمنين عليهما بنهايته تلك قد رام التأكيد على أنَّ الدين الإسلامي الحنيف هو مثلما قال الدكتور نظمي لوقا: «دين يؤكّد وجود الله، وأنَّه خالق الخلق، وأنَّه الكامل المتفرد بالكمال، بيده الأمر، وهو على كل شيء قادر... ويؤكّد وحدانية الله توحيداً يقضي على عقابيل التعددية في تصوُّر الإله... ويلزم كذلك أن يؤكّد هذا الدين التنزيل لله، حتى لا ينزلق إلى التجسيم الذي طالما وقعوا فيه بعد كُلِّ دعوةٍ للتَّوحيد بين غلبة الحسْن عليهم»^(٢).

لكنَّ أهل البيت عليهما الذِّين يمكن تسميتهم بسفراء هذا العلم، دفعوا ضرورة عملهم هذا نتيجة حملهم ونشرهم هذه العلوم التوحيدية في ذلك المجتمع الفلسفي المتناقض^(٣)، وكان من تلك الضرورة أنْ شكّكَ في كلامهم هذا وعلى رأسهم أمير المؤمنين عليهما. قال أحمد أمين مشككًا في نهج البلاغة: «واستوجب الشكُّ هذا أمرُه: ما في بعضه من سجع منمق، وصناعة لفظية...»^(٤). وإلى هذا ذهب أيضاً الأستاذ أحمد زكي صفوتو بحجة «أنَّ هذا الأسلوب المنطقي لم يعهد في كلام العرب، ولم يستعمله العلماء إلاّ بعد ترجمة المتنطق والعلوم الدخيلة، وذلك العصر لم يدركه الإمام»^(٥).

ردَّ العلماء على هذه الشبهة بردود عدَّة، ومن ذلك ما قاله محمد جواد مغنية:

(١) م. ن. ٣٩٥.

(٢) م. ن. ٣٩٣.

(٣) ينظر: م. ن. ٣٩٥.

(٤) فجر الإسلام ١٤٩.

(٥) ترجمة الإمام علي بن أبي طالب ١٤٤.

«... والغريب أنّ هؤلاء المنكرين لا يستكثرون على ابن خلدون الكلام في علم الإجتماع قبل أن يعرفه روسو ومنتسيكو، وأن يقولوا عن علومه ومعارفه: تدفق فجائي وحدس باطني وأختمار لا شعوري، ثم يستكثرون على باب مدينة العلم.. أن يصفَ البارئ بصفات تليق بجلاله... وهو أعرف الناس به بعد الرسول»^(١).

أما الباحث فيحضر هذه التهمة بطريقين:

الطريق الأول

شهرته عليه السلام العريضة على مر العصور الماضية بهذا العلم

إنّ هذا العلم هو من المسلمات التي عُرفت عن أمير المؤمنين عليه السلام، وهو الذي أكده مهرةُ الفنّ، وأصحاب المصنفات في مصنفاتهم على مر العصور. فمثلاً الكليني (ت ٣٢٨هـ) وبعد أن نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام إحدى خطبه في التوحيد قال: «وهذه الخطبة من مشهورات خطبه عليه السلام، حتى لقد إبنتها العامة، وهي كافية لمن طلب علم التوحيد إذا تدبّرها وفهم ما فيها، فلو اجتمع ألسنة الجنّ والإنس ليس فيها لسان نبيّ على أن يبيّنوا التوحيد بمثل ما أتى به - بأبي وأمي - ما قدروا عليه ولو لا إبانته عليه السلام ما علم الناس كيف يسلكون سبيل التوحيد»^(٢).

فواضح إذًا من كلام الشيخ الكليني أنّ هذه الخطبة في التوحيد من مشهورات خطبه، بل أصبحت مبتدلةً من كثرة تداولها بين العامة. والكليني توفي قبل أن يجمع نهج البلاغة بـ(٧٢) عاماً.

(١) فضائل الإمام علي ٧٣

(٢) الكافي / ١ ١٣٦

أَمَا الْمَرْتَضِيُّ (ت ٤٣٦) فَقَدْ قَالَ فِي أَمَالِيَّهُ: «إِعْلَمُ أَنَّ أَصْوَلَ التَّوْحِيدِ وَالْعَدْلِ مَأْخُوذَةُ مِنْ كَلَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - وَخُطْبَتِهِ، فَإِنَّهَا تَتَضَمَّنُ مِنْ ذَلِكَ مَا لَا زِيادةَ عَلَيْهِ، وَلَا غَایَةَ وَرَاءَهُ، وَمِنْ تَأْمِلِ الْمُأْثُورِ فِي ذَلِكَ مِنْ كَلَامِهِ عِلْمٌ أَنَّ جَمِيعَ مَا أَسْهَبَ الْمُتَكَلِّمُونَ مِنْ بَعْدِهِ فِي تَصْنِيفِهِ وَجَمْعِهِ، إِنَّمَا هُوَ تَفْصِيلُ لِتَلْكَ الْجَمْلِ، وَشَرْحُ لِتَلْكَ الْأَصْوَلِ»^(١).

ثُمَّ اسْتَشْهَدَ الشَّرِيفُ الْمَرْتَضِيُّ بِأَمْثَلَةٍ عَدَةٍ عَلَى ذَلِكَ مِنْهَا قَوْلُهُ^{عليه السلام} فِي وَصْفِ اللَّهِ تَعَالَى:

«لَا تَشْبِهْهُ صُورَةً، وَلَا يُحْسِنُ بِالْحَوَاسِ الْخَمْسِ، وَلَا يُقَاسُ بِقِيَاسِ النَّاسِ»^(٢).
وَقَدْ عَدَّ ابْنُ أَبِي الْحَدِيدِ هَذَا الْعِلْمَ أَعْلَى مَنَاقِبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ^{عليه السلام} عَلَى كثْرَتِهِ،
وَإِنَّ جَمِيعَ مَنْ جَاءَ بَعْدِهِ فَعْنَهُ أَخْذُ فِي هَذَا الْمُضَمَّارِ، فَقَالَ: «وَاعْلَمُ أَنَّ التَّوْحِيدَ
وَالْعَدْلَ وَالْمُبَاحَثَ الشَّرِيفَةِ الإِلَهِيَّةِ، مَا عُرِفَتْ إِلَّا مِنْ كَلَامِ هَذَا الرَّجُلِ، ... وَهَذِهِ
الْفَضِيلَةُ عَنِي أَعْظَمُ فِضَائِلِهِ»^(٣).

وَالْقَائِمَةُ طَوْلُ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ وَنَخْتَمُهُمْ بِالْعُلُوِّيِّ (ت ٧٤٥) فَقَدْ نَقَلَ كَثِيرًا
مِنْ حُكْمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ^{عليه السلام} وَخُطْبَتِهِ بِهَذَا الصِّدْدِ، وَقَدْ توَسَّعَ فِي شَرْحِهَا وَالْتَّعْلِيقِ
عَلَيْهَا، فَبَعْدَ أَنْ أَوْرَدَ كَلَامَ الْإِمَامِ عَلَيْهِ^{عليه السلام} «الْتَّوْحِيدُ إِلَّا تَوَهُّمُهُ، وَالْعَدْلُ إِلَّا
تَتَهَّمُهُ»^(٤) قَالَ: «هَاتَانِ الْكَلِمَتَيْنِ قَدْ جَمِعْتَنَا وَحَازْتَنَا عِلْمَوْنَ التَّوْحِيدِ عَلَى كثْرَتِهِ،
وَعِلْمَوْنَ الْحِكْمَةِ عَلَى غَزَارَتِهِ، بِالْلَّطْفِ عِبَارَةٌ وَأَوْجَزُهَا. وَلَوْلَمْ يَكُنْ فِي كَلَامِ أَمِيرِ

(١) أَمَالِيُّ الْمَرْتَضِيِّ ١/١٦٢ - ١٦٣.

(٢) م. ن. ١٦٣.

(٣) شَرْحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ لِابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ ٦/٤١٠.

(٤) الطَّرَازُ الْمُتَضَمِّنُ لِأَسْرَارِ الْبَلَاغَةِ وَعِلْمَوْنَ حَقَائِقِ الْإِعْجَازِ ٢/٢٥١.

المؤمنين للهـ في علوم التوحيد والعدل إلـ هاتان الكلمتان لكانتا كافيتين في معرفة فضله، وإحرازه لدقيق علم البلاغة وجزله..»^(١).

وهنا بود الباحث أن يتساءل:

هل كـل هؤلاء الذين صـروا وأكـدوا بأنـ أمير المؤمنين كان مـرزاً في هذه الحلة أي حلة علوم التوحيد كانوا يكذبون؟ - أـجلهم الله - أم كانوا مـغفلـين؟ أم كانت في كلامـهم محـابة؟ ولـأـي جهةـ كانت هذه المحـابة؟ أم كانوا ماذا؟.

إـذا لم تـكن هذه الخطـب العـظـيمـة لأـمير المؤمنـين للـهـ إـذا لـمن هي؟ لـماـذا لم يـصـرـح بها صـاحـبـها ويـخـزـ ذلك الفـضـلـ الذي لم يـخـزـهـ الأـوـاـئـ؟ ولـماـذا المشـكـكونـ لم يـنـسـبـوها حتى نـعـرـفـ قـائـلـها؟.

أين علمـاءـ القرـنـ الثـانـيـ والـثـالـثـ بلـ الـرـابـعـ والـخـامـسـ وـحتـىـ الـقـرنـ الثـالـثـ عـشـرـ - وقد رـأـيـتـ معـيـ لـمـنـ كانـ حـكـمـهـمـ - منـ هـذـاـ التـشـكـيكـ؟ هلـ يـعـقـلـ خـفـيـ الـأـمـرـ هـذـاـ عـلـىـ جـهـاـبـذـهـ الـعـلـمـ لـمـاـ يـقـارـبـ (١٠٠٠)ـعـامـ؟ حتىـ يـأـتـيـ فـيـ الـعـصـرـ الـحـدـيثـ الأـسـتـاذـ الـكـبـيرـ أـحـمـدـ أـمـيـنـ وـيـخـالـفـ ذـلـكـ وـالـأـسـتـاذـ الـكـبـيرـ أـحـمـدـ زـكـيـ صـفـوتـ الـذـيـ قالـ: «ـوـإـنـاـ نـسـوـغـ لـأـنـفـسـنـاـ أـنـ نـقـولـ: مـنـ الجـائزـ أـنـ يـكـوـنـ بـعـضـ غـلاـةـ الشـيـعـةـ قـبـلـ الشـرـيفـ الرـضـيـ قـدـ دـسـواـ عـلـىـ الـإـمـامـ بـعـضـ الـخـطـبـ..»^(٢). وهـلـ هـذـاـ صـحـيـحـ تـأـتـيـ هـكـذـاـ شـخـصـيـاتـ لهاـ قـدـمـ رـاسـخـ فـيـ مـجـالـ تـخـصـصـهاـ وـتـنـفـيـ تـرـاثـ عـظـيمـ قدـ شـهـدـ بـهـ الـجـمـيعـ؛ لـأـنـ الـأـسـتـاذـ قدـ «ـسـوـغـ لـنـفـسـهـ». أـلـاـ يـعـلـمـ وـهـوـ الـخـيـرـ أـنـ الـبـاحـثـ الـعـلـمـيـ يـمـيلـ مـعـ الدـلـلـ لـاـ مـعـ مـاـ تـسـوـغـهـ النـفـسـ الـأـمـارـةـ.

(١) مـ. نـ. ٢٥١.

(٢) تـرـجمـةـ الـإـمـامـ عـلـيـ بـنـ أـبـيـ طـالـبـ . ١٥٨.

الطريق الثاني

طريق تأثير هذا الفن النثري والتآثر به

فبعد أن رسخت قدم أمير المؤمنين عليه السلام في هذا العلم وانتشرت خطبه التوحيدية «التي ستشكل لاحقاً حجر الأساس في عملية انتشار الأيديولوجيا الإسلامية التوحيدية... التي أرادها الرسول عليه السلام أن تنتشر على نطاقٍ أوسع بين الناس»^(١) انتشرت بالفعل، وأخذت صداتها الواسع في التأثير، فكان من أوائل الذين تأثروا بها أبناءه وأحفاده عليه السلام. ونذكر منهم علم واحداً وهو الإمام السجاد (استشهد ٩٥ هـ) فمما روي عنه من هذا النوع من الكلام قوله في الصحفة السجادية:

«الحمد لله الأول بلا أولٍ كان قبله، والآخر بلا آخر يكون بعده، الذي قصرت عن رؤيته أبصارُ الناظرين، وعجزت عن نعته أوهامُ الواصفين»^(٢).

وشيءٌ كثيرٌ في خطب الإمام علي عليه السلام منها قوله:

«وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: الأول لا شيء قبله والآخر لا غاية له، لا تقع الأوهام له على صفة، ولا تُعَقِّد القلوب منه على كيفية...»^(٣).

ومنها:

«الحمد لله الأول قبل كلّ أولٍ، والآخر بعد كلّ آخر، وبأوليته وجَبَ أن لا أول له، وبآخريته وجَبَ أن لا آخر له...»^(٤).

(١) الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر ٣٩٣.

(٢) الصحفة السجادية ٢٧.

(٣) نهج البلاغة ١٢٥.

(٤) م. ن. ١٦٦.

وقال الإمام السجاد عليه السلام متأثراً بجده أيضاً:

«الحمدُ لله الذي... كَلَّتُ الأَلْسُنُ عَنِ غَايَةِ صَفَتِهِ وَأَنْحَسَرَتِ الْعُقُولُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ..»^(١).

وهنا تضمين لكلام أمير المؤمنين عليه السلام:

«الحمدُ لله الذي انحرست الأوصافُ عن كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ..»^(٢).

وبعد ذلك لم يعد الأمر مختصاً بأمير المؤمنين وأهل البيت عليهم السلام فحسب، بل نجد أن هناك من تخرج بخطب الإمام هذه، وعلى رأس أولئك المعذلة - الذين هم أهل التوحيد والعدل، وأرباب النظر، ومنهم تعلم الناس هذا الفن - فهم تلامذته - أي الإمام - وأصحابه عليهم السلام; لأن كثيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم^(٣) عبد الله بن محمد بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه، وأبوه تلميذه عليهم السلام^(٤).

فواصل بن عطاء كان كثير التأثر بخطب أمير المؤمنين عليه السلام التوحيدية ومن خطبه التي بان فيها هذا الأثر قوله:

«الحمدُ لله... الذي علا في دُنْوَهِ، ودنا في علوّه...»^(٥).

وهذا كقوله عليه السلام:

(١) الصحيفة السجادية ٢٥١.

(٢) نهج البلاغة ٢٤٩.

(٣) هو عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب عليهم السلام يكتُبُ أبي هشام كان كثير العلم والرواية توفي في خلافة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨. ينظر: تاريخ دمشق ٣٢ / ٢٧٢.

(٤) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ٢٣. ينظر: الثقات ٧ / ٢.

(٥) جمهرة خطب العرب ٢ / ٥٠١.

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الترجمة ٦٨

«قُرْبَ فَنَّا، وَعَلَا فَدَنَا، وَظَهَرَ فَبَطَنَ، وَبَطَنَ فَعَلَنَ»^(١).

وكقوله عليه السلام أيضاً:

«سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلَا شَيْءٌ أَعْلَى مِنْهُ، وَقَرُبَ فِي الدُّنْوِ فَلَا شَيْءٌ أَقْرَبُ مِنْهُ»^(٢).

وهكذا كان يسير قطار العلوم التوحيدية بشحنهِ ورثها عن أمير المؤمنين عليه السلام ليصل إلى أبي إسحاق الصابي^(٣) (ت ٣٨٤ هـ)، الذي قال واصفاً الله تعالى بأوصافٍ يستقاها من الإمام علي عليه السلام: «لا تحدُّهُ الصفات، ولا تجُوزهُ الجهات، ولا تحصرُهُ قرارهُ مكان، ولا يغيرهُ مرور زمان، ولا تتمثلُهُ العيون بناوازرهما، ولا تخيلهُ القلوب بخواطرها...»^(٤). فقوله: «لا تحدُّهُ الصفات» عن قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«الذِي لَيْسَ لِصَفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ...»^(٥).

(١) نهج البلاغة ٣٥٨.

(٢) م. ن. ٨٢.

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال، الأديب البليغ صاحب الرسائل المشهورة كان صابئياً مشركاً وكان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة عز الدولة بختيار بن معز الدولة سنة (٣٤٩) كان يصوم رمضان موافقة وحسن عشرة للمسلمين ويحفظ القرآن حفظاً يدور على طرف لسانه وسن قلمه. وعندما توفي رثاه الرضي بقصيدة مشهورة منها: أرأيت من حملوا على الأعواد أرأيت كيف خبا ضياء النادي. وعاتبه الناس على ذلك فقال إنما رثيت فضله ت (٣٨٤ هـ) ينظر: سير أعلام النبلاء ١٦ / ٥٢٣. وينظر: وفيات الأعيان ١ / ٢١٢. وينظر: الترجمة الفنية في القرن الرابع المجري ٢ / ٣٥٣.

(٤) الترجمة الفنية في القرن الرابع المجري ٢ / ٣٦٠.

(٥) نهج البلاغة ١٥.

وقوله: «لا تتمثل العيون بنوااظرها» كقوله عليه السلام:

«لا تدرك العيون بمشاهدة العيان»^(١).

ويبدو أن الدكتور زكي مبارك تنبأ لأثر أمير المؤمنين عليه السلام على أبي إسحاق الصابي، وإلّا كيف قال: « ولو أننا قارنا هذه العبارات بأمثالها مما تكلم به الشريف الرضي على لسان علي بن أبي طالب لرأينا الصابي يستقى من نفس المنبع الذي استقى منه الشريف»^(٢).

وينبغي هنا لفت الانتباه إلى نكتة وهي أن أبو إسحاق توفي (٣٨٤هـ) أي قبل أن يُجمع نهج البلاغة بـ(ستة عشر عاماً)، وهذا دليل آخر على أن تلك الخطب كانت معروفة ومؤثرة قبل جمع النهج.

وصفوة القول هنا إنّ العلوم التوحيدية أو مباحث العدل الإلهي التي برع بها أمير المؤمنين عليه السلام كانت موجودة وفاعلة ومؤثرة، ولإثباتها سلكت الدراسة أكثر من محجّة بيضاء.

الوقفة الرابعة

شبهة السجع

السجع لغة:

قال الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ): «سجع الرجل إذا نطق بكلام له فواصل كقوافي الشعر من غير وزن، كما قيل: لصُها بَطْلُ وَمَرْهَا دَقَل.. ويسمى سجعاً

(١) م ٢٩٨ ن ٠.

(٢) الشر الفني في القرن الرابع الهجري ٢٦١ / ٢.

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النشر العربي فهو ساجع، وسجّاع، وسجّاعة»^(١).

أما اصطلاحاً فهو مجيءُ الكلام المنشور على رويءٍ واحد، فتصبح الكلمات في آخر كل فقرتين أو أكثر على حرف معين، بغية أن يكتسب الشر ضرباً من الموسيقى والتنغيم، ويجازي عاطفة قائله، ويثير نفس سامعه^(٢). وكان له «منزلة سنّية» بين العرب في الجاهلية وكان يغمُر كلامهم^(٣). والسجع «لم يخل منه عصر من عصور الأدب، ولا نستثنى من ذلك عصر صدر الإسلام»^(٤). وهكذا جاء السجع العلوي مزداناً بالعفوية، كقوله:

«قد استطعمو كُم القتال، فأقرُوا على مذلة، وتأخِّرْ محلَّة، أو رُووا السيفَ من الدّماء ترووا من الماء»^(٥).

ولكنَّ هذا السجع الذي جاء في نهج البلاغة أتخذه بعض الباحثين الكبار ذريعةً للتشكيك في الكتاب. قال الدكتور شوقي ضيف «وكان الشريف الرضي وجد مادةً صاغ منها كتابه، وهي مادة بُنيَت على السجع، وفي ذلك نفسه ما يدلُّ على كذب نسبتها إلى علي...»^(٦).

أما الأستاذ أحمد زكي فقد أدى بدلوه وكأنه يرد على من شكَّ في سجع الإمام علي عليه السلام، فقال: «أما ما ورد في كلامه من السجع فليس ببدع أن يسجع

(١) كتاب العين ١ / ٢١٤.

(٢) ينظر: مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ع ٢٧ / ١١٤.

(٣) البديع في ضوء أساليب القرآن ١٢٥.

(٤) تطور الأساليب التصورية في الأدب العربي القديم ٢٠٧.

(٥) نهج البلاغة ٨٣.

(٦) الفن ومذاهب في النشر العربي ٦٢.

علي، وقد جاءَ فيه سجع مقبول متسق لا يُستوْحشُ منه. وأنت إذا تأمَّلتَ خطبَ الجاهلية ألفيتَ كثيراً منها مسجوعاً... والقرآن لا يخلو من هذه الخلية، وقد تُبْنِي آياتٍ وفيه العدد بل سورة طويلة كاملة على قافية واحدة - انظر سورة مريم والقمر والرحمن والدهر - وكذلك ورد السجع في كلام الرسول - عليهما السلام -. على أني أخالك تسلّم معي بأن الخطب المسجوعة - سجعاً غير متنافر - لها رنين في النفس يهزُ الأفئدة ويأخذ بمجامع الألباب. وعلى في خطبه ي يعني أن يلين القناة الجامدة ويجمع الأهواء الشاردة، ويستهوي الأفئدة المستعصية..»^(١).

وهذا ردٌ كافٍ ووافٍ على من لا يقرُ بالسجع عند الإمام علي عليهما السلام، لأنَّ السجع موجودٌ في الجاهلية كخطبة قيس بن ساعده الأيداري التي ينقل الجاحظ أنَّ الرسول الأكرم عليهما السلام نقلها:

«أَيُّهَا النَّاسُ اجْتَمِعُوا، فَاسْمَعُوا، وَعَوْا. مَنْ عَاشَ مَاتَ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ...»^(٢).

وموجودٌ في القرآن مثلما استشهد الأستاذ بأربع سورٍ قرآنية، ثم دعمَ الأستاذ رأيهُ بالأسجاع التي وردت في الكلام النبوى الشريف ومن ذلك قوله عليهما السلام: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ: أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ...»^(٣).

وميزة السجع عند الإمام علي عليهما السلام وبحسب رأي الأستاذ أيضاً هو «مقبول متسق لا يستوْحش منه (لأنَّه كان) ي يعني أن يلين القناة الجامدة...». ومع هذا كله ختم

(١) ترجمة الإمام علي بن أبي طالب ١٥١.

(٢) البيان والتبيين ١/١٨٦.

(٣) سنن الترمذى ٤/٦٥.

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الترجمة العربية ٧٢

الأستاذ كلامه بعبارة فيها شيء من الغرابة لما قال: «على إننا مع هذا كلّه لا نطمئن إلى جميع ما ورد في النهج من كلام مسجّع، ولا نرتاح إلى الثقة به ثقةً مطلقة»^(١).

فلماذا هكذا يقول الأستاذ وهو الذي قدّم ما قدّم عن انتشار السجع بعامة وعند أمير المؤمنين عليه السلام وخاصة؟ ثمّ ما هي هذه الأسجاع التي لا يطمئنُ لها؟ حبذا لو ذكر عنها خطبة أو جملة، ليتبين سبب عدم قبوله لها.

ولم يقل أحدٌ بأنَّ ما ورد من أسجاع في كلامه عليه السلام مثلما عرف في العصر العباسي، بل كان عفوياً الخاطر، مصوناً من التكُلُّف، وكان زينةً تزدان بها خطبه ورسائله، والسعج إذا كان هكذا لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه^(٢). فمن أسجاعه العجيبة ما جاء في كتابه الذي بعثه إلى عبد الله بن عباس (ت ٦٧هـ):

«أما بعد، فإنَّ مصر قد أفتحت ومحَمَّد بن أبي بكر رحمه الله قد أستشهد؛ فعند الله نحتسبه ولداناً ناصحاً، وعاملاً كادحاً، وسيفاً قاطعاً، ورُكناً دافعاً...»^(٣).

فجاءت الفوائل بكلماتٍ كلها منصوبة (جهراً، بدءاً، كارهاً، كاذباً...) وقد أحسن ابن أبي الحديد عليها تعليقاً، إذ قال: «أنظر إلى الفصاحة كيف تعطي هذا الرجل قيادها، وتملكه زمامها؛ وأعجب بهذه الألفاظ المنصوبة، يتلو بعضها بعضًا كيف تواتيه وتطاويعه؛ سلسلة سهلة، تتدقق من غير تعسِّف ولا تكُلُّف... وأنت وغيرك من الفصحاء إذا شرعوا في كتابٍ أو خطبة، جاءت القرائن والفوائل تارةً مرفوعة، وتارةً مجرورة، وتارةً منصوبة،

(١) ترجمة الإمام علي بن أبي طالب ١٥٢.

(٢) الصناعتين ٢٦٧.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦ / ٣٠٠.

فإن أرادوا قسرها بإعرابٍ واحد ظهر منها في التكليف أثُرٌ بَيْنُ، وعلامةٌ واضحة، وهذا الصنف من البيان أحد أنواع الإعجاز في القرآن^(١).

وبسبب هكذا أسلوب عدّ الكاتب (نرسسييان) رئيس الكتاب في القنصلية البريطانية عدّ نهج البلاغة متفوّقاً على كلّ كلام عربي لكثره ما فيه من السهل الممتنع وأنقياد الأسلوب الصعب دونها تكلّف^(٢) مستشهاداً بقوله عليه السلام:

«أَمْ هُذَا الَّذِي أَنْشَأَ فِي ظُلْمَاتِ الْأَرْحَامِ، وَشُغْفِ الْأَسْتَارِ، نَطْفَةً دَهَاقًا، وَعَلْقَةً حَمَاقًا، فَجَنِينًا وَرَاضِعًا، وَوَلِيدًا وَيَافِعًا...»^(٣).

ثم قال هذا الكاتب متمنياً: «لو كان يرقى هذا الخطيب العظيم منبر الكوفة في عصرنا هذا لرأيتم مسجدها على سعته يتموج بقبعات إل Afranj للإستقاء من بحر علمه الزاخر»^(٤).

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦ / ٣٠١.

(٢) ينظر: ما هو نهج البلاغة. ٧.

(٣) نهج البلاغة. ١٢٠.

(٤) ما هو نهج البلاغة. ٧.

المبحث الثاني

عقريّة الإمام علي عليه السلام الأدبية ومرجعيتها

لم يشتهر في التراث العربي كلام بعد القرآن الكريم، وكلام النبي محمد عليهما السلام كاشتهر كلام أمير المؤمنين عليهما السلام، فقد أشراق في مملكة الأدب إشراق الشمس في رابعة النهار، ولشدة تأثيره وصف بأنه «قريباً من حد الإعجاز»^(١)، وقيل هو «دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين»^(٢)، وما قرب من حد الإعجاز فإن الأنام حتى عجزوا عن مضاهاته، أو الإتيان بمثله، ولكن ما لا يدرك جله لا يترك كله، فراح الأدباء صوب هذا الكلام للإستعانت به؛ فهو خير معين لمن أراد أن يجعل لنتاجه الأدبي سوقاً رائجة، وهذا ما شهد به الشريف الرضي، إذ قال وهو يقدم لكلام جده: «كان أمير المؤمنين عليهما السلام مشرع الفصاحة وموردها،

(١) في رحاب نهج البلاغة ١٨، وينظر: تاريخ الأدب العربي ١٨٧.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/٢٨.

.....أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الترجمة العربية

ومنشأ البلاغة ومولدها؛ ومنه ظهر مكنونها، وعنده أخذت قوانينها؛ وعلى أمثلته هذا كلُّ قائلٍ خطيب، وبكلامه استعان كلُّ واعظٍ بلigh. ومع ذلك فقد سبق وقصروا، وقد تقدَّم وتأخَّروا»^(١).

ولكن ما الذي جعل من علي بن أبي طالب عليه السلام متربعاً على عرش البلاغة والفصاحة مالكاً بزمامهما تدوران معه حيثما دار؟.

أرجع أغلب الباحثين عبقرية أمير المؤمنين عليهما السلام البلاغية هذه إلى سببين أو ثلاثة، فمثلاً الأستاذ أحمد حسن الزيات أرجع سمو الإمام في هذا الجانب إلى أمرين: خلاطه بالرسول عليهما السلام، ومرانه على الخطابة منذ حداثة سنّه فقال: «وهو بالإجماع أخطب المسلمين، وإمام المشائين... وما نظرُ ذلك قد تهيأ له إلا لشدة خلاطِه للرسول، ومرانته منذ الحداثة على الخطابة له والخطابة في سبيله»^(٢).

في حين رأت الدكتورة إبتسام مرهون الصفار إنّ من وراء تلك العبرية العلوية الأدبية القرآن الكريم، فقالت إنّ الإمام يمتلك تراياً جمّاً يمثلُ قدرة هذه الأمة العظيمة على الخلق والإبداع متمثلاً بقابلية الإمام البلاغية وقدرتِه في التعبير عن شتى المعاني بإسلوب رائع مؤثر. وقد استمدَّ معانيه وأفكاره من معين القرآن الذي نهل أدبه، وارتوى من آياته^(٣).

وهذه الأسباب - على أهميتها القصوى - لم تكن هي وحدها التي أنتجت ذلك البليغ المؤثر، زعيم دولة البلاغة، وقائد صولة الفصاحة^(٤)، لأنَّ الذين

(١) نهج البلاغة ٨ - ٩.

(٢) تاريخ الأدب العربي ١٨٧، وينظر: تاريخ الأدب العربي (العصر الأموي) ٢٣٣.

(٣) ينظر: أثر القرآن في الأدب العربي ١٨٦.

(٤) ينظر: شرح نهج البلاغة لحمد عبده ٥.

حفظوا وكتبوا وتعلّموا القرآن والحديث النبوّي هم كثيرون، ولكنّهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه عليه السلام ولم يبلغوا ما بلغ، بل المتأمل في شخصيته وتاريخه يجد أسباباً عدّة اجتمعت في شخصه عليه السلام دون أن تتوفر لغيره، مكتّبه من هذا الإبداع الأدبي، والتي أوجبت فيما بعد التأثير العميق على الأدباء. ومن هذه الأسباب:

أولاً

الجانب الوراثي

ولد علي بن أبي طالب عليهما السلام من أسرة عربية خالصة، فأبوه أبو طالب (رضوان الله عليه) كان شريفاً عظيماً «يمتلك ناصية الخطابة وله شعر جيد»^(١). وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، وهي أول هاشمية ولدت هاشمياً^(٢)، وقال المسعودي (ت ٣٤٦هـ): «وكان أول من ولده هاشميان من الخلفاء»^(٣).

ولم يقتصر الأمر على والدي الإمام عليهما السلام، بل أبعد من ذلك فعلي عليهما السلام سليل الدوحة الهاشمية التي امتازت بمزايا كريمة وخلال حميدة سواءً في الجاهلية، أو الإسلام، فقال هو في ذلك:

«إِسْلَامَنَا قَدْ سُمِعَ، وَجَاهِلِيَّتُنَا لَا تُدْفَعَ»^(٤).

وجاهليتنا لا تدفع أي «إن شرفنا في الجاهلية لا ينكره أحد»^(٥). وهذا ما

(١) روائع البيان في خطب الإمام: ٧٧.

(٢) ينظر: الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام ١٣٥.

(٣) مروج الذهب ٢/٣٥٠.

(٤) نهج البلاغة ٤٥٢.

(٥) شرح نهج البلاغة لمحمد عبده: ٣٧٦.

أكده الرسول الأكرم عليه السلام في أكثر من تصريح فمن ذلك قال مفتخرًا بنفسه: «إنَّ الله اصطفى من ولد آدم إبراهيم، وانْخَذَهُ خليلًا، واصطفى من ولدِ إبراهيم إسماعيل...، ثمَّ اصطفى من قريش بنى هاشم، ثمَّ اصطفى من بنى هاشم بنى عبد المطلب ثمَّ اصطفاني من بنى عبد المطلب»^(١).

أمّا الفصاحة والبلاغة فكانت إحدى ميزاتهم التي لا تُنكر بشهادة كبار المسلمين. قال ابن عباس (ت ٦٧هـ): «أعطى الله عزَّ وجلَّ بنى عبد المطلب سبعًا الصباحة، والفصاحة، والسماحة، والشجاعة، والحلم، والعلم، وحب النساء»^(٢) ثم إننا بعد ذلك نجد الإمام السجّاد عليه السلام (استشهد ٩٥هـ) قد أكَّدَ موهبَي النساء هذه وذلك في خطبته التي خطبها في مجلس يزيد بن معاوية، والتي أفتتحها بقوله:

«أيها الناس أُعطيتنا ستًا، وفُضلنا بسبع: أُعطيانا العلم، والحلم، والسماحة، والفصاحة، والشجاعة، والمحبة في قلوب المؤمنين...»^(٣).

وعلى أيّة حال فإنَّ الجانب الوراثي من الجوانب الفاعلة التي تلعب دوراً بارزاً في رسم الشخصية بشتى توجُّهاتها. وهذا ما يراه علم الجنينات الحديث فقد أكَّدَ على أنَّ وراثة الفرد تتكون أساساً من موروثات نوعية يتلقّاها من كُلِّ من والديه عند الحمل، إذ إنَّ الخلتين عند الآبدين اللذين نشأ منها الفرد تحتوي كُلُّ منها على مئات الآلاف من جزيئات دقيقة تسمى بالموروثات، وهذه الجزيئات الموروثة هي المسؤولة عن انتقال الصفات الوراثية من الآبدين والأجيال السابقة

(١) ذخائر العقبى . ١٠.

(٢) م. ن . ١٥.

(٣) بحار الأنوار ٤٥ / ١٣٨.

إلى الفرد^(١). وما يهم الدراسة من هذا الأمر هو أن أحد الأسباب الكامنة وراء بلاغة الإمام علي عليه السلام ما ورثه عن آبائه من مقدرة عالية في هذا الجانب، ثم تعزيزه إياها بروافد أخرى، فكان مثلاً لقول معروف الرصافي:

وَخَيْرُ النَّاسِ ذُو حَسْبٍ قَدِيمٌ أَقَامَ لِنَفْسِهِ حَسِيبًا جَدِيدًا^(٢) (الوافر)

ثانياً

الأثر النبوي في كلام الإمام علي عليه السلام

للحديث عن العلاقة بين الرسول الأكرم عليه السلام، وبين أمير المؤمنين عليه السلام، وإفرازات هذه العلاقة على مسيرة الإمام عليه السلام الإبداعية وبخاصة الأدبية منها ينبغي تكرار أمرتين هامتين:

الأول:

إن النبي محمد عليه السلام وفي جانب من جوانب شخصيته العظيمة هو ذلك الأديب العربي الأسمى الذي بز أهل الفصاحة في وقت وصلوا فيه إلى الذروة في هذا الميدان، فقال:

«أنا أفصحُ الْعَرَبِ بِيَدِ أَنِّي مِنْ قَرِيشٍ»^(٣).

وقال:

«أنا أفصحُ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ»^(٤).

(١) ينظر: سيكولوجية الفروق الفردية في الذكاء .٣٥

(٢) ديوان معروف الرصافي .٩٨ / ١

(٣) التلخيص الحبير .١٤ / ٤

(٤) السيرة الخلبية .٣٠ / ١

ولا جَرَمَ أَنَّ هذه القدرة العالية التي كان يمتاز بها مَكْنُته مثلما قال الرافعى من: إنتزاع المذاهب البينية، واقتضاب الفاظِ كثيرةً لم تُسمَعْ من العرب قبله، ولم توجد في متقدمٍ كلامها، وهي تُعدُّ من حسنات البيان، لم يتفق لأحدٍ مثلها في حُسن بلاغتها^(١).

الثاني:

إِنَّ القرابة أو العلاقة بينهما عليهم السلام وعلى الرغم من معرفتها لدى العامة والخاصة، إِلَّا أَنَّها أصعب بكثير من أن يُحاط بتفاصيلها ودقائقها، فإن شئت قلت أنها علاقة «من نوع علاقة موسى بهارون»^(٢) علاقة قائمة على الاصطفاء من جانب المصطفى عليه السلام «إكراماً لعليٍّ»، وفي روح عليٍّ كانت الاستجابة حاضرة، مسرعة، متشوقة^(٣). أو هي مثلما وصفها الحبيب المصطفى بقوله: «عليٌّ مني بمنزلة رأسى من جسدي»^(٤). علِمَ أَنَّ هذه القرابة القريبة بين هذين العظيمين لم يخل منها الذكر الحكيم، والذي يُعدُّ بدوره أدقَّ من وصفها، وأبلغ من عَبَّر عنها وذلك في قوله تعالى:

﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾^(٥).

فالمراد بـ«أنفسنا» بحسب ما أورد السيوطي (ت ٩١١هـ) في الدر المثور:

(١) ينظر: تاريخ آداب العرب ٢/٢٦٢.

(٢) عليٌّ سلطة الحق ٧٥.

(٣) م. ن. ٧٥.

(٤) ميزان الحكمة ١/١٤٤.

(٥) آل عمران ٦١.

«رسول الله عليه السلام وعليه السلام»^(١).

أما أمير المؤمنين عليه السلام فكثيراً ما كان يتغنى بهذه العلاقة وقد وصفها بـ:

«القرابة القرية، والمنزلة الخصيصة، وضاعني في حجره وأنا ولد (وليد) يضمّعني إلى صدره، ويُكْنِفني في فراشه ويُمْسِّني جسده... ولقد كنت أتبعه أتباع الفضيل أثر أمّه»^(٢).

في كُلّ الظروف والأوقات ففي السلم «كان علي بن أبي طالب أول من صلى مع النبي، فكانت البداية مُتَلَّة بالقوّة، لأنها دمجت ذات علي بذات النبي القائد دجماً لا فجوة فيه»^(٣). وفي الحرب «كان علي منجل الموت الذي يلاحق رؤوس قريش من أعداء دين الله فيقطفها قطفاً... كان المؤيد دائمًا برسول الله المقرب إليه المرموق منه بعين الحب والرعاية. لم تفت به فرصة واحدة مذ دخوله المدينة إلا إجتباه الرسول دون سواه»^(٤).

وعلى أية حال فإن القيمة الأدبية العظمى التي كان يمتاز بها «أ瘋ح من نطق بالضاد عليه السلام» وبفعل تلك القرابة القرية - بينه وبين أمير المؤمنين عليه السلام - التي تجسّدت في «السيرة، والسلوك، وفي الأفكار والحياة اليومية»^(٥) ألقى بظلالها على مسيرة أمير المؤمنين عليه السلام، لاسيما الأدبية منها حتى أصبح من الصعب التمييز بين بعض كلامهما لأنهما بحسب وصف الشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ):

(١) الدر المثور / ٢ / ٣٩ . وينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢ / ٥٥ . وينظر: تفسير الميزان / ٣ / ٢٦٥ .

(٢) نهج البلاغة ٣٤٨ .

(٣) علي سلطة الحق ٦٤ .

(٤) المجموعة الكاملة للإمام علي بن أبي طالب / ١ / ٦٣ .

(٥) علي سلطة الحق ٦٤ .

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في التشر العربي

«مستقاهم من قلبي^(١)، ومفروغها من ذنب^(٢)»^(٣).

أما مواطن كلام الإمام التي بُرِزَ فيها الأثر النبوى فكثيرة، ومنها خطبته عليه السلام التي قال فيها:

«المغبونون من غبن نفسه... والسعيد من وعظ بغیره»^(٤).

فآخر الخطبة تضمين حرفياً لقول سيد المرسلين عليه السلام:

«السعيد من وعظ بغیره»^(٥).

ومن تضمينه لكلام الرسول عليه السلام أيضاً قوله عليه السلام:

«لا طاعة لخلوق في معصية الخالق»^(٦).

وهذا أيضاً تضمين حرفياً لقول المصطفى عليه السلام:

«لا طاعة لخلوق في معصية الخالق»^(٧).

ثالثاً

الأثر القرآني في كلام الإمام علي عليه السلام

لا يخفى الأثر الواسع الذي أحدثه كتاب الله العزيز حال نزوله على اللغة

(١) القليب: البئر وجمعها قلوب ينظر: لسان العرب مادة (قلب) ٦٨٩ / ١.

(٢) الذّنوب: الذّلو فيها ملؤها أو قريب منها، وقيل هي الملأى ولا يقال لها وهي فارغة ينظر: م. ن. مادة (ذنب) ٣٩٢ / ١.

(٣) نهج البلاغة ٥٩٣.

(٤) م. ن. ١٢٧.

(٥) الشّفاعة بتعريف حقوق المصطفى ٨٠ / ١.

(٦) نهج البلاغة ٥٨٣.

(٧) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ٢٧ / ١.

العربية والناطقين بها عموماً، فقد كان هذا الأثر واضحاً في الإسلوب، والمعاني والألفاظ، حتى أصبحت اللغة العربية بفعله لا تزداد في «كرّ الغداة ومرّ العشيّ إلا قداسةً وجلاً»، جعلها تشتبث بالبقاء وتتشي إلى الخلود»^(١).

لقد أدرك الأدباء في وقت مبكر هذه النقلة الجديدة وهذا التطور الذي أحدثه القرآن الكريم، والذي لم يكن بحسبان أحدٍ منهم، فحاولوا «أن يصوغوا آثارهم الأدبية من شعرٍ ونثرٍ مهتمين بهدي ديباجته الكريمة وحاشيته الدقيقة وعباراته السلسة، وعكف عليه علماء اللغة وفنونها فهيمن على عقوفهم وامتلك مقادهُ أدواوَّهم حتى أينعت ثماره في جميع فنونهم ظهرت للقرآن نتائجُ فريدةُ في اللغة والأدب والبلاغة والنقد»^(٢). غير أنَّ هذا التأثير القرآني ظلَّ متفاوتاً على الشخصيات الإسلامية وغيرها من شخص لآخر، ولكنَّه بلغ الذروة على أمير المؤمنين عليه السلام حتى عُدَّ كلامه المثال الحي، وفعله التطبيق الواعي لكلام الله تعالى وغدت تربطهما علاقة حميمة وصداقة صدوقه خالدة بخلود الحديث الشريف:

«لَنْ يَفْرَقاْ حَتَّى يَرِداْ عَلَىَ الْحَوْضَ»^(٣).

وهذا مردُه إلى إيمانه عليه السلام المطلق بمبادئِ القرآن الكريم: أوامره ونواهيه جيئاً، ومردُه أيضاً إلى الجهد الجهيد الذي بذله مع القرآن الكريم على صعيد الحفظ، والجمع، والتفسير أمّا الحفظ فقال ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ): «اتفق

(١) أثر القرآن الكريم في اللغة العربية: ٣١.

(٢) نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم ١٨٤.

(٣) الحديث: «إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبير من الآخر كتاب الله... وعترقي أهل بيتي وإنما لن يفترقا حتى يردا علىَ الحوض» مسند أحمد بن حنبل ١٧٠ / ٣٧٤. وينظر: المعجم الكبير ٣ / ٦٥.

وينظر: المعجم الأوسط ٣ / ٤٥. وينظر: السنن الكبرى للنسائي ٥ / ٤٥.

الكلُّ على أَنَّه كَانَ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَمْ يَكُنْ غَيْرُهُ يَحْفَظُهُ، ثُمَّ هُوَ أَوَّلُ مَنْ جَمَعَهُ^(١). وَبِهَذَا - أَيُّ الْجَمْعِ - صَرَحَ ابْنُ النَّدِيمَ قَائِلًا: «فَأَقْسَمَ أَنَّهُ لَا يَضُعُ عَنْ ظَهْرِهِ رَدَاءَهُ حَتَّى يَجْمِعَ الْقُرْآنَ فَجَلَسَ فِي بَيْتِهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى يَجْمِعَ الْقُرْآنَ؛ فَهُوَ أَوَّلُ مَصْحَفٍ جَمَعَ فِيهِ الْقُرْآنَ مِنْ قَلْبِهِ... وَرَأَيْتُ أَنَا فِي زَمَانِنَا عِنْدَ أَبِي يَعْلَى حَمْزَةَ الْحَسَنِيِّ رَحْمَةَ اللَّهِ مَصْحَفًا قَدْ سَقَطَ مِنْهُ أُورَاقٌ بَخْطَّ عَلَى بْنَ أَبِي طَالِبٍ يَتَوَارَثُهُ بْنُ حَسَنٍ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ، وَهَذَا تَرْتِيبُ السُّورِ مِنْ ذَلِكَ الْمَصْحَفِ»^(٢).

وَهَذِهِ الْعَمَلِيَّةُ - أَيْ عَمَلِيَّةِ جَمْعِ الْقُرْآنِ - أَصْبَحَ مِنَ الْمَتَاحِ وَالْمَيْسُورِ الْكَشْفُ عَنْ تَجْلِيلِهَا فِي نَتَاجِهِ، وَبِأَنْواعِهِ وَأَغْرَاضِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ؛ كَوْنُهَا أَثْمَرَتْ وَأَصْبَحَتْ سَبِيلًا رَئِيسًا فِي جَعْلِ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ (صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ) خَطْبَيًّا مَفْوَهًا.

ثُمَّ بَعْدَ الْحَفْظِ وَالْجَمْعِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِرَعْلَيْلَةِ فِي عِلْمِهِ وَتَفْسِيرِهِ لِكَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ الْقَرْطَبِيُّ (ت ٦٧١): «فَأَمَّا صَدَرَ الْمُفَسِّرِينَ وَالْمُؤْيِدِ فِيهِمْ فَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَيَتْلُوهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ»^(٣) الَّذِي قَالَ: «مَا أَخْذَتُ مِنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ فَعَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ»^(٤).

وَلَكِنَّ كُلَّ مَنْ وَصَفَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْلَةً فِي هَذَا الْمُضَمَّنِ لَا يَرْقِي إِلَى حَقِيقَتِهِ، وَلَا إِلَى مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، لَأَنَّهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِهِ، وَهَذَا جَاءَ تَصْوِيرَهُ لِمَنْزِلَتِهِ الْعِلْمِيَّةِ أَدْقَ بِكَثِيرٍ مَا قِيلَ فِيهِ عَلَى الْأَقْلَلِ فِي هَذَا الْجَانِبِ، فَقَالَ عَلَيْلَةً وَاصِفًا عِلْمَهُ بِالْكِتَابِ الْعَزِيزِ:

(١) شَرْحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ لِابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ /١/ ٣٠.

(٢) الفَهْرَسُتُ لِابْنِ النَّدِيمِ .٤١.

(٣) الجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ /١/ ٣٧.

(٤) مِنْ /١/ ٣٧.

«.. ما يَبَيِّنَ لُوحَيِ الْمَصْحِفِ مِنْ آيَةِ إِلَّا وَقَدْ عَلِمْتُ فِيمَنْ نَزَلتَ، وَأَيْنَ نَزَلتَ، فِي سَهْلٍ أَوْ فِي جَبَلٍ، وَإِنَّ بَيْنَ جَوَانِحِي لَعِلْمًا جَمِيعًا، فَسَلُوْنِي قَبْلَ أَنْ تَفْقَدُونِي فَإِنَّكُمْ إِنْ فَقَدْتُمْنِي لَمْ تَجِدُوا مِنْ يَحْدِثُكُمْ مِثْلَ حَدِيثِي»^(١).

وهذا الأثر العظيم الذي تركه القرآن الكريم على كلام الإمام القويim هو الذي دفع كرينكو - أستاذ الآداب العربية في كلية عليكرا الهندية - عندما سُئل عن الإعجاز القرآني إلى القول: «إن للقرآن أخاً صغيراً يسمى نهج البلاغة فهل في إمكان أحدٍ منّا أن يأتي بمثل هذا الأخ الصغير حتى يسوغ لنا الدراسة عن الأخ الكبير»^(٢). فالمستشرق بكلامه هذا قد عَدَّ نهج البلاغة طريقاً مهيناً وعلماً دالاً على فهم النّص القرآني، وهذا الأمر لربما يُعدُّ من المسلمات عند المسلمين لأنّ كلامه عليه السلام من القرآن منطلقٌ وعليه دالٌّ، وهو أيضاً صوتٌ صادح بآيات الكتاب والفاظه ومعانيه. وهذا ما سلط عليه الباحثون جهدهم وأستخرجوا كثيراً من الدُّرر القرآنية الكامنة في النص النهجي^(٣).

ومن الشواهد القرآنية التي أثّرت في كلامه عليه السلام قوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطَا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٤).

فالباحث يرى أنّ الآية لكريمة هي التي دعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول:

(١) أمالى المفيد ١٥٢.

(٢) المستويات الجمالية في نهج البلاغة ٣٤.

(٣) درس الباحثون هذا الموضوع في أكثر من دراسة منها: الأثر القرآني في نهج البلاغة دراسة في الشكل والمضمون، ومنها: الأثر الدلالي للقرآن الكريم في نهج البلاغة.

(٤) البقرة ١٤٣.

«نحن النُّمُرُقُ الْوُسْطَى بِهَا يَلْحُقُ التَّالِي، وَإِلَيْهَا يَرْجُعُ الْغَالِي»^(١).

والنُّمُرُقُ والنُّمُرُقُ مُثَلَّةٌ هي الوسادة الصغيرة^(٢)، وهذا تشبيه جميل ذُكر فيه المشبه «نحن» أي أهل البيت عليهما السلام، والمشبه به الوسادة أو «النمرقة الوسطى» أما وجه الشبه، أو الغاية التي جاء من أجلها التشبيه فهي مثلما قال محمد عبده: «الإسناد اليهم في أمور الدين كما يُستند إلى الوسادة لراحة الظهر واطمئنان الأعضاء ووصفها بالوسطى لإتصال سائر النّارق بها، فكأنَّ الكل يعتمد عليها إماً مباشرةً أو بواسطة ما بجانبه، وأل البيت على الصراط الوسط العدل، يلحق بهم من قصرٍ ويرجع إليهم من غلاً وتجاوز»^(٣). ولو قال المرحوم: الإسناد إليهم في أمور الدين والدنيا لكان أدق.

والذي يعُضِّدُ الترابط بين الآية الكريمة وبين قول أمير المؤمنين عليهما ما صرَّح به المفسرون من جمهور المسلمين، فقد قال الآلوسي: «عن عليٍّ كَرَمُ الله وجهه: نحن الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾^(٤).

وعن الإمام لباقر عليهما السلام (إِسْتَشْهَدَ ١١٤ هـ) إِنَّهُ قال:

«نَحْنُ الْأُمَّةُ الْوَسْطُ، وَنَحْنُ شَهَدَاءُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ»^(٥).

أما الأمر الذي تعنيه الدراسة هنا ويهمُّها أكثر من غيره هو أنَّ هذا الأثر

(١) نهج البلاغة ٥٧١ - ٥٧٠.

(٢) ينظر: القاموس المحيط ٣/٢٨٧.

(٣) شرح نهج البلاغة للشيخ محمد عبده ٤٧٢.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢/٣٩. أو ٤/٢.

(٥) مجمع البيان ١/٤١٧.

القرآن العظيم على كلام أمير المؤمنين عليه السلام كان أحد الإشعاعات المهمة التي من خلاها نفَّذَ كلامه عليه السلام إلى قلوب المتعلمين حاملاً معه أبلغ التأثير وأعذه.

رابعاً

الشموليَّة في كلامه عليه السلام

من اللافت للنظر في النص العلوي أنه يمتاز بشمولية واسعة جدًا قل نظيرها، وما هذا إلا إِنْعِكَاس واضح لثقافته غير المحدودة، والتي ظهرت تجلياتها على التنوع المهيِّب في كلامه الذي تضمن «مُخْتَلَفَ مُسْتَوَيَّاتِ الْعِرْفَةِ»، كالحديث عن الكون وظواهره المختلفة، من سماء وأرضٍ وكواكب وبشر وحيوان وعناصر أخرى وكذلك يتضمن الحديث عن الظواهر النفسية والتربوية والإجتماعية والسياسية والإقتصادية والتاريخية^(١)، ومن هنا كان كلامه عليه السلام مفتاحاً لكل العلوم، بيدِه أبعديات المعارف التي تحتاجها البشرية. وقد أوصل بعضهم هذه العلوم إلى ما تتيhi علمٌ مُسْتَخْرِجٌ من نهج البلاغة^(٢). وهذه الظاهرة في كلامه عليه السلام مما عُرِفت عنه سابقاً، وكان متفرداً بها، قال الرضي: «وَمِنْ عَجَابِهِ الَّتِي افَرَدَ بِهَا وَأَمِنَّ الْمُشارِكةَ فِيهَا، أَنَّ كَلَامَهُ الْوَارِدَ فِي الرَّهْدِ وَالْمَوَاعِظِ، وَالتَّذْكِيرِ وَالزَّوَاجِ، إِذَا تَأْمَلَهُ الْمُتَأْمَلُ، وَفَكَرَ فِي الْمُتَفَكَّرِ، وَخَلَعَ مِنْ قَلْبِهِ أَنَّهُ كَلَامٌ... مِنْ لَا حَظَّ لَهُ فِي غَيْرِ الزَّهَادَةِ، وَلَا شَغْلٌ لَهُ بِغَيْرِ الْعِبَادَةِ، قَدْ قَبَعَ فِي كَسْرِ بَيْتٍ، أَوْ انْقَطَعَ إِلَى سَفَحِ جَبَلٍ، لَا يَسْمَعُ إِلَّا حَسَّهُ وَلَا يَرَى إِلَّا نَفْسَهُ، وَلَا يَكَادُ يُوقِنُ بِأَنَّهُ كَلَامٌ مِنْ يَنْعَمُ

(١) مختصر تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي . ٩٣

(٢) ينظر: علوم نهج البلاغة . ١٠ . وللمزيد عن هذه العلوم وأمثالها في كلام أمير المؤمنين ينظر: م. ن. ١٦٢ - ٢٧٧ . وينظر: الاتجاهات الفكرية عند الإمام علي: ٣٠٠ - ٣٠٠ . وينظر: الإعجاز العلمي

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في التأثير على
 في الحرب مُصلتاً سيفه فيقطُ^(١) الرّقاب، ويجدُ الأبطال، ويعود به ينطف دماً
 ويقطُر مهجاً، وهو مع تلك الحال زاهد الزّهاد وبدل الأبدال. وهذه من فضائله
 العجيبة وخصائصه اللطيفة، التي جمع بها بين الأصداد»^(٢).

ويبدو أنَّ الشاعر صفي الدين الحلي (ت ٧٥٠ هـ) تأثَّر بوصف الشريف
 الرضي (ت ٤٠ هـ) هذا، كما تأثر بتلك الأصداد التي وُجدت سويةً في كلام
 الإمام علي عليه السلام فقال:

جُمِعت في صفاتك الأصداد فلهذا عزَّت لك الأنداد (الخفيف)

زاهدٌ حاكمٌ حليمٌ شجاعٌ فاتكٌ ناسكٌ فقيرٌ جواد

شيمٌ ما جُمعنَ في بشرٍ قط ولا حاز مثلهنَ العباد^(٣)

وكان من مظاهر هذا الجمْع أنه عليه السلام مثلما قال الفاخوري: «من أول من جمع
 في الخطبة الواحدة بين الدين والسياسة، وكان هدفه إقناع جنوده بصحة عقائده،
 وهكذا كانت خطبه ترتكز على العقيدة الإسلامية»^(٤).

وتجدر الإشارة إلى أنَّ كلامه في الأمور والمسائل العلمية البحتة وعلى الرغم
 مما تتطلبه الكتابة فيها من جمود وبعد عن المتعة الأدبية، إلا أنه عليه السلام وبعد أن يسكب
 عليها من مواهبه الكبرى وروحه الشفافة يخرجها ممتازةً «بلغة فنية تتوكأ على

(١) قطَّ يقطُّ قطًا بالقطع هو قطع الشيء الصلب، وقيل هو القطع عَرْضاً. ينظر: لسان العرب / ٧ / ٣٨٠
 مادة (قطط).

(٢) نهج البلاغة: ١٠ - ١١.

(٣) ديوان صفي الدين الحلي ٨٩.

(٤) الجامع في تاريخ الأدب العربي / ١ / ٣٥١.

الإيقاع والصورة وسائر عناصر الفن»^(١). أي أنَّ استراتيجية التي كان يتوخاها في الخطاب - على الرغم من تعدده - ^(٢) واحدة من الناحية الفنية. ولعله من وراء ذلك أراد لأفكاره ومن خلال كلامه أن تشَقَّ طريقها إلى النفوس مصحوبةً بقوة التأثير، والحجَّة البالغة في الإقناع، فضلاً عن دفع الملالة والسام عن المتلقى. وبما إنَّ «عليَّ بن أبي طالب عليهما السلام»، وهو الحاوي على جميع سمات العبريات المتعددة، فهو الخليفة القائد، وهو المحارب العظيم، وهو الفيلسوف، وهو الأستاذ في العدل والمؤسس لعلم النحو، وهو الفقيه، القاضي، العالم بالحساب والفلك، وهو أمير البلاغة والشاعر، والحكيم، والحافظ لتراث محمد رسول الله عليهما السلام وهو الأخلاقي الرفيع، والأنموذج في كل شيء. يستطيع المرء أن يتعلم عنه أشياء كثيرة، ولكن لا يستطيع أن يكون مثله»^(٣). فإنَّ هذه الموسوعية التي انطوت عليها شخصيته ولدت أثراً على كلِّ هذه الأصناف التي ذُكرت، وهذا ما تنشده الدراسة فمثلاً وجدت الدراسة أنَّ أشهر الواعظين كانوا يتنفسون كلامه عليهما السلام ثم يعظون الناس، به بالنص أو المعنى وعلى رأس هؤلاء الحسن البصري (ت ١١٠هـ)، وعمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ)، وهكذا كان الفلاسفة والمتكلمين مثل واصل بن عطاء (ت ١٢٧هـ) الذي نهل علم التوحيد عن أمير المؤمنين عليهما السلام، ثمَّ بصمته الواضحة جدًا لدى الباحث على كتاب الدولة ومدبري سياستها الداخلية والخارجية، ومنظمي الجندي، وواضعين خطط الحرب وليس

(١) مختصر تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي .٩٤

(٢) للتوسيع حول شمولية وتعدد الخطاب عند أمير المؤمنين ينظر: الخطاب في نهج البلاغة بنبيه وأنماطه ومستوياته دراسة تحليلية ١٢١-١٢٢. وينظر: الخطاب في نهج البلاغة دراسة موضوعية

.٦٦-٧٥

(٣) عليَّ سلطة الحق: ٤٣.

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في التأثيرات الكبيرة التي أوجدها الدراسة في رسالة الصحابة لابن المقفع (ت ١٤٢) والعهد الذي كتبه عبد الحميد الكاتب (ت ١٣٢ هـ) على لسان مروان بن محمد (ت ١٣٢) إلى ولده^(١).

ولكن مع هذا وعلى الرغم من إنّ هؤلاء الكتاب قد تخصص كُلُّ منهم بعلم أو فنٍ من فنون القول، إلَّا أنّ مرجعيته وإمامته الذي لا يصلح هو على بن أبي طالب عليهما السلام بذلك استطاعوا التعلُّم منه دون أن يصلوا إليه، لأنّ الذي يقرأ كلامه يجده مثلما قال السيد الخوئي: «وهذه خطبه في نهج البلاغة، فإنّه حينما يوجه كلامه فيها إلى موضوع لا يدع فيه مقالاً لقائل، حتى ليُخال من لا معرفة له بسيرته أنّه قد قضى عمره في تحقيق ذلك والبحث عنه»^(٢) لذلك غدا: «تعزى إليه كُلُّ فضيلة، وتنتهي إليه كل فرقة، وتتجاذبه كُلُّ طائفة، فهو رئيس الفضائل وينبوعها، وأبو عذرها؟... كُلُّ من يزعغ فيها بعده فمنه أخذ، ولوه اقتضى، وعلى مثاله احتدى»^(٣).

خامساً

الإلهام الغيبي والمدد الإلهي

يعرّف الإلهام: «بأنّه قوة تلقائية لا شعورية يتميّز بها بعض الأشخاص فتمنحهم، من حيث لا يدرى أحد من أين القدرة على الإبداع والخلق في ومضة خاطفة»^(٤).

(١) لكن بعد أن نهضت الرسالة بابن المقفع والبصري أكتفينا بها وادخرنا النصوص المتأثرة لدى عبد الحميد وأمثاله إلى دراسة قابلة إن شاء الله.

(٢) البيان في تفسير القرآن ٧٧.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ٢٢.

(٤) الإبداع في الفن ٨١.

أمّا إلهام الإمام علي بن أبي طالب عليهما السلام الذي كان معززاً ومحفوفاً به فقد كان معروفاً في المصدر، إذ تشير معظم الروايات والأحداث الإسلامية إلى رعاية السماء له في كثير من جوانب العظمة والإرقاء^(١)، وهذا الأمر جاء واضحاً إمّا بأمرٍ من الله تعالى، فعن النبي عليهما السلام أنه قال لأمير المؤمنين عليهما السلام:

«إِنَّ اللَّهَ أَمْرَنِي أَنْ أُدْنِيَكَ وَلَا أُقْصِيَكَ، وَأَنْ أُعْلَمَكَ أَنْ تَعْيَ وَحْقٌ عَلَى اللَّهِ أَنْ تَعْيَ، قَالَ فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَعَيَّهَا أَذْنُ وَاعِيَةً﴾»^(٢)^(٣).

أو بدعوات الرسول عليهما السلام فكثيراً ما كان يدعو لتسديد خطى أمير المؤمنين عليهما السلام حتى أن هذه الدعوات دخلت هذا الحيز من بابه الواسع، فقد ورد عن الإمام علي عليهما السلام أنه قال للنبي عليهما السلام حين بعثه في إحدى المهام:

«إِنَّكَ تَبْعَثُنِي إِلَى قَوْمٍ أَسْنُّ مِنِّي فَكِيفَ الْقَضَاءُ فِيهِمْ؟ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ سَيَهْدِي قَلْبَكَ، وَيَثْبِطُ لِسَانَكَ. قَالَ فِيمَا تَعَايَيْتُ فِي حُكْمَةِ بَعْدِهِ»^(٤).

وهذه وثيقة ثمينة، وشهادة رصينة من الرسول الأكرم عليهما السلام بحق علي عليهما السلام أكدّ من خلاها على هداية قلبه وثبتت لسانه. وأيّ شيءٍ تتبعيه البلاغة أكثر من هذا فالكلام ينبع من القلب ثم يترجمه اللسان، ومثلما قال علي عليهما السلام:

«اللسانُ تُرجمانُ الجنانِ»^(٥).

أو إنّ الإلهام إفاضة على أمير المؤمنين عليهما السلام من الإلهام النبوى، على اعتبار إنّ

(١) ينظر: علي كما وصف نفسه .٤٩

(٢) الحاقة .١٢

(٣) مجمع البيان ١٠٧ / ١٠٧ . وينظر: لباب النقول ١ .٢٠١

(٤) خصائص أمير المؤمنين .٣٧

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم .٢٠٥

الإلهام النبوى انتقل كله أو بعضه إلى الوصي الذى أدمجت ذاته «بذات النبي القائد دمجاً لا فجوة فيه فكانت صورة الريب متجلسة في السيرة والسلوك، وفي الأفكار والحياة اليومية»^(١). ولربما هذه العلاقة المعقّدة المعرفة هي التي حدث بالدكتور محمود البستاني إلى أن يؤكّد إنتقال الإلهام النبوى إلى العطاء العلوي، فقال: «يمكن القول إنّ أجود ما عرفه تأريخ البشرية هو ما أنتجه الإمام علي عليه السلام فكراً، وعمقاً، وفنّاً. نسوق هذه الحقيقة وأمامنا وثيقتان: إحداهما نتاج الإمام نفسه حيث عكس تأثيراً على الكتاب... وأمّا الوثيقة الأخرى، فهي الحديث المعروف عن النبي عليه السلام القائل:

«أنا مدينة العلم وعلى بابها»^(٢).

إنّ هذا الحديث ليس مجرّد إستعارة فنية تتوكّأ على المدينة وبابها، بل هي حقيقة لها واقعها الحيّ، حيث نعرف أنّ المقصوم عليه السلام لا يتوكّأ على مبالغة أو وهم؛ أو خيال، لذلك فإنّ الحديث المذكور يعني أنّ الله تعالى ألمّ النبي عليه السلام بالمعرفة التي لم يلهمها لآخرين... وأنّ علياً هو الشخصية الوحيدة التي يمكنها أن تكون بمثابة باب إلى دخول المدينة، وهذا يعني أيضاً أنّ النبي عليه السلام قد أوصل المعرفة التي منحها الله إياه إلى علي عليه السلام وجعله لساناً رسمياً يتكلّم بالمعرفة نيابة عن النبي عليه السلام»^(٣).

وهكذا كان قسمُ كبير من عطائه مصدره الجانب الغيبي، أو عن طريق الوحي الذي عبر عنه الفاخوري بقوله: «أوّل ما يتبادر إلينا من فلسفة الإمام

(١) علي سلطة الحق ٦٤.

(٢) علي إمام البررة ٩٦/٢. وينظر: المستدرك ١٣٧/٣.

(٣) مختصر تاريخ الأدب الإسلامي في ضوء المنهج الإسلامي ٩٣.

إن للمعرفة طريقين: طريق الوحي، وطريق العقل. أما الوحي فواسع النّطاق، وخبره حُقُّ اليقين»^(١).

أما العقاد فقد عدَّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام عن قدرة إلهية من خلال ما أُوتى من حكمة، فقال: «فكل نمط من أنماط كلامه، شاهد له بالملائكة الموهوبة في قدرة الوعي وقدرة التعبير، فهو ولا شك من أبناء آدم الذين علموا الأسماء وأتوا الحكمة، وفصل الخطاب»^(٢).

ولو عدنا إلى أمير المؤمنين عليه السلام نفسه ودعوناه لبيان هذا الجانب لقال: بلغة الواشق، مفتتحاً قوله بالقسم:

«تَاللهُ لَقَدْ عُلِّمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالَاتِ، وَإِتَامَ الْعِدَاتِ، وَتَكَامَ الْكَلِمَاتِ، وَعِنْدَنَا - أَهْلُ الْبَيْتِ - أَبْوَابُ الْحُكْمِ، وِضِيَاءُ الْأَمْرِ»^(٣).

وقال:

«فَاسْتَمِعُوا مِنْ رَبَّانِيْكُمْ، وَأَحْضِرُوهُ قُلُوبَكُمْ، وَاسْتِيقْظُوا إِنْ هَنَّ فَبِكُمْ»^(٤).

فأمير المؤمنين عليه السلام هو صاحب الأذن الوعائية بحسب الذكر الحكيم، وهو ثابت القلب واللسان، وهو باب مدينة العلم بحسب الوثيقة النبوية، وهو ربانيُّ هذه الأمة ومن عُلِّمَ تمام الكلمات بحسب ما وصف به نفسه، وهو صاحب القدرة الإلهية في كُلِّ نموذج من كلامه بحسب وصف العقاد، وهو صاحب

(١) الجامع في تاريخ الأدب العربي: ١ / ٣٤٥.

(٢) العبريات الإسلامية / ٢ / ١٤٥.

(٣) نهج البلاغة - ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٤) م.ن. ١٨٠.

فلسفة يشكل الوحي جزءاً لا يتجزأ منها بحسب كلام حنا الفاخوري، وهو من عزّز بنفح إلهي وإلهام قدسي مكناه مع غيرهما من وجوه البيان، وملكاً أعنّة الكلام، بحسب وصف محمد أبي الفضل إبراهيم^(١).

أما سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤ هـ) فقد سبق هؤلاء إلى بيان هذه الحقيقة في كلام الإمام عليه السلام ووصفه بوصف دالٍ على تأثير عميق، فقال: «كانَ عَلَى يَنْطِقُ بِكَلَامٍ قَدْ حُفِّظَ بِالْعَصْمَةِ، وَيَتَكَلَّمُ بِمِيزَانِ الْحِكْمَةِ، كَلَامُ الْقَى اللَّهُ عَلَيْهِ الْمَهَابَةِ؛ فَكُلُّ مَنْ طَرَقَ سَمْعَهُ وَرَاقَهُ فَهَابَهُ، وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ الْحَلاَوَةِ وَالْمَلَاحَةِ، وَالْطَّلَاؤَةِ وَالْفَصَاحَةِ، وَلَمْ يَسْقُطْ مِنْهُ كَلْمَةٌ، وَلَا بَارَتْ لَهُ حَجَّةٌ، أَعْجَزَ النَّاطِقِينَ، وَحَازَ قَصْبَ السَّبْقِ فِي السَّابِقِينَ»^(٢). فابن الجوزي إذاً أرجع غالبية بلاغة الإمام ومهابة كلامه للتصرف الإلهي «قد حُفِظَ بِالْعَصْمَةِ» «كَلَامُ الْقَى اللَّهُ عَلَيْهِ الْمَهَابَةِ» «قد جَمَعَ اللَّهُ لَهُ...».

وهذا الدعم الإلهي لم يأت من فراغ، بل هو إستحقاق له عليه السلام؛ لأنَّه ذاب تماماً في الله سبحانه وتعالى، وطبعي منْ يتميَّز بهذا يكون مصداقاً فعلياً لقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَّهُمْ سُبْلَنَا﴾^(٣).

ونرى أيضاً أنَّ الله - سبحانه وتعالى - حبا بهذه الخصيصة؛ لأنَّه مجتبى ومعد لواصلة المسيرة النبوية بشهادة قول المصطفى عليه السلام:

«أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»^(٤).

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي حديد ١ / ٥ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) تذكرة الخواص ١١٤.

(٣) العنكبوت ٦٩.

(٤) صحيح مسلم ٧ / ١٢٠، وينظر: مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ٣١٧.

والعجب إنَّ هارون لم يكن وصيًّاً لموسى عليهما السلام فحسب، بل كان فصيحاً أيضاً،
قال تعالى حكاية على لسان نبيه موسى:

«وأخي هارون هو أَفَصَحُّ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُه مَعِي رِدْءًا يُصدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ
أَنْ يُكَذِّبُونَ»^(١).

وهكذا كان أمير المؤمنين عليهما السلام أيضاً مدعوماً بهذه الصفة، لأنَّها ضرورة من
الضرورات التي ينبغي توافرها في المبلغ الرسالي الهاذف.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ الباحث - وبهذا التوجيه الذي يجيء الإلهام من خلاله
- لا يتفق مع تعريف عز الدين إسماعيل للعبقرية والإلهام، فهو يراهما «قوة خفية
تدبُّ في الإنسان مستقلة عن مجدهاته الخاصة»^(٢).

ومهما يكن من أمرٍ بعد هذا، فلا شك ولا ريب من إنَّ هذا الإلهام الإلهي،
والنفح القدسي الذي تجلَّ في كلام أمير المؤمنين عليهما السلام من افرازاتهِ ذلك النصيب
الكبير من التأثير على القارئ.

سادساً

هضمه لتراث العرب الأدبي

ولد علي عليهما السلام في بيئةٍ كان الأدب أرقى وأثمن ما يمتلك، فكان عند قومه، وفي
بيئته تلك البضاعة المزاجة التي يحلو التفاخر بها، وتمجيد أصحابها؛ فالأديب
يمثل لديهم لسان القبيلة المدافع والذائد عنها، والمحامي عن حقوقها، وهذا
يعني إنَّ من لا يمتلك هذا الصنف أو تلك الشخصية فإنه خسر محارباً فاق في

(١) القصص ٣٤.

(٢) الأدب وفنونه دراسة ونقد ٣٥.

لسانه وقع السيف. وبسبب أهميّة العرب هذه أصبحت لهم ثروة أدبية هائلة ومتّميزة على الصعيدين الكنمي والفنّي.

في هذه الأثناء، وفي تلك البيئة والعمل الأدبي مفعّم بالعطاء ولد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فمن غير المعقول أن لا يتتأثر بمضاعفة قومه، بل المتّبع لنتائج يجده قد «ضمّ روائع البيان الجاهلي الصافي المتّحد بالفطرة السليمة إتحاداً مباشراً إلى البيان الإسلامي الصافي المذهب المتّحد بالفطرة السليمة والمنطق القوي اتحاداً لا يجوز فيه فصل العناصر بعضها عن البعض»^(١) فقد ورد عنده الإشتّهاد بالموروث الجاهلي من شعرٍ ومثل وحكمـة في مواطن عدـة، فمن التضمين الشعري المباشر أو النصي تمثـله في خطـبـته الشقـشـقـية بقول الأعشـى إلى ابن الخطـاب:

شتـآن ما يومـي عـلـى كورـها ويـوـمـ حـيـانـ أخـي جـابـ^(٢) (السرـيع)

ومن التضمينـ بالمعنىـ قولـه عليه السلامـ:

«وَلَيْسِ لِوَاضِعِ الْمَعْرُوفِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَعَنْ غَيْرِ أَهْلِهِ، مِنَ الْحَظْ فِيمَا أَتَى إِلَّا مُحَمَّدَةُ اللَّئَامِ...»^(٣).

فالباحث يرى أن هناك شبهاً كبيراً بين قول الإمام هذا وبين بيت لزهير ابن سلمى في معلقتـهـ، قالـ فيهـ:

ومن يجعلـ المعـرـوفـ فـي غـيـرـ أـهـلـهـ يـكـنـ حـمـدـهـ ذـمـاـ عـلـيـهـ وـيـنـدـمـ^(٤) (الـطـوـيلـ)

(١) روائـ نـهجـ الـبـلـاغـةـ ١٠.

(٢) نـهجـ الـبـلـاغـةـ ٢٦ـ.ـ والـبـيـتـ لـلـأـعـشـىـ الـكـبـيرـ،ـ يـنـظـرـ:ـ دـيـوـانـهـ ١٤٧ـ.

(٣) مـ.ـ نـ.ـ ٢٢٨ـ.

(٤) دـيـوـانـ زـهـيرـ بـنـ أـبـيـ سـلـمـىـ ١١١ـ.

فالشبه هنا واضح تماماً وبخاصة بين صدر البيت وبين ما أبتدأ به أمير المؤمنين عليه السلام:

«وليس لواضع المعروف في غير حقه، وعند غير أهله».

أما الأمثال، فقد وظفها في غير ما موطن من كلامه، حيث جاء في إحدى خطبه:

«وَأَحْكُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ فَمَا آتَيْتَ عَلَى آخِرِ قَوْلِي حَتَّى أَرَأْكُمْ مُتَنَرِّقِينَ أَيَادِيَ سَبَا»^(١).

فقوله «أيادي سبا» من الأمثال المشهورة عند العرب^(٢)، ويضرب للمتفرقين، وأصله^(٣) قوله تعالى:

﴿وَمَرَّقَنَا هُمْ كُلَّ مُمَّزق﴾^(٤).

وبعد أن عرفنا أن المثل يضرب للمتفرقين؛ فإن توظيفه من قبل الإمام كان من البراعة بمكان، إذ عَصَدَ به تشتت أنصاره عنه، وخذلانهم إياه، فكان هذا المعنى الركيزة الأساسية والصورة الواضحة للخطبة التي ورد فيها المثل ومنها قوله عليه السلام:

«أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيَظْهَرَنَّ هُؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَيْكُمْ، لَيَسْ لَأَنَّهُمْ أُولَى بِالْحَقِّ مِنْكُمْ، وَلَكِنْ لِإِسْرَاعِهِمْ إِلَى باطِلِ صَاحِبِهِمْ، وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّيْ. وَلَقَدْ أَصَبَّتِ الْأُمُّ تَحْافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا، وَأَصَبَّتِ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي ... أَتُلُّ عَلَيْكُمُ الْحِكْمَةِ»

(١) نهج البلاغة: ١٦١.

(٢) ينظر: مجمع الأمثال / ١٢٧٦.

(٣) شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد / ٤/ ٣٦.

(٤) سبا . ١٩

فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا، وَأَعْظُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَتَنَفَّرُونَ عَنْهَا»^(١).

وتجدر الإشارة إلى أنَّ توظيفاً للإرث الأدبي قد حصلَ في مواطن متعددة من كلام على بن أبي طالب عليهما السلام^(٢). والذي يهم الدراسة من هذا الإرث هو أنَّ التضمين الذي أجراه على تلك الأبيات وأنصار الأبيات والأمثال التي يفهمُ قصتها وأحداثها قومُه، عائدٌ إلى رغبته في التوصيل التام لأفكاره المبتغاة، ومن ثَمَّ شدة التأثير عليهم وعلى لاحقيهم، لأنَّ من نتائج افتتاح النص على نصوص الآخرين، ومحاكاتها، وتوظيفها ببراعة هو «خلق جوًّا إبداعيًّا له القدرة على فرض هيمنته، وتأثيره في الآخرين على مر العصور، وهذا لا يتوفّر إلا في نصوص متعلَّلة كالنص النهجي، والذي هو كغيره من النصوص التي تنفتح على نصوصٍ سابقة لها أثرها في مرجعية الإمام الثقافية»^(٣).

سابعاً

سداد الرأي، وصدق اللهجة، والتودُّد إلى السامع

هذه هي الصفات الثلاث التي عدَّها الأب لويس شيخو آداب الخطيب الرئيسة^(٤).

أما السداد وبحسب ما وردَ في المعاجم اللغوية فإنَّ معناه: الإصابة في المنطق، وأن يكونَ الرجل مسداً^(٥).

(١) نهج البلاغة ١٦١.

(٢) ينظر على سبيل المثال لا الحصر: نهج البلاغة ٢٥، ٤٧٧، ١٨٠، ٧١، ٦٧، ٥٢، ٤٨٨.

(٣) الاقتباس والتضمين في نهج البلاغة ١٦.

(٤) ينظر: علم الأدب ٤٨/٢.

(٥) ينظر: غريب الحديث ٦٢/٢.

وهذا قريب جدًا من معناه الإصطلاحى الذى يعني «أصالة العقل وعلمه التام بالقضية وتمييزه لوجوه الأمور ومعضلات المشاكل بحيث يشق السامع بقول الخطيب وينقاد إلى كلامه»^(١). ولا بد للخطيب صاحب الرأى السديد من «إيراد قضيته على صورةٍ جليةٍ قريبة المنال... وتمكينها في ذهن السامع بالبيانات الالامعة وال Shawahed الساطعة... واستدرك اعترافات الخصم وتفنيدها»^(٢).

وعلى أية حال فإن هذه الشروط إن انطبقت على أحد؛ فإنَّ أمير المؤمنين عليه السلام يأتي في الطليعة، إذ كان هو المبرز في إيراد ما يريد بسداد رأيٍّ تام، فضلاً عن أقواله التي كان يؤكّد من خلافها على هذا الجانب، كقوله عليه السلام:

«من علامات الإقبال سداد الأقوال، والرّفق في الأفعال»^(٣).

فأمير المؤمنين عليه السلام تحدث هنا عن التأثير والذى أسماه بـ «الإقبال» لأن الإقبال هو نتيجة متوقعة للتأثير، فكلما كان التأثير أبلغ كان الإقبال أوسع، ولكن هذا الإقبال أرجعه أمير المؤمنين عليه السلام إلى «سداد الأقوال» علمًا أن سداد القول راجع إلى حجر أساس وهو سداد العقل.

أما الحوادث والمناظرات التي بينت سداد الرأي عند أمير المؤمنين عليه السلام، فهي كثيرة جدًا، إن لم يكن جميع كلامه استدلالًا على الرأى السديد. ولعل من المناسب هنا ذكر كلامه الذي كلام به كليب الجرمي^(٤) مرسول أهل البصرة

(١) علم الأدب / ٤٨ / ٢.

(٢) م. ن. ٤٩ / ٢ .

(٣) غر الحكم ودرر الكلم . ٢١٠

(٤) هو كليب الجرمي منسوب إلىبني جرم بن ريان بن حلوان من حمير بعثه قومه إلى الإمام علي يستعلم حاله فهو على حجة ألم على شبهة. ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩٧ / ٩ .

لإمام بعدمًا أصبحت معسراً لأهل الجمل، وعند وصول الرجل طلب منه الإمام أن يبأيغ فقال:

«إِنِّي رَسُولُ قَوْمٍ، وَلَا أُحَدِثُ حَدِيثاً حَتَّى أُرْجِعَ إِلَيْهِمْ. فَقَالَ اللَّهُ لِوَأَنَّ الَّذِينَ بَعْثَوْكَ رَائِداً تَبِعُنِي لَهُم مَسَاقِطُ الْغَيْثِ، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرْتُهُمْ عَنِ الْكَلَاءِ وَالْمَاءِ، فَخَالَفُوا إِلَيْهِمُ الْمَاعِشِ وَالْمَجَادِبِ، مَا كُنْتَ صَانِعًا؟ قَالَ: كُنْتُ تَارِكَهُمْ وَمُخَالِفُهُمْ إِلَيْ الْكَلَاءِ وَالْمَاءِ. قَالَ اللَّهُ لِوَأَنَّمُدْدُ إِذَا يَدْكُ. فَقَالَ الرَّجُلُ: فَوْ أَللَّهِ مَا أَسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتَنَعْ عَنْ قِيامِ الْحُجَّةِ عَلَيَّ فَبَأَيَّتُهُ اللَّهُ»^(١).

وهكذا كان الله وبفعل سداد رأيه يرشد المسترشد ويفحّم الخصم بأدلة قاطعة وبراهين ساطعة، وهذا المثال أحدتها، حتى قال عنه ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦ هـ): «ولا شيء ألطف ولا أوقع ولا أوضح من المثال الذي ضربه عليه السلام، وهو حجّة لازمة لا مدفع لها»^(٢).

جاء تأثير كلام الإمام الله من مثاله الذي ضربه من الواقع الذي يعيشه الفرد العربي آنذاك؛ فالكلاء والمرعى هو عماد الحياة العربية البدوية، والمثال جاء عليها وبطريقة جلية سهلة الفهم، واضحة المقصد هذا من جهة. ومن جهة أخرى احتفاظه الله بالبلاغة في أروع صورها عند إيراد الحجة، وبخاصة عندما شبه نفسه أو جهته ومعسكره بـ «مساقط الغيث.. الكلاء والماء»، وهذا ما يتغنى به العربي ويرنو إليه أيّها حلّ وارتحل.

أما خصوصه والمتمثلون بأصحاب الجمل فقد شبههم بـ «المعاش والمجادب»، وهذا ما ينفر منه السمع، ويُتخوّف من الإصطدام به في أي مكان،

(١) نهج البلاغة ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩/١٩٧.

وبالتالي فإن إيراد هذا التشبيه سيكون تأثيره بإتجاهين متعاكسيْن: الأول هو تشيط الرجل، وإبعاده عن معسكته، والثاني هو ترغيبه بالدخول في حظيرة الصواب، المتمثلة بمعسكته أمير المؤمنين عليه السلام. وهكذا جاء جواب المعمود بها خطط له على بن أبي طالب عليهما السلام: «كنت تاركهم ومخالفهم إلى الكلا و الماء».

ومهما يكن من شيء فإن هذا كله وسيلة وليس غاية؛ لأن الغاية التي ابتغاها (صلوات الله عليه) قول الجرمي: «فوالله ما استطعت أن أمتنع عند قيام الحجّة على فبaitته عليه السلام».

وبعد سداد الرأي يأتي صدق اللهجة. واللهجة على وفق ما صرحت به المعاجم اللغوية تعني اللسان، ويُقال فلان فصيح اللهجة^(١). وجاء في الحديث النبوي: «ولا أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغراء ذي هجّة أصدق من أبي ذر»^(٢).

وصدق اللهجة من أهم ما ينبغي أن يتحلى به الخطيب، كونه يسهم في مد جسور الثقة بين الخطيب وجمهوره لـ«لـيثبت لدى السامعين خلوص نيته واستقامة عمله وحرصه على الحقيقة، فيزيد ميلهم إلى رأيه وركونهم إلى تصديقه»^(٣). وفضيلة صدق اللهجة البالغة هذه تنبه لها أمير المؤمنين عليه السلام فأمساكها صراحة حيث قال:

«مَنْ صَدِقَتْ لِهَجَّتُهُ صَحَّتْ حُجَّتُهُ»^(٤).

وجسدها واقعا، فكان مثالاً يحتذى فيها وهذا ما نتلمسه في تصريحات عدة

(١) لسان العرب مادة (لَهَجَ).

(٢) سبيل المدى والرشاد في سيرة خير العباد ٢٤١ / ١١.

(٣) علم الأدب ٤٩ / ٢.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم ٢١٩.

له، من نحو قوله:

«ما كَذَبْتُ وَلَا كُذِّبْتُ..»^(١).

وقوله أيضاً:

«وَالَّذِي بَعَثَنَا بِالْحَقِّ - يعنى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله -، واصطفاءٌ
عَلَى الْخَلْقِ، مَا أَنْطَقُ إِلَّا صَادِقًا... أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي - وَالله - مَا أَحْكُمُ عَلَى
طَاغِيٍّ إِلَّا وَأَسْبِكُهُ إِلَيْهَا، وَلَا أَنْهَا كُمْ عَنْ مُعْصِيَةٍ إِلَّا وَأَتَنَاهُ قَبْلَكُمْ عَنْهَا»^(٢).

وهنا يطلّ علينا عليه السلام في قوله الآخر «أَيُّهَا النَّاسُ... الخ» إطلالة في غاية الأهمية - من أجل أن يكون الوعاظ أو القائد مؤثراً في جمهوره ورعايته -، ألا وهي التطبيق الفعلي لما يقول، لأنّ الكلام - مثلما يرى هو (صلوات الله عليه) - إذا كان قائله مطبقاً إياه وبلهجة صادقة خرج من القلب وإذا خرج من القلب سقط في القلب أي كان مؤثراً، بينما إذا خرج من اللسان؛ فإنه سيفقد ذلك التأثير المرجو فقال عليه السلام في ذلك:

«الكلمة إذا خَرَجَتْ مِنَ الْقَلْبِ وَقَعَتْ فِي الْقَلْبِ وَإِذَا خَرَجَتْ مِنَ اللِّسَانِ لَمْ تَجَاوِزِ الْأَذَانَ»^(٣).

وهكذا كان عليه السلام يصوغ قوانين نفسانية خالدة تؤثر في ما لا يحصى من النفوس دون أن يؤثر على صلابتها، وصحتها، وديمومتها فاعليتها زمان أو مكان.

وتبقى مسألة مهمة هنا تجدر الإشارة إليها، وهي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام ملك

(١) نهج البلاغة . ٥٨٥

(٢) م. ن . ٢٨٩٠ - ٢٩٠

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد . ٤٤٦ / ٢٠

ناصية التوفيق التام في كلامه بين صدق اللهجة وبين البلاغة الساحرة، وهذا من اكبر العبريات عنده عليه السلام على الرغم من صعوبة أو استحاللة الجمع بين الأمرين حتى «قال بعض الحكماء لم يُر متدلين صادق اللهجة مقلقاً في شعره»^(١). وأماماً ثالث ركائز الخطيب الرئيسة، فهو التودد أو التحبب إلى السامع. وتعد هذه الركيزة من ميزات أمير المؤمنين عليه السلام وكثيراً ما كان يوصي بها أيضاً بنفسه، فمرةً قال:

«التودد إلى الناسِ رأسُ العقل»^(٢).

وآخرى قال:

«التودد نصفُ العقل»^(٣).

وثالثة قال:

«أول المروءة طلاقة الوجه وآخرها التودد إلى الناس»^(٤).

وللتودد موجبات منها: الوقار، والتصون، والوفاء، والتزاهة، وأن يؤثر الخطيب أمر الرعية على شؤونه الخاصة^(٥) وهذه الموجبات كانت مجتمعة في شخص أمير المؤمنين عليه السلام، فمن الوقار الممزوج بالتودد ما وصفه به صعصعة بن صوحان^(٦)

(١) الإتقان في علوم القرآن /٢٣٢٥.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم .٤٤٥.

(٣) نهج البلاغة .٥٧٧.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم .٢١١.

(٥) علم الأدب /٢٤٩ .٥٠.

(٦) هو صعصعة بن صوحان بن الحجر بن الحارث من ربيعة وكان يكنى بأبي طلحة، وكان خطيباً، ومن أصحاب علي بن أبي طالب، شهد معه الجمل، وروى عنه عهده لمالك الأشتر. ينظر:

الطبقات الكبرى /٦، ٢٢١، ينظر: رجال النجاشي .٢٠٣.

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الشر العربي ١٠٤
 (ت ٦٠ هـ): «كان فينا كأحدنا، لين جانبٌ، وشدةٌ تواضعٌ، وسهولةٌ قيادةٌ، وكُنّا نهابه مهابةً للأسير المربوط للسيافِ الواقع على رأسه»^(١). ومن التصوّن والتزاهة فمَنْ غيره قال أو يقول:

«والله لقد رقَّعتْ مِدْرَعَتِي هذِه حَتَّى اسْتَحْيِيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا»^(٢).

وفي جانب الإيثار آخر التنازل عن حقوق يراها له، متاهياً مع رغبة بعض المسلمين، فقال:

«لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي؛ وَوَاللَّهِ لِأَسْلَمْنَّ مَا سَلَمْتُ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً، التَّبَاسًا لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْدًا فِيهَا تَنافِسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ»^(٣).

ولبُّ القول الذي تذهب إليه الدراسة هو أنَّ هذه الصفات الثلاث - سداد الرأي، وصدق اللهجة، والتودد إلى السامع - إجتمعت متناسقة فيما بينها بكلام أمير المؤمنين عليه السلام، وكان بعضها يدعم بعضاً حتى أجبت إنجابات شرعية بضميتها ذلك التأثير العظيم الذي تركته على نفوس عشاق الأدب الرفيع، وطالبي الحقيقة المقدمة بثوبٍ من البلاغة الساحرة.

ثامناً

الحن التي تعرض لها عليه السلام

عرفنا في السابق موجزاً عن نشأة أمير المؤمنين عليه السلام وعلاقته بالرسول محمد عليهما السلام

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد /١٢٩.

(٢) نهج البلاغة . ٢٦٣.

(٣) نهج البلاغة . ١٠٣ - ١٠٤.

والتي كانت على مراحلتين:

الأولى:

تمتد إلى نزول الوحي وتبشير الرسول بالنبوة.

الثانية:

تمتد إلى رحيل النبي عليه السلام (سنة ١٠ هـ). والذي يلحظ على خطاب أمير المؤمنين عليه السلام بعد هذه المدة - وهذا ما تهتم به الدراسة هنا - هو بروز عنصر الشكایة والتألم وعدم الرّضى في كلامه. وقد أصابَ بودلير لما قال: «لكي تكتشف عقلية.. ما، أو على الأقل تكتشف ما يشغل فكره أساساً دعنا نفترش عن الكلمة أو الكلمات التي تتردد عنده كثيراً، فسوف تعبر هذه الكلمة عمّا يستحوذ تفكيره»^(١). فكان من بواعير هذه الكلمات والخطابات التي بينت سأم الإمام عليه السلام قوله عند دفن زوجته الزهراء عليها السلام سنة (١٠ هـ):

«قُلْ يا رسول الله عن صَفِيتَكَ صَبِري، وَرَقَّ عنْها تَجْلِدي... أَمَا حُزْنِي فَسَرْمَدُ،
وَأَمَا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ... وَسَتْبَتَكَ ابْنَتُكَ بَتَضَافِرِ أُمِّتِكَ عَلَى هَضِيمَهَا، فَأَحْجِفَهَا
السُّؤَالُ، وَاسْتَخْبِرْهَا الْحَالُ»^(٢).

وأستمرّ هذا اللون الخطابي إلا أنه بدأ يظهر جليّاً عنده عليه السلام، لأنّه كان «يعيش أصعب مراحل التاريخ فالفتنة تأخذه من كُلّ جانب»^(٣) تمثّل جانب منها بالمعارك الظالمة التي وقعت في خلافته والتي جعلته مثلما قال الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي: «في كفاح دائم وحروب مستمرة خرجت عليه عائشة بالبصرة ومعها

(١) الاتجاه الأسلوب في النقد الأدبي ١٧٠.

(٢) نهج البلاغة ٣٧٠ - ٣٧١.

(٣) مجلة تراثنا ١ / ١٧١.

طلحة والزبير، ومعركة الجمل المشهورة ثم استمرت الحروب بينه وبين معاوية بن أبي سفيان... ومنها موقعة صفين ثم كان أمر التحكيم الذي قبله علي عليهما كره منه^(١). ثم الخوارج الذين هم في الأصل أصحابه عليهما، كما تمثلت تلك الفتن أيضاً بالإنتهازيين الذين يركبون موج الأحداث ويتضيّدون غنائمها، وفي هذه المرحلة أدرك الإمام علي عليهما أن جذور الفتنة تضرب في أعماق النفس فتوجه إليها خطيباً وواعظاً على السواء، ومن يقرأ ما في نهج البلاغة تكتشف له هذه الحقيقة التي هي أم الحقائق فيه^(٢). فكان في هذا - مثلما قال هو عليهما - يُقاتل:

«رُجَلَيْنِ: رُجُلاً أَدَعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ»^(٣)

أما الجانب الآخر الذي زاد في محن الإمام عليهما هو قلة المعين، وهذا ما بدا واضحاً في خطبة الشقشيقية:

«وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصْوَلَ بِيِّدِ جَذَاءَ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَحْكَيَةِ عَمِيَّاءِ»^(٤).

والجذاء هي المقطوعة^(٥)؛ فالتأريخ لم ينقل لنا بأنّ أمير المؤمنين عليهما كانت يده مقطوعة، بل كلامه هذا كناية عن قلة الأنصار، وهذا ما بدا جلياً في قوله:

«أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيْدِهِ، لَيَظْهَرَنَّ هُؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَيْكُمْ، لَيْسَ لَأَنَّهُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْكُمْ، وَلَكُنْ لِإِسْرَاعِهِمْ إِلَى باطِلِ صَاحِبِهِمْ، وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّيْ. وَلَقَدْ أَصَبَّحَتِ الْأُمُّمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَايَتِهَا، وَأَصَبَّحَتْ أَخَافُ ظُلْمَ رُعَيَّتِي ...

(١) الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام . ١٣٢.

(٢) ينظر: مجلة تراثناع ١٧١ / ١.

(٣) نهج البلاغة . ٢٨٦.

(٤) نهج البلاغة . ٢٥.

(٥) ينظر: لسان العرب مادة(جذاء) ٤٧٩ / ٣.

أَيُّهَا الْقَوْمُ الشَّاهِدَةُ أَبْدَانِهِمْ، الْغَائِيَّةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، الْمُبْتَلَى
بَهُمْ أُمَرَاؤُهُمْ. صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ اللَّهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ، وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ
يَعْصِي اللَّهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ»^(١).

وبما إنّ الدراسة - في هذا الفصل - تبحث في بعض أسباب محن الإمام علي عليه السلام
فينبغي التعرض لجانب ثالث كان قد شكل حسرة وغضّة في قلب الإمام عليه السلام
وزاد في عيشه الخانقة تمثّل في التفريق بينه وبين حواريه، إما عن طريق النّفي
مثلما حدث مع أبي ذر الغفاري (ت ٣١ هـ) الذي قال عنه طه حسين: «وإنّما سيره
عشماً إلى الربذة منفيًا فأقام فيها حتى مات غريباً»^(٢).

أو الإغتيال السياسي كإغتيال مالك الأشتر سنة (٣٧ هـ) الذي وصفه
الإمام عليه السلام لما جاءَ خبر نعيه:

«مَالِكُ وَمَا مَالِكُ! وَاللَّهُ لَوْ كَانَ جَبَلاً لَكَانَ فِنْدَأً، وَلَوْ كَانَ حَجْرًا لَكَانَ صَلْدَأً
لَا يُرْتَقِيَ الْحَافِرُ، وَلَا يُؤْفَى عَلَيْهِ الطَّائِرُ»^(٣).

وقال فيه أيضاً:

«رَحْمَ اللَّهُ مَالِكًا فَلَقَدْ كَانَ لِي كَمَا كَنْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ»^(٤).

أو القتل في الحرب كقتل محمد بن أبي بكر سنة (٣٧ هـ) الذي أبنه الإمام عليه السلام
يقوله:

(١) نهج البلاغة ١٦١-١٦٠.

(٢) الفتنة الكبرى ١٦٤.

(٣) نهج البلاغة ٦٣٢.

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩ / ١٢٠.

١٠٨ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الشّرقي

«إِنَّ حُزْنَنَا عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ سُرُورِهِمْ بِهِ، إِلَّا أَنَّهُمْ نَقَصُوا بَعِيشًا، وَنَقَصَنَا حَبِيبًا»^(١).

فَكِيرًا مَا كَانَ يُؤْبِنُ أَصْحَابَهُ الَّذِينَ مَضَوْا بِكَلِمَاتٍ نَابِعَةً مِنْ قَرْأَةِ قَلْبٍ
يَعْتَصِرُهُ الْأَلْمُ وَالْأَسْىُ:

«أَيْنَ إِخْوَانِي الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ؟ أَيْنَ عَمَارُ؟ وَأَيْنَ ابْنُ التَّسْيِهَانِ^(٢)؟ وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ^(٣)؟ وَأَيْنَ نُظَرَاؤُهُم مِّنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقدُوا عَلَى الْمُنَيَّةِ، وَأَبْرَدَ بُرُؤُوسِهِم^(٤) إِلَى الْفَجَرَةِ؟» فَقَالَ الرَّاوِي: ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى لِحِيَتِهِ السُّرِيفَةِ، فَأَطَّالَ الْبَكَاءَ، ثُمَّ قَالَ^(اللَّهُمَّ): أَوْهَ عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقْأَمُوهُ...»^(٥).

هذا جانب من المحن والفتن التي تعرض لها **الليلي** والتي جعلت محياه وماته تأريخاً دامياً للفضيلة المعدبة، والنفس المطمئنة الشهيدة^(٦). وبما إنّ حياته كلها كفاح، ونضال، وحزن ويأس^(٧) من قومه؛ فقد تولّد عنده الإنفعال الذي منشأه

(۱) م. ن. ۶۱۱.

(٢) ابن التيهان: هو أبو الهيثم بن التيهان، وأسمه مالك، وأسم أبيه مالك أيضاً ابن عبيد بن عمرو بن عامر الانصاري قيل: إنه توفي سنة عشرين. وقيل أنه أدرك صفين، وشهادها مع علي عليهما السلام وقتل فيها وهو الأكثر. ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ١٠ / ٢٩٠.

(٣) ذو الشهادتين: هو خزيمة بن ثابت الأنصاري من الأوس جعل رسول الله ﷺ شهادته كشهادة رجلين قتاً، بصفين بعد أن شهدوا إلى جانب أمير المؤمنين. ينظر: م.ن. ٢٩٠ / ١٠.

(٤) أُبَرِدَ بِرْؤُوسِهِمْ: حملت رؤوسهم مع البريد إلى الفسقة للبشاره بها والفحجه هنا أمراء معاشر

الشام. ينظر: م. ن. ١٠ / ٢٩١.

(٥) نوح السلاحة ٣٠٦

٦) تأريخ الأدب العربي . ١٣٥

(٧) ينظر : أدب العرب . ١٥٦

«الإتحاد المباشر بين العقري وبين الموضوع الذي يشغله»^(١) والذي يراه - أي الإنفعال - برجسون «جوهر الأبداع»^(٢)، ثم إن هذا الإنفعال الذي تولد من هاتيك الفتن، كان من أهمّ بواعث الخطابة وما يدعو إليها^(٣)، مثلما تولد عنده^(٤) و كنتيجة متوقعة لتلك الأحداث عنصر الغربة أو الأغتراب^(٤)، عاش غريباً لأنّه لاقى من الإعوجاج والعداوة ما تئنُّ له الجبال لا شيء إلا أنه أراد أن يقيّم العدل في كُلّ شيء، وأن تمثله كُلُّ نفسٍ، لأنّه يعدل وهم لا يعدلون لأنّه يتتصف من نفسه ولا يتتصفون لأنّه يأتمر بالله ولا يأتمرون^(٥) فكانت النتيجة:

«اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلَوْنِي وَسَئَمْتُهُمْ وَسَئَمْنِي، فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْرًا مِّنْهُمْ، وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِّنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي قُلْوَاهُمْ كَمَا يُهْمَاثُ الْمَلْحُ فِي الْمَاءِ»^(٦).

عاش غريباً لأنّه مثلما قال جبران خليل جبران: «لم يعرف العرب حقيقة مقامه ومقداره... مات قبل أن تبلغ العالم رسالته كاملةً وافية. غير أنني أتمثلُهُ مبتسمًا قبل أن يغمض عينيه عن هذه الأرض. مات شأن جميع الأنبياء والباصرين الذين يأتون إلى بلد ليس بيدهم وإلى قومٍ ليس بقومهم وفي زمانٍ ليس بزمنهم ولكن لربّك شأنٌ في ذلك وهو أعلم»^(٧).

(١) الإبداع في الفن. ٨٠.

(٢) م. ن. ٨٠.

(٣) ينظر: الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام . ١٣٤.

(٤) يرى أغلب الدارسين أن الفيلسوف الألماني هيجل هو من طرح مصطلح الأغتراب وأكّدَ عليه درسه بعمق. ينظر: الأغتراب وأنواعه . ٥.

(٥) ينظر: الأغتراب عند الإمام علي من خلال نهج البلاغة . ١١٢.

(٦) نهج البلاغة . ٥٢.

(٧) الراعي والرعية . ٤٧.

والذي يهم الدراسة من هذه المحن وما ولدته في تاريخ الإمام، إنها أسهمت إسهاماً فعالاً في جعل كلامه عليه السلام ذي فاعلية فاعلة على التأثير لأنه أديبٌ من طرازٍ خاص عانى من أزمات خانقة - والأديب الذي يعيش المشكلة يكون أقدر من غيره في الإفصاح عنها - وحمل هموم الرعية صغيرها وكبیرها، مما انعكس إيجاباً على عطائه الأدبي، فصاغ ما عاناه بكلمات وصور أدبية سكبة عليها حرارة روحه المعدبة، فجعلها تشق طريقاً مهيناً إلى قلوب السامعين. وهذا بدوره شكلاً نوأة مقتدرة على خلق التأثير.

هذه هي مجموعة أسباب اجتمعت في شخص أمير المؤمنين عليه السلام - دون غيره - استطاع أن يوظفها توظيفاً مهيناً بمساعدة أسباب آخر منها: سلامته ذوقه وروحه الصافية^(١)، وكذلك ما أمتاز به من ذكاء مفرط، فقد قال عنه ابن عباس (ت ٦٨هـ): «ما رأيتُ قط أذكي من علي بن أبي طالب»^(٢)، فضلاً عن خلوص نيته، وروحه الإنسانية التي جاءت آثارها مثلها، فهي «لم توضع لفريق دون فريق، ولم يرها شعبٌ دون شعبٍ، وإنما خوطب بها الإنسان أئمَّةً وُجُودٍ وكان. ولأنَّها تلامس كُلَّ قلبٍ، وتُضمِّدُ كُلَّ جُرحٍ، وتتكشف كُلَّ دمعة، كانت مُلْكًا للناس أجمعين، وكانت خالدةً عند الناس أجمعين»^(٣).

وتجدر الإشارة إلى أنَّ هناك صفات عدَّة في كلام الإمام عليه السلام كان الدكتور أحمد محمد الحوفي يرى أنها تقف وراء تأثير كلام الإمام عليه السلام هي: تخيير المفردات = وإنسجامها مع الناحية الصوتية وقوَّة التعبير وسهولته، وقصر المفردات وتوازنها،

(١) ينظر: الجامع في تاريخ الأدب العربي / ١ / ٣٥٢.

(٢) الأغاني / ١ / ٨١.

(٣) دراسات في نهج البلاغة ١١.

إذا فأمير المؤمنين عليه السلام كان قد حلق بجناحين هما عماد البلاغة:اللب، والإسلوب فـ «الأثر الفني الكامل في نظري - والكلام لتوقيق الحكيم - هو ذلك الذي يحدث فينا ذلك الشعور الكامل بالإرتفاع...وقلما يحدث هذا إلا عن طريق السمو في اللب والاسلوب»^(٢)، وتلك سماتان جليتان في أدب أمير المؤمنين عليه السلام، فبكلامه «يندمج الشكل بالمعنى إندماج الحرارة بالنار والضوء بالشمس والهواء بالهواء...هذا من حيث المادة. أما من حيث الأسلوب، فعلى بن أبي طالب ساحر الأداء. والأديب لا يكون إلا بإسلوب، فالمبني ملازمٌ فيه للمعنى، والصورة لا تقلُّ في شيءٍ عن المادة... وإن قسط على بن أبي طالب من الذوق الفني - أو الذوق الجمالي - لما يندر وجوده... وإن شروط البلاغة التي هي موافقة الكلام لمقتضى الحال لم تجتمع لأديب عربي كما اجتمعت لعلي بن أبي طالب»^(٣).

وعلى كل الأحوال فإن هذه الصفات التي اجتمعت في كلام أمير المؤمنين عليه السلام هي التي جعلت من «كل مثقفٍ عربي، كلّ كاتب عربي، كلّ شاعر عربي، كلّ خطيب عربي مدین للإمام علي». فإذا كان كُلُّ مسلم في الدنيا مدین للقرآن الكريم في تكوين عقليته وتفكيره فإنَّ كلَّ مثقفٍ عربي مدین لنهج البلاغة في تقويم قلمه»^(٤) إذ «لولا كلام على بن أبي طالب وخطبه وبلاعته في منطقه ما

(١) ينظر: علي سلطة الحق ٥٤٧ - ٥٥٩.

(٢) فن الأدب ٧٦.

(٣) الإمام علي صوت العدالة الإنسانية ١ / ٥٢٩.

(٤) الإمام علي أسد الإسلام وقدسيه ٢٢٥.

أحسن أحدُ أن يكتب إلى أمير جند، ولا إلى رعيّة^(١)، وهذه الحقيقة التي هي عين الصواب - لما سيفضح لاحقاً - وتأثّر الكتاب بأميرهم إلى هذه الدرجة، لم يكن عثاً بل لأنّهم وجدوا «الفضاحة تُنسب إليه، والبلاغة تُنقل عنه، والبراعة تُستفاد منه، وعلم المعاني والبيان غريزة فيه.. فعصابة الفُصحاء على تفاوت طبقاتهم دونه، وزمرة البلغاء على تباهي حالاتها عيالٌ عليه»^(٢)

وهكذا كل من وصف بلاغة أمير المؤمنين عليه السلام فقد وصفها بوصف مؤثر. وهذا راجع لأمرتين: الذوق الصافي والفطرة السليمة والمقدرة الأدبية الخلاقة لدى الواصفين وللتأثير العظيم الذي تركه كلامه عليه على متذوّقي الأدب الرفيع، فعن عامر الشعبي (ت ١٠٦ هـ) أنه قال: «تكلّم أمير المؤمنين عليه بتسع كلمات ارتجلهنْ ارتجلاً فقأنَ عيون البلاغة، وأيتمن جواهر الحكمة، وقطعن جميع الأنام عن اللحاق بوحدةٍ منها، ثلث منها في المناجاة، وثلاث منها في الحكمة، وثلاث منها في الأدب. فأمّا اللائي في المناجاة، فقال: إلهي كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي ربّاً أنت كما أحبّ فاجعلني كما تحبّ، وأمّا اللائي في الحكمة، فقال: قيمة كلّ امرئ ما يُحسِنُه، وما هلك امرؤ عرف قدره، والمرء مخبوء تحت لسانه. وأمّا اللائي في الأدب، فقال: امتنْ على منْ شئت تكن أميره، واستغنْ عمّنْ شئت تكن نظيره، واحتاج إلى منْ شئت تكن أسيئره»^(٣).

وبعد أن أدرك الأدباء هذه الثروة الأدبية اتكأوا عليها، وتتلذذوا بها، حتى

(١) الإختصاص ١٤٨-١٤٩.

(٢) مطالب المسؤول في مناقب آل الرسول ١٧٨.

(٣) ميزان الحكم ١/٥٧، وينظر: من أروع ما قاله الإمام علي عليه السلام ٦٢.

أصبحت لهم بفضلها قدم راسخة في ميادين الأدب قدماً وحديثاً، ففي القديم قال ابن نباتة الخطيب^(١) (ت ٣٧٤هـ): «حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيده الإنفاق إلاّ سعةً وكثرةً، حفظت مائةً فصلٍ من مواعظ عليٍّ بن أبي طالب»^(٢).

ومن كلام ابن نباتة يَسْتَدِلُ الباحث - فضلاً عن التأثر المهيء بكلام الإمام - على أنَّ كلام الإمام كان مجموعاً وهذا ما وضح في قول الأديب «مائة فصلٍ من مواعظ...» وإلاًّ كلمة فصل لا يمكن أن تُطلق على خطبة، ولا على رسالة، ولا على حكمة، بل هي جزء من كتاب مجموع.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ ابن أبي الحميد (ت ٦٥٦هـ) عمل مقارنة بين بعض خطب ابن نباتة «الفائز بقصبات السبق من الخطباء؛ وللناس غرامٌ عظيم بخطبه وكلامه»^(٣)، وبين كلام أمير المؤمنين عليه امتازت تلك المقارنة بأحكام تعليلية، ونتائج علمية؛ كونها صادرة من مؤرخ كبير، وناقد بصير، ولغوي، وشاعر. كانت خلاصة تلك المقارنة هي «أنَّ سطراً واحداً من كلام نهج البلاغة يساوي ألف سطر منه - أي كلام ابن نباتة - بل يزيد ويربي على ذلك، فإنَّ هذا الكلام

(١) اشتهر بابن نباتة في الأدب العربي رجال ثلاثة: أو لهم عبد الرحيم بن محمد. والثاني ابن نباتة السعدي (ت ٤٠٥). والثالث ابن نباتة المصري صاحب (شرح العيون) (ت ٧٦٨هـ). ينظر: الشر الفني في القرن الرابع الهجري ١٩٢ / ١. ومقصودنا الأول عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل صاحب الخطب المشهورة؛ كان إماماً في علوم الأدب، وكان خطيب حلب، وبها اجتمع بالمتني في خدمة سيف الدولة. ينظر: وفيات الأعيان ١٥٦ / ٣. وله ديوان خطب مطبوع يُعرف بـ «ديوان الخطب النباتية» متأثر به كثيراً بكلام أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحميد ١ / ٢٨.

(٣) م. ن ٧ / ١٤٤.

مُلْزَقٌ عَلَيْهِ آثَارٌ كُلُّفَةٌ وَهُجْنَةٌ»^(١).

وما يسجل بقوة لبلاغة أمير البلاغة عليه السلام أن تأثيرها تجاوز حدود المحبين ليسحر أشدَّ المناوئين له عليه السلام، فهذا هو معاویة لما قال له أحد شيعته: «جئتكم من عند أعيانا الناس. قال له: ويحك وكيف يكون أعيانا الناس! فوالله ما سَنَ الفصاحة لقرיש غيره»^(٢).

ثم لم يكن تأثير كلامه عليه السلام على أديب بعینه أو طائفته، أو قومية، أو بحدود عصر معين، بل بلاغته عليه السلام خارجة عن هذه الأطر فمثلاً الأديب الفارسي سعدي الشيرازي بعد أن «عثر على ضالّته المنشودة في بلاغة الإمام علي»^(٣) سبك عهده لمالك الأشتر - على طوله - شعراً، وسكته نثراً في الرسالة الخامسة من رسائله الست^(٤).

وكان المتّبني (ت ٣٥٤) معتمد في بعض أبياته الرائعة على حكم الإمام عليه السلام، قال العلّام محمد حسين آل كاشف الغطاء^(٥): «إنَّ المتّبني كثيراً ما كان يصول على حكم الأئمة عليهم السلام وخصوصاً حكم أمير المؤمنين عليه السلام فياخذ معانيها ثم ينظمها في أقواله... خذ مثلاً المتّبني يقول:

(١) م. ن. ١٤٦ / ٧.

(٢) نوادر وقصص من شرح نهج البلاغة ١ / ١٢.

(٣) الأثر العربي في أدب سعدي ٣٨٠.

(٤) ينظر: ن. ٣٧٨.

(٥) هو الشيخ محمد حسين بن الشيخ علي بن الشيخ محمد رضا كاشف الغطاء، من كبار رجال الإسلام المعاصرين ووصف بأنه خطيب بارع، ساحر البيان، فصيح اللسان. توفي سنة (١٣٧٣ هـ) في النجف ودُفِن فيها. ينظر: علماء في رضوان الله ٤٤١ - ٤٤٤.

الظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عفة فلعلة لا يظلم^(١) (الكامل)

أخذها من قول علي عليه السلام:

«أَلْظُلْمُ كَامِنٌ فِي النُّفُوسِ، الْقُوَّةُ تُبْدِيهِ، وَالضَّعْفُ يُخْفِيهِ»^(٢).

وغير هذا كثير عند المتنبي، فقوله:

وإذا كانت النفوس كبيرةً

تعبت في مُراديها الأجسام^(٣) (الخفيف)

نتلمَّس من وراءه حكمة أمير المؤمنين عليه السلام:

«أَتَعْبُ النَّاسَ قُلْبًا مَنْ عَلَتْ هَمَّتْهُ، وَكُثُرَتْ مُرَوَّعَتُه»^(٤).

ومن طرق تأثير الشعراء بكلام أمير المؤمنين عليه السلام أن يعمد الشاعر إلى وصف الإمام ومناجاته مع الله سبحانه وتعالى، ويمدح بها من يشاء؛ فالبحيري (ت ٢٨٤هـ) يصوغ بيتين في المديح- مخاطباً بها ابن المدبر - من أجمل أبياته:

دنوتَ تواضعاً وعلوتَ قدرَا

فشأناك انحداراً وارتفاعاً (الوافر)

كذلك الشمس تبعدُ أن تسامى

(١) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ٤/١٨٦.

(٢) مصادر نهج البلاغة ١/٤٣.

(٣) شرح ديوان المتنبي ٤/٤٨.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم ٦/٢٠٦.

ويذنوا الضوء منها والشاعر^(١)

معتمداً على مناجاة ووصف أمير المؤمنين عليه للباري عز وجل:

«قرب فنائى، وعلا فدنا»^(٢).

ووصفه أيضاً:

«سبق في العلو فلا شيء أعلى منه، وقرب في الدُّنْو فلا شيء أقرب منه»^(٣).

وفي الأدب الحديث ما زال كلام الإمام علي (صلوات الله عليه) ينبعاً ثرّاً، ومنهلاً عذباً، يلجأ إليه أدباء لإتمام وتقويم شخصياتهم ومواهبهم الأدبية، وهذا ما أشار إليه الجواهري بقوله: إنَّ أدبياً لم يدرس نهج البلاغة لا يمكن أن يكون شاعراً ولا كاتباً أبداً، ولو قرأ مليون مليون رواية، أو كتاب أجنبي، ولو استوعب كُلَّ النَّظريَّات والعقائد والمبادئ^(٤).

أما الشيخ الأديب ناصيف اليازجي، فقد عدَّ نهج البلاغة الركيزة الثانية بعد القرآن الكريم، وهو معاً أسهما في تكوينه الثقافي وإتقانه الكتابة، فقال: «ما أتقنَت الكتابة إلا بدرس القرآن العظيم ونهج البلاغة القويم فهما كنز العربية الذي لا ينفذ وذخيرتها للمتأدب. وهيئات أن يظفر أديب بحاجته من هذه اللغة الشريفة إن لم يحيِ لياليه سهراً في مطالعتها والتبحر في عالي أساليبها»^(٥).

(١) ديوان البحترى ٢/٦٩.

(٢) نهج البلاغة ٣٥٨.

(٣) م. ن. ٨٢.

(٤) ينظر: لغة الشعر بين جيلين ٦٩.

(٥) ما هو نهج البلاغة ٢٠.



الفصل الثاني

أثر كلام الإمام علي عليه السلام

في نثر الحسن البصري

الحسن البصري

ولد الحسن بن أبي الحسن البصري عام (٢١ هـ) من أبٍ نصراني جيء به مسيئاً وكانت ولادته في المدينة لستين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب^(١).

نشأ البصري في مدينة رسول الله ﷺ وفي مجتمعها المسلم^(٢)، ويفي فيها مدة ما تبقى من خلافة عمر بن الخطاب، ثم خلافة عثمان بن عفان كلّها، وعندما بايع الناسُ أمير المؤمنين عليّاً ليكون الخليفة الرابع، نزح الحسن البصري مع أسرته، لينزلَ البصرة، جانحاً عن الأحداث التي حدثت مدة خلافة أمير المؤمنين عليّاً، ولكن بعدما حكم الأمويون خرج للعمل في ظل سلطتهم^(٣)، إذ «صار كاتباً في أمراة معاوية للربيع بن زياد^(٤)»^(٥).

(١) ينظر: الروض المطار ١ / ٥٣١.

(٢) ينظر: الشر عند الحسن البصري ٧.

(٣) ينظر: تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي ٤٤٥.

(٤) هو الربيع بن زياد بن الرياحي ولاه معاوية على سجستان ثم على الكوفة بعد وفاة واليهما المغيرة بن شعبة. وتولى خراسان أيضاً. توفي ٥٣ هـ. ينظر الوافي بالوفيات ٢ / ١٩٠.

(٥) م. ن.

نظراً لفضاحته وبلاعنة قلمه^(١). وبعدها «ولي قضاء البصرة لعمر بن عبد العزيز»^(٢).

وعلى الرغم من أن هناك رأياً يقول إنَّ الحسن البصري «لازم على بن أبي طالب ناشئًا»^(٣)، إلا أنَّ هذا لم يقم عليه دليل فمن هذا الطرف من حياة البصري تستدل على صحة الأخبار التي كانت تقول بأنه كان على خلاف مع أمير المؤمنين عليه السلام، وبينهما جفوة بيّنة، وما نزوحه عن المدينة عندما آلت القيادة لأمير المؤمنين عليه السلام، ثم تسنممه مناصب مهمة إبان حكمبني أمية إلا شاهدًا لا يضلّ، فضلاً عن تصريحاته في هذا الشأن ك قوله: «لو كان على يأكل الحشف بالمدينة لكان خيراً له مما دخل فيه»^(٤).

ومن الصفات التي امتاز بها البصري انه «كان بادي الحزن، فإذا أقبل فكأنه أقبل من دفن حيمه، وإذا جلس فكأنه أمير بضرب عُنْقِه»^(٥). ولكن لهذه الخصلة سبباً غير الذي هو رائق من كونه قد طلق الدنيا لأنها فانية زائلة، بل السبب وراء حزنه هو دعاء أمير المؤمنين عليه السلام عليه. فقد روی أن الإمام علي رأى البصري يتوضأ ويصرف في الماء فقال له: «أرقت ماءً كثيراً يا حسن؛ فقال: ما أراق أمير المؤمنين من دماء المسلمين أكثر! قال: أوسأءك ذلك؟ قال: نعم. قال: فلازلت مسوءاً»^(٦).

(١) ينظر: الأساليب التشرية ٤١.

(٢) العقد الفريد ٤ / ٢١٧.

(٣) الأساليب التشرية ٤١.

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤ / ٣٠٥.

(٥) البيان والتبيين ٢ / ٨٣. وينظر: المعارف ٤٤١.

(٦) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤ / ٣٠٥.

قال ابن أبي الحديد: «قالوا: فما زال الحسن البصري عابساً قاطباً مهوماً إلى أن مات»^(١).

أما ما أورده الطبرسي «من أعلام القرن السادس الهجري» في كتابه (الإحتجاج) فقد بيّن بوضوح مدى تأثر البصري بأمير المؤمنين عليه من جهة، وعدم رضى الأخير عنه من جهة أخرى فقد جاء في هذا الكتاب «لما أفتتح - أي البصرة - أمير المؤمنين عليه اجتمع الناس عليه وفيهم الحسن البصري ومعه الألواح فكان كُلُّما لفظ أمير المؤمنين عليه بكلمة كتبها. فقال أمير المؤمنين: أما إنَّ لِكُلِّ قوم سامري وهذا سامريُّ هذه الأمة، أما إِنَّهُ لا يقول لا مساس^(٢) ولكن يقول لا قتال»^(٣). إذَا فالحسن البصري وبشهادته يكتب كُلَّ كلمة يتحدَّثُ بها أمير المؤمنين عليه تكون سلاحه المضاء - فيما سنرى - في خطبه ورسائله وحكمه.

أما عن قول الإمام للبصري: إنَّك ستقول لا قتال، فهذا فعلًا ما نجده فقد كان أهم متبنياته، فبمرور الزمن وعندما فتكَّ الحجاج (ت ٩٧ هـ) بال المسلمين، واجتماع بعض المسلمين لحاربته، أخذَ البصري يُبَطِّلُهم عن ذلك، محاولاً ثنيهم وفلَّ عُرَى عزيمتهم، طالبًا منهم التوجّه إلى الدعاء والتضرع، فقال: «أئِيَّها النَّاس

(١) م. ن. ٣٠٥.

(٢) أشار إلى قوله تعالى حكاية عن النبي موسى إِذ قال للسامري: ﴿وَادْهَبْ فَإِنَّكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مَسَاس﴾ طه / ٩٧. قال الجبائي: معناه لا مساس لأحدٍ من الناس لأنَّ السامري جعل يهيم في البرية مع الوحوش. ينظر: البيان في تفسير القرآن ٧ / ٢٠٠.

(٣) الإحتجاج ٢٠٩ / ١.

إنه والله ما سلط الله الحجاج عليكم إلا عقوبة فلا تعارضوا عقوبة الله بالسيف، ولكن عليكم السكينة والتضرع^(١). ومثل هذا قال عندما خرج يزيد ابن المهلب لمحاربة أهل الشام^(٢).

ومقابل هذه الأخبار التي تحدثت عن وجود قطيعة وجفوة بين الحسن البصري وأمير المؤمنين عليه السلام، توجد هنالك أخبار تبررها، مثلاً لما سُئل البصري عن الإمام علي عليه السلام قال: «ما أقول فيه! كانت له السابقة والفضل والعلم والحكمة والفقه والرأي والصحبة والنجد و البلاء والزهد والقضاء والقرابة، إنَّ عَلِيًّا كَانَ فِي أَمْرِهِ عَلِيًّا... فَقَلَّتْ - أَيُّ الرَّاوِي - يَا أَبَا سَعِيدٍ، فِيمَا هَذَا الَّذِي يُقَاتَلُ عَنْكَ إِنَّكَ قُلْتَهُ فِي عَلِيٍّ؟ فَقَالَ يَا ابْنَ أَخِي أُحْقِنُ دَمِي مِنْ هَؤُلَاءِ الْجَابِرَةِ، وَلَوْ لَدَكَ لَشَالْتُ بِي الْخُشْبِ»^(٣).

وبنظر الباحث لم يكن الرأي الثاني هو الراجح، إذ لو علم الإمام علي عليه السلام سيررة البصري وإخلاصه القلبي لما دعا عليه مثلما سلف هذا من جانب، ومن جانب آخر لو كان البصري صادقاً لما ترك أمير المؤمنين، ودخل ضمن الدائرة الأموية. فعليه كان أموي الهوى. ومثلما قال إحسان النص في كتابه «الخطابة العربية في عصرها الذهبي»: «من المحقق أنَّ الحسن لم يكن متحمّساً لعلي وشيعته»^(٤).

أما موارد ثقافته، فقيلت فيها آراء عدّة، فمثلاً شوقي ضيف يرى إنَّ

(١) الطبقات الكبرى / ٧ / ١٦٤.

(٢) ينظر: تاريخ الطبرى / ٤ / ٨٤.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ٤ / ٣٠٥ - ٣٠٦.

(٤) الخطابة العربية في عصرها الذهبي . ٣٤٩.

من وراء ثقافة البصري «القرآن الكريم، وهدي الرسول ﷺ، وصحابته الورعين، وخاصة عمر بن الخطاب، فإنه يروي عنه كثيراً من أقواله وعظاته»^(١).

ولا جدال أنّ البصري وغيره من كبار الكتاب والوعاظ تأثروا بالقرآن، والرسول ﷺ، وأصحابه، غير أنّ الباحث يرى في هذا التقسيم إلتفافاً وتعتباً على اثر كلام أمير المؤمنين عليه السلام على البصري مصدره الحسن البصري نفسه، ثم من سار على قوله، لأنّنا إذا اعتمدنا على أسماء الأشخاص الذين ذكرهم البصري في نتاجاته الأدبية، وقلنا إنّهم هم حصرًا من تأثر بهم؛ فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام سوف لم يكن له أيُّ نصيب يذكر بينهم في هذا الشأن، كون البصري لم يذكر إسم الإمام علي عليه السلام في نتاجاته ولا مرّة واحدة - بحسب قراءة الباحث - وهذا إجحاف كبير بحق الإمام من قبل البصري، الذي اعتمد اعتماداً مهيباً على كلام الإمام علي عليه السلام، فكان يغترف منه اغترافاً ويسبكه سكباً في جميع نتاجاته دون استثناء.

وفي بعض الأحيان عندما يُطلب من البصري ذكر صاحب الحديث أو الموعظة عمن هما؟ فيجيب: «وما تصنع بعمن؟ أَمّا أنت فقد نالتك موعظته، وقامت عليك حُجّته»^(٢).

وهنا لا بدّ من وقفة مع هذه الرواية، إذ نستنتج منها: إنّ هذا السائل علم أو شكّ، أو لاح له أنّ ما تحدث به البصري هو ليس له، وإلاّ لماذا سأله عن مبدع ذلك الحديث.

ونستنتج من هذا أيضاً إنّ عائدية الحديث هذا هي لجهات ثلاثة لا غير. أمّا

(١) تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) ٤٤٧.

(٢) عيون الأخبار ٢ / ١٣٧ . وينظر: أمالى المرتضى ١ / ٢١٧ . وينظر: وفيات الأعيان ٢ / ٧٠ .

الجهة الأولى فهي البصري نفسه، وهذا مردود، إذ لو كان الحديث الذي تحدث به البصري هو له لأسرع إلى ذكر اسمه، دون تحرّج أو تأخير، لما في ذلك من قيمة وفضلٍ كبيرين.

أما الجهة الثانية فتكون متمثلاً بالرسول الأكرم عليهما السلام والخلفاء الثلاثة الراشدين الأوائل، ولو كان الحديث لهذه الجهة لذكرها البصري - مثلما فعل في مواطن كثيرة من نشره - على اعتبار إله لا يتحرّج من ذكر الرسول عليهما السلام عندما يتحدث بحديثه، ولا من الخلفاء الثلاثة الأوائل. ونحن هنا لا نزعم أنه لم يتأثر بهذه الجهة العظيمة، بل نتحرّى من هي الجهة التي يتحرّج بل وامتنع البصري من ذكر اسمها، مع أخذها عنها، ولماذا.

إذاً بقيت لنا جهة واحدة وهي عائدية الحديث، أو الموعضة لأمير المؤمنين عليهما السلام، وهذا ما يتبنّاه الباحث، وعليه أدلة عده منها:

الأول:

قول البصري السالف لما سأله أمير المؤمنين عليهما السلام ما تصنع؟ فقال: «نكتب آثاركم لنحدّث بها بعدكم».

الثاني:

إذاً باعتراف البصري كان يكتب آثار أمير المؤمنين عليهما السلام وفي الوقت نفسه كان البصري كاتباً - مدة عطائه بتمامها - في ظلّ الدولة الأموية، وهذه الدولة رافضة لكلّ ما يتصل بأمير المؤمنين عليهما السلام من كلام، ومنهج، وذرية، وعليه فالبصري لا يستطيع ذكر اسم الإمام، وذكره هذا يستوجب مدحه عليهما السلام في معقل مناوئيه.

الثالث:

وهذا أهم الأدلة، إذ تبيّن بعد عرض نتاجات البصري على كلام أمير المؤمنين عليه السلام أن هذه المواقع هي له عليه السلام بشكل قطعي لا يقبل الطعن.

وهناك خبر طريفٌ عده كثيرون من المهتمين بالبلاغة سبباً رئيساً يقف خلف بلاغة الحسن البصري إذ «قالوا وكانت خيرة^(١) أمه ربما غابت فيكي فتعطيه أمه سلامة ثديها تعّلله به إلى أن تحيى أمه فيدرك ثديها فشربه، فiron أن تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك»^(٢).

وفي نظر الباحث - وبدعم كامل من نتائج الدراسة - لم ينصف الشيخ البصري من جانب ثقافته وتأثيره من القدماء إلّا الشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ)، إذ قال: «وكان الحسن البصري بارع الفصاحة، بلigh الموعظ، kثیر العلم. وجميع كلامه في الوعظ وذم الدنيا أو جله مأخذ لفظاً ومعنی، أو معنی دون لفظ؛ من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهما السلام فهو القدوة والغاية»^(٣) وهذه شهادة نقديّة ودليل ثاقب وثابت على تأثيره بأمير المؤمنين عليهما السلام.

ومن المحدثين الكاتب محمد أمين النواوي بقوله: «وهل كان الحسن البصري في زواجر وعظه، وبالغ منطقه إلّا أثراً من عليٍّ، قطرة من محيط أدبه، ففتنَ النّاس بعبادته، وخلبَ البابِهم بجمله، فكيف يكون الأستاذ

(١) خيرة اسم ام الحسن البصري كانت خادمة لأم سلمة زوج النبي المصطفى ﷺ، ينظر: طبقات الفقهاء ٩١.

^{٩١})المعارف ٤٤٠ وينظر : طبقات الفقهاء .

١٦٧ / ١) أمالي المرتضى (٣)

العلم والإنعام الحكيم على بن أبي طالب»^(١).

لم يجانب الصواب هذان الرأيان طرفة عين، غير أنها تبقى تعوزهما الدراسة المقارنة بين الكلاميين حتى تثبتها.

وإلى جانب هذه الآراء، هنالك من يقول: إنَّ مرجعية البصري الأدبية وتعليلها أمرٌ حيرَ القدماء^(٢).

والباحث يقول: لا حيرة بعد هذه الدراسة، لأنَّ الذي وصلنا من عطاء البصري التشرية يكفي للخروج بنتيجة مرضية وصرحة حول المنبع الأكبر الذي استقى منه ثقافته بطريقة لا تقبل الشك، ولكن لو وصلتنا آثاره كاملة لكان ذلك أفضل دون ريب، فقد ذُكر أنَّ له كتباً عدّة^(٣)، ولكن بعدما ثُقل عليه المرض طلب من ولده عبد الله أن يجمعها فجمعها، ثمَّ أمر خادمه أن يسجر التور، فأمره بها وأحرقت غير صحفة واحدة^(٤).

(١) مصادر نهج البلاغة ١ / ٦٩.

(٢) ينظر: الخطابة العربية في عصرها الذهبي ٣٦٢.

(٣) ينظر: الطبقات الكبرى ٧ / ١٧٤.

(٤) ينظر: م. ن ٧ / ١٧٤ - ١٧٥، وينظر: سير أعلام النبلاء ٤ / ٥٨٤.

المبحث الأول

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في خطب الحسن البصري

عاش الحسن البصري أغلب عطائه في العصر الأموي وهو عصر ذهبي - مثلما هو معروف - للخطابة العربية، لأسباب عدّة، يمكن أن يكون على رأسها الدافع العقائدي، والداعي السياسي.

ماشى البصري عصره بتطوره الخطابي وبلغ فيه شاؤوا رفيعاً، وأشار إليه بالبنان. قال عنه الجاحظ «أخطب الناسِ صاحبُ العرامة السوداء بين أخصاص^(١) البصرة، إذا شاء خطب، وإذا شاء سكت»^(٢).

وللخطب أنواع عدّة، غير إنَّ البصري برع في الخطب الدينية منها: «إذ كان من أعلامها البارزين في القرن الأول الهجري»^(٣).

(١) أخصاص: جمع خصّ هو بيت من الشجر أو القصب، وسُميَ بذلك لما فيه من الخصاوص وهي التّفاصيل. ينظر: لسان العرب: ٧ / ٢٦ مادة (خصوص).

(٢) البيان والتبيين ١ / ٣٢٠.

(٣) الشر عند الحسن البصري ٣٢.

اعتمد الحسن البصري في خطبه الدينية على موضوعات طرقها أمير المؤمنين عليه السلام قبله برمتها كالتخويف من الموت، والزهد في الدنيا واليأس منها، والاستعداد لبيت الغربة والوحشة.. وأغلب خطبه تلك - إن لم تكن جميعها - كان لأثر الكلام العلوي حضورٌ مهيمنٌ عليها، حتى إننا نجد خطبًا طوالاً للبصري ما هي إلا تلقيقاً وجماعاً لخطب ومواعظ الإمام، فمن خطبة له عليه السلام حذر فيها من الدنيا، منها:

«مَنْ أَقْلَى مِنْهَا إِسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْمِنُهُ، وَمَنْ إِسْتَكْثَرَ مِنْهَا إِسْتَكْثَرَ مِمَّا يُوبِقُهُ»^(١).

وقال عليه السلام في أخرى:

«مَنْ سَاعَاهَا فَاتَّهُ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَأَتَهُ»^(٢).

فأمير المؤمنين عليه السلام يدعو إلى ترك الدنيا، لأن الحصول عليها لا يأتي بأن يقضي المرء عمره يلهم ورائها، لأن من فعل هذا فاتته الدنيا وأجحاف بحظه من الآخرة، وكأن الدنيا داء فكلما استكثر الإنسان منها فإنه مستكثر مما يهلكه والمقل منها مستكثر مما يؤهله.

نظر البصري إلى هذا المعنى واستهل به إحدى خطبه، فقال: «إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ عَمَلٍ مِنْ صَحْبَهَا بِالنَّقْصِ لَهَا، وَالزَّهَادَةُ فِيهَا سَعَادٌ بِهَا وَنَفْعَتُهُ صَحْبُهَا، وَمَنْ صَحْبَهَا عَلَى الرَّغْبَةِ فِيهَا، وَالْمَحَبَّةِ لَهَا شَقَى بِهَا وَأَجْحَفَ بِحُظْهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٣).

(١) نهج البلاغة ١٨٩.

(٢) م. ن. ١٠٩.

(٣) حلية الأولياء ٢ / ١٤٠.

الفصل الثاني: المبحث الأول: أثر كلام الإمام علي في خطب الحسن البصري ١٢٩

فالبصري يرى ما قاله الإمام عليه السلام، ويذهب أيضاً إلى الطريقة التي اعتمدتها الله عليه السلام من أجل توصيل الفكرة، تلك الطريقة القائمة على الشرط ثم النتيجة:

فالشرط عند الإمام «من أقل منها» تكون النتيجة «استكثر مما يؤمنه».

عند البصري «من صحبها بالنقص منها» تكون النتيجة «سعد بها».

والبصري أيضاً لم يغفل المقارنة التي اعتمدتها الإمام عليه السلام بين من أقل ومن استكثر من الدنيا والتي اعتمد الطلاق فيها كقوله عليه السلام: « ساعاها - قعد عنها».

وقوله عليه السلام: «فاته - واته».

وقوله عليه السلام: «أقل - استكثر».

وقوله عليه السلام: «يؤمنه - يوبقه».

فقال البصري: «الزهادة فيها - الرغبة فيها».

وقوله: «سعد - شقي».

والملاحظ أنّ البصري أكدّ هذا المعنى بقوّة، مرّة من خلال «إنّ» التوكيدية، وأخرى من خلال تكرار «الدنيا» - التي هي موطن الشاهد - إمّا بلفظها، وهذا ورد مرّة واحدة، أو بالضمير العائد عليها «صاحبها، فيها، بها...» وهذا ورد ثمان مرات.

وبعد هذا قال البصري في الخطبة نفسها، واصفًا الدنيا: «فأمرُها صغيرٌ، ومتاعُها قليلٌ، والفناء عليها مكتوبٌ...»^(١).

وهذا كقول أمير المؤمنين عليه السلام في خطابه للدنيا:

«يا دُنيا يا دُنيا، إِلَيْكَ عَنِّي... قَدْ طَلَقْتُكِ ثلَاثًا لَا رَجْعَةَ فِيهَا! فَعَيْشُكِ قَصِيرٌ،

وَخَطْرُكِ يَسِيرٌ، وَأَمْلُكِ حَقِيرٍ^(١).

وليسَ المعنى وحده شقّ طريقه إلى خطاب البصري، بل حتى صياغة الجملة
أو العبارة القائم على القصر تجده بيناً عنده كذلك:

فَالإِمامُ قَالَ: «فَعِيشُكَ قَصِيرٌ».

وَعِنْدَ الْبَصْرِيِّ: «فَأَمْرُهَا صَغِيرٌ».

وَقَالَ الإِمامُ: «وَخَطْرُكِ يَسِيرٌ».

وَعِنْدَ الْبَصْرِيِّ: «وَمَتَاعُهَا قَلِيلٌ».

ثمّ اعتمد البصري على إسلوب الإخبار الذي أنتهجه الإمام عليه السلام، ولكن مما زاد في وقع عباراته إثباتاً جاءت جميعها مسجوعة سجعاً محبياً «قصير، يسير، حقير» وبالفاظ ذات دلالة واضحة على تصغير وتحقير الدنيا، في حين خلا كلام البصري من هذا الفن البديعي.

ولا زال البصري واصفاً الدنيا محذراً منها في الخطبة نفسها، حتى قال: «فإيتها قد آذنت بزوالِ، لا يدومُ نعيمُها، ولا يؤمَنُ فجائِعها، يليلُ جديدها، ويستقامُ صحيحُها، ويفتقُرُ غنيمُها ميالٌ بأهلهَا، لعابةٌ بهم على كلّ حالٍ»^(٢).

بداية كلامه لا يختلف عن أخبار الإمام عليه السلام عن الدنيا:

«وَقَدْ آذَنْتُ بِيَسِيرِهَا، وَنَادَتْ بِإِنْقِطَاعِهَا، وَنَعَتْ نَفْسَهَا بِالزَّوَالِ»^(٣).

(١) نهج البلاغة ٥٦٣.

(٢) حلية الأولياء ٢ / ١٤١.

(٣) تحف العقول ٢١١.

الفصل الثاني: المبحث الأول: أثر كلام الإمام علي في خطب الحسن البصري ١٣١

فابحملة التحقيقية «قدْ آذَنْتِ بِيَسِّنَهَا» والتي من خلالها أكد الإمام على أنّ الدنيا مصيرها الفراق فلم يغير البصري فيها شيئاً يذكر: «قد آذنت بزوال».

وبافي كلام البصري، فهو من خطبة أخرى للإمام عليه السلام، منها قوله:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا حُلُوةٌ حَمِيرَةٌ... لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا، وَلَا تُؤْمِنُ فَجْعَتُهَا. عَرَارَةٌ ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ... أَكَالَةٌ غَوَّالَةٌ»^(١).

وإذا عرفنا أنّ «الخبرة» في قول الإمام معناها: النعمة، أو النعمة التامة^(٢)، فعليه أنّ كلام البصري: «لا يدوم نعيمها، ولا يؤمن فجائعها»، بنصه عن كلام الإمام عليه السلام:

«لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا، وَلَا تُؤْمِنُ فَجْعَتُهَا».

ومثلما يرى الباحث إستعمال الفعل المضارع «تؤمن» مع المؤنث «الفجيعة» أكثر دقة من استعمال «يؤمن» معها.

وفي كلام الإمام عليه السلام عن الدنيا وحقارتها نجده يستعمل صيغة المبالغة: «غرارة، ضرار، أكالة، قوله».

وما هذا إلّا لاعطاء هذه المعاني بعدًا عميقاً، وتأكيداً بالغاً. لم يغفل البصري هذا بل جنح إليه لما قال: «مِيَالَة، وَلَعَابَة».

وأمّا قول البصري: «يبلّي جديدها». فهو مما ورد نظيره في إحدى خطب الإمام عليه السلام:

(١) نهج البلاغة ١٨٨.

(٢) ينظر: لسان العرب ٤/ ١٥٨ مادة (حَبَر).

«وَصَارَ جَدِيدُهَا رَثًا»^(١).

والرَّثُ هو البالي^(٢). أي صارَ جَدِيدُهَا باليًا، وعليه لا فرق تمامًا بين معنى كلام الإمام عليه ونَصْ البصري.

وهكذا سار البصري في خطبته التي نحن بصددها تماماً على النهج العلوي، حتى قال: «يا ابنَ آدَمَ أَنْتَ الْيَوْمَ فِي دَارٍ هِيَ لِافْظُتُكَ وَكَانَ قَدْ بَدَالَكَ أَمْرُهَا فَإِلَى الصِّرَامِ مَا يَكُونُ سَرِيعًا، ثُمَّ يَفْضِي بِأَهْلِهَا إِلَى أَشَدَّ الْأَمْوَارِ وَأَعْظَمُهَا خَطَرًا»^(٣).

وهو هنا تحدث عن ثلاثة معانٍ حول الدنيا: كونها لافتة، بمعنى أنَّ الدنيا ستخرجك منها قسراً، وإنَّ صرمتها وانقطاعها سيكون سريعاً، ثمَّ حذر أبناء الدنيا من عقبةٍ كَوْوَدَا لَا بُدًّ من عدَّة صالحة لاجتيازها.

وهذه المعاني، وبعض ألفاظها ما نجد لها في جانب من خطبة لأمير المؤمنين عليه

جاء فيها:

«.. وَإِنْصَرَ مَتِ الْدُّنْيَا بِأَهْلِهَا، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا، فَكَانَتْ كَيْوَمَ مَضَى، أَوْ شَهْرٌ إِنْقَضَى، وَصَارَ جَدِيدُهَا رَثًا، وَسَمِّيَّهَا غَثًا، فِي مَوْقِفٍ ضَنْكِ الْمَقَامِ، وَأَمْوَارٍ مُشْتَهَيَّةٍ عِظَامٍ»^(٤).

قول البصري: «أَنْتَ الْيَوْمَ فِي دَارٍ هِيَ لِافْظُتُكَ» المحل بالكتابية عن الموت هو من كتابة الإمام عليه السلام في هذا المعنى: «وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا».

(١) نهج البلاغة ٣٢٦.

(٢) ينظر: لسان العرب ١٥١ / ٢ مادة (رَثَ).

(٣) حلية الأولياء ٢ / ١٤١.

(٤) نهج البلاغة ٣٢٦.

الفصل الثاني: المبحث الأول: أثر كلام الإمام علي في خطب الحسن البصري ١٣٣

وقوله: «وَكَانَ قَدْ بَدَالَكَ امْرُهَا فَإِلَى الْصَّرَامِ مَا يَكُونُ سَرِيعًا» المحل بالاستعارة، لا يختلف عن استعارة الإمام في هذا المعنى «وَأَنْصَرَ مَتَّ الْدُّنْيَا بِأَهْلِهَا».

أما تحذيره في آخر المقطع من مخاطر ما بعد الحياة، فنجدها في آخر كلام الإمام عليه السلام.

وفي الوقت الذي ذَمَّ أمير المؤمنين عليه السلام الدنيا، رغَبَ في أن تكون هي محطة تزود لمحطات لاحقة، فقال:

«فَنَزَّرَ وَدُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ لِأَيَّامِ الْبَقَاءِ»^(١).

كنى عليه السلام عن الدنيا بـ «أيام الفناء» بإعتبار ما ستؤول إليه الدنيا هو الفناء الحتمي، وكنى بـ «أيام البقاء» عن الآخرة كونها لا موت فيها، إما نعيم دائم، أو جحيم دائم.

تجنب البصري الكنية هذه وبادر المعنى مباشرةً، فقال في الخطبة نفسها: «ول يكنْ سعيكَ في دُنْيَاكَ لآخرتكَ»^(٢).

وكثيراً ما كان الإمام عليه السلام يقارن بين الدين والدنيا، ويوصي الرعية بأن يكون همهم حفظ دينهم وإن أضر ذلك في دنياهם، لأن صون دينهم حسنة لا تضر معها سيئة، وتضييع الدين سيئة لا تنفع معها حسنة، فقال في إحدى خطبه:

«وَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكُمْ تَضْيِيقُ شَيْءٍ مِّنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةً دِينِكُمْ. أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيقِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ»^(٣).

(١) نهج البلاغة . ٢٥٤

(٢) حلية الأولياء / ٢ . ١٢٤

(٣) نهج البلاغة . ٢٨٧

اعتمد البصري هذا المعنى في أكثر من نصٌّ، فقال في الخطبة التي نحن بصددتها: «وَيَحْكُمْ يَا ابْنَ آدَمَ مَا يَضُرُّكَ الَّذِي أَصَابَكَ مِنْ شَدَائِدِ الدُّنْيَا إِذَا خَلَصَ لَكَ خَيْرُ الْآخِرَةِ»^(١).

وقال في نص آخر: «ابن آدم! إِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ مَا زُوِّيَ عَنْكَ مِنْ دُنْيَاكَ إِذَا أُدْخَرَ لَكَ خَيْرُ آخِرَتِكَ، وَمَا يَنْفَعُكَ خَيْرٌ مَا أَصْبَتْ مِنْهَا إِذَا حُرِّمْتَ خَيْرَ آخِرَتِكَ»^(٢).

وهنا يبرز الأثر العلوي مهيمناً على كُلّ شيءٍ من كلام البصري المذكور؛ فمقدمة كلام الإمام لم يغيّر فيها شيئاً سوى أنه استبدل لفظة «تضييع» بـ «زُوِّيَ». وحتى التضاد الذي نجده عند الإمام كقوله: «يَضُرُّكُمْ - يَنْفَعُوكُمْ» استعمله البصري نفسه، فقال: «يَضُرُّكَ - يَنْفَعُكَ».

أما النداء «يا ابن آدم» الذي أفتتح به البصري حديثه فهو جزءٌ من إسلوب اعتاده، إذ عندما يأخذ المقطع من كلام أمير المؤمنين عليه السلام يقدم لهُ - في مواطن عدة - بهذه العبارة.

وعلى هذا النهج هي خطب الحسن البصري، حتى أتىك لا تقاد تجده خطبة واحدة من خطبه خالية من أثرٍ لكلام أمير المؤمنين عليه السلام، فمن خطبة له نجده يأتي على حكمه الإمام علي عليه السلام:

افْعَلُوا الْخَيْرَ وَلَا تَحْقِرُوا مِنْهُ شَيْئًا، فَإِنَّ صَغِيرَهُ كَبِيرٌ وَقَلِيلَهُ كَثِيرٌ»^(٣).

(١) حلية الأولياء ٢ / ١٤٣.

(٢) أداب الحسن البصري ٧٠.

(٣) نهج البلاغة ٦٢٩.

الفصل الثاني: المبحث الأول: أثر كلام الإمام علي في خطب الحسن البصري ١٣٥

فأمير المؤمنين عليه السلام وهو يُرغّب بفعل الخير؛ فقد افتح حكمته بفعل الأمر «افعل»، ثم نهى عن تحقيـرـ الخـيرـ بلاـ النـاهـيـةـ، مـؤـكـدـاـ عـلـىـ أـنـ صـغـيرـ الـخـيرـ وـإـنـ قـلـ فهوـ كـبـيرـ؛ لأنـ اللهـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ يـنـمـيـ الـحـسـنـاتـ.

أخذ البصري هذهـ الحـكـمةـ، بـعـضـاـ مـنـهـاـ بـنـصـهـ، وـالـآخـرـ بـمـعـنـاهـ، وـتوـسـعـ عـلـيـهـاـ،
مـؤـكـدـاـ بـمـاـ أـكـدـ إـلـاـمـ، وـنـاهـيـاـ عـمـاـ نـهـىـ عـنـهـ إـلـاـمـ، فـقـالـ: «فـلاـ تـحـقـرـنـ مـنـ الـخـيرـ
شـيـئـاـ وـإـنـ هـوـ صـغـرـ، فـإـنـكـ إـذـ رـأـيـتـهـ سـرـكـ مـكـانـهـ، وـلـاـ تـحـقـرـنـ مـنـ الشـرـ شـيـئـاـ فـإـنـكـ
إـذـ رـأـيـتـهـ سـاءـكـ مـكـانـهـ»^(١).

فـبـدـاـيـةـ كـلـامـهـ: «فـلـاـ تـحـقـرـنـ مـنـ الـخـيرـ شـيـئـاـ» تـضـمـنـ مـحـورـ لـبـادـيـةـ حـكـمـةـ إـلـاـمـ عليه السلام:
«أـفـعـلـواـ الـخـيرـ وـلـاـ تـحـقـرـوـاـ مـنـهـ شـيـئـاـ».

وـكـلـامـهـ «وـلـاـ تـحـقـرـنـ مـنـ الـشـرـ شـيـئـاـ...الـخـ» يـمـثـلـ بـؤـرـةـ التـوـسـعـ، أوـ الـبـسـطـ
الـتـيـ أـجـرـاـهـاـ عـلـىـ كـلـامـ إـلـاـمـ عليه السلام.

ثـمـ قـالـ الـبـصـرـيـ فـيـ الـخـطـبـةـ ذـاـتـهـ: «فـرـحـمـ اللـهـ رـجـلـاـ كـسـبـ طـيـبـاـ، وـأـنـفـقـ قـصـداـ،
وـقـدـمـ فـضـلـاـ لـيـوـمـ فـقـرـهـ وـفـاقـتـهـ»^(٢).

وـهـذـاـ الـكـلـامـ يـشـبـهـ إـلـىـ حدـ كـبـيرـ فـيـ صـيـاغـتـهـ، وـأـسـلـوبـهـ، وـمـعـنـاهـ فـاتـحـةـ لـإـحدـىـ
خـطـبـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـينـ عليه السلام، جاءـ فـيـ بـعـضـهـاـ:

«رـحـمـ اللـهـ أـمـرـءـاـ.. قـدـمـ خـالـصـاـ، وـعـمـلـ صـالـحـاـ..»^(٣).

فـمـثـلـاـ استـعـمـلـ إـلـاـمـ الـعـبـارـةـ الـمـسـجـوـعـةـ الـقـصـيـرـةـ «قـدـمـ خـالـصـاـ..».

(١) حلية الأولياء ٢ / ١٤٣.

(٢) م. ن / ٢ / ١٤٣.

(٣) نهج البلاغة ١٠٥.

وهكذا البصري أيضاً «قدم فضلاً».

ونجد البصري استعمل بعض ألفاظ الإمام بعينها، وببعضها حور في ثوبها، كقوله «كسب طيباً» فهو لا يختلف عن كلام الإمام عليه السلام «عمل صالحًا»، إذ جعل «كسب» بدلاً من «عمل»، و«طيباً» بدلاً من «صالحاً».

وفي الخطبة نفسها يطالعنا أثر آخر لكلام أمير المؤمنين عليه السلام في قول البصري:
 «أنتم تسوقونَ النّاسَ، والسَّاعَةَ تُسوقُكم»^(١).

وما هذا إلا تحويرٌ شكليٌّ لقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«إِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ»^(٢).

فبداية قول البصري فيه كناية عن الموت، بمعنى إن الناس ماتوا وهم الآن أمامكم. وهذا ما نجده صراحة في الجملة الأولى عند الإمام عليه السلام «إِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ»، وبما أنه لا فرق بين «تحدوكم» و«تسوّقكم». حيث يقال: حدا الإبل أي ساقها^(٣)، فلا فرق تماماً بين المقطعين الآخرين من النّصين، إذ كل ما عمله البصري أبدل «تحدوكم» بـ «تسوّقكم».

وما تسجله الدراسة على الحسن البصري إنه كان يعمد إلى المقطع العلوي، فيقدم ويؤخر فيه من جهة، ثم يحور فيه شكلياً من جهة أخرى، وأمثلة هذا كثيرة جداً، فمن خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام حذر فيها من الغفلة وبغتة الموت، قال في بعضها:

(١) حلية الأولياء / ٢ / ١٤٣.

(٢) نهج البلاغة / ٢٨٠.

(٣) ينظر: لسان العرب / ١٤ / ١٦٨ مادة (حدا).

الفصل الثاني: المبحث الأول: أثر كلام الإمام علي في خطب الحسن البصري ١٣٧

«حتى إذا كشف لهم عن جزاء معصيتهم، واستحر جهنم من جلابيب عقلاتهم
استقبلوا مدبراً، واستدبروا مقبلاً، فلما يتتفعوا بما أدرّوكوا من طلبيتهم، ولا بما
قضوا من وطريهم. إني أحذركم، ونفسي، هذه المزلة. فليستفع إمروء بنفسه، فإنهما
البصير من سمع فتَّأَرَ، ونظر فأبَرَ، وانتفع بالغير»^(١).

أخذ البصري بعض هذا مفتتحا به إحدى خطبه، فقال: «رحم الله أمراءاً
عرف ثم صبر، ثم أبصر بصر، فإن أقواماً عرفوا فانتزع الجزع أبصارهم، فلا هم
ادركوا ما طلبوا، ولا هم رجعوا إلى ما تركوا، اتقوا هذه الأهواء المضلة البعيدة
من الله»^(٢).

فأول كلام البصري هو مما جاء في نهاية كلام الإمام عليه السلام، إذ كان الأثر العلوي
فيه جلياً سواء من ناحية المعنى الذي أكدّ وحث فيه الإنسان على التفكير والتدبر
في ما يسمعه، ثم النظر بالعين والتبصر بالقلب. أو من ناحية صياغة الجملة،
فتتجدد الإمام عليه السلام اعتمداً على جمل قصيرة مسجوعة، وهكذا البصري.

حتى أنه لم يغيّر في قول الإمام عليه السلام «ونظر فأبَرَ» إلا شكلياً فقط حين قال:
«ثم أبصر بصر» أمّا ألفاظ الإمام «سمع، تفكير، نظر، أبصر، انتفع» فحاماً حولها
البصري بألفاظه «عرف، صبر، أبصر، بصر».

أمّا قوله «إن أقواماً عرفوا...» بمعنى تبيّن لهم ما كانوا فيه، وما قدموه من
عمل، فكان ينظر فيه إلى قول الإمام المذكور «حتى إذا كشف لهم عن جزاء
معصيتهم...».

(١) نهج البلاغة ٢٤٦.

(٢) حلية الأولياء ٢ / ١٤٦.

ولكن هؤلاء القوم جاءت معرفتهم متأخرة، فهي لم تغرن عنهم شيئاً، وهي في وقتٍ مثلما عبر الإمام عليه السلام عن هذا المعنى بأسلوب العكس الجميل:

«استقبلوا مدبراً، واستدبروا مقبلاً».

والمعنى: «استقبلوا أمراً كان في ظنهم واعتقادهم مدبراً عنهم، وهو الشقاء والعذاب... وتركوا وراء ظهورهم ما كانوا خوّلوا من الأولاد والأموال والنعيم»^(١).

وبما إنهم هكذا، فكانت عاقبتهم مثلما قال عليه السلام:

«فَلَمْ يَتَّفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طَلْبِتِهِمْ، وَلَا يَمْلِأُوا قَصْوَاهُمْ مِنْ وَطَرِهِمْ».

إذ تجد الإمام عليه السلام هنا يصوغ هاتين الجملتين بصورة فيها طول على العكس من لاحقاتها، وكان البصري متوكلاً على لفظ ومعنى وصياغة هذا المقطع بقوله: «فلا هم أدركوا ما طلبوا، ولا هم رجعوا إلى ما تركوا».

وممّا يؤخذ عليه إنّه لم ينقل ما يجده عند الإمام من ألفاظ، وفنون، وصور، ومعانٍ إلى علاقة جديدة أو توظيف مغاير، بل يتکيء تماماً سويةً على اللفظ والمعنى والصياغة.

ومثلما افتتح البصري خطبته بأثر علوي عاد وختمنها بكلام الإمام عليه السلام:

«وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعْنِ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظُّ وَزَاجِرُّ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا لَا زَاجِرٌ وَلَا وَاعِظٌ»^(٢).

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩ / ١٠٩.

(٢) نهج البلاغة ١٣٥.

الفصل الثاني: المبحث الأول: أثر كلام الإمام علي في خطب الحسن البصري ١٣٩

فأمير المؤمنين عليهما السلام يؤكد على أن أي موعظة خارجية بدون استعداد وقبل داخلي لا تؤدي دورها في إحداث التغيير المرجو.

نظر البصري إلى الشق الأول من هذا الكلام، فقال: «إِنَّ الْعَبْدَ لَا يَزُالُ بِخَيْرٍ مَا كَانَ لَهُ وَاعْظُّ مِنْ نَفْسِهِ، وَكَانَتِ الْمَحَاسِبَةُ مِنْ هُمْ»^(١).

ولو أمعنا النظر أكثر في قول البصري «كان له واعظ من نفسه» فنجد أنه لا يختلف عما ورد في مقطع الإمام عليهما السلام: «يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ»، فأستبدل الفعل المضارع الناقص «يكون» بـ«كان». ولعل «يكون» آثار استعمالاً من «كان» لدلالة على الإستمرارية، والنفس تحتاج إلى الوعظ بإستمرارية متواصلة. أما «منها» فالهاء هنا عائدة على النفس بمعنى من نفسه، وهذا ما ذكره البصري صراحة (من نفسه).

ونجد الإمام عليهما السلام لم يكتفي بالوعظ، بل أرده بالزجر، لأن من النفوس لا يكفيها الوعظ، بل هي بحاجة إلى كبح جماحها وزجرها، ولكن البصري أهمل هذا مكتفيا بالوعظ.

أغلب خطب البصري من هذا النوع، حيث يجعل منشئها هيكليتها من مقدمة أو استهلال، ووسط، ثم الخاتمة من كلام أمير المؤمنين عليهما السلام، وهذا إن دل على شيء فأول ما يدل على الرغبة والغرام بهذا الكلام حتى جعلا به يفتح، وبه يعرض، وبه يختتم.

ومن خطبه الأخرى التي بنيت على هذا البناء قوله: «يا ابن آدم: بع دنياك بأخرتك تربحها جميعاً، ولا تبع آخرتك بدنياك فتتسر هُما جميعاً»^(٢).

(١) حلية الأولياء ٢ / ١٤٦.

(٢) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤٨٥.

١٤٠ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في التشر العربي

فنهيه عن بيع الآخرة بالدنيا، تضمين حرفياً لما ورد في وصية الإمام علي لولده

الحسن عليه السلام:

«فَاصْلِحْ مَثْوَاكَ، وَلَا تَبْعَ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ»^(١).

و قبل أن يضمّن البصري عبارة الإمام عليه السلام التي استعار فيها لفظة البيع للآخرة، كان قد ذكر هذا المعنى، بمعنى أنه كرر المعنى العلوي مرتين: الأولى عن طريق العكس، والثانية بالنص وهذا التكرار لترسيخ معنى واحد، هو تفضيل الآخرة على الدنيا.

وبعد هذه المقدمة انتقل البصري إلى موعظة أخرى، دعا فيها إلى منافسة أهل الخير في الخير، والابتعاد عن أهل الشر، فقال: «يا بن آدم إذا رأيتَ النّاسَ في الخير فنافسهم فيه، وإذا رأيْتُمْ في الشّرِّ فلا تغبطهم عليه»^(٢).

فكلامه هذا يشبه إلى حد كبير بعض ما جاء في إحدى خطب الإمام عليه السلام:

«إِذَا رَأَيْتُمْ خَيْرًا فَاعْيُنُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرًّا فَاذْهَبُوا عَنْهُ»^(٣).

فالمعنى هو المعنى بين النصين، والألفاظ نفسها، وحتى التي غير فيها البصري فإنما بقيت تحوم حول دلالة الألفاظ في نص الإمام عليه السلام:

فقول البصري: «فنافسهم فيه» من قول الإمام:

«فَاعْيُنُوا عَلَيْهِ».

وقوله: «فلا تغبطهم عليه». من قول الإمام:

(١) نهج البلاغة ٤٥٨.

(٢) جمهرة خطب العرب ٢ / ٤٨٥

(٣) نهج البلاغة ٢٩٤.

الفصل الثاني: المبحث الأول: أثر كلام الإمام علي في خطب الحسن البصري ١٤١
«فاذهبو عنه».

أمّا صياغة الموعظة والتي ابتدأها الإمام بـ «إذا» الشرطية - وهي ظرف لما يستقبل من الزمان - وما تلاها من فعل الشرط ومفعوله «رأيتم خيراً»، ثم جواب الشرط المقترن بالفاء « فأعينوا عليه»، ثم الجملة التي جاءت بعد هذه والتي كانت على غرارها تماماً، ثم ما أختتم به الجملتين من جار ومحرر «عليه، فيه»، فوجد البصري في هذا كله أسوة حسنة، فسار عليه خطوة خطوة.

والذى يلحظ على خطب البصري تعرّضه في الواحدة منها إلى موضوعات وعظية عدّة، يربط بين كلّ موضوع وآخر بعبارة يا أبن آدم، أو يا فلان، أو غيرهما، وهذا بدوره أدى إلى غياب الإنسجام والسبك عن خطبه، ومردّ هذا - مثلما يرى الباحث وستكشفه الدراسة - إلى أنّ البصري يجمع في الخطبة الواحدة حكّماً ومقاطع من خطب علوية عدّة، وبعد أن انتهى من حث الناس على المنافسة في أعمال الخير انتقل إلى موعظة أخرى، فقال: «أمّتكم آخر الأمم، وأنتم آخر أمّتكم، وقد أسرع بخياركم، فماذا تنتظرون»^(١).

فالبصري بهذا يشاعر أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المعنى الذي أورده بطريقة جميلة، حيث قال:

«أَيْنَ أَخْيَارُكُمْ وَصُلَحَاوْكُمْ! وَأَيْنَ أَحْرَارُكُمْ وَسُمَّحَاوْكُمْ! وَأَيْنَ الْمُتَوَرِّعُونَ فِي مَكَابِسِهِمْ، وَالْمُتَنَزِّهُونَ فِي مَدَاهِيهِمْ! أَلَيْسَ قَدْ ظَعَنُوا جَيِيعاً عَنْ هَذِهِ الدُّنْيَا الْدَّنَيَّةِ»^(٢).

فقول البصري: «وقد أسرع بخياركم» يرى فيه الباحث اختزالاً لكلام

(١) جمهرة خطب العرب / ٢، ٤٨٥.

(٢) نهج البلاغة ٢١٥ - ٢١٦.

الإمام، إلا أن الإمام لم يصرح مباشرةً بأنَّ الأخيار ظعنوا أو أُسرع بهم، بل اعتمد على الإستفهام المكرر في ثلاث مرات متتالية، وذلك حتى يلفت انتباه السامع إلى ما أجاب به «أليس قد ظعنوا جميًعاً»، أو لأنَّه أراد أن تكون الإجابة من المخاطب نفسه، فعلى الرغم من إن الإستفهام يستعمل «لطلب الفهم لما ليس مفهوماً، أو لما هو غامض أو لطلب حصول الصورة الذهنية بواسطة أدوات محددة»، ولكن الإستعمال الخاص للإستفهام يفرغ هذه الأدوات من دلالة الإستفهام إلى دلالات بديلة يعكسها السياق الذي ترد فيه^(١). ومثالها كلام الإمام المذكور، فهو يعلم أين ذهب الأخيار والصلحاء، ويعلم أنَّ الناس أو من خاطبهم يعلمون بذلك، لكنَّه أرادَ منهم أن لا يتناسووا هذه العاقبة الحتمية، وتكون نصب أعينهم. ولذا فإنَّ كلام البصري لم يكن له هذا الجذب والشد الذي وجده في هذا المقطع من خطبة أمير المؤمنين عليه السلام.

ومن شدَّة تأثير البصري بهذا المعنى عادَ وكررَ - في الخطبة نفسها - قوله السابق بنصِّه مع زيادة فيها أثر علوي أيضًا، فقال: «وَرَبُّ الْكَعْبَةِ قَدْ أُسْرِعَ بِخِيَارِكُمْ وَأَنْتُمْ كُلُّ يَوْمٍ تَرْذَلُونَ فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟»^(٢).

بعد أن تحدَّث البصري عن ذهاب الأخيار، مؤكًّداً على هذا المعنى بتكراره، واستعمال القسم، وإيرادِه بتركيب يدلُّ على التحقيق «قد أسرع» عادَ وذمٌّ من خاطبهم «وَأَنْتُمْ كُلُّ يَوْمٍ تَرْذَلُونَ»، بمعنى تصиرون أرذال، والرذيل هو الخسيس، وقيل هو الدُّون من الناس^(٣).

(١) جدلية الإفراد والتركيب . ١٩٤.

(٢) جمهرة خطب العرب / ٢ . ٤٨٦.

(٣) ينظر: لسان العرب / ١١ . ٢٨٠ مادة (رذل).

الفصل الثاني: المبحث الأول: أثر كلام الإمام علي في خطب الحسن البصري ١٤٣

وهذا ما نجده تماماً في خطبة أمير المؤمنين عليهما السبق، فعندما تحدث عليهما عن ذهاب الأخيار والصلحاء ذم من خاطبهم بقوله:

«وَهُلْ خُلِقْتُمْ إِلَّا فِي حُثَالَةِ لَا تَلْتَقِي بِذَمِّهِمُ الشَّفَّاتِ، إِسْتِصْغَارًا لِقَدْرِهِمْ، وَذَهَابًا عَنْ ذِكْرِهِمْ!»^(١).

ولكن الإمام ومن شدة توجعه من القوم أكد ذمّهم أكثر وبطرق مختلفة، فنجده استعمل اللفظ الدال على الذم كـ «حُثَالَة» وهي الرديء من كُل شيء^(٢).

واستعمل التعبير الجميل الدال على أقوى درجات الذم وأبلغها «لَا تَلْتَقِي إِلَّا بِذَمِّهِمُ الشَّفَّاتِ» بمعنى: «ما بقيتم إلّا في أوغر الناس وأراذهم.. يأنف الإنسان أن يذمّهم، ولا يطبق إحدى الشفتين منه على الأخرى ليتكلّم عنهم «استصغارًا لقدرهم» أي ترفاً «عن ذكرهم» واحتقاراً لهم^(٣). ومن باب تأكيد الذم أيضاً قدم عليهما «بِذَمِّهِم» وهو يستحق التأخير على «الشافتان» الذي يستحق التقديم، لأنّه فاعل «لتلتقى»، بينما اختزل البصري هذا المعنى بتعبيره السالف الذي خلا منه جماليّة تذكر سوى الإشتراك في معنى الذم.

وممّا كان بادياً على كلام أمير المؤمنين عليهما التأوه والحسرة الشديدان على قومه، كونهم لم يمثلوا أوامر وبخاصة مواعظه، وكفى بها شأنًا أن يسمّيها هو صائفة وشافية، فقال في خطبته المسماة بالغراء:

«فِيَا لَهَا أَمْثَالًا صَائِفَةً، وَمَوَاعِظَ شَافِيَةً، لَوْ صَادَفْتُ قُلُوبًا زَاكِيَةً، وَأَسْمَاعًا

(١) نهج البلاغة . ٢١٦

(٢) ينظر: لسان العرب ١١/١٤٢ مادة (حثل).

(٣) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ٨/ ٢٣٣

واعيَةً، وآرَاءً عازِمَةً، وَأَلْبَاباً حازِمَةً»^(١).

ومثل هذا نجده عند البصري، فعندما يسوق النصائح والعظات، تراه معتزا بها معيظاً إياها، وفي الوقت نفسه كان متاؤهَا، ومتشكياً من عدم سير الناس على ما يقول، فقال في الخطبة التي هي محل الشاهد: «فيما لها موعظةً لو وافقت من القلوبِ حياة»^(٢). فهو لم يغير في كلام الإمام عليه السلام إلا في بعض المبني، فقوله: «فيما لها موعظة» من قول الإمام:

«فيما لها أمثلاً.. ومواعظ».

وقوله: «ولو وافقت من القلوب» من قول الإمام:

«لو صادفت قلوباً».

ومن أجل أن تكون الموعظ شافية، وصائبة نجد أمير المؤمنين عليه أشرف - وهو العارف بذلك - أكثر من حاسةٍ وعضو، فيريد رأياً عازماً، ولبّاً حازماً، وسمعاً واعياً، وقلباً زاكياً. في حين أنّ البصري اكتفى من هذا بالقلب، ولم يشرك سواه في عملية الوعظ، إلاّ أنه أكد عليه وذلك لما قدمه وهو يستحق التأخير.

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي نجده حاضراً في الخطبة البصرية هذه قوله في وصيّة لولده محمد بن الحنفية عليهما ألطافه الرّایة يوم الجمل: «..تُدْ في الأرضِ قَدَمَكَ»^(٣).

(١) نهج البلاغة . ١١٥

(٢) جمهرة خطب العرب / ٢ / ٤٨٥

(٣) نهج البلاغة . ٣٥

الفصل الثاني: المبحث الأول: أثر كلام الإمام علي في خطب الحسن البصري ١٤٥

ضمّن البصري هذا المقطع، وبطريقته التي باتت ذائعة، إذ قدّم له بعبارة يا ابن آدم، فقال: «يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك»^(١).

فلم يغّير البصري هنا سوى لفظة واحدة، إذ ابدل فعل الأمر «تد» بفعل الأمر «طأ»، ورفع حرف الجر من الأرض وأدخله على القدر.

ويرى الباحث أن استبدال البصري للفعل المذكور كان في محله، لأن الإمام عليه السلام عندما أوصى ولده كان في ساحة حرب، وهذا يتطلب منه فعلًا له دلالة على الثبات والعزم، والإصرار فأستعمل الأمر «تد» وهو من وَتَدَ، يقال: «وَتَدَ فلان رجلاً في الأرض إذا ثبَّها»^(٢).

بينما البصري حينما غيّر - وهذا قليل جدًا - وظيفة هذا المقطع إلى غرض الوعظ والتذكير بالموت، غير معه الفعل، وهذا التغيير كانت له المقدرة على تغيير سياق الجملة؛ فتحول المعنى من الثبات والعزم إلى ميدان الحرب إلى التذكير بها سيؤول له مصير الإنسان، وكأنه أراد أن يقول: طأ إليها الماشي الأرض بقدمك، ولكن تذكر بأئمّها ستكون قبرك قريباً.

وللبصري خطبة أخرى، خطب بها أمام عمر بن هبيرة^(٣)، قسمها على خمسة مقاطع، كل مقطع يبدأ بعبارة «يا عمر بن هبيرة»، وكان تعالق واضح بين هذه المقاطع وبين كلام أمير المؤمنين عليه السلام. قال في أو لها: «يا عمر بن هبيرة يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ لا يعصي الله ما أمره، فيخر جلك من

(١) جمهرة خطب العرب / ٢ / ٤٨٦.

(٢) لسان العرب / ٣ / ٤٤٤ مادة (وتدا).

(٣) هو عمر بن هبيرة بن معاوية الفزارى، جُمعَت له ولایة العراق سنة ١٠٣ هـ إبان خلافة يزيد بن عبد الملك، ثم عزّل بخالد القسّرى. ت ١٠٧ هـ تقريباً. ينظر: سير أعلام النبلاء / ٤ / ٥٦٢.

سعة قدرك إلى ضيق قبرك»^(١).

حضر البصري الولي من سرعة أو بعثة نزول ملك الموت عليه فينقله قسراً «من سعة قصره» وهو كنایة عن النعيم، وغضارة العيش، وكامل الحرية على الحركة إلى «ضيق قبرك» ومعناه عكس الأول تماماً.

ومن يمعن النظر في مقابلة البصري هذه يجد ربطاً وثيقاً بينها وبين ما جاء في إحدى خطب الإمام علي عليه السلام:

«إِسْتَبَدُلُوا بِظَاهِرِ الْأَرْضِ بَطْنًا، وَبِالسَّعَةِ ضِيقًا، وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً»^(٢).

فكلام الإمام علي عليه السلام: «استبدلوا.. بالسعة ضيقاً» كان مرجعية خصبة لقول البصري: «فيخرجك من سعة قدرك إلى ضيق قبرك».

ولكن «السعة» في كلام الإمام علي لها من الدلالة أوسع وأبعد من «السعة» عند البصري، كون البصري عرفها بالإضافة وجعلها مختصة بسعة القصر «سعة قدرك».

أما الضيق، فالمقصود به القبر عند الطرفين، غير أن أمير المؤمنين عليه لم يذكر القبر بإسمه الصريح، بل استعاض عنها بكنایات، لأن الجميع «قد أجمع على أن الكنایة أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح»^(٣) فجاءت كنایاته عليه جميلة ومؤثرة: «بِظَاهِرِ الْأَرْضِ بَطْنًا، وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً» وهذه التعبير

(١) حلية الأولياء ١٤٩ / ٢.

(٢) نهج البلاغة ١٩١.

(٣) دلائل الإعجاز ٥٣.

الفصل الثاني: المبحث الأول: أثر كلام الإمام علي في خطب الحسن البصري ١٤٧

تبين بوضوح أن الإمام كان يقصد الإنقال من عالم الدنيا إلى عالم البرزخ، وتعطي صورة واضحة ومكثرة عن وحشة تلك الدار التي لا مفر منها، بما لها - تلك التعبير - من دلالة واسعة على إحداث هزة من الحزن، والتوجس لدى المتلقى.

وبعد ذلك قال البصري: «يا عمر بن هبيرة إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك، ولا يعصمك يزيد عبد الملك من الله عز وجل»^(١).

والباحث هنا يذهب إلى ما ذهب إليه ابن أبي الحديد، حين رأى إن هذا الكلام أخذه البصري مما ورد في عهد أمير المؤمنين عليهما السلام محمد بن أبي بكر:

«وَلَا تُسْخِطِ اللَّهَ بِرِّضًا أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَإِنَّ فِي اللَّهِ خَلْفًا مِنْ غَيْرِهِ، وَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ خَلْفٌ فِي غَيْرِهِ»^(٢).

فالإمام عليهما السلام ينهى جازماً عن تفضيل رضى المخلوق على سخط الخلاق، مؤكداً على أن الله هو الكافي من كل شيء، ولا يكفي من الله شيء، وفي هذا برهان دقيق على وجوب الإمتثال لأوامر الله تعالى، إذ «كُلُّمَا كَانَ فِي اللَّهِ خَلَفٌ عَنْ غَيْرِهِ، وَلَيْسَ فِي غَيْرِهِ خَلْفٌ مِنْهُ، فَالوَاجِبُ اتِّبَاعُ رِضاهُ وَأَنْ لَا يُسْخِطَ بِرِّضًا غَيْرِهِ»^(٣).

ومن شدة تأثر البصري بهذا المعنى عاد وكرر - في الخطبة نفسها - ما ذكره مع تغيير طفيف، فقال: «يا عمر بن هبيرة! إن تك مع الله تعالى في طاعته كفاك بائقة يزيد بن عبد الملك، وإن تك مع يزيد بن عبد الملك على معاصي الله وكلك الله إليه»^(٤).

(١) حلية الأولياء / ٢ / ١٤٩.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ١٥ / ١١٤.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن ميثم / ٤ / ٢٣٨.

(٤) حلية الأولياء / ٢ / ١٥٠.

والتكرار بهذه الطريقة لم يكن في مصلحة النص والأديب، لأنّه خالٍ من الجدّة والطرافة، قال الخطابي (ت ٣٨٨هـ): «وَأَمَّا مَا عَابُوهُ مِنَ التَّكْرَارِ فَإِنَّ تَكْرَارَ الْكَلَامِ عَلَى ضَرَبَيْنِ: أَحَدُهُمَا مَذْمُومٌ وَهُوَ مَا كَانَ مُسْتَغْنِيًّا عَنْهُ، غَيْرُ مُسْتَفَادٍ بِهِ زِيَادَةً مَعْنَى لَمْ يَسْتَفِيدُوهُ بِالْكَلَامِ الْأَوَّلِ؛ لَأَنَّهُ حِينَئِذٍ يَكُونُ فضْلًا مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَوْلَا، وَلَيْسُ فِي الْقُرْآنِ شَيْءٌ مِنْ هَذَا النَّوْعِ»^(١).

ثُمَّ لَوْ أَمَعَنَا النَّظَرُ فِي قَوْلِ الْبَصَرِيِّ فِي الْمَقْطُوعِ الرَّابِعِ: «يَا عُمَرَ بْنَ هَبِيرَةَ لَا تَأْمُنْ أَنْ يَنْظُرَ اللَّهُ إِلَيْكَ عَلَى أَقْبَحِ مَا تَعْمَلُ فِي طَاعَةِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ نَظَرَةً مَقْتَ، فَيَغْلِقُ بَهَا بَابَ الْمَغْفِرَةِ دُونَكَ»^(٢).

لوجدناه ينهل من حكمه أمير المؤمنين عليه السلام:

«إِحْذِرْ أَنْ يَرَاكَ اللَّهُ عِنْدَ مَعْصِيَتِهِ، وَيَفْقِدَكَ عِنْدَ طَاعَتِهِ فَتَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ، وَإِذَا قَوِيَتْ فَاقْوَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَإِذَا ضَعُفتْ فَاضْعُفْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ»^(٣).

فالمعنى واحد بين النصين وهو تحذير المرء ونهيه من أن يراه الله في العاصين ولا يجده مع المطيعين.

ومثلما ابتدأ الإمام حكمته بإسلوب الإنشاء آمراً «احذر» ابتدأ البصري بهذا الإسلوب ناهياً «لا تأمن» والمعنى واحد. وأمّا ما ورد بعد الأمر عند الإمام: «أن يراك الله» فقد غيرَ فيه البصري طفيفاً، بل أقلّ من القليل، لما قال: «أن ينظر الله إليك».

والذّي لم يلتزم بهذا الوعظ، فقد حذّره الإمام «فتكون من الخاسرين»،

(١) بيان إعجاز القرآن ٥٢.

(٢) حلية الأولياء ٢ / ١٥٠.

(٣) نهج البلاغة ٦٢٣.

الفصل الثاني: المبحث الأول: أثر كلام الإمام علي في خطب الحسن البصري ١٤٩

وال بصري لم يبرح سائراً على فقرات الحكمة العلوية، لما حذر واليه بمثل هذا: «فيغلق بها باب المغفرة دونك».

لقد رأينا كيف كان يجمع البصري في نصّه الواحد عدّة آثارٍ علوية، إذ في المقطع الأول نجدُ آثراً خطبةً، وفي الثاني نجد آثراً لرسالة، وفي الثالث لحكمة، وعلى الرغم من كون هذا الأثر العلوي له قوّةً ومقدرة على إثراء كلام البصري على صعيدي الشكل والمضمون، إلا أنَّ البصري - ومثلاً يرى الباحث - بهذه الطريقة عرَّض خطبهُ ورسائله - معظمها - إلى عدم الإنسجام والتلاحم بين عناصرها الرئيسية، لأنَّ المقطع الأول - وإنْ كانت جميعها وعظية وإنْ كانت المواعظ يصلح بعضها مع بعضها الآخر - لا يرتبط بالثاني، والثاني لا يرتبط بالثالث وهكذا. ولذا حاول التخلص من هذه الفجوات التي تحدث بين كُلّ مقطع وآخر من المقاطع التي ينتقيها من كلام أمير المؤمنين عليه السلام بتكرار بعض العبارات - تكرار (يا عمر بن هبيرة) هنا - لتكون هي الرابط والموصل بين أجزاء الخطبة الرئيسية.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الميزة في نثر البصري بعامة قد عُرفت عنه، قال إحسان النص «ومن مظاهر إسلوبه... عدم الربط بين الفقرات فتبعد كل فقرة موعظة مستقلة بذاتها»^(١). والأهم هنا إن عدم الربط لهذا عائد إلى السبب المُيَّن قبل قليل.

والغالبية الساحقة من خطب وسائل البصري التي تطول سجّلت الدراسة عليها هذه الطريقة في البناء، وذلك الأثر من الإمام عليه السلام.

فمن خطبة أخرى له إبتدأها قائلاً: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا خَلَا بِكِتَابِ اللَّهِ، فَعَرَضَ

(١) الخطابة العربية في عصرها الذهبي .٣٦٤

عليه نفسه، فإنْ وافقه حَمْدَ رَبِّهِ، وسأله الْزِيَادَةَ من فضله، وإنْ خالقه أعتَبَ وأنابَ، وراجعَ من قرِيبٍ»^(١).

وهذا المعنى من المعاني الشائعة، غير أنَّ البصري جمع في خطبته هذه طريقةً ومعنى وبعض ألفاظٍ وردت في خطبة دعا فيها أمير المؤمنين عليهما السلام للإحتكام للقرآن، فقال:

«وَأَعْرِضُوا مَا أَشْكَلَ عَلَيْكُمْ عَلَى الْقُرْآنِ، فَمَا عَرَفَهُ الْقُرْآنُ فَالْزَمُوهُ، وَمَا أَنْكَرَهُ فَرُدُّوهُ»^(٢).

ومعنى قوله عليهما السلام - بحسب فهم الباحث - : «فَمَا عَرَفَهُ الْقُرْآنُ». أي ما شهد له القرآن بأنه عملٌ معروف، وقوله: «وَمَا أَنْكَرَهُ» أي ما شهد عليه القرآن بأنه عملٌ منكر.

والمعنى واحدٌ بين نصِّ الإمام ونصِّ البصري قائمٌ على الرجوع إلى كتاب الله الكريم وجعله فیصلاً وحكماً، فإن طاب العمل الأمر القرآني، فالالتزام بذلك العمل والإزدياد منه خيراً، وإن خالف العمل القرآن، فإنكار ذلك العمل خيراً.

ومن الفوارق بين النَّصَيْنِ: أنَّ حديث الإمام عليهما السلام كان موجَّهاً للجماعة:

«وَأَعْرِضُوا مَا أَشْكَلَ عَلَيْكُمْ عَلَى الْقُرْآنِ».

وهذا بدوره وسَعَ دلالة الكلام، وما زاد في وسعها ورود «ما» بعد فعل الأمر، بمعنى اعرضوا جميع المشاكل على القرآن المجيد سواء التي تخصَّ الفرد، أو التي بينه وبين محيطه.

(١) البيان والتبيين / ٣ / ٦٩.

(٢) تاريخ الطبرى / ٣ / ٤٩٤.

وعلى الرغم من إنّ البصري استعمل هذه الجملة بطريقة واضحة «فعرض عليه نفسه»، إذ أبدل فعل الأمر «اعرضوا» بالماضي «عرض»، وأبدل «على الله» بـ «عليه» «ولا فرق مطلقاً - هنا - بين شبه الجملة عند الطرفين، لأن الضمير «الهاء» في كلام البصري عائد على لفظ الجلالة فيكون كلامه «على الله». ومع هذا نجد في هذا التبديل قد ضيق البصري الدلالة وحدّ من سلطة القرآن اللامتناهية - طبعاً في هذا النص - عندما:

١- حوَّلَ الخطاب من صيغة الجمع إلى صيغة المفرد، من «اعرضوا» إلى «اعرض».

٢- عرَّفَ المعروض على القرآن، وحدَّده بقوله: «نفسه». بينما نجد الإمام عليه السلام لم يحدد شيئاً معيناً يُعرض على القرآن، بل - مثلما سلف - استعمل لفظة «ما» وهذه اللفظة بنكرتها تبيَّن بعض ما للقرآن من سلطة، وأنَّه هو القادر على حل جميع المشاكل خارج حدود الرمان، والمكان، والأشخاص.

وبعد هذا سيتقلَّب البصري في خطبته المذكورة إلى موعظة أخرى، وكأنَّ هذه الموعظة بداية خطبة جديدة، وقد أدرك وهو بذلك لا بدَّ من إيجاد رابط بين المقطعين لذا كرَّر الدعاء «رحم الله» الذي ابتدأ به المقطع الأوَّل، فقال: «رَحِمَ اللهُ رجلاً وعظَّ أخاه وأهله، فقال: يا أهلي صلاتكم صلاتكم، زكاتكم زكاتكم، جيرانكم جيرانكم، إخوانكم إخوانكم، مساكينكم مساكينكم، لعل الله يرحمكم»^(١).

وكأنَّ البصري بكلامه هذا قد أقطع جملَّاً من وصيَّة أمير المؤمنين لولده عليه السلام لما ضربه ابن مُلجم (لعنه الله)، منها:

«ثُمَّ إِنِّي أَوْصِيكَ يَا حَسَنُ وَجَمِيعَ أَهْلِ بَيْتِي وَوُلْدِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي بِتَقْوِيَةِ اللَّهِ رَبِّكُمْ... اللَّهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ فَلَا يُسْبِقُكُمْ إِلَى الْعَمَلِ بِهِ أَحَدٌ غَيْرُكُمْ... اللَّهُ اللَّهُ فِي جِيرَانِكُمْ فَإِنَّ النَّبِيَّ \$ أَوْصَى بِهِمْ... حَتَّى ظَنَّا أَنَّهُ سَيُورَثُهُمْ... اللَّهُ اللَّهُ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا خَيْرُ الْعَمَلِ، إِنَّهَا عُمُودُ دِينِكُمْ. اللَّهُ اللَّهُ فِي الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا تُطْفِئُ غَضَبَ رَبِّكُمْ... اللَّهُ اللَّهُ فِي الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ فَشَارَكُوهُمْ فِي مَعَايِشِكُمْ... وَعَلَيْكُمْ يَا بَنِيَّ بِالْتَّوَاضُّلِ وَالتَّبَاذُلِ وَالتَّبَارِرِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّقَاطُعِ وَالتَّدَابِرِ وَالتَّفَرُّقِ»^(١).

فجميع فقرات البصري نجد لها منبئاً في هذا الجزء من الوصية العلوية، وبمقارنته النَّصين جملة بجملة يكون الأثر العلوي أكثر جلاءً.

فقول الإمام علي عليه السلام: «إنِّي أَوْصِيكَ.. وَجَمِيعَ أَهْلِي» قابله البصري وبحoir طفيف لما قال: «رحم الله رجلاً وعظ أخاه وأهله».

وقول الإمام: «الله اللهم في جيرانكم».

قابله البصري: «جيرانكم جيرانكم».

وقول الإمام: «الله اللهم في الصلاة».

قابله البصري: «صلاتكم صلاتكم».

وقول الإمام: «الله اللهم في الزكاة».

قابله البصري: «زكاتكم زكاتكم».

وقول الإمام: «الله اللهم في الفقراء والمساكين».

قابله البصري: «مساكينكم مساكينكم».

الفصل الثاني: المبحث الأول: أثر كلام الإمام علي في خطب الحسن البصري ١٥٣

وقول الإمام: «عليكم يا بنّي بالتواصل والتباذل والتبارّ».

قابلة البصري: «إخوانكم إخوانكم».

ولم يعتمد البصري على المعنى والألفاظ التي وجدها في الوصية، بل أكد بها أكّد به الإمام عليهما السلام، وهو التكرار، كون التكرار من أهم قوانين الإيقاع^(١)، لذا جاء به الإمام عليهما السلام ليتم التأكيد على المفاهيم التي أوجزها وهو على فراش الموت، لافتًا نظر السامع وانتباهه ومستدعيًا اهتمامه من خلال هذا التركيب^(٢): «الله الله».

وعلى الرغم من التشابه الكبير بين النصين، إلا أنّ الباحث يرى هنا لك فروقاً شّكلت علامه فارقة بينهما، منها:

أولاً: صحيح أنّ الإمام أوصى ولده وأهله عليهما السلام، لكنه بعمق نظر، وسعة أفق، وإيمان راسخ بأنه ليس حكراً على طائفة معينة، أو زمانٍ معينٍ، جعل وصيته لا تختص بالأهل والولد، بل هي خارجة عن أيّة حدود زمانية، أو مكانية، أو شخصية، سارية المفعول لتشمل كُلّ: «من بلغه كتابي»، بينما البصري اكتفى بوعظ: «أخاه وأهله».

ثانياً: إن التوكيد الذي استعمله الإمام عليهما السلام من خلال تكرار لفظ الجلالة، وعلى امتداد الوصية «الله الله في جيرانكم..»، أبلغ وأوّل من تكرار البصري ما أُريد الإلتزام به من واجبات إنسانية وإسلامية: «جيرانكم جيرانكم..». لما يحمله لفظ الجلالة من تعظيم وتقديس، وخشية ورهبة في أعماق كُلّ مخلوق.

ثالثاً: ومن أجل أن تكون وصيته عليهما السلام ذات تأثير فعال، وحجّة بالغة نجده

(١) ينظر: الأسس الجمالية في النقد الأدبي . ٢٢١

(٢) ينظر: المستويات الجمالية في نهج البلاغة . ٧٠

يبين فضيلة العمل الذي يأمر به، ويكشف أجره، فعندما أوصى بالصلاوة بين أنها: «خير العمل»، وعندما أوصى بالزكاة بين أنها «تطفيء غضب ربكم». وهذا الإسلوب يخلق دفعة من الإقناع بالقول أكثر من لو كان يوصي بالفعل دون بيان أجره وفضيلته، في حين أنّ البصري أهمل هذا في نصّه المتأثر.

المبحث الثاني

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في رسائل الحسن البصري

يُعدُّ فن الرسائل فنًا مهمًا من فنون التراث الفنّي، حيث بدأت ملامحه تتطرّف بوضوح في أواخر العهد الرّاشدي، حتى اتّخذَ هذا المصطلح للدلالة على النّص المدوّن والمعوّث من قبل شخصٍ إلى آخر^(١). وقد حفّزت عوامل عدّة على كتابة الرسائل والإهتمام بها، كان على رأس هذه العوامل، تعيين الولاة على أطراف متaramية من الدولة الإسلامية العظمى آنذاك، فكانت وسيلة الاتصال الوحيدة بين رأس السلطة (ال الخليفة)، وبين ولاته هي الرسائل - التحريرية أو الشفوّية - فكان الخليفة ينقل إلى واليه، أو الوالي إلى الخليفة ما يشاء من أمور تخصّ الدين والدنيا عن طريق هذا الفن.

وعلى الرّغم من تعدد موضوعات الرسائل، إلا أنّ أيّن ما طرق منها الحسن البصري موضوع الوعظ، والتّرغيب في الآخرة، والتّرغيب عن الدنيا، لأمّها

(١) ينظر: الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي ١٦ - ١٧ .

دار تصرُّم وانتقال، والتذكير بالموت، بمعنى إنَّ موضوعاتها لا تختلف عن موضوعات الخطب، وقد قيل في هذه الرسائل الكثير، وعُدَّتْ «نموذجاً راقياً لأدب الموعظ في هذا العصر، لшиوعها وغزارتها، ولما اتَّسمت به أيضًا من مزايا فنية عالية... وغدت مثالاً احتذاه منشئوا هذا اللون من الرسائل، ونهلوا من معينها»^(١).

ورأى الباحث غانم جواد لم يكن دقيقاً كون رسائل البصري عن بكرة أبيها جاءت تقليداً صارخاً لكلام أمير المؤمنين عليه السلام، حتى أنَّ أهم رسائله وأط渥ها لا تعدو سوى أنها تلفيق لكلامه عليه السلام، إذًا فكيف منْ جاءَ بعدَ البصري احتذى مثاله ونهل من معينه؟

وعلى أية حال فمن رسائله الطوال التي جمعها من كلام الإمام عليه السلام رسالة أرسلها إلى عمر بن عبد العزيز تجاوزت اسطرها مائة سطرًا، قال في مستهلها: «.. واحتِمال المَؤْنَةِ المُنْقَطَعَةِ التي تعقبُ الراحة الطويلة...»^(٢).

فالبصري في هذا كان ينظر إلى جملة وردت في خطبة المتquin للإمام علي عليه السلام جاء فيها:

«صَبَرُوا أَيَّامًا قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً»^(٣).

وكطريقته في الخطب يجمع البصري مقاطع عدّة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، ويضع لها جملة لتكون هي الرابط - وهي هنا أحذرها - بين هذه المقاطع على امتداد الرسالة، فبعد أن أخذ مقطعاً من خطبة المتquin، قال محذراً من الدنيا:

(١) م. ن. ٢٨٠ - ٢٨١.

(٢) حلية الأولياء / ٢ / ١٣٤.

(٣) نهج البلاغة . ٣٥١

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٥٧
«فاحذر هذه الدار الصارعة الخاتلة التي قد تزيّنت بخدعها، وغرت
بغرورها، وقتلت أهلها بأمّها»^(١).

وتحذيره هذا لا يختلف عن تحذير الإمام عليه السلام من الدنيا، حينما قال:
«آمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ الْدُّنْيَا، فَإِنَّمَا.. حُفْتُ بِالشَّهَوَاتِ... وَتَحَلَّتُ بِالْأَمَالِ،
وَتَزَيَّنْتُ بِالْغُرُورِ... حَائِلَةُ زَائِلَةٍ، نَافِذَةُ بَائِدَةٍ... كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وَذِي
طُمَانِيَّةٍ قَدْ ضَرَّعَتْهُ»^(٢).

سار البصري على أثر هذا الكلام شكلاً ومضموناً، فمثلما ابتدأ الإمام خطبه:
«فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ الْدُّنْيَا».

ابتدأ البصري مقطعاً من الرسالة «فاحذر هذه الدار».

وبعد أن حذّر الإمام من الدنيا، بين مساوئها التي توجب التحذير، معتمداً
في بعضه على قصر الجملة التي تتكون من الفعل الماضي المتصل بتاء التأنيث وما
بعده من شبه الجملة «وتحلّت بالأمال، وتزيّنت بالغرور». وهذا ما وجده في
قول البصري: «قد تزيّنت بخدعها وغرت بغرورها».

ثمَّ بعد ذلك حذّر عليه السلام من الدنيا بواسطة ألفاظ صاغها على إسم الفاعل
«حائلة، زائلة، نافذة، بائدة»، وتوظيف هكذا ألفاظ يكشف استغلال ما لها من
قوة تعبيرية تؤدي فضلاً عن معناها كـ مـا تـحملـهـ من صـورـ مـدـخـرـةـ، وـمـشـاعـرـ كـامـنةـ
لـفـتـ نـفـسـهاـ لـفـاـ حـولـ ذـلـكـ المعـنىـ الفـعـليـ^(٣) القائم على تحقيـرـ الدـنـيـاـ. والـبـصـرـيـ سـارـ

(١) حلية الأولياء / ٢ / ١٣٤.

(٢) نهج البلاغة ١٨٨ - ١٨٩.

(٣) ينظر: فنون الأدب ٧٦.

على هذا تماماً بـ«الصارة، الخادعة، الخاتلة».

وبعد تأثيره بالخطبتين المذكورتين إتجاه البصري صوب رسالةٍ بعثها أمير المؤمنين عليه السلام إلى سليمان الفارسي (رضي الله عنه) جاء فيها:

«آمَّا بَعْدُ فَإِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا مِثْلُ الْحَيَاةِ: لَيْنَ مَسْهَا، قَاتِلُ سَمْهَا؛ فَأَغْرِضْ عَمَّا يُعِجِّبُ فِيهَا، لِقَلْلَةِ مَا يَصْحَبُكَ مِنْهَا؛ وَضَعْ عَنْكَ هُمُومَهَا، لِمَا أَيْقَنْتَ بِهِ مِنْ فِرَاقَهَا، وَتَصْرُفِ حَالَاتِهَا؛ وَكُنْ آنَسَ مَا تَكُونُ بِهَا، أَحْذَرَ مَا تَكُونُ مِنْهَا؛ فَإِنَّ صَاحِبَهَا كُلَّهَا إِطْمَانٌ فِيهَا إِلَى سُرُورِ أَشْخَاصَتُهُ عَنْهُ إِلَى مَحْذُورٍ، أَوْ إِلَى إِنْتَاسٍ أَزَالَتُهُ عَنْهُ إِلَى إِيجَاشٍ وَالسَّلَامُ»^(١).

ضمَّنَ البصري هذه الرسالة كاملةً في منتصف رسالته التي نحن بصددها، قائلاً: «فاحذرها الحذر كله؛ فإنَّها مثل الحياة لـ«ليَنْ ملمسها وسمها يقتل»؛ فأعرض عنَّا عيَّنتَ مِنْ عَمَّا يُعِجِّبُكَ فيها لقلةِ مَا يَصْحَبُكَ منها، وَضَعْ عَنْكَ هُمومها لِمَا عاينَتَ مِنْ فجائِعها، وأيقنتَ به من فراقها، واجعل شدةً ما اشتَدَّ منها رجاءً ما ترجوا بعدها وكنْ أسرَّ ما تكون فيها احذر ما تكونُ لها؛ فإنَّ صاحبها كُلَّهَا اطمأنَّ فيها إلى سرورِ له أشخاصَتُهُ عنها بمكروه، وكلما ظفر بشيءٍ منها وثنىَ رجلًا عليه انقلبت به..»^(٢).

والبصري هنا قد أجرى بعض التغييرات البسيطة على كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، غير أنها وإن كانت بسيطة في الظاهر، لكنَّها تؤثِّر في بناء النص بشكل عام، فإذا فتَّشتَ عنَّ أثرها تجده سلبياً على نص البصري فخذ مثلاً قوله: «ليَنْ ملمسها، وسمها يقتل». الذي هو تضمين

(١) نهج البلاغة ٥٣٨.

(٢) حلية الأولياء ٢ / ١٣٥.

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٥٩

لقول الإمام عليه السلام: «لين مُسْهَا، قاتل سُمْهَا». فهو بهذا التقديم والتأخير الذي أجراه على الجملة الثانية من كلام الإمام عليه السلام خسِرَ ذلك الواقع المحبب المتأقى من السجع الموجود في «مسها، سُمها». وبتغيير «مسها» إلى «ملمسها» ضيَّع ذلك الجناس الموجود في لفظتي الإمام عليه السلام المذكورتين. وحتى ذلك التغيير الذي يعمله على الحروف نجده يحرف بعض المعنى الدقيق الموجود في كلام الإمام عليه السلام وهذا مطرد عند البصري، فمنه: «ولكن أسر ما تكون فيها، أحذر ما تكون لها». الذي هو من مقطع الإمام عليه السلام: «وكن آنس ما تكون بها، أحذر ما تكون منها». يرى الباحث في استبدال البصري «منها» بـ «لها» فيه بعض الإخفاق، لأنَّ ما يقال عن الدنيا: إحذر منها أو احذرها، آنس وألطف على السمع من أحذر لها.

وهكذا يتخيَّر البصري ما يروقه من خطب ورسائل مولانا أمير المؤمنين عليه السلام ليضعه في رسالته المطولة هذه، فما أن انتهى من رسالة الإمام إلى سليمان الفارسي، عاد واقطع مقطعاً من خطبة علوية، جاء فيها:

«أَيُّهَا النَّاسُ، أُنْظِرُوا إِلَى الدُّنْيَا نَظَرَ الْزَّاهِدِينَ فِيهَا، الْصَّادِفِينَ عَنْهَا؛ فَإِنَّهَا وَاللَّهُ عَمَّا قَلِيلٍ تُزِيلُ الثَّاوِيَ السَّاكِنَ، وَتَفْجَعُ الْمُتَرْفَ الْآمِنَ؛ لَا يَرْجِعُ مَا تَوَلَّ مِنْهَا فَأَدَبَرَ، وَلَا يُدْرِى مَا هُوَ آتٍ مِنْهَا فَيُتَظَّرُ. سُرُورُهَا مَشْوُبٌ بِالْحُزْنِ، وَجَلْدُ الرَّجَالِ فِيهَا إِلَى الْضَّعْفِ وَالْوَهْنِ»^(١).

وكعادته قدم وأخر البصري في هذا المقطع، ليقول: «سرورها مشوب بالحزن، وأخر الحياة فيها الضَّعْفُ والوهن، فانظر إليها نظر الزَّاهد المفارق، ولا تنظر نظر العاشق الوامق، واعلم أنها تُزِيلُ الثَّاوِي السَّاكِنَ وتفجع المغوروَ الآمِنَ، لا يرجُ

(١) نهج البلاغة ١٦٩ - ١٧٠.

ما تولى منها فأدبر ولا يدرى ما هو آتٍ فيها فيتضرر»^(١).

فواضح أنّ البصري نسخ هذا المقطع العلوي بنصّه، إلاّ قول الإمام علي عليه السلام:

«انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها الصادفين عنها».

فقد غير فيه طفيفاً لما قال: «فانظر إليها نظر الزاهد المفارق».

وبعد هذا قال البصري مباشرة: "فاحذرها فإنّ أمانيتها كاذبة، وإنّ آمالها باطلة عيشها نكد وصفوها كدر وأنت منها على خطر»^(٢).

فهذا لا يختلف عن وصف الإمام علي عليه السلام الدنيا، وذلك بقوله:

«..وعيشها رنق، وعذبها أجج، وحلوها صبر»^(٣).

فقوله: «عيشها نكد».

كقوله عليه السلام: «عيشها رنق».

وأمّا قوله: «وصفوها كدر» فنجد له في خطبة أخرى لأمير المؤمنين عليه السلام منها قوله: «وكدر منها ما كان صفوًا»^(٤).

ثمَّ بعد هذا اتّجهَ البصري إلى خطبة أخرى لأمير المؤمنين عليه السلام وصفَ فيها عظمة الخالق - سبحانه وتعالى -، وذكر فيها صفات الأنبياء: موسى، وداود،

(١) حلية الأولياء / ٢ / ١٣٥.

(٢) م. ن / ٢ / ١٣٦.

(٣) نهج البلاغة / ١٨٩.

(٤) م. ن. ٨٤.

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٦١

وعيسى عليهما السلام، وختّمهم بالنبي الخاتم عليهما السلام.

يُذكّر أنّ البصري ضمّن من هذه الخطبة ما يقارب العشرين سطراً، وعلى عادته القائمة على تحوير بعض الفقرات، وعلى التقديم والتأخير، فآخر ما تكلّم - أي في الخطبة المقصودة - عنه الإمام عليهما السلام من الأنبياء هو النبي محمد عليهما السلام لأنّه صفوتهم وخاتّهم، ولأنّه خير هادٍ لمن تأسى، وأفضل مروّح لمن تعزى، فالخلق لم يصابوا بمثله أبداً، فقال:

«فَتَأَسَّسَ بِنَيْكَ الْأَطْيَبُ الْأَطْهَرُ عَلَيْهِمَا اللَّهُ فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسَّى، وَعَزَاءً لِمَنْ تَعَزَّى... عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبِلَهَا، وَعِلْمٌ أَنَّ اللَّهَ سَبَحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَرَ شَيْئاً فَحَقَرَهُ، وَصَغَرَ شَيْئاً فَصَغَرَهُ»^(٥).

جعل البصري هذا بداية لقطعٍ جديد في الرسالة التي ما زلنا فيها، فقال: «ولقد عُرِضَتْ على نبينا (صلى الله عليه وسلم) بمفاتيحها وخرائبها، ولم ينقصه ذلك عنده جناح بعوضةٍ فأبى أن يقبلها، وما منعه من القبول لها إلا أنّه علم أنّ الله تعالى أبغض شيئاً فأبغضه، وصغر شيئاً فصغره، ووضع شيئاً فوضعه»^(٦).

و قبل أن ينتقل البصري إلى المقطع الثاني من خطبة أمير المؤمنين عليهما السلام، انتقل إلى خطبةٍ علويةٍ أخرى مؤقتاً وبالتحديد لقوله عليهما السلام:

«وَأَحَدَرْكُمُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزُلٌ قُلْعَةٌ... لَمْ يُصْفِهَا اللَّهُ تَعَالَى لِأُولَائِهِ، وَلَمْ يَضْنَنْ بِهَا عَنْ أَعْدَائِهِ»^(٧).

(٥) نهج البلاغة . ٢٦١

(٦) حلية الأولياء / ٢ . ١٣٧

(٧) نهج البلاغة . ١٩٢

وقال عليه السلام مثل ذلك في حكمة له:

«تَغُرُّ وَتَضُرُّ وَتَمُرُّ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَرْضَهَا ثَوَابًا لِأَوْلَيَائِهِ، وَلَا عِقَابًا لِأَعْدَائِهِ»^(١).

فالممعنى قائم على أن الله تعالى منع الدنيا ولم يصفها للذين اختصهم وحباهم بولايته، وفي المقابل أباها، ولم يدخل «لم يرض» بها على من عادوه سبحانه، فعاداهم، أن بسط لهم الدنيا، ليتيموا في غرورها وزيتها إلى أن تمر عليهم مسرعة وهم على هذا الحال من بعد عن الحق تعالى.

نظر البصري إلى هذا المعنى بتفاصيله، ليقول: «ولو لم يدلله على صغر هذه الدار إلا أن الله تعالى حقرّها أن يجعل خيرها ثواباً للمطاعين، وأن يجعل عقوبتها عذاباً للعاصين، فأخرج ثواب الطاعة منها، وأخرج عقوبة المعصية عنها، وقد يدلّك على شر هذه الدار أن الله زواها عن أنبيائه وأحبابه اختباراً، وبسطها لغيرهم اعتباراً واغتراراً»^(٢).

وفضلاً عن المعنى حتى هذه المقابلات التي كررها البصري في هذا المقطع منتها كلام الإمام عليه السلام المذكور.

وقوله:

«أن الله تعالى حقرّها أن يجعل خيرها ثواباً للمطاعين وأن يجعل عقوبتها عذاباً للعاصين».

كررها بطريقة أخرى لما قال: «أن الله تعالى زواها عن أنبيائه وأحبابه اختباراً

(١) م. ن. ٦٢٧

(٢) حلية الأولياء / ٢ . ١٣٧

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٦٣

وبسطها لغيرهم اعتباراً).

وعلى أية حال فهذا التكرار مما ورد في حكمة الإمام:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَرْضِهَا ثَوَابًا لِأُولَائِهِ، وَلَا عِقَابًا لِأَعْدَائِهِ».

وفي خطبته عليه السلام:

«لَمْ يُصْفِهَا اللَّهُ تَعَالَى لِأُولَائِهِ، وَلَمْ يَضْنَ بِهَا عَلَى أَعْدَائِهِ».

ولعلَّ البصري عندما وجدَ هذا المعنى في نصين مختلفين عند الإمام - في الخطبة والحكمة - ومن شدَّة وله بها آثر جمعهما في نصٍّ واحد، لكن هذه حالة غير مرضية لأنَّ هذا التكرار لا طائل منه، كونه جاء في مقطعٍ واحد، وحتى بدون أيٍّ فاصل يُذكر، ثم إنَّه لا يحمل في طيّاته جدَّة.

وبعد هذا النص الذي كان بمثابة فاصلة، ولربما كانت تمويهة، عادَ البصري إلى خطبة أمير المؤمنين عليه السلام السابقة التي تحدَّث فيها عن صفات بعض الأنبياء وكيف كانوا مثالاً للزُّهْد في الدنيا، ومنهم - فضلاً عما تقدَّم - النبي موسى عليه السلام، الذي وصفه الإمام عليه السلام بقوله:

«وَإِنْ شِئْتَ ثَنَّيْتُ بِمُوسَى كَلِيمِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَيْثُ يَقُولُ:

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾^(١).

وَاللَّهُ، مَا سَأَلَهُ إِلَّا خُبْزًا أَكُلُّهُ، لَأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ الْأَرْضِ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْرِيهِ لُهْزَالِهِ، وَتَشَذُّبُ لُحْمِهِ»^(٢).

(١) القصص . ٢٤

(٢) نهج البلاغة . ٢٦٠

الصفاق هو «الجلد الباطن الذي فوقه الجلد الظاهر من البطن وشفيفه: رقيقه الذي يستشفُ ما وراءه»^(١).

ضمّن البصري هذا قائلاً: «وأمّا موسى عليهما السلام فرئي خضراء البقل من صفاق بطنِه من هزاله. ما سأله الله تعالى يوم أوى إلى الظل إلا طعاماً يأكله من جوعه»^(٢).

فلم يكتفي البصري بالتقديم والتأخير بين مقاطع الخطبة العلوية، بل يأتي على المقطع الواحد فيقدم منه ما يشاء ويؤخر ما يشاء، فما ذكره الإمام في آخر وصفه للنبي الكليم:

«ولَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ صِفَاقٍ بَطْنِهِ هُزَالٌ، وَتَسَدِّبُ لُحْمِهِ».

جعله البصري في أول وصفه للنبي المذكور^{عليه السلام}:

«فرئي خضراء البقل من صفاق بطنِه من هزاله».

وما ذكره الإمام^{عليه السلام} في أول وصفه للنبي:

«وَاللَّهِ مَا سَأَلَهُ إِلَّا خُبْزًا يَأْكُلُهُ»

جعله البصري آخرًا مع تحوير شكري وجزئي: «سأله تعالى... إلا طعاماً يأكله من جوعه».

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ حتى الآية التي استشهد بها أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) استشهد بها البصري، ولكن من طرفٍ خفي، فقوله «أوى إلى الظل» إشارة إلى الآية التي ذكرها الإمام^{عليه السلام}، وبذكرها كاملةً يتضح ذلك،

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد /٩ ١٥٥ .

(٢) حلية الأولياء /٢ ١٣٨ .

قال تعالى:

﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّ إِلَى الظَّلَّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ حَيْرٍ فَقَيْرٌ﴾^(١).

وهكذا كان البصري يجدو حذو أمير المؤمنين عليه السلام خطوة خطوة، وبعد أن انتهى عليه السلام من وصف النبي موسى عليه السلام ضرب بالنبي داود، والنبي عيسى عليه السلام مثالاً على الزهد في الدنيا قائلاً:

«وَإِنْ شِئْتَ ثَلَثْ بِدَاؤَدَ - صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صَاحِبُ الْمَزَامِيرِ، وَقَارِئُ أَهْلِ الْجُنَاحِ، فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سَفَائِفَ الْخُوْصِ بِيَدِهِ، وَيَقُولُ لِحُلَسَائِهِ: أَيُّكُمْ يَكْفِيْنِي بَيْعَهَا! وَيَا كُلُّ قُرْصَ الشَّاعِرِ مِنْ ثَمَنِهَا. وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عليه السلام، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ الْحُجَّرَ، وَيَلْبِسُ الْخُشِنَ، وَيَا كُلُّ الْجُشِبَ، وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوْعَ، وَسِرَاجُهُ بِاللَّيلِ الْقَمَرَ، وَظِلَالُهُ فِي الشَّتَاءِ مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِهَا، وَفَاكِهَتُهُ وَرِيحَانُهُ مَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ؛ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنَهُ، وَلَا وَلْدٌ يَحْزُنُهُ، وَلَا مَالٌ يَلْفِتُهُ، وَلَا طَمَعٌ يُذْلِلُهُ دَابَّتُهُ رِجْلَاهُ، وَخَادِمُهُ يَدَاهُ !»^(٢).

أخذ البصري هذا كله بين التضمين الحرفي والتحوير، والتقديم والتأخير، مقدماً وصف النبي داود على النبي عيسى عليه السلام، فقال: «وَإِنْ شِئْتَ ثَلَثَتْهُ بِصَاحِبِ الْرُّوحِ وَالْكَلْمَةِ فَفِي أَمْرِهِ عَجِيْةٌ، كَانَ يَقُولُ: أَدْمِي الْجُوْعَ، وَشَعَارِي الْخُوفُ، وَلِبَاسِي الصَّوْفُ، وَدَابِتِي رِجْلِي، وَسَرَاجِي بِاللَّيلِ الْقَمَرُ، وَصِلَاتِي فِي الشَّتَاءِ الشَّسْمُ، وَفَاكِهَتِي وَرِيحَانِي مَا أَنْبَتَتِ الْأَرْضُ لِلسَّبَاعِ وَالْأَنْعَامِ، أَبِيتُ وَلَيْسَ لِي شَيْءٌ وَلَيْسَ أَحَدٌ أَغْنَى مِنِّي». ولو شئت ربعت بسلیمان ابن داود عليه السلام، فليس دونهم

(١) القصص . ٢٤

(٢) نهج البلاغة ٢٦٠ - ٢٦١

١٦٦ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في التر العري

في العجب يأكل خبز الشّعر في خاصّته... فإذا جنَّه الليلُ لبسَ المسوح وغلَّ اليدَ إلى العنقِ، وبات باكيًا حتى يُصبح يأكلُ الخَشَنَ من الطَّعامِ، ويلبس الشّعر من الشّباب»^(١).

فأول كلامه عن النبي عيسى عليه السلام:

«كان يقول أدمي الجوع.. ودابتي رجي وسرادي بالليل القمر».

تضمين واضح من قول الإمام علي عليه السلام:

«وَكَانَ إِدَامُهُ أَجْوَعَ، وَسَرَاجُهُ بِاللَّيلِ الْقَمَرِ».

وقوله في الفقرة المذكورة «ودابتي رجي» أقتضيه من آخر خطبة الإمام علي عليه السلام:

«دَابَّتُهُ رِجْلَاهُ».

أما قوله: «وفاكهتي وريحاني ما أبنت الأرض للسباع والأنعام».ـ

ففيه تغيير أكثر على كلام الإمام:

«وَفَاكَهَتُهُ وَرَيْخَانُهُ مَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ لِبَهَائِمٍ».

وبالنسبة لقوله: «وصلاطي في الشتاء الشمس» وما فيه من كناية، فقد أخذه

من قول الإمام علي عليه السلام:

«وَظِلَالُهُ فِي الشَّتَاءِ مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا».

وهذه كناية لطيفة جدًا - مثلما يرى الباحث - عن عدم وجود مأوى للنبي عيسى عليه السلام لأنَّ «مَنْ كَانَ كُنْهُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَلَا كُنَّ لَّهُ»^(٢).

(١) حلية الأولياء ٢ / ١٣٧.

(٢) شرح نهج البلاغة لمحمد عبده ٢ / ٢٥٢.

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٦٧

وفي المقطع الثاني ذهب البصري بعيداً، ولم يكن موافقاً حين أبدى النبي داود - الموصوف من قبل أمير المؤمنين - بولده سليمان عليه السلام، وذلك لأن الحديث هو حديث عن الزهد والتبتل إلى الله سبحانه وتعالى، وعلى الرغم من إن الأنبياء كلّهم معصومون وعُباد، إلا أنّ الذي اشتهر بالزهد من بين النبيين المذكورين هو النبي داود عليه السلام، فقد كان صاحب محراب، وكان قارئاً ذا صوت شجي عندما يقرأ كتابه المنزل عليه وهو الزبور، فقد قيل عنه: «أُعطيَ من طيب النّغم ولذة ترجيع القراءة ما كانت الطيور لأجله تقع عليه وهو في محرابه»^(١).

وعلى أية حال فإنّ في هذا المقطع نجد البصري يستعيّر وصف الإمام للنبي عيسى عليه السلام:

«وَيَكْبِسُ الْخُشِنَ، وَيَأْكُلُ الْجُشِبَ».

ليصف به سليمان عليه السلام:

«يَأْكُلُ الْخَشِنَ مِنَ الطَّعَامِ، وَيَلْبِسُ الشِّعْرَ مِنَ الثِّيَابِ».

والبصري هنا كرر الخشونة مرتين الأولى: باللفظ، والثانية: عندما كنى عنها بلبس الشعر، ولكنه لو استعمل الجشوبة للطعام والخشونة للباس - مثلما وجدهما عند الإمام - لكان ذلك أبلغ.

وقد بدا هذا التكرار على نفس المعنى وبصورة أكثر جلاءً بين قوله: «فإذا جنّ الليل لبس المسوح».

والمسوح أو المسح هو الكسأء من الشعر^(٢)، بمعنى لبس ثوباً من الشعر.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد /٩ ١٥٥.

(٢) ينظر: لسان العرب ٢/٥٩٣ مادة (مسح).

وقوله: «ويلبس الشّعر من الثياب».

وهكذا تكرار مذموم لا طائل منه، لأن من يعمد إلى هذا الفن ينبغي أن يأخذ بحسبانه إتحاف المتلقى «بشيء من التلوين اللغظي والمعنوي...، فيه جدة وطرافة لا توجد في الفقرة السابقة»^(١). بينما تكرار البصري خلا من أي جدة.

أمّا قول البصري وهو يصف سليمان عليه السلام: «وغلَّ اليد إلى العنق» فلا أدري ماذا كان يقصد بهذا، فهل غلَّ اليد إلى العنق مدح؟ وهل في هذا دلالة على الزهد؟ أم فيه دلالة على الإنقطاع إلى الله وطول العبادة؟

يرى الباحث إن من الصعب أن تورد هذه العبارة في باب المدح، وبخاصة إذا تأسينا بالقرآن الكريم وعرفنا أنه أوردها في باب الذم. قال تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنْقِكَ﴾^(٢).

فغلَّ اليد مجازاً عبرَ به عن البخل^(٣). أو هو «تمثيل الشح والإمساك بغل اليد إلى العنق وهو تمثيل مبني على تخيل اليد مصدرًا للبذل والعطاء.. وغلّها شحًا، وهو تخيل معروف لدى البلغاء والشعراء»^(٤).

لكن البصري أراد أن يزيد على كلام أمير المؤمنين عليه زياحةً عسى أن تكون متميزةً، لكن تميّزها كان سلبياً، وقد ورد عنده مثل هذا كثير، سنشير إلى بعضه. انتهت خطبة أمير المؤمنين عليه، لكن رسالتة البصري لم تنته بعد، إذ انتقل إلى

(١) البلاغة الفنية . ٢٣٨

(٢) الإسراء . ٢٩

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن / ١٠ / ٢١٩

(٤) التحرير والتنوير / ١٥ / ٨٤ - ٨٥

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٦٩

ووصف عام لأولياء الله الذين ساروا على منهاج الأنبياء الموصوفين، فقال: «ثمَّ اقتضَ الصالحونَ بعد منهاجهم... وصبروا في مُدَّةِ الأجلِ القصير... ونظروا إلى آخر الدُّنيا، ولم ينظروا إلى أَوْهَا ونظروا إلى عاقبةِ مرارتها، ولم ينظروا إلى عاجلةٍ حلاوةِها»^(١).

وإنقالة البصري هذه من وصف الأنبياء إلى وصف المقتدين بهم، رافقتها إنقالة من خطبة علوية إلى خطبة علوية أخرى.

فقوله «وصبروا في مُدَّةِ الأجلِ القصير»، من كلام الإمام الذي وصف به المتقين «صبروا أَيَّامًا قصيرةً»^(٢).

وبافي كلامه من حكمة الإمام عليه السلام:

«إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هُمُ الَّذِينَ نَظَرُوا إِلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا إِذَا نَظَرَ النَّاسُ إِلَى ظَاهِرِهَا، وَأَسْتَغْلُوا بِآجِلِهَا إِذَا إِشْتَغَلَ النَّاسُ بِعَاجِلِهَا..»^(٣).

فقد ميّزَ عليه السلام أولياء الله بصفات تسع منها ما ذكر. وأولى هذه الصفات: أنهم نظروا إلى باطن الدنيا: أي إلى حقيقتها، وغرض الحكم الإلهية من وجودها، لما نظر الناس إلى ظاهرها، من زيتها وقيتها^(٤).

إلى هذا أشار البصري بقوله السابق: «ونظروا إلى آخر الدنيا ولم ينظروا إلى أَوْهَا».

(١) حلية الأولياء / ٢ / ١٣٧.

(٢) نهج البلاغة . ٣٥١.

(٣) م. ن . ٦٣٠ - ٦٣١.

(٤) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم / ٥ / ٥٠٣.

فلم يستبدل سوى الطلاق في حكمة الإمام «باطن - ظاهر» بـ «آخر - أول».

وثاني الصفات: إنهم اشتغلوا بآجلها وهو ثواب الله ورضوانه، إذا اشتغل الناس بآجلها وحاضر لذاتها^(١).

وهذا ما نجده في قول البصري: «ونظروا إلى عاقبة مراتتها، ولم ينظروا إلى عاجل حلاوتها».

وبعدما انتهى من وصف الأنبياء والصالحين، عاد البصري محذراً من الدنيا، مشجعاً على اغتنام أيامها المعدودة، فقال: «.. وإنما الدنيا إذا فكرت فيها، ثلاثة أيام، يوم مضى لا ترجوه، ويوم أنت فيه ينبغي لك أن تغتنمه، ويوم يأتي لا تدرى أنت من أهله أم لا؟ ولا تدري لعلك تموت قبله، فأماماً أمس فحكيم مؤدب وأماماً اليوم فصديق مودع، غير أن أمس وإن كان قد فجعلك بنفسه فقد أبقي في يديك حكمته، وإن كنت قد أضعته فقد جاءك خلف منه وقد كان عنك طويلاً الغيبة وهو الآن عنك سريع الرحلة»^(٢).

وكأنّ البصري هو من فكر بالدنيا فوجدها ثلاثة أيام، ولو قال إنما الدنيا ثلاثة أيام مثلما وصفها الإمام علي بن أبي طالب لكن أقرب للأمانة. وبلا أدنى شك فإنّ البصري لم يكتب هذا ولا بعضه إذا لم تكن بين يديه حكمة أمير المؤمنين عليه السلام التي تقول:

«ألا إنَّ الْيَمَّ ثَلَاثَةُ: يَوْمٌ مَضِيَّ لَا تَرْجُوهُ، وَيَوْمٌ بَقِيَّ لَابْدَ مِنْهُ، وَيَوْمٌ يَأْتِي لَا تَأْمَنَهُ. فَالْأَمْسُ مَوْعِظَةٌ، وَالْيَوْمُ غَيْمَةٌ، وَغَدْرٌ لَا تَدْرِي مَنْ أَهْلُهُ، أَمْسٌ شَاهِدٌ

(١) ينظر م. ن. ٥ / ٥٠٣

(٢) حلية الأولياء ٢ / ١٣٨

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٧١
مَقْبُولٌ، وَاليَوْمُ أَمِينٌ مُؤْدِّ، وَغَدْرٌ يَعْجَلُ بِنَفْسِكَ سَرِيعُ الظَّعْنِ، طَوِيلُ الْغَيْبَةِ، أَتَاكَ
وَلَمْ تَأْتِهِ»^(١).

فالإمام علي عليه السلام قسم عمر الإنسان على ثلاثة أقسام، من أجل أن يتذكر الإنسان ما فعل بالأمس ولا يقع في زلاته، ويتحرج في يومه الذي هو فيه لأنّه سينصرم كما أنصرم بالأمس، ثم يستعد للغد عسى أن يكون من أهله.

سار البصري على هذا خطوة خطوة، وخَيَّر نفسه - هنا وعلى طول نتاجاته - فإن شاء ضمَّن حرفياً، وإن شاء حوراً، وإن شاء كرر المعنى بدون طائل، وإن شاء أخذ بالمعنى. وبمقابلة الكلامين فقرة فقرة يتبيّن ما يريد الباحث، فقوله: «وَإِنَّا الدِّينَى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ» بتحويل طفيف عن حكمة الإمام عليه السلام: «أَلَا إِنَّ الْأَيَّامَ ثَلَاثَةَ»

وقوله: «يَوْمٌ ماضٍ لَا تَرْجُوهُ».

بنصه من الحكمة: «يَوْمٌ ماضٍ لَا تَرْجُوهُ».

وقول البصري: «فَأَمَّا أَمْسٌ فَحَكِيمٌ مَؤَدِّبٌ». ثم تكراره لهذا المعنى بقوله: «غَيْرَ أَنَّ أَمْسَ وَإِنْ كَانَ قَدْ فَجَعَكَ بِنَفْسِهِ فَقَدْ أَبْقَى فِي يَدِيكَ حَكْمَتَهُ». بسط وتفصيل لقوله عليه السلام: «فَالْأَمْسِ مَوْعِذَةٌ».

وقوله: «وَيَوْمٌ أَنْتَ فِيهِ يَنْبَغِي لِكَ أَنْ تَغْتَنِمَهُ».

توسيع وزيادة على قول الإمام عليه السلام: «اليوم غنية».

وقوله: «وَيَوْمٌ يَأْتِي لَا تَدْرِي أَنْتَ مِنْ أَهْلِهِ أَمْ لَا؟ وَلَا تَدْرِي لِعَلَّكَ تَمُوتُ

(١) تحف العقول . ٢٤٧

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الترجمة العربية ١٧٢

قبله». وهنا وقع البصري بالتكرار الذي لا طائل منه مرة أخرى، لأن الجملة التي بعد السؤال تكرار واضح لما قبله.

وعلى أية حال فهذا من قوله عليه السلام: «وَغَدْ لَا تدرِي مَنْ أهْلُه».

وقول البصري: «وَأَمَّا الْيَوْمَ فَصَدِيقٌ مَوْدُعٌ».

بالمعنى من قول الإمام عليه السلام: «وَالْيَوْمَ أَمِينٌ مَوْدُّ».

وقوله: «فَقَدْ جَاءَكَ خَلْفٌ - يَقْصِدُ يَوْمَ الْغَدِ - مِنْهُ وَقَدْ كَانَ عَنْكَ طَوِيلَ
الْغَيْبَةِ وَهُوَ الْآنُ عَنْكَ سَرِيعُ الرَّحْلَةِ».

ففيه تضمين نصي، وتضمين محور، وأخذ بالمعنى، وتقديم وتأخير من
قوله عليه السلام: «وَغَدْ يَعْجَلُ بِتَفْسِيكِ سَرِيعِ الظَّعْنِ، طَوِيلُ الغَيْبَةِ».

وما دام الحديث عن استغلال اليوم بالطريقة المثمرة، رأى البصري فرصة
سانحة في ذلك، ليوظف حكمة علوى أخرى، جاء فيها:

«يَا ابْنَ آدَمَ، لَا تَحْمِلْ هَمَّ يَوْمَكَ الَّذِي لَمْ يَأْتِكَ عَلَى يَوْمَكَ الَّذِي قَدْ أَتَاكَ..»^(١).
أخذ البصري هذه الحكمة، فقال: «وَإِيَّاكَ أَنْ تُدْخِلَ عَلَى الْيَوْمِ هَمَّ غَدِ، أَوْ هَمَّ
ما بَعْدِه»^(٢).

هذه هي أطول رسائل البصري، ذلك الواقع البليغ! وبسبب هذا الطول زاد
الأثر العلوي وضوحاً عليها - إذ كلما زاد أي نص للبصري طولاً ولو لسطرين
زاد الأثر العلوي في ذلك النص - وفرض هيمنة تامة فاقت التصور، فالرسالة
باسم البصري ظاهراً، أمّا حقيقتها فهي جمع من خطب ورسائل وحكم أمير

(١) نهج البلاغة ٦٠١

(٢) حلية الأولياء ١٣٧ / ٢

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٧٣

المؤمنين بِهِمْ. ولو لم تكن عند البصري الاّ هذه الرسالة لكتفى بها بياناً وإفصاحاً عمن كان يقف خلف بلاغة البصري ووعظه.

كتب البصري رسالة أخرى لعمر بن عبد العزيز، أغلبها مكرر في الرسالة السابقة، وكانت عبارة عن أثر علوي من قول كاتبها: «أمّا بعد إلى قوله والسلام عليكم». نذكر منها الجزء القليل الذي لم يُكرر في الرسالة السالفة، فقد ورد في أوّلها: «أمّا بعد، اعلم يا أمير المؤمنين أنَّ الدنيا دارٌ ظعنِ، وليس بدار إقامة..»^(١).

وهذا من خطبة الإمام بِهِمْ التي تقول:

«وَأَحَدَرْ كُمُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزُلٌ قُلْعَةٌ، وَلَيْسَتْ بِدَارٍ نُجْعَةٌ..»^(٢).

فالدنيا هي دار ارتحال وليس بدار قرار، والبصري لم يقدم شيئاً يذكر لما أبدل «قلعة» بـ«ظعن»، لأن المعنى واحد، يقال عن «الدنيا دار قلعة أي انقلاب»^(٣)، وعن القوم هم على قلعة أي على تحولٍ وارتحال^(٤)، وكذلك الظعن فهو يعني الارتحال. وهكذا إبداله «نجعة» بـ«إقامة».

فالنجعة تعني «طلب الكلأ في موضعه، أي ليس محط الرحال ولا مبلغ الآمال»^(٥)، وهذا ما عبر عنه البصري بأن الدنيا ليست بدار إقامة.

ومثلكما افتتح الإمام خطبته بها يدلّ على تشديد التحذير من الدنيا عن طريق استعمال الفعل المضارع «أَحَدَرْ» ثم استعمال «إِنْ»، كذلك البصري ذهب إلى ما

(١) جمهرة رسائل العرب / ٢ ٣٢٦.

(٢) نهج البلاغة ١٩٢.

(٣) لسان العرب: ٨/٢٩٠ مادة (قلع).

(٤) ينظر: م. ن ٨/٢٩٠ مادة (قلع).

(٥) شرح نهج البلاغة لمحمد عبده ١/١٩١.

يشبه هذا لما افتتح رسالته بفعل الأمر «اعلم»، ثم بـ «إن». إلا أن إيصال المعنى عن طريق الإيقاع الموجود في اللفظتين المسجوعتين «قلعٌة، نجعة»

المتساويتين في كُلّ شيءٍ من المبني سواءً عدد الحروف، أو ما تحمله الحروف من سكنت وحركات، أعطى كلام الإمام عليه السلام وقعاً وأثراً أكبر من الذي نجده في لفظي البصري «ظعن، إقامة».

وبعد ذلك قال البصري: «...ولها في كُلّ حين صرعةٌ، وليس صرعةٌ كصرعة، هي تهينُ مَنْ أكرَمَها، وتذلِّلُ مَنْ أعزَّها، وتصرعُ مَنْ آثَرَها، ولها في كُلّ حين قتلى، فهَيَ كالسُّم يأكلُه مَنْ لا يعرفه وفيه حتفه، فالزادُ فيها تركُها، والغنى فيها فقرُها»^(١).

وهذا كقول الإمام عليه السلام في ذم الدنيا:

«مَنْ أَقْلَ مِنْهَا إِسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْمِنُه! وَمَنْ إِسْتَكْثَرَ مِنْهَا إِسْتَكْثَرَ مِمَّا يُوْبِقُهُ، وَرَأَى عَمَّا قَلِيلٌ عَنْهُ. كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتُهُ، وَذِي طُمَانِيَّةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتُهُ...»^(٢).
فكلُّ مَنْ في الدنيا مصروع لا محالة، أكَّد أمير المؤمنين عليه السلام على هذه الحقيقة من خلال عبارته التحقيقية «قد صرعته».

ويبدو أنَّ البصري أراد أيضاً تأكيد هذه الحقيقة، عندما كرر لفظة «صرعة» أربع مرات بين الإسم والفعل: «صرعة، صرعة، كصرعة، تصرع».

وقد حذر الإمام عليه السلام من الإستكثار من الدنيا؛ لأنَّ من استكثر منها ثقل حمله ودنا هلاكه، ومن أَقْلَ منها خفَّ حمله وكثُر أمانه، مكررًا لفظة

(١) جمهرة رسائل العرب / ٢٣٦.

(٢) نهج البلاغة . ١٨٩

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٧٥

«الاستكثار» ثلاث مرات؛ ولعل سبب ذلك التكرار مثلما يراه الباحث هو أنَّ الإنسان - وهو خارج من الدنيا - لا بد وأن يكون مستكثراً، إما «مَا يؤمن به» من الأفعال الصالحة، وإما «مَا يوبقه» من الأفعال الطالحة.

اما المقابلات التي وجدناها عند الإمام البصري فإنَّ الإمام قد غير في ثوبيها دون معناها فقوله:

«تركها» يُقابل «من أقلَّ منها» عند الإمام.

«الغنى فيها» يُقابل «من استكثر منها» عند الإمام.

وبعد هذا انتقل البصري إلى خطبة المتquin ليضمن منها مقطعاً من ستة أسطر سنعرض له - بعونه تعالى - في مبحث الخطبة المذكورة.

وبعد ذلك المقطع انتقل إلى خطبة رابعة من خطب أمير المؤمنين عليه السلام، ليأخذ منها مقطعاً كبيراً، وعلى طريقته التي باتت واضحة بين التضمين الحرفي، والمحور، والأخذ بالمعنى، والتقديم والتأخير، فقال: «..فالعيونُ إليها ناظرةُ، والقلوبُ عليها وألهةُ، والتنفوسُ لها عاشقةُ، وهي لأزواجها كُلُّهم قاتلةُ، فلا الباقي بالماضي معتبرٍ، ولا الآخرُ لما رأى من أثرِها على الأوَّلِ مُزدَجِرٌ، ولا العارفُ باللهِ المصدق له حين أخبره عنها مُذكَرٌ، قد أبْتَ القلوبُ لها إلَّا حُبًّا، وأبْتَ التنفوسَ لها إلَّا عشقاً، ومن عشقَ شيئاً لم يُلْهمه غيره، ولم يعقل سواه، مات في طلبه،... وجاءته منيَّته على أسرِ ما كان منها حالاً وأطول ما كان فيها أملأاً، فعظامَ تَذَمَّه، وكثُرت حسرتُه، مع مَا عالجَ من سكرته، فاجتمعت عليه سكرةُ الموتِ بكرْبَتِه، وحسرة الفتِّ بغضَّته، فغيرُ موصوفٍ ما نَزَّلَ به»^(١).

وما هذا برمته إلا إعادة على الطريقة البصرية لجزء من خطبة علوية، جاء فيه:

«سُبْحَانَكَ خَالِقًا وَمَعْبُودًا .. خَلَقْتَ دَارًا وَجَعَلْتَ فِيهَا مَادِبَةً: مَشْرَبًا وَمَطْعَمًا، وَأَرْوَاجًا وَخَدَمًا، وَقُصُورًا، وَأَنْهَارًا، وَرُزْرُوعًا، وَثَمَارًا؛ ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِيًّا يَدْعُ إِلَيْهَا، فَلَا الَّذِي أَدَعَاهُ، وَلَا فِيهَا رَغْبَةٌ رَغْبُوا، وَلَا إِلَى مَا شَوَّقَتْ إِلَيْهِ اِشْتَاقُوا. أَقْبَلُوا عَلَى حِيفَةٍ قَدِ افْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا، وَاصْطَلَحُوا عَلَى حُبَّهَا، وَمَنْ عَشِقَ شَيْئًا أَعْشَى {أعمى} بَصَرَهُ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ، فَهُوَ يَنْظُرُ بَعْنَينِ غَيْرِ صَحِيحَةٍ، وَيَسْمَعُ بِأَذْنِ غَيْرِ سَمِيعَةٍ، قَدْ حَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ، وَوَهَّبَتْ عَلَيْهَا نَفْسَهُ، .. لَا يَنْزَجِرُ مِنَ اللَّهَ بِرَاجِرٍ، وَلَا يَتَعَظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ، وَهُوَ يَرَى الْمُأْخُوذِينَ عَلَى الْغَرَّةِ - حَيْثُ لَا إِقَالَةَ لَهُمْ وَلَا رَجْعَةَ - كَيْفَ نَزَّلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ، وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمُنُونَ، وَقَدِمُوا مِنَ الْآخِرَةِ عَلَى مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. فَغَيْرُ مَوْصُوفٍ مَا نَزَّلَ بِهِمْ؛ إِجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ وَحَسْرَةُ الْفَوْتِ، فَفَرَرْتُ لَهَا أَطْرَافُهُمْ، وَتَغَيَّرْتُ لَهَا أَلْوَاهُمْ...»^(١).

وبهذه المقارنة يتضح جلياً ما عمله البصري على كلام أمير المؤمنين عليه السلام. فقوله عليه السلام: «فَلَا الَّذِي أَدَعَاهُ، وَلَا فِيهَا رَغْبَةٌ رَغْبُوا» وقوله «لَا يَنْزَجِرُ مِنَ اللَّهِ بِرَاجِرٍ، وَلَا يَتَعَظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ».

اختزله البصري قليلاً بقوله: «فلا الباقي بالماضي معتبر، ولا الآخر فيها رأى من أثرها على الأولى مزدجر».

وقوله عليه السلام:

«قَدِ افْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا، وَاصْطَلَحُوا عَلَى حُبَّهَا».

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٧٧

أخذه البصري بين اللفظ والمعنى: «قد أبْتَ القلوبُ لها إِلَّا حُبًا، وأبْتَ التَّفْوِسُ لها إِلَّا عِشْقًا».

وقوله عليه السلام:

«وَمَنْ عَشِقَ شَيْئًا أَعْشَى (أَعْمَى) بَصَرَهُ».

نجده بين التضمين الحرفى والتحوير فى مقطع البصري: «وَمَنْ عَشِقَ شَيْئًا لَمْ يُلْهِمْ غَيْرَهُ، وَلَمْ يَعْقُلْ سَوَاهِ».

وقوله عليه السلام:

«فَهُوَ يَنْظُرُ بَعْنَى غَيْرِ صَحِيحَةٍ، وَيَسْمَعُ بِأَذْنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ، قَدْ حَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ، وَوَلَهُتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ».

اختزله البصري، وقدمه إلى أول المقطع: «فَالْعَيْنُونُ إِلَيْهَا نَاظِرُهُ، وَالْقُلُوبُ عَلَيْهَا وَاهِهُ، وَالنَّفُوسُ لَهَا عَاشِقَةُ».

وقوله عليه السلام:

«وَهُوَ يَرَى الْمَأْخُوذِينَ عَلَى الْغَرَّةِ - حَيْثُ لَا إِقَالَةَ لَهُمْ وَلَا رَجْعَةَ - كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمُنُونَ».

اختزل البصري معناه: «وجاءته منيّته على أسرّ ما كان منها حالاً وأطول ما كان فيها أملاً».

وقوله عليه السلام:

«فَغَيْرُ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ، اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ وَحُسْرَةُ الْفَوْتِ».

ضممه البصري حرفيًا مع التقديم والتأخير: «فاجتمعت عليه سكرة الموت ..

وحسرة الفوت .. فغير موصوف ما نزل به».

وعلى الرغم مما قاله الإمام في المقطع الأخير من إنّ القومَ غيرُ موصوف ما نزل بهم، إلاّ أنه وصفهم بلوحة تفصيلية - على صعيدي المعنى والفن - غاية في الدقة والتأثير، حتى أنّ القارئ عندما يقرأ الخطبة كاملة يشعر وكأنه يراهم، وكأنه هو المقصود بذلك حصرًا فيتبيه حائرًا لما سيحلّ به، وكيفية الخلاص منه. وقد أجاد ابن أبي الحديد في تعليقه على هذه الخطبة، حيث قال: «من أراد أن يتعلم الفصاحة و البلاغة و يعرف فضل الكلام بعضه على بعض، فليتأمل هذه الخطبة.. ثم لينظر الناظر إلى ما عليها من البهاء، والجلالة، والرواء، والديباجة، وما تحدثه من الروعة والرّهبة، والمخافة، والخشية حتى لو تليت على زنديق ملحد مصمم على اعتقاد نفي البعث و النشور هدّت قواه، وأربعت قلبه..»^(١).

وتجدر الإشارة إلى أنّ باقي الرسالة البصرية التي نحن بصددها مكرّر برؤمه في الرسالة السابقة، ثمّ أنّ جميع هذا التكرار هو من كلام أمير المؤمنين عليه السلام^(٢).

ولا تختلف المعاني والتوصيات التي أرسلها الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز، والتي بين فيها صفات الإمام العادل عما كتبه في رسائله الأخرى، فهو بين حاض له على السير بعده والرفق بالرعاية، وبين الزهد في الدنيا والاستعداد للموت. وممّا جاء فيها: «فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهبل، قبل حلول الأجل

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ٧ / ١٣٨.

(٢) للمزيد ينظر الرسالة كاملة في جمهرة رسائل العرب / ٢ / ٣٢٦ - ٣٢٨، وتقارن بما بينه الباحث عن الرسالة الأولى.

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٧٩

«وَانْقِطَاعُ الْأَمْلِ، لَا تَحْكُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي عِبَادِ اللَّهِ بِحُكْمِ الْجَاهِلِينَ»^(١).

وتشدیده هذا على استغلال أيام الحياة قبل حلول الفت، قد طرقة أمير المؤمنين كثيراً، وبصورٍ شتى، منها قوله:

«رَحِمَ اللَّهُ امْرَءًا إِغْتَنَمَ الْمُهْلَ، وَبَادَرَ الْأَجَلَ، وَتَزَوَّدَ مِنَ الْعَمَلِ»^(٢).

فالمهل " هنا مدة الحياة مع العافية. فإنَّهُ أَمْهَلَ فِيهَا دُونَ أَنْ يَؤْخُذَ بِالْمَوْتِ، أو تَحْلُّ بِهِ بِائِقَةُ عَذَابٍ، فَهُوَ يَغْتَنِمُ ذَلِكَ لِيَعْمَلَ فِيهِ لَاخْرَتَهُ، فَيَبَدِّرُ الْأَجَلَ قَبْلَ حَلُولِهِ بِمَا يَتَزَوَّدُ مِنْ طَيْبِ الْعَمَلِ»^(٣).

وقول البصري: «وَأَنْتَ فِي مُهْلٍ».

لا يختلف عن قول الإمام: «اغتنم المهل».

وهكذا قوله: «قبل حلول الأجل».

بالنسبة لقول الإمام: «وبادر الأجل».

وكتب البصري في الرسالة أيضًا: «وَلَا يَغْرِنَّكَ الَّذِينَ يَتَنَعَّمُونَ بِمَا فِيهِ بُؤْسُكَ، وَيَأْكُلُونَ الطَّيَّابَاتِ فِي دُنْيَا هُمْ بِإِذْهَابِ طَيَّابَاتِكَ فِي آخِرَتِكَ»^(٤).

وكلامه هذا نجد ما يضارعه في كلام أمير المؤمنين عليه السلام التي ضمن منها البصري مقطعاً كبيراً في الرسالة السابقة، وبعد قوله: «فَغَيْرُ مَوْصُوفٍ مَا نَزَّلَ بِهِمْ».. قال عليه السلام:

(١) جمهرة رسائل العرب / ٢ / ٣٢٥

(٢) نهج البلاغة . ١٠٥

(٣) شرح نهج البلاغة لمحمد عبده / ١ / ١١٥

(٤) جمهرة رسائل العرب / ٢ / ٣٢٥

«وَيَنْذَكِرُ أَمْوَالًا جَعَهَا... تَبْقَى لِمَنْ وَرَاءَهُ يُنَعَّمُونَ فِيهَا، وَيَتَمَّمُونَ إِلَيْهَا، فَيَكُونُ الْمُهْنَأُ لِغَيْرِهِ، وَالْعِبْءُ عَلَى ظَهِيرِهِ»^(١).

وفي ختام هذه الرسالة بين البصري لل الخليفة إنّه لم يدّخر ما بوسعه من نصائح وعظات إلّا قدمها له، على الرغم من أنّه لم يبلغ بعظاته تلك من اسمائهم بأولي النّهائ، فقال: «إِنِّي يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بِعِظَتِي مَا بَلَغَهُ أُولُو النّهائ من قبلي فلمْ أَلْكَ شفقةً وَنُصْحًا»^(٢).

ففي كلام البصري هذا نشعر بوجود جملة اعترافية من قوله: «وإن إلى قوله». والكلام الأصلي هو «إِنِّي يا أمير المؤمنين لم أَلْكَ شفقةً وَنُصْحًا»، وهنا يتّضح جلياً أثر ما جاء في وصيّة أمير المؤمنين لولده الحسن عليهما السلام: «فَإِنِّي لم أَلْكَ نصيحةً»^(٣).

ولم أَلْكَ نصيحةً: أي لم اقصّ ولم أبطئ لك في النصيحة، وهو من ألا يأْلوا أي قصر^(٤).

وما تميّزت به رسائل البصري، التّفاوت البين، من حيث الطول والتّوسط والقصر، فمثلاً وجدنا عنده رسالة طويلة وأخرى متوسطة، نجد عنده الرسالة الموجزة. ومن هذا النوع ما كتبه لأحد تلامذته: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أوصيكَ بتقوى الله... فِإِنَّ الدُّنْيَا مِيدَانٌ مُسَابِقَةٌ، وَالْغَايَةُ الْجَنَّةُ أَوُ النَّارُ»^(٥).

(١) نهج البلاغة . ١٨٤

(٢) جمهرة رسائل العرب / ٢ . ٣٢٥

(٣) نهج البلاغة . ٤٦١

(٤) ينظر: منهاج البراعة / ٣ . ٩٧

(٥) البداية والنهاية / ٩ . ٢٨٩

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٨١

وتشبيه البصري هذا للدنيا بأنّها ميدان مسابقة ونهاية المسابقة الجنة أو النار
إتكاً فيه تماماً على وصف أمير المؤمنين عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَدْبَرْتُ... أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ أَلْضَمَارَ، وَغَدَّاً أَلْسِبَاقَ،
وَالسَّبِقَةُ الْجَنَّةُ، وَالْغَايَةُ النَّارُ»^(١).

المضار هو «الموضع الذي تضمّر فيه الخيل وتضمّرها أن تعلّفَ قوتاً بعد سمنها»^(٢). والمعنى: أراد عليه السلام أن الإنسان في مدة عمره يستعد بالتقى ويروض نفسه بالأعمال الصالحة للسبقة إلى لقاء الله تعالى كما أن الفرس يستعد بالتضمير إلى سبق مثله^(٣).

وعلى الرغم من إن التّعّالى كثيرون بين النّصيّن، فتشبيه البصري للدنيا بأنّها «ميدان مسابقة» من تشبيه الإمام لها بأنّها «مضمار».

وقول البصري: «والغاية الجنة أو النار».

من قول الإمام: «والسبقة الجنة، والغاية النار».

ومع هذا فإنّ البصري لم يصب لما جعل الجنة والنّار كليهما غاية، مقارنة بكلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي جعل الجنة سبقة، والنّار غاية. وبإيراد تعليق الشريف الرّضا على نصّ الإمام يتضح كم تقدّم عليه السلام حيث تأخر البصري، قال الرّضا (رحمه الله): «وأقول: إنه لو كان كلام يأخذ بالأعناق إلى الزّهد في الدنيا، ويضطر إلى عمل الآخرة لكان هذا الكلام... ومن أعجبه قوله عليه السلام:

(١) نهج البلاغة ٥٨.

(٢) لسان العرب ٤ / ٤٩١ مادة (ضمّر).

(٣) ينظر: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ٦ / ٤.

«أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمُضْمَارَ، وَغَدَّاً الْسَّبَاقَ، وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ، وَالْغَایَةُ النَّارُ».

فإن فيه - مع فخامة اللفظ، وعظم قدر المعنى، وصادق التمثيل، وواقع التشبيه - سرًا عجيبةً، ومعنى لطيفاً، وهو قوله: [والسبقة الجنة والغاية النار] فخالف بين اللفظين لا خلاف المعنين ولم يقل [السبقة النار] كما قال: [السبقة الجنة] لأن الاستباق إنما يكون إلى أمير محبوب، وغرض مطلوب، وهذه صفة الجنة، وليس هذا المعنى موجوداً في النار نعوذ بالله منها فلم يجز أن يقول: [والسبقة النار] بل قال: [والغاية النار]...»^(١).

ومن رسائله القصيرة الأخرى قوله: «أَمّا بعْدُ، يَا أَمِيرَ فَكَانَ الَّذِي كَانَ لَمْ يَكُنْ، وَكَانَ الَّذِي هُوَ كَائِنٌ قَدْ نَزَلَ، وَاعْلَمُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ الصَّبَرَ - وَإِنَّ أَذَاقَكَ تَعْجِيلَ مَرَارَتِهِ - فَلَنَعْمَلْ مَا أَعْقَبَكَ مِنْ طَيْبٍ حَلَوْتَهُ، وَحُسْنٍ عَاقِبَتِهِ، وَأَنَّ الْهَوَى - وَإِنَّ أَذَاقَكَ طَعْمَ حَلَوْتِهِ - فَلَبِئْسُ مَا أَعْقَبَكَ مِنْ مَرَارَتِهِ وَسُوءِ عَاقِبَتِهِ، وَاعْلَمُ يَا أَمِيرَ أَنَّ الْفَائزَ مَنْ حَرَصَ عَلَى السَّلَامَةِ فِي دَارِ الإِقَامَةِ، وَفَازَ بِالرَّحْمَةِ أَدْخِلَ الْجَنَّةَ»^(٢).

ت تكون الرسالة من ثلاثة مقاطع، كُلُّ مقطعٍ منها يبدأ بـ «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ»، و كُلُّ هذه المقاطع بُنيت من كلمات أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام.

أَمّا الأول منها، فقد كرر البصري معناه وأرسله بمفرده إلى عمر بن عبد العزيز: «سَلَامٌ عَلَيْكَ أَمّا بَعْدُ، فَكَانَكَ بِالدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ، وَبِالآخِرَةِ لَمْ تَزَلَ»^(٣). وهذا دون شك عن أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وقد ورد في موضوعين أيضًا:

(١) نهج البلاغة . ٥٩

(٢) جمهرة رسائل العرب / ٢ ٣٣١

(٣) حياة الحسن البصري وسيرته العلمية . ١٣٦

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٨٣

الأول قوله عليه السلام في خطبة ضمّن البصري بعضها حرفيًا، وقد أشرنا لذلك في

السابق^(١):

«فَكَانَ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الدُّنْيَا عَنْ قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ، وَكَانَ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الْآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَرَلْ»^(٢).

الثاني قوله عليه السلام:

«فَكَانُوكُمْ مَمْ يَكُونُوا لِلْدُنْيَا عُمَارًا، وَكَانَ الْآخِرَةَ لَمْ تَزُلْ لُهُمْ دَارًا»^(٣).

فالمعنى واحد بين النصوص الأربع، وهو مثلما شرح ابن أبي الحديد نصّ الإمام عليه السلام الأول بقوله: «ما هو كائن موجود من الدنيا سيصير عن قليلٍ - أي بعد زمانٍ قليلٍ - معدوماً، والزمان القصير ه هنا: انقضاء الأجل وحضور الموت. ثم قال: إنّ الذي هو كائن و موجود من الآخرة سيصير عن قليلٍ - أي بعد زمان قصير أيضاً - كأنه لم يزل؛ والزمان القصير ه هنا هو حضور القيمة..»^(٤) وبهذا الباحث تبيان التعالق الواضح بين النصوص الأربع بطريقة أوضح:

فقول البصري: «فَكَانَ الْذِي كَانَ لَمْ يَكُنْ»، وقوله: «فَكَانَكَ بِالدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ».

اعتماد كلي على قول الإمام:

«فَكَانَ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الدُّنْيَا عَنْ قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ».

وقوله عليه السلام:

(١) تنظر: الرسالة ٩٨ - ٩٩.

(٢) نهج البلاغة ١٧٠.

(٣) م. ن. ٣٢٢.

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧ / ٧٤.

«فَكَانُوكُنُوا لِلْدُّنْيَا عُمَارًا».

أما قول البصري: «وَكَانَ الَّذِي هُوَ كَائِنٌ قَدْ نَزَلَ» وقوله: «وَبِالآخِرَةِ لَمْ تَزُلِ».

اعتماد على قول الإمام: «وَكَانَ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الْآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٌ لَمْ يَرَلِ».

وقول عليه السلام:

«وَكَانَ الْآخِرَةَ لَمْ تَرَلْ هُمْ دَارُوا».

وبالنسبة للمقطع الثاني من الرسالة «إِنَّ الصَّبَرَ إِلَى قَوْلِهِ وَسُوءِ عَاقِبَتِهِ» فهو لا يعدو - إذا فتشتَ عن معناه - بسطاً، أو توسيعاً لمقابلة أمير المؤمنين عليه السلام التي أجرها بين الحق والباطل:

«إِنَّ الْحُقْقَ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ، وَإِنَّ الْبَاطِلَ حَفِيفٌ وَبِيءٌ»^(١).

وكان البصري بتوسيعه السالف شرح الحكمة العلوية كما شرحها ابن أبي الحديد لما قال: «الحق و إن كان ثقيلاً إلا أن عاقبته محمودة، ومغبةه صالحة، والباطل وإن كان خفيفاً إلا أن عاقبته مذمومة و مغبتة غير صالحة، فلا يحملن أحدكم حلاوة عاجل الباطل على فعله، فلا خير في لذة قليلة عاجلة، يتعقبها مضار عظيمة آجلة..»^(٢)

أما المقطع الثالث في الرسالة، والمتمثل بقول البصري: «إِنَّ الْفَائِزَ مَنْ حَرَصَ عَلَى السَّلَامَةِ فِي دَارِ الإِقَامَةِ». كقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصف السالك الطريق إلى الله سبحانه: «..وَتَدَافَعَتِ الْأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلَامَةِ، وَدَارِ الْإِقَامَةِ»^(٣).

(١) نهج البلاغة .٦٢١

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد /١٩ .١٨٤

(٣) نهج البلاغة .٣٩١

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٨٥

وكتب إلى عمر بن عبد العزيز أيضاً: «واعلم أنَّ الْهُولَ الْأَعْظَمُ، وَمُفْضِلَاتُ الْأَمْرَ أَمَامَكَ لَمْ يَقْطُعْ مِنْهَا بَعْدُ، وَأَنَّهُ لَا يُبَدِّلُ اللَّهُ لَكَ مِنْ مَشَاهِدَتِهِ ذَلِكَ وَمَعَايِنَتِهِ، أَمَّا بِالسَّلَامَةِ وَالنِّجَاهَةِ مِنْهُ، وَأَمَّا بِالْعَطْبِ»^(١).

ورسالته هذه مقطعة - بين المعنى والتضمين والتقديم والتأخير - من خطبة
لأمير المؤمنين عليه السلام منها:

«فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَوْوَدًا، وَمَنَازِلَ حَوْفَةَ مَهُولَةَ، لَا يُبَدِّلُ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا، وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا. وَإِعْلَمُوا أَنَّ مَلَاحِظَ الْأُنْيَةِ نَحْوَكُمْ دَانِيَةُ، وَكَانُوكُمْ بِمَحَالِبِهَا وَقَدْ نَشَبَتْ فِيْكُمْ، وَقَدْ دَهَمْتُكُمْ مِنْهَا مُفْضِلَاتُ الْأَمْرِ، وَمُعْضِلَاتُ الْمُحْذُورِ»^(٢).

فالنَّصَّانِ يصوِّرانْ أَمْرًا حَتَّمِيًّا في الدُّنْيَا، أَلَا وَهُوَ إِقْبَالُ الْمُنْيَةِ، وَهَذَا مَا نَجَدَهُ فِي
بداية المقطع من خطبة الإمام عليه السلام:

«فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَوْوَدًا... لَا يُبَدِّلُ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا، وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا».

بينما البصري جعل هذا ثانِياً: «وَإِنَّهُ لَا يُبَدِّلُ اللَّهُ لَكَ مِنْ مَشَاهِدَتِهِ ذَلِكَ وَمَعَايِنَتِهِ». مُحَذِّرَانِ - أي النَّصَانِ - مِنْ إِنَّ الْمُنْيَةَ لَا تَطْلُبُ الإِذْنَ، بل تَدَاهِمُ فِي كُلِّ لَحْظَةِ، وَهَذَا مَا جَعَلَهُ الْإِمَامُ فِي المقطع الثانِي مِنَ الْخُطْبَةِ:

«وَإِعْلَمُوا أَنَّ مَلَاحِظَ الْأُنْيَةِ نَحْوَكُمْ دَانِيَةُ... وَقَدْ دَهَمْتُكُمْ مِنْهَا مُفْضِلَاتُ الْأَمْرِ». بينما البصري جعل هذا أولاً: «واعلم أنَّ الْهُولَ الْأَعْظَمُ، وَمُفْضِلَاتُ الْأَمْرَ أَمَامَكَ».

ومثلاً أَكَدَ الْإِمَامُ عليه السلام هذا المعنى بِفَعْلِ الْأَمْرِ «اعْلَمُ» ثُمَّ بـ «أَنَّ» فَعْلِ الْبَصْرِيِّ

(١) جمهرة رسائل العرب / ٢ / ٣٣١.

(٢) نهج البلاغة . ٣٧٢

هكذا «اعلم أنّ».

وأما قول الإمام علي عليه السلام:

«مُفْطِعَاتُ الْأُمُورِ»

الذي يعني تجاوز المقدار في الشدة^(١) فتجده بنصّه في رسالة البصري. ومع هذا يبقى بون بين الكلامين في أمور عدّة، منها: تصوير الإمام للمنية كأنها كائن حيّ، أقبلت تلحظ البشر على دنوّ منهم، ثم إنّها تتخيّر منْ منهم ستُنثِبُ مخالبها فيه. وهدف الإمام من تصوير المنية بهذه الهيئة المرعبة والمقلقة هو دفع المرء للإستعداد أكثر لذلك اليوم الذي لا مفرّ منه، وهذا ما قاله صراحة في آخر الخطبة:

«وَاسْتَظْهِرُوا بِزَادِ التَّقْوَى»^(٢).

وللبصري رسائل موجزة جدًا، ومنها: «أما بعد يا أمير المؤمنين، فإنّ طول البقاء إلى فناء، فخذ من فنائك الذي لا يبقى، لبقائك الذي لا يفنى، والسلام»^(٣).

وما هذا المعنى والألفاظ، والمقابلة التي أجرتها بين الفناء والبقاء «فخذ من فنائك الذي لا يبقى، لبقائك الذي لا يفنى» إلاً مقطعاً من خطبة طويلة لأمير المؤمنين عليه السلام منها:

«وَأَرْمَعَ الرَّهَالَ عِبَادَ اللَّهَ الْأَكْبَارُ، وَبَاعُوا قَلِيلًاً مِنَ الدُّنْيَا لَا يَيْقُنُ، بِكَثِيرٍ مِنَ الْآخِرَةِ لَا يَفْنَى»^(٤).

(١) نهج البلاغة .٣٧٢

(٢) م. ن .٣٧٢

(٣) حياة الحسن البصري .١٣٦

(٤) نهج البلاغة .٣٠٦

الفصل الثاني: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسائل الحسن البصري ١٨٧

هذه هي أهم رسائل البصري، وبعد أن عرفننا على مَنْ اعتمد في صياغتها - اللغوية والمعنوية - تبقى مسألة لها من الأهمية نصيب أعني ذلك التفاوت الكبير بين طول هذه الرسائل وقصرها، فمثلاً وجدنا عنده رسالة تربو على المائة سطر - وهي الرسالة الأولى في المبحث -، وأخر تميّزَ بالتوسط، وقسم ثالث بالقصر، وجدنا رسائل لا تتجاوز كلمات الواحدة منها سطراً واحداً. وهذه الطريقة هي أيضاً أثُرٌ علويٌّ خالصٌ؛ لأنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يُسبق إلى هذا، لا من الذين سبقوه، ولا من الذين عاصروه.

وصفة القول إنَّ رسائل البصري بلفظها ومعناها، وطوها وقصرها، كانت توج بأثر كلام أمير المؤمنين (صلوات الله عليه).

المبحث الثالث

أثر خطبة المتقين للإمام علي عليه السلام في نشر الحسن البصري

تُعدّ هذه الخطبة من الخطب التي لا يختلف إثنان في مرجعيتها لأمير المؤمنين عليه السلام. وسبب إلقائها عائد إلى طلب من أحد أصحابه عليه السلام المقربين يدعى همام^(١)، إذ قال:

«يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صِفْ لِي الْمُتَقِينَ حَتَّىٰ كَأَيِّ أَنْظُرٍ إِلَيْهِمْ فَتَشَاقَّلَ اللَّهُ عَنْ جَوَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا هَمَّامُ، إِتَّقِ اللَّهَ وَأَحْسِنْ..»^(٢).

(١) هو همام بن شريح بن يزيد بن ثمرة بن عمرو بن جابر، يُعدّ من خُلُص شيعته أمير المؤمنين عليه السلام وأوليائه، وكان ناسكاً عابداً. ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ٣٠٧. وقال عنه الأميني: هو همام بن عبادة بن خثيم، كان صاحباً لأمير المؤمنين عليه السلام، وكان أحد الزهاد الشهانية. ينظر: أعيان الشيعة / ٢٧١. والمتزجون لم يحددوا سنة وفاته لكن يمكن أن نجعلها بين سنة ٣٦ - ٤١ هـ)، أي مدة خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، لأنّه مات - أي همام - في ساعة إلقاء الخطبة المذكورة، والخطبة ألقتها الإمام في أيام خلافته.

(٢) نهج البلاغة / ٣٥.

وتناقل الإمام المروي هنا اختلف في توجيه المفكرون، ولكن في توجيه ابن أبي الحديد بعض الإحاطة لما قال: «يجوز أن يكون تناقل عن جوابه لأنّه علم أنّ المصلحة تكمن في تأخير الجواب، أو لعله رأى في التناقل شوقاً يشدّ همّام للإستماع للوصف، فيكون أبلغ في التأثير، أو إنّه تأخّر من باب تأخير البيان لوقت حاجته، لا من باب تأخيره عن وقت حاجته»^(١).

ولما أصرّ همّام بعد تناقل الإمام عليه السلام عن إجابته خطب الإمام بخطبة قائلة على الوصف، تعدّ من أروع خطبه وأشدّها تأثيراً، إلى درجة جعلت من المخاطب المذكور يصعق ويموت، وهذه مقدرة من البيان لا يمكن التكهن بحدودها. نعم من الممكن لأمراء البيان أن يستهوي بيانهم القلب ويشغله، ولكن إلى هذه الدرجة من التأثير بحيث تلامس البلاغة الروح وتجعلها - بإذن الله - تفارق الجسد فهذا أمرٌ حيّر للأباب.

فإن قال قائل هنا إنّ الصفات من حيث المبدأ هي التي أثّرت على همّام وأوصلته إلى حتفه، فالجواب نعم، ولكن ليس هذا الأمر - مطلقاً - هو من يملك زمام الحادثة، لأنّ هذه الموضوعات التي طرقها الإمام هي موضوعات مطروقة بكاملها، وسبق أن سمعها همّام وغيره، لكنّ الإبداع كمن في الوصف التفصيلي للمؤمنين بصفات ربّت على المائة صفة، فضلاً عن التصوير الدقيق لهم، وكأنّ المتلقى يشاهدهم ويشاهد برناجهم الذي رسمه الإمام عليه السلام على طول اليوم والليلة، وما صاحب هذا من صدق في الوصف، وفنون بلاغية كثيرة جداً كالطبق والسبع والتبيه والاستعارة والكتابة والمجاز وغير ذلك.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠ / ٣٠٧ - ٣٠٨.

ونرى أيضًا إن جانبياً من هذه الدقة - التي ستمر علينا - في وصفه عليه السلام جاءَ تلبيَّة لطلب همَّام، لأنَّه حَدَّ الإمام بوصفِ متميِّز للمتقين «كأني أنظر إليهم». وما بانَ في الخطبة إنَّ الإمام عليه السلام لم يخاطب بها مَنْ سأله فحسب، بل استغلَ الظرفَ ليجعلها تشمل أكثر من مخاطب، إبتداءً من أَوَّلِ المستمع المقصود همَّام، إلى مخاطبة الإمام عليه السلام الله - سبحانه وتعالى - على سبيل الدعاء والثناء، مرورًا بمخاطبة الجمهور المستمع، وإنتهاءً بالمستمعين المترضين^(١) من نحو قول الإمام عليه السلام لأحدِهم:

«لَا تَعْدُ لِثِنِّهَا، فَإِنَّمَا نَفَّ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ!»^(٢).

وفي هذه التوسعة أي توسيعة من يشمله الخطاب، توسيعه لأثر الخطبة، وفعلاً كانَ لها أثُرٌ بالغ في التشرُّع العربي وعلى رأس مَنْ تأثَّروا بها هو الحسن البصري، إذ أتى على الخطبة بكمالها وقسَّمها على قسمين: جعل الأوَّل منها في ثانية نصوص تقريريًّا بين خطبة ورسالة وموعظة، أمَّا الثاني فجعله في خطبة طويلة. وسند ذكر قسم الخطبة على طولها لاقتضاء الضرورة لذلك، ونلحظ بكلِّ قسمٍ كلامٍ البصري المأخوذ عن ذلك القسم.

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ فِيَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - خَلَقَ الْخُلُقَ حِينَ خَلَقَهُمْ عَنْ طَاعَتِهِمْ أَمِنًا مِنْ مَعْصِيهِمْ، لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مِنْ عَصَاهُ، وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ. فَقَسَّمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ. فَالْمُتَّقِونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ: مَنْتَقِهِمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبُسُهُمُ الْأِقْتِصادُ،

(١) ينظر: نهج البلاغة في ضوء علم اللغة الإجتماعي ٢٥٢ - ٢٥٤.

(٢) نهج البلاغة ٢٥٤.

وَمَشِيهِمُ التَّوَاضُعُ. عَضُوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ. نَزَّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي أَبْلَاءِ كَالَّذِي نَزَّلَتْ فِي الرَّحَاءِ. وَلَوْ لَا أَلَّا جُلُّ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ لُمُّهُ (عَلَيْهِمْ) لَمْ تَسْتَقِرَ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةً عَيْنٍ، شَوْقًا إِلَى الْثَّوَابِ، وَخَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ. عَظُمَ الْخَالقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغَرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَالْجُنَاحُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنْعَمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ. قُلُوبُهُمْ مَخْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ. صَبَرُوا أَيَّامًا قَصِيرَةً أَعْقَبَهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً. تِجَارَةً مُرِبَّحةً يَسِّرَهَا لُمُّ رَبِّهِمْ. أَرَادَهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا، وَأَسْرَهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا. أَمَّا الْلَّيلَ فَصَافُونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتَّلُونَهَا تَرْتِيلًا؛ يُخْرِنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ، وَيَسْتَشِرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ؛ فَإِذَا مَرُوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وَتَطَلَّعُتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ. وَإِذَا مَرُوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجَاهِهِمْ وَأَكْفِهِمْ وَرُكَبِهِمْ، وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ. وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَّاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارُ أَتْقِياءِ قَدْ بَرَاهُمُ الْخُوفُ بَرِيَ الْقِدَاح، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ الْنَّاظِرُ فَيَحْسِبُهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرْضٍ؛ وَيَقُولُ: لَقَدْ خُولَطُوا! وَلَقَدْ خَالَطُهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ! لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ؛ فَهُمْ لَا نَفْسَهُمْ مُتَّهِمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ»^(١).

أخذ البصري هذا وجعله في مواطن عدة، إذ إنَّ جميع ما سنذكره عنه من

نصوص هي من جزء الخطبة المذكور، وسنعزف عن نصوصه القصار المتأثرة
بهذا الجزء من الخطبة، لأنّ في الطوال منها الكفاية:

النص الأول:

خطب البصري، فقال: «وَاللَّهُ لَوْ أَنَّ رِجَالًا مِنْكُمْ أَدْرَكَ مَنْ أَدْرَكْتُ مِنْ
القُرُونِ الْأُولَى، وَرَأَى مِنْ رَأَيْتُ مِنَ السَّلْفِ الصَّالِحِ، لَأَصْبَحَ مَهْمُومًا، وَأَمْسَى
مَغْمُومًا، ... أَئْيُهَا النَّاسُ! إِنَّ اللَّهَ عَبَادًا هُمْ كَمَنْ رَأَى أَهْلَ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ مُتَنَعِّمِينَ،
وَأَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ مُعْذَبِينَ، فَهُمْ يَعْمَلُونَ لِمَا رَأَوْا مِنَ النَّعِيمِ، وَيَنْتَهُونَ عَمَّا خَالَفُوا
مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

أَئْيُهَا النَّاسُ! إِنَّ اللَّهَ عَبَادًا قُلُوبُهُمْ مُخْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَنفُسُهُمْ عَفْيَةٌ،
وَجُوانِحُهُمْ خَفِيفَةٌ، صَبَرُوا الْأَيَّامَ الْقَلَائلَ؛ لِمَا رَجَوا فِي الدُّهُورِ الْأَطَوْلِ، أَمَّا
اللَّيلُ، فَقَائِمُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ يَتَضَرَّعُونَ إِلَى رَبِّهِمْ، وَيَسْعَوْنَ فِي فَكَاكِ رَقَابِهِمْ تَجْرِي
مِنَ الْخُشْيَةِ دَمَوْعَهُمْ، وَتَخْفَقُ مِنَ الْخُوفِ قُلُوبُهُمْ، وَأَمَّا النَّهَارُ فَحُكْمُهُ أَعْلَمُ أَنْقِيَاءِ
أَخْفِيَاءِ، يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْفُفِ، تَخَاهُمُ مِنَ الْخُشْيَةِ مَرْضٌ، وَمَا بِهِمْ
مَرْضٌ، وَلَكِنَّهُمْ خُولُطُوا بِذِكْرِ النَّارِ وَأَهْوَاهِهِمْ - وَاللَّهُ - كَانُوا فِيهَا أَحَلَّهُمْ أَزْهَدَ
مِنْكُمْ فِيهَا حُرْمَ عَلَيْكُمْ، وَكَانُوا أَبْصَرَ بِقُلُوبِهِمْ لِدِينِهِمْ مِنْكُمْ لِدُنْيَاكُمْ بِأَبْصَارِكُمْ،
وَلَهُمْ كَانُوا بِحُسْنَاتِهِمْ أَنْ تُرَدَّ عَلَيْهِمْ أَخْوَافَ مِنْكُمْ أَنْ تُعَذَّبُوا عَلَى سَيِّئَاتِكُمْ»^(١).

النص الثاني:

لَا سُئِلَ البصري أَنْ يَصِفَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَطْبَ خَطْبَةً قَالَ
فِيهَا: «ظَهَرَتْ مِنْهُمْ عَلَامَاتٌ: الْخَيْرُ فِي السَّيِّئَاتِ، وَالسَّمْتُ، وَالْمَهْدِيُّ، وَالصَّدِيقُ،

(١) آدَابُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ١٢٣ - ١٢٤.

والخشونة، ملابسهم بالاقتصاد، ومساهمهم بالتواضع، ومنطبقهم بالعمل، ومطعمهم ومشربهم بالطيب من الرزق، وخضوعهم بالطاعة لربهم تعالى، واستقادتهم للحق فيما أحبوه وكرهوا، وإعطاؤهم الحق من أنفسهم ظمئت هواجرهم، ونحلت أجسامهم، واستخفوا بسخط المخلوقين رضي الخالق، لم يفرّطوا في غضب، ولم يحيفوا في جور، ولم يجاوزوا حكم الله تعالى في القرآن، شغلو الألسن بالذكر، بذلوا دماءهم حين استنصرهم، وبذلوا أموالهم حين استقرضهم، ولم يمنعهم خوفهم في المخلوقين، حسنت أخلاقهم، وهانت مؤونتهم، وكفاهم اليسير من دنياهم إلى آخرتهم»^(١).

النص الثالث:

وخطب أيضاً، فقال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ عَمَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَيَّامًا يَسِيرَةً، فَوَاللَّهِ مَا نِدَمَ أَنْ يَكُونَ أَصَابَ مِنْ نَعِيمِهَا وَرَخَائِهَا، وَلَكِنْ رَاقَتِ الدِّنِيَا لَهُ فَاسْتَهَانَهَا وَهَضَمَهَا لِآخِرَتِهِ، وَتَزَوَّدَ مِنْهَا. فَلَمْ تَكُنِ الدِّنِيَا فِي نَفْسِهِ، بَدَارَ وَلَمْ يَرْغُبْ فِي نَعِيمِهَا وَلَمْ يَفْرُجْ بِرَخَائِهَا، وَلَمْ يَتَعَاظِمْ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ مِنَ الْبَلَاءِ إِنْ نَزَلَ بِهِ مَعَ احْتِسَابِهِ لِلأَجْرِ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَمْ يَحْتَسِبْ نَوَالَ الدِّنِيَا حَتَّى مَضَى رَاغِبًا رَاهِبًا فَهَنِئًا هَنِئًا»^(٢).

النص الرابع:

روي عن البصري أنه كان يقول: «أدركت من صدر هذه الأمة قوماً كانوا إذا جنّهم الليل فقيام على إطارفهم يفترشون خدودهم تجري دموعهم على خدودهم، يناجون مولاهם في فكاك رقابهم، إذا عملوا الحسنة سرّتهم وسألوا

(١) حلية الأولياء ٢ / ١٥١.

(٢) م. ن ٢ / ١٤٦ - ١٤٧.

الله أَن يَتَقْبِلَهَا مِنْهُمْ، وَإِذَا عَمِلُوا سَيِّئَةً سَاعَتْهُمْ وَسَأَلُوا اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَهَا لَهُمْ»^(١).

النص الخامس:

قال البصري واصفاً المؤمنين: «إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَوْمٌ ذُلُّلٌ، ذُلِّلُتْ مِنْهُمْ وَاللَّهُ أَنْ يَتَقْبِلَهَا مِنْهُمْ، وَإِذَا عَمِلُوا سَيِّئَةً سَاعَتْهُمْ وَسَأَلُوا اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَهَا لَهُمْ»^(٢).
الآسماء والأبصار والجوارح، حتى يحسبهم الجاهل مرضى، وإنهم لأصحاب القلوب، ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمُهم بالآخرة، فقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنَّا الحزن، والله ما حزنا في الدنيا، ولا تعاظم في أنفسهم ما طلبوا به الجنَّة»^(٣).

النص السادس:

وفي خطبة أخرى له صنف فيها قراء القرآن إلى ثلاثة أصناف، ذم الأوَّلين، ومدح الثالث، فقال فيه: «... وَرَجُلٌ قرأ القرآن، فبدأ بما يعلم من دواء القرآن، فوضعه على داء قلبه، فسهر ليلاً، وانهملت عيناه، وتسربل بالخشوع، وارتدى بالحزن...»^(٤).

النص السابع:

كتب الحسن البصري رسالةً أرسلها إلى عمر بن عبد العزيز، منها: «... فكُنْ فِيهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَالْمُداوِي جَرْحَهُ: يَصْبُرُ عَلَى شَدَّةِ الدَّوَاءِ، خَافَةً طُولِ الْبَلَاءِ وَلِيَحْتَمِي قَلِيلًاً، خَافَةً مَا يَكْرَهُ طَوِيلًاً، إِنَّ أَهْلَ الْفَضَائِلِ كَانُوا مِنْ طُقُّهُمْ فِيهَا بِالصَّوَابِ، وَمُشَيْهِمْ بِالتَّوَاضِعِ، مَطَعَّمُهُمُ الطَّيِّبُ مِنَ الرِّزْقِ، مُغْمَضِي

(١) البيان والتبيين / ٣ / ٤٨١.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن / ١١ / ٣٤.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ١٠ / ٢٣٢.

أبصارهم عن المحارم، فخوّفهم في البرّ كخوّفهم في البحر، ودعاؤهم في السّرّاء كدعائهم في الضّراء، لو لا الآجالُ التي كُتِّبَتْ لهم، ما تقاوت أرواحهم في أجسادهم خوفاً من العقاب، وشوقاً إلى الثواب، عظم الخالقُ في نفوسهم، فصغر المخلوقون في أعينهم. واعلمْ يا أمير المؤمنين... ليس ما يفني وإنْ كان كثيراً بأهليٍّ أن يؤثّر على ما يبقى وإنْ كان طلبه عزيزاً، واحتمال المؤونة المنقطعة التي تعقب الراحة الطويلة خير من تعجيل راحة منقطعةٍ تعقب مؤونة باقية، وندامة طويلة..»^(١).

النص الثامن:

خطب البصري، فقال: «إن الله - عز و جل - عباداً كمنْ رأى أهل الجنة في الجنة مخلدين، وكمنْ رأى أهل النار في النار مخلدين، قلوبهم مخزونة، وشرورهم مأمونة، حوائجهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أياماً قصاراً تعقب راحة طويلة، أمّا الليل فمصادفةً أقدامهم، تسيل دموعهم على حدودهم يجأرون إلى ربّهم ربنا ربنا، وأمّا النهار فحملاء علماء ببرة أتقياء كأئمّهم القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض، أو خولطوا ولقد خالط القوم من ذكر الآخرة أمرٌ عظيم»^(٢).

فجميع هذه النصوص التي ذُكرت هي من الخطبة المذكورة، مرّةً بالنص، وأخرى بتغيير طفيف، وثالثةً بالمعنى، ورابعةً بهذه الطرق كلها، أي يقوم البصري بتكرار العبارة الواحدة من الخطبة العلوية مرات عدّة كيما شاء، وأنى شاء.

(١) جمهرة رسائل العرب / ٢٣٢٦.

(٢) حلية الأولياء / ٢١٤٨.

أمّا مبادرة أمير المؤمنين عليه السلام في غرض الخطبة نجده قد استهل خطبته مؤكّداً على أنّ المتقين هم أصحاب الفضائل في الدنيا «فالمتقون فيها هم أصحاب الفضائل» وذلك من خلال ذكره للمتقين مرّتين؛ الأولى بالنص، والأخرى لما كرّر الضمير «هم» العائد عليهم. وعلى هذا سار البصري في نصّه السابع: «إنّ أهل الفضائل» فهو هنا رغب أيّضاً في التأكيد على ما ذكر عن طريق «إنّ». ولكنّ وصف الإمام هذا بجمل يحتاج إلى تفصيل^(١)، ولا ننسى شرطَ همّام لما أراد وصفاً مفصّلاً للمؤمنين من أميرهم (صلوات الله عليه)، ولذا بدأ يفصل، والبصري فيما بعد يأخذ ويعظّ.

فيبدأ عليه السلام باللسان، ولعلّ السبب في ذلك إن أول ما يدلّ على لبّ الإنسان وجوهره هو منطقه؛ فإذا كان كلام المتكلّم صواباً، فتوسّم يا همّام بصاحبِه التقوى، واللسان مرتبط بالقلب، فالقلب يفكّر ويبيّن، واللسان ينطق، فمن صحّ منطقه، كانت تلك عالمة على صحة قلبه وإيمانه. وبعد اللسان انتقل إلى وصف الهيئة كونها تفحص أيّضاً عن مكنون الرجل، ثم غيرها من الصفات،

فقال عليه السلام:

«منطقهم الصّواب، ... وملبسهم الإقتصاد، ومشيّهم التّواضع غضّوا أبصارهم عَمَّا حَرَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ».

ضمّن البصري هذا المقطع مرّتين، مرّة في نصّه السابع حيث قال: «منطقهم فيها بالصواب، ومشيّهم بالتّواضع، مُغمضي أبصارهم عن المحaram». والأخرى في نصّه الثاني، لما قال: «ملبسهم بالإقتصاد، ومشاهم بالتّواضع».

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ كلام الإمام عليه السلام:

(١) ينظر: البعد الفكري والتربوي في نهج البلاغة . ٩٥

«غضوا أبصارهم عَمَّا حَرَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ».

أخذه من قوله تعالى:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُبُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾^(١).

فالقرآن الكريم دعا المؤمن أن يغض «من» بصره، ومن هنا تبعيسيّة، أي بعض بصره، وأمير المؤمنين عليه سار على هذا، فنهى عن بعض البصر، وشخصه بالحرم «عَمَّا حَرَمَ اللَّهُ». بينما البصري آثر أن يقتفي المسلك العلوي باللفظ والمعنى، لما قال: «مُغمضي أبصارهم عن المحaram».

ثم بعد ذلك انتقل عليه إلى وصف أنفس المتقيين، فقال:

«نُزِّلتْ أَنفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نُزِّلْتُ فِي الرَّحَاءِ».

بمعنى أن نفو سهم صلبة الإيمان لا تقنط إذا نزل بها البلاء، ولا تبطأ إذا حل بها الرخاء، بل شغلها في الحالين الشكر^(٢).

أخذ البصري هذا بمعناه وكرره مرات عدّة في تصوّره السابقة، إذ ذكره في نصّه السابع لما قال في: «فخوفهم في البرّ كخوفهم في البحر، ودعاؤهم في السرّاء كدعائهم في الضّراء».

وفي نصّه الثاني، وذلك في قوله: «واستقادُهُمْ لِلْحَقِّ فِيهَا أَحَبُّوا وَكَرِهُوا». وكذلك في الثالث، حيث قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ .. لَمْ يَتَعَاطِمْ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ مِنَ الْبَلَاءِ إِنْ نَزَلَ بِهِ مَعَ احْتِسَابِهِ لِلْأَجْرِ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَمْ يَحْتَسِبْ نَوَالَ الدُّنْيَا حَتَّى مَضَى رَاغِبًا رَاهِبًا».

(١) التور . ٣٠

(٢) ينظر: البعد الفكري والتربوي في نهج البلاغة ٩٦

وكرّره في نصٍ آخر لم ندرجُه مع النصوص السابقة منه مواطن الشاهد:
«المؤمن.. حامدٌ على الرّحاء، صابرٌ على البلاء»^(١).

فمقطع الإمام عليه السلام إمام لكل نصوص البصري هذه، فالمعنى واحدٌ بين النصوص تماماً - فضلاً عن بعض الألفاظ - قائمٌ على المقارنة بين تصرف المؤمن في حالة الكرب والشدة، وتصريفه في حالة اليسر والفرج، ولذا استعمل عليه السلام من أجل إظهار هذا المعنى بصورة مشوقة الطباق، وذلك بين لفظي «البلاء» و«الرّحاء». والبصري اعتمد هذا تماماً، فذكره مرّة بلفظه «الرّحاء» «البلاء» وأخرى ذكر «البلاء» ولم يذكر ما يقابلها بالنصّ، بل قال: «نوال الدنيا» أي عطاياها، وهذا معناه الرّحاء، والباقي بمعناه وذلك في قوله: «السراء» و«الضراء» وقوله: «أحبوها» و«كرهوا». وكل طباقات البصري هذه منتها طباق الإمام عليه السلام المذكور مثلما اتضح.

والملفت إنَّ الطباق عُدَّ ميزة امتازت بها مفردة البصري، فقد قالت الباحثة سلافة صائب: «وما امتازت به مفردات الحسن البصري ظاهرة المطابقة بينها، بمعنى أنَّه أورد في مواضع كثيرة من نثره ما عرف في البلاغة بعد عصره بـ «الطباق»^(٢). وعللت ذلك قائمة: «بأنَّه - أي الحسن - كان يضع الخير والشر، والصواب والخطأ، أمام ساميته، فيخطيء هذا ويصوب ذلك فهو يعرض أمامهم

الخطر ليحدِّرهم منه، ويرسم لهم سبيلاً للنجاة ليذلُّهم عليه»^(٣).

(١) آداب الحسن البصري . ١٣٥

(٢) الشر عند الحسن البصري . ٩١

(٣) الشر عند الحسن البصري . ٩١

والحقيقة ليست هذه، إذ قبل أن يضع البصري الخير والشرّ أمام ساميته، وضع كلام أمير المؤمنين عليه السلام أمام ناظريه، وأخذ منه فيما أخذ تلك الطبقات.

وتجدر الإشارة هنا أيضاً إن الباحثة ضربت أمثلةً على ما قالت، ولكن هذه الأمثلة اغلبها - إن لم تكن جميعها - من كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

وبعد أن انتهى أمير المؤمنين عليه السلام من وصف أنفس المتدينين، انتقل إلى وصف شوقيهم للجنة، وخوفهم من النار بقوله:

«وَلَوْ لَا أَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ لَهُمْ (عَلَيْهِمْ)، لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةً عَيْنٍ شَوْقًا إِلَى الْثَّوَابِ، وَخَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ».

وكلامه هذا «إشارة إلى غاية نفرتهم من الدنيا، وفرط رغبتهم إلى الآخرة»^(١).

فإن كان البصري أخذ مقطع الخطبة السابق بمعناه وبعض ألفاظه، فهو هنا عاد إلى التضمين المباشر مع التقديم والتأخير لا غير، وذلك لما قال في نصه السابع: «لولا الآجال التي كُتِبَتْ لهم، ما تقاوت أرواحهم في أجسادهم خوفاً من العقاب، وشوقاً إلى الثواب».

ثم انتقل عليه السلام إلى وصف منزلة الباري - جل جلاله - و منزلة خلقه في نفوس المؤمنين، وذلك لما قال:

«عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنفُسِهِمْ فَصَغَرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ».

فهؤلاء المؤمنون آمنوا بالله حق إيمانه، ولذا عظم في أنفسهم، وصغر خلقه في أعينهم، وهذه معادلة عكسية، إذ كلما عظم الباري في نفس المخلوق، صغر

(١) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ١٢ / ١١٨

في عينه خلق الباري. ومن دقة الوصف هنا عند الإمام استعمال لفظة «أنفسهم» مع الخالق، و«أعينهم» مع المخلوقين الذين كنّى عنهم بـ «ما دون ذلك» أي دون الخالق، وكلُّ ما دون الخالق فهو مخلوق، إذ نرى أنَّ الإمام عليه السلام - وهو مؤسس علم التوحيد - أراد فيها أراد أنَّ المتّقين الحقيقيين هم الذين لم يجسّموا الإله - مثلما فعلت اليهود والنصارى - بل هو تعالى عظيمٌ في ظنون أفكارهم، بعيدٌ عن نواظر عيونهم، لذا قال إنَّ المتّقين عظّموا الله في «أنفسهم». أمّا المخلوقون، فهم مشاهدون، لذا استعمل معهم لفظة «أعين». ويبدو أنَّ ابن أبي الحديد لم يتتبّع لهذه الدقة في استعمالات الإمام هذه، وذلك لما قال:

«إنَّ الخالق عظم في أعينهم..»^(١).

ذكر البصري هذا المقطع، وكررَه مرات عدّة، فمرةً بنصه، وذلك قوله في نصه السابع: «عَظُمَ الْخَالقُ فِي نُفُوسِهِمْ، فَصَغُرَ الْمَخْلوقُونَ فِي أَعْيُنِهِمْ».

وآخرٍ بتحوير طفيف، من نحو ما ورد في نصه الثاني: «وَاسْتَخْفُوا بِسَخْطِ الْمَخْلوقِينَ رَضِيَ الْخَالقُ».

وثالثة بمعناه، وذلك قوله في نصه الأول: «وَكَانُوا أَبْصَرُ بِقُلُوبِهِمْ لِدِينِهِمْ مِنْكُمْ لِدُنْيَاكُمْ بِأَبْصَارِكُمْ».

وما زال عليه السلام يصف درجة يقين المؤمنين المتميزة، حيث قال:

«فَهُمْ وَآجِنَّةٌ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ».

وهذا "تصویر ليقينهم وإيمانهم بالله، وأئمّهم قد بلغوا الذروة منه، عن علم

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠ / ٣١٢

وبصيرة لا عن تقليد ومحاكاة^(١). والواو في قوله «والجنة» وكذلك «النار» واو المعية^(٢) فهو هنا ينقل صورة عن المؤمنين كأنهم في الجنة يتنعمون بنعيمها، وكأنهم في الوقت ذاته في النار يُقاسون عذابها.

فكان هذا مما ضمّنه البصري أيضًا، لما قال في نصّه الثامن: «إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - عَبَادًا كَمَنْ رَأَى أَهْلَ الْجَنَّةَ فِي الْجَنَّةِ مَخْلُدِينَ، وَكَمَنْ رَأَى أَهْلَ النَّارَ فِي النَّارِ مَخْلُدِينَ».

لكن البصري لما حذف الحرف «قد» الذي أدخله الإمام عليه السلام على الفعل الماضي مررتين «قد رأى أهل الجنة» و«قد رأى أهل النار» ضيّع دلاله التحقيق والتأكد المتأتية من هذا التركيب. أما استبداله للفظتي الإمام «منعمون» و«معدبون» بتكرار لفظة «مخلد़ين»، أذهب الطلاق الجميل المتأتي من هاتين اللفظتين، نعم صحيح إنَّ من البشر مَنْ يخلد في الجنة أو النار، لكن في لفظتي النعيم والعذاب الضديتين دافع تحفيز يدفع المتلقى أكثر نحو الجنة، ودافع تنفير ينفره أكثر عن النار.

وفي نصّه الأول كرر البصري هذا المقطع، وأعاد له لفظتين المذكورتين، فقال: «أَئِهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ عَبَادًا كَمَنْ رَأَى أَهْلَ الْجَنَّةَ فِي الْجَنَّةِ مَتَّعْمِينَ، وَأَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ مَعْذَبِينَ».

وبعد ذلك وجدنا الإمام عليه السلام قد قال:

«فُلُوْبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيقَةٌ، وَأَنفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ».

(١) في ظلال نهج البلاغة / ٢٦٥ .

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .٣١٣ / ١٠ .

ضمّن البصري هذا في نصّه الثامن: «قلوبهم محزونة، وشُرورهم مأمونة، حوائجهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة».

وكرّر هذا التضمين في نصّه الأول:

«أَئِمَّا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ عَبَادًا قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَنفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ».

ثم قال عليه وصفه للمتقين:

«صَبَرُوا أَيَّامًا قَصِيرَةً، أَعْقَبُتُهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً». فكثي عليه عن الدنيا بالأيام القصيرة، وعن الجنة ونعمتها بالراحة الطويلة.

ولعل قوله هذا من قوله تعالى:

﴿وَجَرَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾^(٣).

لكن البصري اعتمد الوصف العلوي، وكرّره مرّات عدّة من نحو ما ورد في نصّه الثامن: «صَبَرُوا أَيَّامًا قَصَارًا تُعَقِّبُ رَاحَةً طَوِيلَةً».

والملاحظ أنّ الإمام عليه استعمل الفعل الماضي - كونه يحمل دلالة قطعية - مرّتين، لـّما عدّ صبر المؤمنين في الدنيا أعقابهم نعيم الآخرة، إلاّ أن البصري حين أبدل الفعل الثاني «أعقب» عند الإمام عليه وحوله إلى المضارع «تعقب» أهدر تلك الدلالة الحتمية، وصار المعنى إنّ هؤلاء سيعقبون صبرهم بالراحة، ولعل أمدّ هذا بعيد، وهذه الدرجة من التسويف، عكس درجة اليقين القطعية التي ألفيناها عند أمير البيان عليه. أمّا إبداله «قصيرة» بـ «قصيرًا» فهو تقصير آخر، كونه بهذا التحوير أضاع الاتفاق المحبب في الوزن والسجع بين اللفظتين العلويّتين

«قصيرة» و «طويلة».

وثانية كرر البصري هذا المقطع، محوراً فيه ما شاء، وذلك في نصيه الأول: «صبروا الأيام القلائل، لما رجوا في الدهور الأطاول».

وثالثة رأى من المستحسن أن يزيد أكثر في التحوير، وهذا ما وجدهنا في نصيه الثالث: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ عَمَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَيَّامًا يَسِيرَةً، فَوَاللَّهِ مَا نَدِمَ أَنْ يَكُونَ أَصَابَ مِنْ نَعِيمِهَا وَرَخَائِهَا». إذ استبدل «أَيَّامًا قصيرة» بـ «أَيَّامًا يَسِيرَةً»، والباقي عنده توسيع على قول الإمام «راحة طويلة».

وغير هذا من تكراره الكثير لهذا المقطع^(١).

وبعد ذلك بدأ أمير المؤمنين عليه السلام يفصل في صفات المؤمنين أكثر فأكثر، وذلك من خلال ذكر حالم في الليل، وحالم في النهار، فقال وهو يصف منه جهم الليلي:

«أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُونَ أَقْدَامُهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتَّلُونَهَا تَرْتِيلًا؛ يُحَنِّنُونَ بِهِ أَنفُسَهُمْ، وَيَسْتَثِرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ؛ فَإِذَا مَرُوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعًا، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شُوقًا، وَظَنَّوا أَمَّا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ. وَإِذَا مَرُوا بِآيَةٍ فِيهَا تَحْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنَّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أُوسَاطِهِمْ، مُفْتَرِّشُونَ لِجَبَاهِهِمْ وَأَكْفَاهِهِمْ وَرُكَبِهِمْ، وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَائِرِ رِقَابِهِمْ».

ذكر البصري أول هذا المقطع وأخره في نصيه الرابع، وذلك قوله: «أدركت من صدر هذه الأمة قوما كانوا إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم، يفترشون

(١) ينظر: جمهرة رسائل العرب / ٢، ٣٢٦ / ٢، ٣٢٩.

خدودهم... يناجون مولاهم في فكاك رقابهم».

وما يؤخذ عليه البصري - بنظر الباحث - بعض التغييرات التي أجرتها على النص العلوي، ومنها إبداله «فصادفون أقدامهم» بـ «فقيام على أطرافهم»، فمفردة البصري «أطراف» لم تكن فاعلة كمفردة الإمام عليه السلام «أقدام»، لأنَّ من يريد الوقوف طويلاً بين يدي الله سبحانه وتعالى - وهذا ما جاء من أجله المقطعين المؤثر والمتاثر - لا تعينه أطرافه على ذلك كما تعينه قدماه. نعم الإمام عليه السلام استعمل الأطراف، لكن بعقريته، ودقة تصويره للمتقين، استعملها عندما وصل بوصفه لهم وهم ساجدين «مفترشون لجاههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم»، فهو هنا ذكر أعضاء السجود السبعة المتمثلة بالجبهة، والكتفين، والركبتين، وطرفي القدمين، وبالتالي فإنَّ لفظة الأقدام مناسبة للوقوف، ولفظة الأطراف مناسبة للسجود، ولكن البصري حرف في كلام الإمام عليه السلام، فوقع في التقصير.

ومن تغييراته أيضاً، إبدال قول الإمام: «يفترشون جاههم» والذي هو كناية عن كثرة السجود^(١) بـ «يفترشون خدودهم»، وهنا سقط البصري أيضاً، كونه جعل هؤلاء الساجدين يتخدون من خدودهم فرشاً يجعلونها مواضع سجود الله - تعالى -، وهذا غير مقبول لأنَّ مواطن السجود سبعة، هي التي عددها الإمام عليه السلام، ولكن لو قال على الأقل: يفترشون وجوههم لقلنا إنه أطلق على سبيل المجاز - الكل «الوجه»، وأراد الجزء «الجبهة» أي موضع السجود، غير أنه لم يعمل حتى هذا.

وعلى أية حال فمن غير المقبول أن يسجد الإنسان بخديه ويترك جبهته، ونحن

(١) ينظر: منهاج البراعة / ٢٧٨ .

في معنى يتحدث عن الصلاة.

أمّا قوله: «يناجون مولاهم في فكاك رقابهم» فهو إعادة بتغيير جزئي طفيف لقول الإمام عليه السلام:

«يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ».

أمّا وصفه للمتقين بأنّهم يستشرون بالقرآن دواء دائمهم، والإستشارة بمعنى الهيجان فهم يهيجون بالقرآن الفكر الذي يمحو الجهل^(١)، فقد جعله البصري في حديثه الذي قسم فيه قراء القرآن على ثلاثة أقسام، وذلك في نصه السادس إذ قال: «ورجل قرأ القرآن فبدأ بها يعلم من دواء القرآن فوضعه على داء قلبه».

وبعد أن انتهى أمير المؤمنين عليه السلام من وصف حال المؤمنين في الليل، انتقل إلى وصفهم بالنهار، وذلك قوله:

«وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ أَبْرَارُ أَتْقِيَاءُ».

ضمّن البصري هذا بتمامه في نصّه الثامن: «وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ بُرْرَةُ أَتْقِيَاءُ».

ثمّ بعد ذلك وصفهم عليه السلام على خوف دائم، لما قال: «قد بraham الخوف بري القداح».

القداح: هو العود إذا بلغ، فسُذِّبت عنه أغصانه، وقطع على مقدار النبل الذي يُراد من الطول والقصر^(٢)، وبري العود والسهم نحته^(٣). فهو هنا يشبه

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة لمحمد عبد الله / ٣٣٠.

(٢) ينظر: لسان العرب / ٥٥٦ مادة (قدح).

(٣) ينظر: م. ن. ٩٨ مادة (برى).

تأثير الخوف عليهم ببرى القداح، ووجه الشبه شدة النحافة^(١).

فمرة أخرى أخذ البصري هذا التشبيه بـألفاظه، لما قال في نصّه الثامن: «كأنهم
القداح».

وآخرى بمعناه، لما قال في نصّه الخامس: «دخلهم من الخوف ما لم يدخل
غيرهم».

وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام وصف المتقين بالليل، بصفاتٍ
تختلف عن النهار، فمثلاً اختار الليل للصلوة، لأنَّ فضيلتها في جوف الليل تفوق
فضيلتها في وضح النهار. أمّا ألفاظ الليل فكانت مخيفة مقلقة من نحو «تخويف،
زفير، جهنم، جبار، يحزنون، دواء، داء». وكأنه يصور المتقين في ليلهم وهم في
ضجّة ودوّي، وانقطاع تام لله تعالى.

بينما ألفاظه للمتقين في النهار كانت توحّي بالهدوء والسكينة والتواضع،
والذبول، من نحو «علماء، أبرار، أتقياء، حلماء، مرضى». وكأنه عليه السلام جعل ليلَ
المتقين للمتقين، ينقطعون به إلى ربِّهم، وجعل نهارهم للناس، إذ مَنْ كان بهذه
الصفات من حلم وتواضع وعلم... كان سهلاً ومحبباً لدى الناس مخالطته،
والإفادة من علمه وخلُقه.

وهكذا باقي كلام البصري المذكور سالفاً، فهو إما بالنص، أو بالتحوير أو
بالمعنى من ذلك الجزء المذكور من الخطبة العلوية.

أمّا جزء الخطبة الثاني، والمتمثل بقوله عليه السلام:

«فَمِنْ عَلَامَةٍ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَحَزْمًا فِي لِينٍ، وَإِيمَانًا فِي

(١) ينظر: البعد الفكري والتربوي في نهج البلاغة .٩٩

يَقِينٍ، وَحْرَصًا فِي عِلْمٍ، وَعَلِمًا فِي حِلْمٍ، وَقَصْدًا فِي غَنَّى، وَخُشُوعًا فِي عِبَادَةٍ، وَتَجْمُلًا فِي فَاقَةٍ، وَصَبْرًا فِي شِدَّةٍ، وَطَلَابًا فِي حَلَالٍ، وَنَشَاطًا فِي هُدَى، وَتَحْرُجًا عَنْ طَمَعٍ، يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحةَ وَهُوَ عَلَى وَجْهٍ، يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الدُّكْرُ، يَبِيتُ حَذِيرًا، وَيُصْبِحُ فَرِحًا؛ حَذِيرًا لَا حُذْرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَفَرِحًا بِهَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ. إِنِّي أَسْتَصْبَعُ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيهَا تَكْرُهٌ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلًا فِيهَا تُحِبُّ. قُرْئَةٌ عَيْنِهِ فِيهَا لَا يَزُولُ، وَرَهَادُهُ فِيهَا لَا يَبْقَى، يَمْزُجُ الْحَلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ. تَرَاهُ قَرِيبًا أَمْلُهُ، قَلِيلًا زَلَّهُ، خَاسِعًا قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُورًا أَكْلُهُ، سَهْلًا أَمْرُهُ، حَرِيزًا دِينُهُ، مَيْتَةً شَهَوَتُهُ، مَكْظُومًا غَيْظُهُ، آخِرًا مِنْهُ مَأْمُولُ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونُ. إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتْبَ فِي الْذَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي الْذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ. يَعْفُو عَمَّا ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُّ مَنْ قَطَعَهُ، بَعِيدًا فُحْشُهُ، لَيْلًا قَوْلُهُ، غَائِبًا مُنْكَرُهُ، حَاضِرًا مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً حَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ، فِي الْرَّزَلَازِلِ وَقُورُ، وَفِي الْمُكَارِهِ صَبُورُ، وَفِي الْرَّخَاءِ شَكُورُ. لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلَا يَأْثُمُ فِيمَنْ يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشَهِّدَ عَلَيْهِ، لَا يُضِيغُ مَا أُسْتَحْفَظَ، وَلَا يُنسِي مَا ذُكَرَ، وَلَا يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ، وَلَا يُضَارِ بِالْجُهَارِ، وَلَا يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ، وَلَا دُخُلُّ فِي الْبَاطِلِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ. إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغْمُهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحَكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَتَقَبَّلُ لَهُ، نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءِ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ. أَتَعَبَ نَفْسُهُ لِآخِرِتِهِ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَرَاهَةٌ، وَدُنُوُهُ مِنْ دَنَا مِنْهُ لِيْنٌ وَرَحْمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلَا دُنُوُهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ^(١).

(1) نهج البلاغة - ٣٥٤

فقد أخذه البصري برمه، ووضع به مجموعة من الناس بعد فراغهم من أداء صلاة الجمعة، فقال: «إنَّ أخلاقَ المؤمنِ قوَّةٌ في دينِه، وحزمًا في لينِه، وإيمانًا في يقينِه، وعلماً في حلمِه، وحلماً في علمِه.. وتجملاً في فاقته، وقصدًا في غنىِه،... وعطاءً للحقوق وإنصافاً في استقامة، لا يحيفُ على مَنْ يُغْضُبُ، ولا يائِمُ في مساعدةِ مَنْ يُحبُّ، ولا يهْمِزُ، ولا يغمِّزُ، ولا يلْمِزُ، ولا يلْغُو... ولا يجحدُ الحقَّ الذي عليه.. ولا يشمَتُ بالقبيحة إنْ حلَّتْ بغيرِه، ولا يُسرُّ بالمصيبةِ إذا نزلَتْ بسواءٍ... إنَّ أحسنَ استبشر، وإنَّ أساءَ استغفر،... وإنَّ سُفْهَهُ على هَلْمِهِ، وإنَّ ظُلْمَهُ صَبَرَ، وإنَّ حِيرَهُ عَدَلَ، لا يتعوَذُ بغيرِ اللهِ، ولا يستعينُ إلَّا باللهِ، وقوَّهُ في الملا، شَكُورٌ في الخلاءِ، قانعٌ بالرِّزقِ، حامدٌ على الرِّحَمَاءِ، صابرٌ على الْبَلَاءِ، لا يجمحُ بِهِ الْقَنُوطُ، ولا يغلبُه الشُّحُّ، إنَّ جَلْسَهُ معَ الْلَّاغِطِينَ كُتُبَهُ منَ الْذَاكِرِينَ، وإنَّ جَلْسَهُ معَ الْذَاكِرِينَ، كُتُبَهُ منَ الْمُسْتَهْرِينَ. المؤمن طلقُ البشَرِ... راحمٌ وصَوْلٌ، يُقطَعُ فِي صُلْبٍ، ويؤذى فِي حِتَّمٍ، ويهاه فِي كِرْمٍ، صبورٌ على الأذى، محتملٌ لأنواعِ الْبَلَاءِ... المؤمنُ هِيَنُ لِيْنُ كِيسُ في دينِهِ، غبُّي في دُنياه... وهو في مُحاسبَةِ نفسهِ في تعبِهِ، والنَّاسُ منهُ في راحةِ المؤمنِ... قرِيبُ الرِّضا، بعيدُ الغضبِ، يعلمُ إذا عُلِّمَ، ويفهمُ إذا فُهِمَ، من صاحبه سَلِيمٌ، ومن خالقه غَنِيمٌ، كامِلُ العُقُولِ، كثيُرُ الْعَمَلِ، قلِيلُ الْأَمْلِ، حَسَنُ الْخُلُقِ، كَتُومُ الغَيْظِ»^(١).

والبصري كعادته مع كلام أمير المؤمنين عليه السلام إن شاء ضمَّنَ حرفيًّا، وإن شاء حوارَ قليلاً، وإن شاء أخذ المعنى، وإن شاء قدّم، وإن شاء آخر. فكلُّ هذا طبقةٌ في قوله المذكور.

فأَوْلَ كلام الإمام عليه السلام والذي ابتدأه بلفظة»(علامة)، وهي لفظة سيميائية

تعمل بواسطة التشابه الواقعي بين الدال والمدلول على تبني ملاحظة السلوك
الدال على صفة المتقين^(١)، والمتمثل بقوله عليه السلام:

«فَمِنْ عَلَامَةٍ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينِ، وَحَزْمًا فِي لِينِ، وَإِيمَانًا فِي
يَقِينِ، وَحِرْصًا فِي عِلْمٍ، وَعِلْمًا فِي حَلْمٍ، وَقَصْدًا فِي غِنَىٰ، وَخُشُوعًا فِي عِبَادَةٍ،
وَتَجْمُلًا فِي فَاقَةٍ».

نجده حرفيًا في نص البصري، وذلك قوله: «إِنَّ أَخْلَاقَ الْمُؤْمِنِ قُوَّةً فِي دِينِ،
وَحَزْمًا فِي لِينِ، وَإِيمَانًا فِي يَقِينِ، وَعِلْمًا فِي حَلْمٍ، وَحَلْمًا فِي عِلْمٍ.. وَتَجْمُلًا فِي فَاقَةٍ
وَقَصْدًا فِي غِنَىٰ».

وبعد ذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام وأصفًا حالتي الحذر والفرح عند المتقى:
«يُمْسِي وَهُمْهُ الشُّكْرُ، وَيُضْبِحُ وَهُمْهُ الْذِكْرُ يَبْيَطُ حَذِيرًا، وَيُضْبِحُ فَرِحًا حَذِيرًا لَمَّا
حُذِيرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَفَرِحًا بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ».

ولعله هنا لم يقصد تخصيص الحذر بالبيات، والفرح بالصباح، وإنما المراد أنه
يبيت ويصبح جامعاً بين وظيفتي الخوف والرجاء^(٢).

وهنا انتقل البصري من التضمين الحرفي إلى الأخذ بالمعنى، وذلك قوله بعد
كلامه السابق: «المؤمن إن أحسن استبشر، وإن أساء استغفر».

وأمّا قوله عليه السلام:

«تَرَاهُ قَرِيبًا أَمْلُهُ... مَكْظُومًا عَيْظُهُ... بَعِيدًا فُحْشُهُ، لَيْسَأَنَا قَوْلُهُ، غَائِبًا مُنْكَرُهُ،
خَاصِرًا مَعْرُوفُهُ مُقْبِلًا حَيْرُهُ مُدْبِرًا شَرُهُ». فقد أخره البصري وختم به نصّه وذلك

(١) نهج البلاغة في ضوء علم اللغة الاجتماعي ٢٥١ - ٢٥٢.

(٢) ينظر: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ١٢ / ١٤٢.

لما قال: «المؤمنُ... قرِيبُ الرّضا، بعِيدُ الغضبِ،... من صاحبه سلم، وَمِنْ خالطه غِنِيمَ، كامِلُ العقْلِ، كثِيرُ العملِ، قليلُ الأملِ، حسَنُ الْخُلُقِ، كتوْمُ الغِيظِ».»

فقد أبدل البصري هنا «قربياً أمله» بـ «قليل أمله». وإبداله «قربياً» بـ «قليل» لم يكن موافقاً بنظر الباحث، لأنّ لفظة قريب بدلاتها المعنوية توائم الأمل بدلاته المعنوية أيضاً أكثر من موائمة قليل بدلاتها المادية له.

وأبدل «مكظوماً غيظه» بـ «كتوم الغيظ».

وأبدل «بعيذاً فحشه» بـ «بعيد الغضب».

ولا فرق بين لفظي الفحش والغضب، لأنّ الثانية تسبب الأولى، فالفحش الذي هو القبيح من القول والفعل^(١) سببه الغضب.

ومعنى قوله الله: «بعيذاً فحشه»: «لا يعني به أنه - أي المؤمن - قد يُفحش تارةً ويترك الفحش تارات بل لا فحش له أصلاً، فكنّى عن العدم بالبعد، لأنّه قريب منه»^(٢).

وبالنسبة لآخر كلامه الله في المقطع المذكور: «بعيذاً فحشه إلى قوله مدبرًا» فإنّ هذه صفات نبيلة، مَنْ يوفق لصاحبة حاملها، يكون قد غنم منها، وسلم من أذى حاملها، وهذا ما قاله البصري في مقطعه السالف: «من صاحبه سلم ومن خالته غنم».

وقال أمير المؤمنين الله واصفاً ذكر المتقيين الدائم لله - سبحانه وتعالى -: «إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الْذَّاكِرِينَ وَ إِنْ كَانَ فِي الْذَّاكِرِينَ لَمْ يُكُنْ كُتِبَ»

(١) ينظر: لسان العرب ٦ / ٣٢٥ مادة (فحش).

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠ / ٣٢٤.

و معناه «أنه لا يزال ذاكراً الله تعالى، سواء كان جالساً مع الغافلين أو مع الذاكرين، أما إذا كان مع الغافلين فإنه يذكر الله بقلبه، وأما إذا كان مع الذاكرين فإنه يذكر بقلبه و لسانه»^(١).

حور البصري طفيفاً في هذا لما قال: «إن جلسَ مع اللاغطين كُتِبَ من الذاكرين، وإن جلسَ مع الذاكرين، كُتِبَ من المستهترين».

وإيدال البصري «الغافلين» بـ«المستهترين» لم يكن في محله - بنظر الباحث - لأن هذه اللفظة تعني «كثير الأباطيل»^(٢). وتعني أيضاً المولع بالذكر والتسبيح^(٣). وإن فهم من سياق الكلام أن البصري قصد المعنى الثاني، إلا أنه وفي وصف آخر للمؤمن نعته بأنه غبي، وذلك لما قال: «المؤمن كيس في دينه غبي في دنياه»، وهذا وصف غير صحيح، فالمؤمن الحق لم يكن غبياً لا في دينه، ولا في دنياه، بل حاذق بها معًا، لأن الدنيا هي مزرعة الآخرة، ولا تصلح هذه المزرعة إذا كان مدبر شؤونها غبياً، أي غافلاً ولم يفطن^(٤).

فإن كان البصري آخر هذه الفقرة والتي قبلها، إلا أن قول الإمام عليه السلام:

«لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحب».

قدمه، بعد أن ضمنه بنصبه، وذلك قوله: «لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ١٠ - ٣٢٣ - ٣٢٤.

(٢) ينظر: لسان العرب / ٥ - ٢٤٩ مادة (هتر).

(٣) ينظر: م. ن. ٥ - ٢٤٩ مادة (هتر).

(٤) ينظر: م. ن. ١٤ - ١٥ مادة (غبا).

الفصل الثاني: المبحث الثالث: أثر خطبة المتقين ٢١٣
في مساعدة من يحب».

ومن طرقه بالتقديم والتأخير على الكلام العلوي، هي أن يأتي على الجملة الواحدة، فيقدم ويؤخر فيها، فمثلاً جملة الإمام عليه السلام: «يصل من قطعه»، قدّم وأخر البصري فيها لما قال: «يقطع فيصل».

ومن فقرات هذه الخطبة فقرات بسطها البصري، فقول الإمام عليه السلام: «لا يشمت بالمصائب». بسطه البصري لما قال: «ولا يشمت بالقبيحة إن حلّت بغيره ولا يُسرّ بالمصائب إن نزلت بسواء».

وإن فتشنا عن بسط البصري هذا وجدناه تكراراً لا طائل منه، فقوله: «إن حلّت بغيره» لا يختلف البتة عن قوله: «إن نزلت بسواء». أمّا لفظة الإمام «المصائب» أخذها البصري بمعناها مرّة وهي قوله: «القبيحة»، ثم عاد وذكرها في آخر كلامه المذكور بنصها «بالمصائب».

فإن كان كرر البصري المقطع السالف مرّتين، إلا أنّه لمّا أخذ المقطع العلوي: «إن بُغي عليه صبر»، كرّره ما يقارب الست مرات:

فقال: «وإن ظُلم صبر». وقال: «وإن جير عليه عدل». وقال: «صبور على الأذى». وقال: «يؤذى فيحتمل». وقال: «محتمل لأنواع البلاء» وغيرها.

وتتبّع الإشارة هنا إلى أنّ التكرار مما عُرف عن البصري بوضوح، حتى أنّ أغلب دارسيه سجّلوا عليه هذه السمة، فكان يكرر كثيراً من المعاني الدقيقة والألفاظ والجمل في أكثر من نصٍّ من نصوصه النثرية^(١)، ولكنّ الجديد هنا إنّ

(١) ينظر: الخطابة العربية في عصرها الذهبي ٣٦٤، وينظر: الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي ٢٨٢، وينظر: الشر عند الحسن البصري ٩٢ - ٩٣.

مكرّرات البصري هذه ما هي إلّا نصوص علوية بامتياز. فكان يقطع العبارة أو المقطع العلوي - المكون لربما من عدّة اسطر - ويكرره فيما شاء من نصوص شرية، وهذا الأمر بات جليًّا لا غبار عليه.

وبقي لنا أن نشير هنا إلى أنَّ من طِباقات البصري الجميلة^(١)، قوله في نصِّه المذكور: «وهو في محاسبة نفسه في تعب، والناس منه في راحة».

والحقيقة إنَّ البصري صفر اليدين من هذا الطباق، لأنَّه من الخطبة العلوية المذكورة، والمتمثل بقول أمير البيان عليه السلام: «نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة». وكلَّ ما سُجِّلَ للبصري هنا هو إبداله «عناء» بـ«تعب»! وهكذا باقي التشابهات بين نص البصري وجزء الخطبة العلوية.

(١) ينظر: الشر عند الحسن البصري .٩١

المبحث الرابع

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في مواضع وحكم الحسن البصري

تُعد الموعظة «نشر فني يُطلق دون تكليفٍ أو تهيئة، يتَّألف من جمل قصار، أو جملة أو جملتين، ويحتوي على حكمة، يلقِيه مَن حنكته التجارب، ومحضته الممارسات، ودرسته الحوادث، فيستفيد الآخرون من ثمار تجاربه دونها تكليف خوض حوادث، وتحمُّل مشاقٍ، ومواجهة صعوبات، يتَّوَحَّى فيه الإيجاز والوضوح والدقة في التعبير»^(١).

زخرت كتب التراث الإسلامي والأدب العربي بحكم ومواضع البصري، لما في هذه الحكم من صفات مؤثرة، فقد وصفها الشيخ أبو الحسن الندوبي بقوله: «ومواضع الحسن البصري تجمع بين القوة والسهولة التي عُرف بها كلام عهد الصحابة وهي تدور غالباً حول قصر الحياة، وغدر الدنيا، وخلود الآخرة، والحدث على الإيمان والعمل الصالح...». وقيل عنه أيضًا:

(١) تاريخ الأدب الإسلامي ٢٥٠.

(٢) حياة الحسن البصري ومسيرته العلمية ١٢٧.

«ما زال الحسن يعي الحكمة حتى نطق بها»^(١).

وما يهمنا هنا إنَّ من أهم الأسباب الكامنة وراء إبداع البصري في حكمه هو كلام أمير المؤمنين عليه السلام؛ إذ إنَّ من الندرة النادرة تمرُّ حكمة من حكم البصري دون أن تحمل معها أثراً لكلام أمير المؤمنين عليه السلام. وقد بُرِزَ هذا الأثر بمظاهر عدّة منها:

أولاً: التضمين:

التضمين في اللغة هو «جعل الشيء في ضمن الشيء مشتملاً عليه»^(٢). وفي الاصطلاح هو أن يضمِّن المتكلّم كلامه كلمةً من بيتٍ، أو من آية،... أو مثلاً سائراً، أو جملة مفيدة، أو فقرة من حكمة^(٣). والتضمين «فنٌّ من فنون الإيجاز في البيان»^(٤)، يلْجأُ له الأديب من أجل إتاحة المعنى، أو زيادة الكلام جمالاً^(٥)، وهو بهذا يكون قد «شَرَعَ...لـغرض تعبيري وفائدة معنوية»^(٦).

وبما أنَّ البصري كان رجلاً واعظاً، فقد أدرك إنَّ من أسباب رواج وعظمه، وتجميله في آذان سامعيه هو الاعتماد على كلام الإمام علي عليه السلام والتضمين منه، إما بالنص، وإما بتحوير طفيف.

(١) م. ن. ١٢٦.

(٢) التعريف ١٨١.

(٣) تحرير التجbir ١ / ١٤٠.

(٤) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ٢ / ٤٩.

(٥) ينظر: مصطلحات السرقة الأدبية في التراث النقدي إلى نهاية القرن السابع المجري ٨٨.

(٦) دراسات في النحو ٦٩٠.

١- التضمين النَّصِي:

بمعنى أن يضمّن فقرة من الكلام العلوي دونها إبدال الكلمة منه. وقد ورد هذا كثيراً عند البصري، فمن خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام منها:

«...وَانْقَلِبُوا بِصَالِحٍ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الْرَّادِ»^(١).

ضمّن البصري هذا المقطع من الخطبة في آخر موعظه: «تصبّروا وتشدّدوا فإنّما هي ليالٍ تعدد، وإنّما أنتم ركبٌ وقوفٌ، يوشكُ أنْ يُدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت، فانقلبوا بصالح ما بحضرتكم»^(٢).

وقال الإمام علي عليه السلام في إحدى حكمه:

«خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً، إِنْ مِتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُوا إِلَيْكُمْ»^(٣).

فهو هنا عليه السلام حثّ على التعامل بمكارم الأخلاق مع المجتمع، لأنّ الذي يُجذب إليه في حياته ويبكي عليه عند مماته، حصل على ثمرة لم يحصد لها إلاّ بعد أن زرع طبيباً في نفوس قومه. ومن أجل التأكيد على هذا المعنى استعمل الإمام عليه السلام الفعل «خالط» مع مصدره «مخالطة».

ضمّن البصري عبارة الإمام الأولى في أول موعظه التي قال فيها "خالطوا الناس في الأخلاق الكريمة، وزايلو هُم في الأفعال القبيحة"^(٤).

(١) نهج البلاغة . ٣٧٢

(٢) حياة الحسن البصري . ١٥٩

(٣) نهج البلاغة . ٥٥٢

(٤) آداب الحسن البصري . ٤٦

وفي حكمة أخرى قال الإمام عليه السلام «مَنْ صَارَعَ الْحَقَّ صَرَعَهُ»^(١).

استعار لفظ المصارعة للمقاومة، فمن صارع الحق قاومه الحق وصرعه، لأن الله - سبحانه وتعالى - وملائكته، ورسله، والصالحين من عباده أعون الحق، وهؤلاء لا مقاوم لهم^(٢).

ضمن البصري هذه الحكمة في المقطع الثاني من قوله: «مَنْ لَمْ يَجِرِّبِ الْأَمْوَارَ خُدُعَ، وَمَنْ صَارَعَ الْحَقَّ صُرِعَ»^(٣).

إلا أن البصري هنا أبدل الفعل «صارع» في حكمة الإمام بالفعل نفسه، ولكنه بناء للمجهول فقال: «صرع»، وذلك حتى يوائم فعله الأول «خدع».

ويبيّن الإمام عليه السلام في إحدى خطبه جانبًا من منزلة القرآن السامية قائلاً: «..وَمَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ: زِيَادَةٌ فِي هُدًى، أَوْ نُقْصَانٌ مِنْ عَمَّى. وَاعْلَمُوا... أَنَّهُ شَافِعٌ مُشْفَعٌ، وَقَائِلٌ مُصَدَّقٌ»^(٤).

عبارة الإمام عليه السلام «شافع مشفع» نجدتها في أول دعاء البصري: «اللهم اجعلنا شافعًا مشفعًا، ونورًا وشفاءً وهدى وموعظة»^(٥).

٢- التضمين المحور:

وهذا النوع من التضمين كالاقتباس الإشاري الذي يعني عدم التزام الأديب

(١) نهج البلاغة . ٦٢٦

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم / ٥ ٤٩٨

(٣) آداب الحسن البصري ٥٧

(٤) نهج البلاغة . ٢٩١

(٥) آداب الحسن البصري . ٨٧

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواضع الحسن البصري ٢١٩
بأالية القرآنية وتركيبها، بل هو إشارة إلى ذلك^(١).

ويمكن أن نعرف التضمين المحور فنقول: هو تضمين بتصرّف لنصٍّ ما، وهذا التصرف قد يكون على اللفظة الواحدة وقد يكون على التركيب.

أورد البصري كثيراً من كلام أمير المؤمنين عليه السلام بهذه الطريقة، فمن حكمة له بين فيها إن الله تعالى أنعم شتى على عباده، وأقل درجات شكر هذه النعم عدم الاستعانة بها على معصية مسديها، فقال عليه السلام:

«أَقْلُ مَا يَلْزَمُكُمْ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ أَلَا تَسْتَعِينُوا بِنَعِيمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ»^(٢).

فآخر حكمة الإمام ضمّنه البصري في آخر مواعظه التي قال فيها: «أشد الناس صراخاً يوم القيمة رجل سنّ ضلالاً فأتبع عليها.. ورجل فارغ استuhan بنعم الله على معاصيه»^(٣).

وممّا ورد في وصية أمير المؤمنين لولده الحسن عليه السلام:

«...وَإِيَّاكَ وَالإِتْكَالَ عَلَى الْمُنْتَهَى، فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى»^(٤).

والنوكى: جمع أنوك وهي كالأنجق^(٥).

فتذحير أمير المؤمنين لولده الحسن عليه السلام من الاتكال على المنى ضمّنه البصري مع تحوير طفيف في آخر مواعظه التي قال فيها: «القلب الذي يحب الله يحب

(١) ينظر: معجم آيات الاقتباس ١٩.

(٢) نهج البلاغة ٦١١.

(٣) الفتوحات المكية ٤ / ٥٣٩.

(٤) نهج البلاغة ٤٦٨.

(٥) ينظر لسان العرب ١٠ / ٥٠١ مادة (نوك).

٢٢٠ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الشر العربي

التعب، ويؤثر النصب، هيئات، لا ينال الجنة من يؤثر الراحة. من أحب سخا. ومن أحب سخا بنفسه إن صداق، وترك الأمان؛ فإنها سلاح النوكى»^(١).

وممّا جاء في إحدى حكمه عليه السلام:

«مَنْ نَظَرَ فِي عَيْنِ نَفْسِهِ اسْتَغْلَلَ عَنْ عَيْنِ غَيْرِهِ... وَمَنْ كُثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ خَطْوَهُ»^(٢).

حور البصري عبارة الإمام الأخيرة، وذلك في آخر قوله: «من ساء خلقه، عذب نفسه، ومن كثر ماله، كثرت ذنبه، ومن كثر كلامه، كثر سقطه»^(٣).

ومن خطبة طويلة لأمير المؤمنين عليه السلام حمد الله فيها، ووضع بالتقوى، منها قوله:

«فَارْعُوا عِبَادَ اللَّهِ مَا بِرِّعَايَتِهِ يُفُوزُ فَائِزُكُمْ... فَإِنَّكُمْ مُرْتَهِنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمُ وَمَدِينُونَ بِمَا قَدَّمْتُمْ وَكَانَ قَدْ نَزَلَ بِكُمُ الْمُخْوَفُ فَلَا رَجْعَةَ تَنَالُونَ (تُنَالُونَ) وَلَا عَزْرَةَ تَعْتَالُونَ»^(٤).

ضمن البصري بعض هذا المقطع، فقال في إحدى مواضعه: «ابن آدم! إنك مرتَهن بعميلك، وارد عليك أجلى»^(٥).

فكلامه: «إنك مرتَهن بعميلك، وارد عليك أجلى»، تضمّن محور لقول

(١) آداب الحسن البصري ٣٣ - ٣٤.

(٢) نهج البلاغة ٦١٤.

(٣) آداب الحسن البصري ٤٢.

(٤) نهج البلاغة ٣٢٧.

(٥) آداب الحسن البصري ٣٢.

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواضع الحسن البصري ٢٢١

الإمام عليه السلام:

«فَإِنَّكُمْ مُرْتَهِنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ، وَمَدِينُونَ بِمَا قَدَّمْتُمْ».

فحتى وإن غير البصري هنا في بعض الألفاظ إلا أنّه يدور في ذلك النص العلوي من حيث المعنى الواضح بين النصين، فضلاً عن الصياغة، وذلك لما جعل موعظته مكونة من عبارات قصيرة مسجوعة، وهذا يعني وجدها في النص العلوي. ومثلاً استعمل الإمام عليه السلام التقديم والتأخير هنا ومن نحو قوله: «فلا رجعة تنالون» إذ قدّم «رجعة» على «تناولون» لأهمية الأولى، فهو يريد أن يؤكّد أنّ لا رجعة للحياة بعد الموت، استعمله البصري أيضاً، ففي قوله: «وارد عليك أجلك» قدّم الجار وال مجرور «عليك» على «أجلك» في حين أنّ هذا الأخير يستحق التقديم كونه فاعل لإسم الفاعل «وارد».

وروي أنّ إعرابياً لقيَ الحسن البصري فقال له: «علّمني ديناً مبسوطاً...» فقال الحسن: «إنَّ خير الأمور لأوساطها»^(١).

فحكمَة البصري هذه تشبه بشدة فقرة وردت في عهد الإمام علي عليه السلام لمالك الأشتر، جاءَ فيها:

«وَلَيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحُقْقَ»^(٢).

ثانياً: البسط أو الزيادة:

البسط في اللغة نقىض القبض^(٣)، و «وبسط الشيء نشره و توسيعه»^(٤).

(١) م ٥٧ ن ٥٧.

(٢) نهج البلاغة ٥٠٢.

(٣) ينظر: لسان العرب ١٠ / ٥٠٥ مادة (بسط).

(٤) المفردات في غريب القرآن ٤٦.

أمّا في الإصطلاح فقد عرفه ابن أبي الأصبع (ت ٦٥٤ هـ) فقال: «أن يأتي المتكلّم إلى المعنى الواحد الذي يمكنه الدلالة عليه باللفظ القليل فيدلُّ عليه باللفظ الكثير ليضمن اللفظ معانيٍ أخرى يزيدها الكلام حسناً، لو لا بسط ذلك الكلام بكثرة الألفاظ لم تحصل تلك الزيادة»^(١).

ولا تخرج الزيادة عن هذا المعنى، فهي تعني زيادة الأديب في معنى ما، إما بشرحه، أو كشفه^(٢)، ويعدُّ الأصماعي (ت ٢١٦ هـ) أول من أشار إلى هذا المظاهر النقدي، وضرب مثلاً على ذلك^(٣).

لا يقلُّ هذا المظاهر أهمية عن مظاهر التأثير والتأثر الأخرى ولذا ظلَّ ساري المفعول حتى في الأدب الحديث، إذ إنَّ الباحث يرى البسط هو الذي سُميَ في الدراسات الأدبية الحديثة بـ(التمطيط). وعُدَّت هذه الآلية من أهمِّ آليات التناص، حتى أنَّ بعض الباحثين اقتصر عليها مع آلية الإيجاز^(٤). وهي - آلية التمطيط ومثلها مظهر البسط - "في الخطاب الشري أوسع انتشاراً لما لهذه الآلية من علاقة مع الصيغ السردية"^(٥).

اعتمد البصري هذا المظاهر، إذ أورد كثيراً من النصوص العلوية بهذه الطريقة، فمن حكمة لأمير المؤمنين عليه السلام جاء فيها:

«تَرْكُ الذَّنْبِ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِ التَّوْبَةِ»^(٦).

(١) تحرير التجبيز / ٣ / ٥٤٨.

(٢) بنظر: مصطلحات السرقة الأدبية . ١٠٩.

(٣) ينظر: فحولة الشعراء . ٩ - ١٠.

(٤) ينظر: التناص في شعر أحمد مطر . ١٨١.

(٥) التناص في العصر الأموي ١٤ نقلاً عن التناص في الشعر الأندلسي في عهد بنى الأحرmer . ١٨.

(٦) نهج البلاغة . ٥٨٤.

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواضع الحسن البصري ٢٢٣

أخذ البصري هذه الحكمة وبسطها، فقال: «ابن آدم ترك الخطيئة أهون عليك من طلب التوبة؛ ما يؤمنك أن تكون أصبت كبيرة أغلق دونها باب التوبة، فأنت في غير معمل»^(١).

فواضح إنّ البصري لم يكتفي بإيراد الحكمة، فأول زيادته إنّه قدم على الحكمة العلوية نداء «ابن آدم» وهذه افتتاحية محببة عنده يقدم بها لكلام أمير المؤمنين عليه السلام، وبعد ذلك لم يكتفي بإيراد الحكمة كاملة بل زاد عليها، وذلك لما نهى عن مقارفة الكبائر من الذنوب بحجة إنّ من هذه الذنوب ما يغلق باب التوبة، وعليه فإن الخيار السليم من هذا التهيب ترك الذنب بالأساس حتى لا نرجع إلى خيار طلب التوبة، لأنّ «طلب التوبة من الله يحتاج إلى استعداد شديد يصلح معه العبد لقبوها منه وإفاضة العفو عليه»^(٢). وفي الحقيقة هذه درجة رفيعة قلّ من يتمنّها، أي ترك الذنب أساساً وعدم اللجوء إلى التوبة.

ولما بلغ أمير المؤمنين عليه السلام اتهامبني أميّة له بالمشاركة في دم الخليفة الراشد عثمان بن عفان، سارع عليه السلام إلى نفي هذه التهمة عنه مبيناً منزلته السامية، وداعياً إلى الرجوع إلى القرآن ليكون حكماً فيصلأً، فقال:

«أَنَا حَرِيجُ الْمُارِقِينَ، وَخَصِيمُ النَّاكِثِينَ الْمُرْتَابِينَ، وَعَلَى كِتَابِ اللَّهِ تُعَرَّضُ الْأَمْثَالُ»^(٣).

فدعوة أمير المؤمنين عليه السلام إلى القرآن، وردت عند البصري بشكل أكثر تفصيلاً وذلك في قوله: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ شَهُودُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ يَعْرِضُونَ أَعْمَالَ أَبْنَ آدَمَ عَلَى

(١) حياة الحسن البصري ١٤٦.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٤٤٥ / ٥.

(٣) نهج البلاغة ١٠٤.

كتاب الله، فمن وافق كتاب الله حمد الله عليه، وما خالف كتاب الله عرفوا أنه مخالف لكتاب الله، وعرفوا بالقرآن ضلاله من ضل من الخلق»^(١).

فقول الإمام علي:

«وَعَلَى كِتَابِ اللَّهِ تُعْرَضُ الْأَمْثَالُ».

يشبه بشدة قول البصري: «يعرضون أعمالَ ابن آدم على كتاب الله». وكل ما قبل كلام البصري هذا وما بعده بسط له.

وفي حكمة له قال الإمام علي:

«ما من يوم إلا يتتصفح ملك الموت وجوه الخلايق، فمن رأه على معصية أو هوى، أو رأه ضاحكاً فرحاً، قال له يا مسكيٌّ ما أغفلك عمّا يراد بك! اعمل ما شئت، فإن لي فيك غمرة أقطع بها وتينك»^(٢).

ذكر البصري هذه الحكمة، فقال: «ما من يوم إلا وملك الموت يتتصفح وجوه الناسِ خمس مراتٍ، فمن رأه على هوى ولعب أو معصية أو ضاحكا حرك رأسه وقال له: مسكين هذا العبد غافل عمّا يراد به ثم يقول له: اعمل ما شئت فإن لي فيك غمرة أقطع بها وتينك»^(٣).

ففي كلام البصري زيادات على كلام أمير المؤمنين عليه لعلها طريقة من نحو قوله عن ملك الموت عزرايل عليه: «حرك رأسه» فمن الإستحالة أن يرى أحد ملك الموت فكيف إذا نراه يحرّك رأسه متوعّداً أهل اللعب واللهو؟ نعم إلا إذا

(١) حياة الحسن البصري ١٥٧.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ٢٠ - ٤٩٠ - ٤٩١.

(٣) المستطرف في كلٍّ فنٌ مستطرف / ٢ / ٥٠١.

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواضع الحسن البصري ٢٢٥
قصد البصري هذا الأمر على سبيل التصوير.

وفي حكمة لأمير المؤمنين عليه السلام بَيْنَ من خلاها عمق إيمانه الذي لا يُدانى فقال:
«لُوْ كُشِّفَ لِي الغِطَاءُ لِمَا ازدَدْتُ يَقِيناً»^(١).

قال ابن ميثم: الغطاء ما يُستر به الشيء ويغطي، واليقين مقام في عُرف العلماء أَخَصُّ من العلم، فكان أمير المؤمنين عليه السلام متسلّماً لذروة ذلك المقام، رائياً ببصيرته الأسرار الإلهية، مطلعاً بقوّته القدسية على الأطوار الورائية^(٢).

ولما وصف البصري درجة إيمانه، أورد هذا المعنى مفصلاً، فقال: «باليقين طلبتُ الجنة، وباليقين هربت من النار، وباليقين أديتُ الفرائض على أكمل وجهها، وباليقين أصبر على الحق»^(٣).

وفي إحدى حكمه بين الإمام عليه السلام إنّ على الإنسان أن يصبر على المكره، وعن المحبوب، فمثلاً ينبغي الصبر على المصيبة ينبغي أيضاً الصبر عن ارتكاب المحبوب المحذور، فقال:

«الصَّابِرُ صَبْرًا نَصَبْرًا عَلَى مَا تَكْرَهُ، وَصَبْرًا عَمَّا تُحِبُّ»^(٤).

أخذ البصري هذه الحكمة بين التنصيص، والتحوير، والزيادة، فقال: «الصبر صبران: صبرٌ عند المصيبة، وصبرٌ عن المعصية، فمن قدرَ على ذلك فقد نالَ أفضَلَ الصُّبُرِينَ»^(٥).

(١) شرح المائة كلمة .٥٢

(٢) ينظر: م .٥٢ - ن .٥٤

(٣) حياة الحسن البصري .١٥٩

(٤) نهج البلاغة .٥٦١

(٥) آداب الحسن البصري .٣٩

فأول كلام البصري من أول حكمة الإمام عليه السلام، ثم بعد ذلك أبدل قول الإمام عليه السلام:

«صبرٌ على ما نكره» بـ «صبرٌ عند المصيبة».

والمعنى واحد تماماً، كون الصبر على المصيبة هو صبر على مكروه، وأبدل «صبرٌ عما تحب» بـ «صبر عن العصية».

وهنا استعمل الإمام عليه السلام مع الصبر على المكروه حرف الجر «على»، لأنّ وقوع المكروه - لاسامح الله - لا يستطيع أحد رده، بل خياره الوحيد - كي ينال ثواب هذا الإبتلاء - الصبر عليه، والبصري قال في ذلك «عند»، أي عند نزول المكروه. أمّا الأمر المحب للنفس، وأن كان محذوراً في الوقت نفسه فبمباشرته وعدمهها إراديتان، ولذلك نهى الإسلام عنه بالحرف «عن»، وهكذا عند البصري.

أمّا الزيادة، فتكمّن في آخر كلام البصري لما عدّ من يقدر على الصبر عن العصية «نال أفضل الصبرين».

وإن كان البصري في حكمته المذكورة بسط الكلام في الصبر الثاني، وعدّه أفضل الصبرين؛ فهو في موعظة أخرى توسيع على الصبر الأول - أي الصبر على المكروه - وعدّه فاضلاً أيضاً، فقال: «ما من جرعة أحب إلى الله - عز وجل - من جرعة مُصيبة موجعة يتجرّعها صاحبها بحسن عزاء وصبر، أو جرعة غيظٍ يحملُها بفضل عفو وحِلم»^(١).

وخلاصة كلامه: إن تجرّع المصيبة الموجعة، وتحمل الغيظ «أحب» جرعة

(١) آداب الحسن البصري ٣٩

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواضع الحسن البصري ٢٢٧

يقدّمها العبد قربانًا بين يدي الله تعالى. ولبُّ كلامه هذا أول حكمة الإمام عليه السلام «صبرٌ على ما تكره». وبشرح ابن أبي الحديد على هذا المقطع من الحكمـة: «النوع الأول أشـق من النوع الثاني لأنَّ الأول صـبرٌ على مضرـة نازـلة، والثـاني صـبرٌ على محبـوب متـوقع لمـ يحصل»^(١). يتـبين القرـب القـرـيب بين نـص الإمام عليه السلام وبـسطـه من قبلـ البـصـريـ.

وبـعد هـذا لا نـدرـي أيـ الصـبرـين كانـ هو الأـهم عندـ البـصـريـ، فـفي بـسطـه لهاـ نـجـده قدـ استـعملـ اـفعـلـ التـفضـيلـ، فالـصـبرـ عـلـىـ الـمـكـروـهـ عـنـدـهـ «أـحـبـ»ـ، وـالـصـبرـ عـنـ الـمـعـصـيـةـ عـنـدـهـ «أـفـضـلـ»ـ.

وـتجـدرـ الإـشـارةـ إـلـىـ أنـ هـذـهـ التـقـسـيمـاتـ العـدـدـيـةـ الـتـيـ أـلـفـيـنـاـهاـ عـنـ الـحـسـنـ الـبـصـريـ عـدـتـ مـنـ مـيـزـاتـ الـبـصـريـ النـثـرـيـةـ^(٢)ـ وـذـلـكـ مـنـ نـحـوـ قولـهـ المـذـكـورـ «الـصـبـرـ صـبـرـانـ»ـ وـغـيرـهـ. وـلـكـ الغـرـيـبـ إـنـ هـذـهـ التـقـسـيمـاتـ عـنـدـمـاـ يـجـدـهاـ بـعـضـ الـبـاحـثـينـ فـيـ كـلـامـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ عليهـ السـلـامـ يـعـدـونـهـ أـمـرـاـ مـكـذـبـاـ عـلـيـهـ^(٣)ـ، بـحـجـةـ إـنـ هـذـهـ التـقـسـيمـاتـ عـرـفـتـ فـيـماـ بـعـدـ، أـيـ عـنـدـمـاـ تـرـجـمـتـ كـتـبـ الـيـونـانـ إـلـىـ الـعـرـبـةـ. وـهـنـاـ وـقـعـ أـصـحـابـ هـذـهـ النـظـرـيـةـ بـتـنـاقـصـ مـقـيـتـ، لـأـنـ الـكـلـ وـبـدـونـ أـيـ اـسـتـثنـاءـ جـمـعـونـ عـلـىـ أـنـ ثـقـافـةـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ وـالـحـسـنـ الـبـصـريـ هـيـ ثـقـافـةـ عـرـبـيـةـ إـسـلـامـيـةـ مـخـضـةـ، لـاـ تـشـوـبـهاـ شـائـبـةـ أـعـجمـيـةـ، وـإـذـاـ كـانـ الـأـمـرـ هـكـذـاـ - وـهـوـ كـذـلـكـ - إـذـاـ لـمـاـ هـذـهـ التـقـسـيمـاتـ عـنـدـ الـحـسـنـ الـبـصـريـ هـيـ مـيـزـةـ مـمـتـازـةـ، وـعـنـدـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ عليهـ السـلـامـ أـكـذـبـةـ مـنـسـوـبـةـ!

(١) شـرحـ نـهجـ الـبـلـاغـةـ لـابـنـ أـبـيـ الـحـدـيدـ /١٨ـ /٣١١ـ .

(٢) يـنـظـرـ: تـارـيخـ الـأـدـبـ الـعـرـبـيـ (الـعـصـرـ إـسـلـامـيـ)ـ ٤٥٠ـ .

(٣) يـنـظـرـ المشـكـكـونـ بـنـهـجـ الـبـلـاغـةـ وـالـرـدـ عـلـيـهـمـ ١١٠ـ .

وفي إحدى حكمه فرق أمير المؤمنين عليه السلام بين كلام العاقل، وكلام الأحمق بمقارنة فريدة، فقال:

«لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ، وَقَلْبُ الْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ»^(١).

أخذ البصري هذه الحكمة، وتوسع فيها شرحاً، فقال: «لسان العارف من وراء قلبه، فإذا أراد أن يتكلم تفكّر، فإن كان الكلام له، تكلّم به، وإن كان عليه، سكت، وقلب الجاهل وراء لسانه، كلما هم بكلام، تكلّم به»^(٢).

فواضح إنّ البصري قسم الحكمة العلوية على قسمين، ثم توسيع على كل منها، وكأنّه شرح لها، فقوله لما وصف لسان «العارف»: «إذا أراد أن يتكلّم تفكّر، فإن كان الكلام له، تكلّم به، وإن كان عليه سكت، وقلب الجاهل وراء لسانه، كلما هم بكلام، تكلّم به» تماماً كشرح الرضي على كلام الإمام «لسان العاقل» وذلك لما قال: «العقل لا يطلق لسانه، إلاّ بعد مشاورة الرواية ومؤامرة الفكرة»^(٣). أما قوله في وصف قلب الجاهل: «كلما هم بكلام، تكلّم به»، فهو أيضاً كشرح الرضي على لسان الأحمق، حيث قال: «والأحمق تسبق حذقات لسانه وفلتات كلامه مراجعة فكره»^(٤).

ومثلما هو معروف لدى الجميع من أنّ أمير المؤمنين عليه السلام هو من سادات العباد على مدى الدهر، إذ كان عليه خبيراً بالعبادة، وأوقاتها، وطرقها، ومركز ثقلها وإنطلاقها وهو القلب، ولذا أعطانا منها جاً متميّزاً في هذا المجال، فقال:

(١) نهج البلاغة . ٥٥٩

(٢) أداب الحسن البصري . ٤٣

(٣) نهج البلاغة . ٥٥٩

(٤) م. ن. ٥٥٩

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواضع الحسن البصري ٢٢٩

«إِنَّ لِلْقُلُوبِ شَهْوَةً وَإِقْبَالًا وَإِدْبَارًا فَأَتُوهَا مِنْ قِبَلِ شَهْوَتِهَا وَإِقْبَالِهَا فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِيَ»^(١).

قصد الليلة بِإقبال القلب ميله، وبِإدباره نفوره^(٢).

ورد هذا المعنى في موعظةٍ للبصري قال فيها: «إِنَّ الدِّينَ قَوِيٌّ، وَإِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ، وَإِنَّ الْإِنْسَانَ ضَعِيفٌ، فَلِيَأْخُذْ أَحْدُوكُمْ مَا يُطِيقُ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَلَّفَ نَفْسَهُ مِنَ الْعَمَلِ فَوْقَ طاقَتِهَا، خَافَ عَلَيْهَا السَّامَةُ وَالرَّكْ»^(٣).

فقول الإمام الليلة لما أمر بممارسة الفعل بشهوة وإقبال من القلب:

«فَأَتُوهَا مِنْ قِبَلِ شَهْوَتِهَا وَإِقْبَالِهَا».

نجد معناه في قول البصري «فَلِيَأْخُذْ أَحْدُوكُمْ مَا يُطِيقُ» بمعنى لا يجبر نفسه ولا يكرهها، لأنَّ هذا الإكراه، ومثلاً قال البصري أيضًا: «فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَلَّفَ نَفْسَهُ مِنَ الْعَمَلِ فَوْقَ طاقَتِهَا، خَافَ عَلَيْهَا السَّامَةُ وَالرَّكْ» وهذا بسط لكلام الإمام الليلة:

«فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِيَ».

وتجدر الإشارة إلى أنَّ الإمام الليلة أفتتح حكمته بـ «إِنَّ» التوكيدية محذراً من أنَّ إكراه القلب في حالة إدباره يولد العمى للقلب. والبصري أيضًا رغب في توكيد هذا المعنى، ولكنه اعتمد كثيراً على التوكيد بـ «إِنَّ» وذلك لما جعل موعظته مقسمة على خمسة فقرات، أربعة منها وَكَدَها بـ «إِنَّ»، وواحدة بـ «لَام الْأَمْرِ».

(١) م. ن. ٥٨٦.

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٥ / ٤٤٩.

(٣) آداب الحسن البصري ٥٣.

وفي الحالتين - إقبال القلب وإدباره - نجد أمير المؤمنين عليه السلام قد قدم القلب على الرغم من إنّه في الموضع الأول يستحق التأثير، وذلك لأنّ القلب هو مركز الثقل، وهو محرك الجوارح، فإذا اشتهر القلب وأقبل، أقبل وهو يقود الجوارح، وبإدباره تدبر الجوارح.

وقال الإمام عليه السلام:

«أَئِنَّا لَنَّاسٌ... إِنَّهُ مَنْ وُسَّعَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ فَلَمْ يَرَ ذَلِكَ إِسْتِدْرَاجًا فَقَدْ أَمِنَ حُخْوَفًا وَمَنْ ضُبِّقَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ فَلَمْ يَرَ ذَلِكَ إِخْتِبَارًا فَقَدْ ضَبَّعَ مَأْمُولاً»^(١).

الإستدراج هو الأخذ على فجأة^(٢). وفي الحكمة بين عليه السلام إنّ مَنْ أَنْعَمَ الله عليه ولم يكن من ذلك على وجل فقد «أَمِنَ حُخْوَفًا»، لأنّ هذه النعم قد تكون من باب الإبتلاء الذي يجبر مَنْ يفشل فيه إلى البلاء. وإنّ مَنْ ضُبِّقَ عليه الله - سبحانه - في «ذات يده» أي أصبح فقيراً، ولم يواجه هذا الأمر بالصبر والشكراً فقد ضُبِّقَ «اخْتِبَارًا» كان «مَأْمُولاً» لفتح أبواب النعم. وهدف الإمام (صلوات الله عليه) من هذا هو جعل العبد في حالة شكر دائم لرب العزة، سواء في أيام الرخاء، أو الأيام التي تكون فيها حلقة البلاء دائرة؛ فإذا كان المرء هكذا أَمِنَ سَلْبَ النعم «الاستدراج»، وضمن الزيادة، لأنّ لكل شيء في الحياة قانون، وقانون الزيادة الشكر.

أخذ البصري هذه الحكمة بشقيّها، فقال: «وَاللهِ مَا أَحَدُ مِنَ النَّاسِ بُسِطَ لَهُ فِي أَمْرٍ مِنْ أَمْورِ دُنْيَاكَ، فَلَمْ يَنْفُ أنْ يَكُونَ ذَلِكَ مَكْرَأً بِهِ، وَاسْتِدْرَاجًا لَهُ، إِلَّا نَقْصٌ ذَلِكَ مِنْ عَمَلِهِ، وَدِينِهِ، وَعَقْلِهِ، وَلَا أَحَدُ أَمْسَكَ اللَّهَ الدُّنْيَا عَنْهُ، وَلَمْ يَرَ أَنَّ ذَكَ خَيْرٌ

(١) نهج البلاغة ٦١٥ - ٦١٦.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن ميثم / ٥ ٤٥٨.

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواضع الحسن البصري ٢٣١
له، إلا نقص ذلك من عمله، وبيان العجز في رأيه»^(١).

فواضح إنّ البصري حور شكلياً في كلام أمير المؤمنين عليه السلام عن الإستدراج، فمثلاً أبدل قول الإمام عليه السلام:

«إنه من وسع عليه في ذات يده بـ «بسط له في أمر من أمور دنياه». وكذلك قوله: «فلم يخف أن يكون ذلك مكرًا به، واستدراجاً له» فهو كقول الإمام عليه السلام:

«فَلَمْ يَرِدْ ذَلِكَ إِسْتِدْرَاجًا فَقَدْ أَمِنَ تَحْوِفًا».

أما موطن التوسيع فيكون فيما عدد البصري من نصوص حاصل نتيجة عدم الوجل من النعم إذا تابعت، وذلك لما قال: «إلا نقص ذلك من عمله، ودينه، وعقله». والشقّ الثاني في موضعية البصري هو كالأول بالنسبة للحكمة العلوية، فقد أخذ باقيها بمعناه وزاد عليها بسطاً في القول أيضًا.

وكتب الإمام علي عليه السلام رساله إلى محمد بن أبي بكر، منها:

«...فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ نَصِيبِكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَنْتَ إِلَى نَصِيبِكَ مِنَ الْآخِرَةِ أَحْوَجَ...»^(٢).

ضمن البصري هذا المقطع من الرسالة، وزاد عليه، فقال: «ابن آدم! لا غنا عن نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر، فعليك به، فإنه سيأتي بك إلى نصيبك من الدنيا، فينظمه لك نظماً يزول معك حيث تزول»^(٣).

(١) أدب الحسن البصري ٦٥.

(٢) الغارات ٢٢٩، وينظر: المصنف ٨ / ١٨٥.

(٣) أدب الحسن البصري ٧٢.

وفي حكمة له أُعطي من خالها منهاجاً مستقىً لـ قائد ينشد القيادة
الصحيحة والمؤثرة، فقال:

«مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً، فَعَلَيْهِ أَنْ يَبْدَأَ فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ
غَيْرِهِ، وَلَيْكُنْ تَأْدِيهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيهِ بِلِسَانِهِ»^(١).

أخذ البصري هذه الحكمة، فقدّم وأخر بين فقراتها، وبسط القول على بعضها،
قال: «الواعظُ مَنْ وعظَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ، لا بِقَوْلِهِ. وَكَانَ ذَلِكَ شَانِهِ إِذَا أَرَادَ أَنْ
يَأْمُرَ بِشَيْءٍ، بَدَا بِنَفْسِهِ فَفَعَلَهُ، وَإِذَا أَرَادَ يَنْهَا عَنْ شَيْءٍ، انتَهَى عَنْهُ»^(٢).

فآخر حكمة الإمام علي عليه السلام:

«وَلَيْكُنْ تَأْدِيهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيهِ بِلِسَانِهِ».

جعله البصري أولًا لما قال: «الواعظُ مَنْ وعظَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ، لا بِقَوْلِهِ».

وأول حكمة الإمام لما أمر مَنْ سَمَاهُ بالإمام:

«بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ».

جعله البصري ثانية - وفيه تكمّن الزيادة - لما قال: «وَكَانَ ذَلِكَ إِلَى آخِر
قَوْلِهِ».

وقد بين الإمام علي عليه السلام في إحدى حكمه إنَّ الإِنْسَانَ مُخلوقٌ ضعيفٌ، يتهاوى
أمام أضعف المخلوقات الآخر، ويموت بأبسط العوارض والأحداث، وهو
في هذا لا يدرى من أين تأتيه العلل والأمراض، ومتى يأتيه أجله، فقال:
«مِسْكِينٌ أَبْنُ آدَمَ مَكْتُومٌ أَلَاجِلٌ مَكْنُونٌ الْعِلَلٌ مَحْفُوظٌ الْعَمَلٌ تُؤْلِمُ الْبَقَةَ وَتَقْتُلُهُ

(١) نهج البلاغة ٥٦٢

(٢) أداب الحسن البصري ١١٩

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواضع الحسن البصري ٢٣٣
الشّرفةُ وَ تُنْتَهِيُ الْعَرْفَةُ»^(١).

ضمن البصري هذه الحكمة مع زيادة عليها، فقال: «مسكين ابن آدم! ما أضعفه! مكتوم العليل، مكتوم الأجل، تؤديه البقة، وتقتله الشرفة، يرحل كل يوم إلى الآخرة مرحلةً، ويقطع من الدنيا منزلةً، وربما طغى وتكبر، وظلم وتجبر»^(٢).

وتحت أمير المؤمنين عليهما السلام على العمل الصالح في إحدى خطبه، فقال:
«رَحْمَ اللَّهُ عَبْدًا... إِغْنَمَ الْمُهَلَّ وَبَادَرَ الْأَجَلَ...»^(٣).

وردت موعظة للبصري قوامها كلام الإمام عليهما السلام، جاء فيها: «أيُّها النّاسُ! اغتنموا الصّحةَ والفراغ، وبادروا بالأعمالِ من قبلِ يومٍ تشخصُ فيه القلوبُ والأبصار»^(٤).

فقوله: «اغتنموا الصّحةَ والفراغ» يمكن أن يكون بسطاً لجملة الإمام عليهما السلام «إِغْنَمَ الْمُهَلَّ» ولكن مع زيادة البصري هذه فإنَّ دلالته «المهل» تبقى أوسع مما عدد البصري. أما باقي قوله فبسط لجملة الإمام «بادرَ الأجل».

وقال عليهما السلام:

«مَا عَآلَ مَنِ اقْتَصَدَ»^(٥)، أي ما أفتقر من لزم الاقتصاد.

(١) نهج البلاغة . ٦٢٨

(٢) آداب الحسن البصري . ١٢٧

(٣) نهج البلاغة . ١٠٥

(٤) آداب الحسن البصري . ١٢٧

(٥) نهج البلاغة . ٥٧٧

توسيع البصري على هذه الحكمة قليلاً بقوله: «ما عالَ أحدُّ قط عن قصدِه»^(١).

ثالثاً: الإيجاز:

الإيجاز لغةً من أوجز الشيء إذا اختصره وقلله^(٢).

والإيجاز في الإصطلاح: هو وضع المعاني المقصودة الكثيرة بأقل عبارة^(٣).

استعمل البصري هذا المظهر مع كلام الإمام علي عليه السلام، حيث أورد عدداً واسعاً من حكم الإمام، وبعض فقرات من خطبه ورسائله بشكل موجز، ففي خطبة أمير المؤمنين عليه السلام المسماة بالغراء، وبعد أن ضرب الأمثال، وأوصى بالتقوى، ونفر من الدنيا، وأكّد على حتمية الموت، فقال:

«... فَيَا هَا أَمْثَالًا صَائِبَةً، وَمَوَاعِظَ شَافِيَةً، لَوْ صَادَفْتُ قُلُوبًا زَاكِيَةً، وَأَسْمَاعًا وَاعِيَةً، وَآرَاءً عَازِمَةً، وَأَلْبَابًا حَازِمَةً، فَاتَّقُوا اللَّهَ تَقْيَةً مَنْ سَمِعَ فَخَشَعَ، وَاقْتَرَفَ فَاعْتَرَفَ»^(٤).

فأمير البيان عليه يشيد بأمثاله التي يضر بها، ومواعظه التي يسوقها للناس، لكنه يتاؤه ويتحسّر لقلة من يتقبلها ويتخذها صراطاً يسير عليه. وقد ورد مثل هذا - ولكن بشكل موجز - في موعظة للبصري، قال فيها: «لو أنّ بالقلوب حيّةً، ولو أنّ بها صلحاً، لبكت من ليلةٍ صبيحتها القيامة»^(٥).

(١) البخلاء ١٩٢.

(٢) ينظر: لسان العرب ٥/٤٢٧ مادة (وجز).

(٣) ينظر: التعريفات ٧٤.

(٤) نهج البلاغة ١١٥.

(٥) آداب الحسن البصري ١٢٧.

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواضع الحسن البصري ٢٣٥

ومن كتاب بعثه أمير المؤمنين عليه السلام إلى عبد الله بن عباس، جاء فيه:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّكَ لَسْتَ بِسَابِقِ أَجْلَكَ، وَلَا مَرْزُوقٌ مَا لَيْسَ لَكَ، وَإِعْلَمْ بِأَنَّ
الدَّهْرَ يَوْمَانِ، يَوْمُكَ وَيَوْمُ عَلَيْكَ، وَأَنَّ الدُّنْيَا دَارُ دُولٍ، فَمَا كَانَ مِنْهَا لَكَ أَتَاكَ
عَلَى ضَعْفِكَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَيْكَ لَمْ تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ»^(١).

اعتمد البصري هذا الكتاب بشكل مباشر، ووعظ به قائلاً: «ابن آدم! إنك
لست بسابقِ أجلك، ولا بمغلوبٍ على رزقك، ولا بمرزوقٍ ما ليس لك، فلِمَ
تکدح؟ وعلام تقتل نفسك؟»^(٢).

فواضح إنّ البصري قسم كتاب الإمام عليه السلام على ثلاثة أقسام:

الأول ضمّنه بنصيه، وذلك لما قال: «لست بسابقِ أجلك... ولا بمرزوقٍ ما
ليس لك».

والثاني والذي قال فيه الإمام عليه السلام:

«وَإِعْلَمْ بِأَنَّ الدَّهْرَ يَوْمَانِ، يَوْمُكَ وَيَوْمُ عَلَيْكَ».

فقد حذفه البصري بتمامه.

أما الثالث والمتمثل بقول الإمام عليه السلام:

«وَأَنَّ الدُّنْيَا دَارُ دُولٍ، فَمَا كَانَ مِنْهَا لَكَ أَتَاكَ عَلَى ضَعْفِكَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَيْكَ
لَمْ تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ».

فقد أوجزه البصري بقوله: «فلِمَ تکدح؟ وعلام تقتل نفسك».

(١) نهج البلاغة ٥٤٢.

(٢) آداب الحسن البصري ٥٧.

وفي خطبة له عليه السلام وصف فيها الملاحم، وذم فيها أقواماً، منها قوله:

«وَكَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الزَّمَانِ ذِنَابَاً، وَسَلَاطِينُهُ سِبَاعاً، وَأَوْسَاطُهُ أَكَالاً، وَفُقَرَاؤُهُ أَمْوَاتاً، وَغَارَ الصَّدْقُ، وَفَاضَ الْكَذِبُ، وَأَسْتُعْمِلَتِ الْمُوَدَّةُ بِاللُّسَانِ، وَتَشَاجَرَ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ، وَصَارَ الْفُسُوقُ نَسَباً، وَالْعَفَافُ عَجَباً، وَلِبْسُ الْإِسْلَامُ لُبْسَ الْفَرْوَ مَقْلُوباً»^(١).

فكأنّ البصري وظّفَ بعض فقرات المقطع العلوي المذكور لما ذمَّ بعض الفئات من الناس، وذلك في قوله: «إذا أظهرَ النَّاسُ الْعِلْمَ، وضيّعوا الْعَمَلَ، وتحابُّوا بِاللُّسُونِ، وتباغضُوا بِالْقُلُوبِ، وتقاطعوا في الأرحام، لعنُهم الله - جلَّ ثناوه -، فأصمُّهم وأعمى أبصارهم»^(٢).

فعبارة البصري: «وتحابُّوا بِاللُّسُونِ» إيجاز بعض الشيء لعبارة الإمام عليه السلام:

«وَأَسْتُعْمِلَتِ الْمُوَدَّةُ بِاللُّسَانِ».

وعبارته: «وتbagضوا بالقلوب» إيجاز لعبارة الإمام عليه السلام:

«وَتَشَاجَرَ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ».

وكتب الإمام علي عليه السلام كتاباً إلى عامل له بعثه على الصدقة، جاء في بعضه:
 «أَمْرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ... أَمْرَهُ أَلَا يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِّنْ طَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا ظَاهَرَ فِي حَالِفَ إِلَيْهِ فِيمَا أَسْرَرَ، وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سُرُّهُ، وَعَلَانِيَّتُهُ، وَفِعْلُهُ، وَمَقَالَتُهُ فَقَدْ أَدَى الْأَمَانَةَ، وَأَخْلَصَ الْعِبَادَةَ»^(٣).

(١) نهج البلاغة ١٨١.

(٢) آداب الحسن البصري ٥٩.

(٣) نهج البلاغة ٤٤٦.

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواضع الحسن البصري ٢٣٧
 فهو يأمر عامله بإصلاح قوله و فعله، و ظاهره وباطنه معًا، ففي ذلك خالص العبادة، و صون الأمانة.

ورد هذا المعنى، وبعض ألفاظه بشكل موجز في حكمه للحسن البصري، قال فيها: «المؤمن صدق قوله فعله، وسرّه علانيته»^(١).

ومثلما هو واضح فقد قدّم وأخر البصري في طباقات الإمام «سره - علانيته»، «فعله - مقالته»، وأوردها بتمامها

وقد رُوي لـ صدر أمر نفي الصحابي أبي ذر الغفارى إلى قرية الربذة، شيعه أمير المؤمنين وولداه الحسانان عليهم السلام، وعقيل، وعمار بن ياسر، وعندها تكلم كل منهما بكلام^(٢) غايتها التهoin على أبي ذر من ظلامة النفي، وحمله على التصبر، فكان أولهم خطاباً أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال كلاماً من أروع كلامه منه:

«يَا أَبَا ذِرٍ إِنَّكَ عَصِبْتَ لِهِ فَأَرْجُ مَنْ عَصِبْتَ لَهُ إِنَّ الْقَوْمَ حَافُوكَ عَلَى دُنْيَا هُمْ، وَخِفْتُهُمْ عَلَى دِينِكَ فَأَنْرُكَ فِي أَيْدِيهِمْ مَا حَافُوكَ عَلَيْهِ، وَأَهْرُبْ مِنْهُمْ بِمَا خِفْتُهُمْ عَلَيْهِ، فَمَا أَحَوْجَهُمْ إِلَى مَا مَنَعْتُهُمْ، وَمَا أَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعْوَكَ»^(٣).

قال البصري موعظة موجزة لـها بعض كلام الإمام عليه السلام، جاء فيها: «مَنْ نافسكَ في دينك فنافسه، ومن نافسك في دُنياك، فألقها في نحره»^(٤).

قول أمير المؤمنين عليه السلام:

(١) آداب الحسن البصري ٦١.

(٢) ينظر عما قالوه: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ٨ . ٣٧٣

(٣) نهج البلاغة . ٢١٦

(٤) آداب الحسن البصري ٦٨.

«إِنَّ الْقَوْمَ حَافُوكَ عَلَى دُنْيَاهُمْ، فَاتُرُكٌ فِي أَيْدِيهِمْ مَا حَافُوكَ عَلَيْهِ».

نرى البصري أوجزه بقوله: «ومن نافسك في دُنياك، فألقها في نحره».

أما الجناس الناقص في خطبة الإمام عليه السلام المتمثل بين لفظتي «دنياهم» و«دِينك»، أبقةا البصري على حاله لما قال: «دِينك» و«دُنياك».

وبالنسبة لورود التكرار الواضح في النص العلوي من نحو تكرار لفظ الخوف ومشتقاته أربع مرات، اعتمد البصري أيضاً، فقد كرر لفظ المنافسة ومشتقاته ثلاثة مرات، فضلاً عن تكرارات أخرى بين النصين.

وكثيراً ما كان أمير المؤمنين عليه يصف نفسه، وزهده في الدنيا، فقال في إحدى خطبه:

«وَاللَّهُ لَقَدْ رَقَعْتُ مِدْرَعَتِي هَذِهِ حَتَّى إِسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعَهَا، وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ أَلَا تَنِذُّهَا عَنْكَ، فَقُلْتُ: أُغْرِبُ (أُغْرِبُ) عَنِّي فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمَ الْأَسْرَى»^(١).

فوصف الإمام عليه حاله من الزهد نتلمس بعضه في حكمته للبصري وصف فيها أشخاصا لم يسمّهم، منها قوله: «أدركت أقواماً... كان أحدهم يعيش دهره لم يجدد له ثوب... ولا يجعل بينه وبين الأرض ستر»^(٢).

فنرى أنّ وصف البصري هذا ينطبق فيما ينطبق على أمير المؤمنين عليه فقوله: «يعيش دهره لم يجدد له ثوب» كأنه إيجاز لكلام الإمام لما قال إنّه لم يبدل ثوبه، بل كان يرقعه كثيراً، ومن كثرة ترقعه بدأ يستحيي من راقعه.

(١) نهج البلاغة ٢٦٣.

(٢) أداب الحسن البصري ٦٨.

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواضع الحسن البصري ٢٣٩

وليس هذا فقط، بل إنَّ أمير المؤمنين عليه السلام يعد مصداقاً بيناً من مصاديق قول البصري: «لا يجعل بينه وبين الأرض ستر»، إذ كان الأول يحبَّ مباشرة التراب، حتى سُميَّ بأبي تراب.

وممَّا وردَ في عهد الإمام علي عليه السلام مالك الأشتر قوله:

«فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضِيقِ أَمْرٍ تَرْجُو إِنْفَرَاجَهُ، وَفَضْلَ عَاقِبَتِهِ خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخَافُ تَبِعَتَهُ، وَأَنَّ تُحِيطَ بِكَ مِنَ الْهَمِ طَلْبَهُ لَا تَسْتَقِيلُ (تَسْتَقِيلُ) فِيهَا دُنْيَاكَ وَلَا آخرَتَكَ»^(١).

فتفضيل أمير المؤمنين عليه السلام ضيق أمرٍ مع رجاء انفراجة، على آخر مجھولة تبعته، وربما قد تكون مخيفة، تخسر الدنيا والآخرة، فضلاً عن تركيب النص المتكون من مقطعين، يفصل بينهما فعل التفضيل «خير»، نجده في موعظةٍ موجزة للبصري، قال فيها: «إِنَّ خَوْفَكَ حَتَّى تلقى الْأَمْنَ؛ خَيْرٌ مِنْ أَمْنِكَ حَتَّى تلقى الْخُوفَ»^(٢).

وفي إحدى حكمه قال الإمام عليه السلام:

«إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ، فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ (الْحِكَمِ)»^(٣).

ولما كان انصراف القلب عن العلم وملاله منه فعلاً غير محمود أمر (صلوات الله عليه) بطلب طرائف الحكم المعجبة للنفس، اللذيدة لها، لتكون هذه النفوس أبداً في اكتساب العلم والحكمة^(٤).

(١) نهج البلاغة .٥١٩

(٢) آداب الحسن البصري .٣٥

(٣) نهج البلاغة .٥٦٦

(٤) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم /٥ .٤١٨

أخذ البصري معنى الحكمة وأوجزه، فقال: «حادثوا هذه القلوب؛ فإنها سريعة الدثور»^(١).

وفي حكمة أخرى قال عليه السلام:

«أَحِبْ حَبِيبَكَ هُونَاً مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيَضَكَ يَوْمًا، وَأَبْغِضْ بَغِيَضَكَ هُونَاً مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا»^(٢).

وخلاصة معنى الحكمة: «كل حبيب جاز أن يكون عدواً في وقت ما فينبغي أن لا يفرط في محبته. وكل عدو جاز أن يكون صديقاً يوماً ما فينبغي أن لا يفرط في بغضه»^(٣).

أخذ البصري هذه وأوجز بعضها، فقال: «أحبوا هوناً، وأبغضوا هوناً، فقد أفرط أقوام في حبّ أقوام فهلوكوا، وأفرط أقوام في بغض أقوام فهلوكوا، لا تفرط في حبك، ولا تفرط في بغضك»^(٤).

فقوله: «أحبوا هوناً» إيجاز لقول الإمام:

«أَحِبْ حَبِيبَكَ هُونَاً مَا».

وقوله: «وأبغضوا هوناً» إيجاز لقول الإمام:

«وَأَبْغِضْ بَغِيَضَكَ هُونَاً مَا».

وهنا أيضاً جنح البصري إلى التكرار الذي لا طائل منه، فقد كرر قوله:

(١) آداب الحسن البصري . ١٣٠

(٢) نهج البلاغة . ٦٠٢

(٣) شرح نهج البلاغة لابن ميثم . ٤٦٥ / ٥

(٤) المصنف . ١٨١ / ١١

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواضع الحسن البصري ٢٤١
«أحبوا هونا» لما قال: «لا تفرط في حبك». وكذلك كرر قوله: «وأبغضوا هونا»
لما قال: «لا تفرط في بغضك».

رابعاً: العكس:

العكس لغةً: من «عكس الشيء يعكسه عكساً، فانعكسَ رد آخره على
أوله»^(١).

وفي الاصطلاح: أن يجعل الأديب مكان اللفظة لفظة ضدّها^(٢). وهذا يعني
إنَّ العكس لا يقتصر على المعنى فحسب، بل يشمل اللفظة^(٣). وسواءً عكس
اللفظ، أم المعنى لم يرد عند البصري إلا ضئيلاً، ولعل السبب في ذلك عائد إلى
أنَّ هذا المظهر يتطلب من الأديب التأثر أن يكُد ذهنه، ويحيل نظره، حتى يغير
جذريًّا في المعنى المأخذوذ من خلال عكسه، بينما البصري - ومثلما بان سلفًا - لم
يتبع هذا الإسلوب، أسلوب التغيير العميق مع كلام الإمام عليه السلام، بل ما أجراه
تغيرات في غالبيتها شكليّة.

وعلى أية حال فإنَّ من حكم الإمام عليه السلام التي تعامل معها البصري بهذه الطريقة
قوله عليه السلام:

«قل العيال أحد اليسارين»^(٤).

واليساران هنا هما: الحصول على المال أولاً، وعدم إنفاقه على العيال لقلتهم

(١) لسان العرب ٦ / ١٤٤ مادة (عكس).

(٢) ينظر: العمدة ٢ / ٢٨٢.

(٣) ينظر: مصطلحات السرقة الأدبية ١٢٧.

(٤) نهج البلاغة ٥٧٧.

٢٤٢ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في التأثير على النشر العربي

ثانياً، وإطلاق اليسار على قلة العيال مجاز، حيث أطلق المسبب وأراد السبب^(١). عكس الحسن البصري أفالاً من الحكمة، فقال "جهد البلاء... كثرة العيال"^(٢).

فأول ما فعله البصري مع الحكمة العلوية هو التقديم والتأخير، حيث قدم النتيجة، وأخر سببها، فالنتيجة هي الجهد والمشقة، وسببها عند البصري كثرة العيال، ثم عكس «قلة العيال» لما قال «كثرة العيال». وبما أنه عكس السبب المؤخر - لذا عكس النتيجة - المقدمة - لما عد كثرة العيال «جهد»، وهذا هو عكس لليسار في حكمة الإمام علي عليه السلام.

أما حكمة الإمام علي عليه السلام التي تقول:

«أركان الكفر أربعة: الرغبة، والرهبة، والسخط، والغصب»^(٣).

فقد ضمنها البصري، مع شيء من العكس لما قال: «من كانت له أربع خلال حرم الله على النار، وأعاده من الشيطان: من يملك نفسه عند الرغبة، والرهبة، وعنده الشهوة، وعنده الغصب»^(٤).

فالـ «أركان» بحسب تعبير الإمام، والـ «خلاف» بحسب تعبير البصري هي واحدة بين النصين، إلا الثالثة، حيث أبدل «السخط» بـ «الشهوة». لكن الأركان تؤدي عند الإمام إلى «الكفر»، والكفر يؤدي إلى النار، بينما البصري عكس هذا لما

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم / ٥ / ٤٣٦.

(٢) آداب الحسن البصري / ٥١.

(٣) تحف العقول / ٢٠٧.

(٤) حلية الأولياء / ٢ / ١٤٥.

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواضع الحسن البصري ٢٤٣

عَدَّ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ وَيَزْلُفُهَا عَنْ هَذِهِ الْخَلَالِ مُحَرّمٌ عَلَى النَّارِ. وَبِعِبَارَةِ أُخْرَى فَالَّذِي يُبَاشِرُ هَذِهِ الْأَرْكَانَ وَتُدْخِلُهُ مُبَاشِرَتُهَا النَّارُ، عَكْسٌ مِنْ يَمْتَنِعُ عَنْهَا فِي وَرَثِ الْجَنَّةِ.

ولعل من المناسب هنا أن نشير إلى أنَّ هنالك حِكْمَةً علويةً كثيرة ذكرها البصري، وواعظ بها الناس دون أن يشير إلى مبدعها الأول ودون أن يضمنها في كلام له حتى نقول عنها إنَّها تضمين. وأمثلة هذا كثيرة جدًا، فمن حِكْمَةٍ لأمير المؤمنين عليه السلام قال فيها:

«إِنَّ لِأَهْلِ الدِّينِ عَلَامَاتٍ يَعْرَفُونَ بِهَا: صَدْقُ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ، وَوَفَاءُ بِالْعَهْدِ، وَصَلَةُ لِلأَرْحَامِ، وَرَحْمَةُ الْمُضْفَاءِ، وَقَلَةُ مَوَاتَاهُ لِلنِّسَاءِ، وَبَذْلُ الْمَعْرُوفِ وَحَسْنُ الْخَلْقِ وَسُعَةُ الْحَلْمِ وَأَتِبَاعُ الْعِلْمِ وَمَا يَقْرُبُ مِنَ اللَّهِ زَلْفِي، فَطَوْبَى لَهُمْ وَحْسَنُ مَآبٍ»^(١).

وعظ البصري بهذه الحِكْمة، فقال: «إِنَّ لِأَهْلِ الْخَيْرِ عَلَامَةً يَعْرَفُونَ بِهَا: صَدْقُ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ، وَالْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ...»^(٢).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في حِكْمَةٍ أخرى:

«مَنْ أَطَالَ الْأَمْلَ أَسَاءَ الْعَمَلَ»^(٣).

روي أنَّ البصري كان يعظ بهذه الحِكْمة، فيقول: «ما أطَالَ عَبْدُ الْأَمْلَ إِلَّا أَسَاءَ الْعَمَل»^(٤).

(١) تحف العقول ٢٣٧ . وهناك من يروي هذه الحِكْمة عن النبي الأكرم عليه السلام، ينظر: الكافي ٢ / ٢٨٩ .

(٢) آداب الحسن البصري ٣٧ - ٣٨ .

(٣) نهج البلاغة ٥٥٨ . وينظر: مناقب الخوارزمي ٣٧٧ .

(٤) آداب الحسن البصري ٤٥ .

ولما قيل للبصري ما تقول يا أبا سعيد في الدنيا؟ فأجاب: «وما عسى أن أقول في دار حلالها حساب، وحرامها عقاب؟ فقال له الرجل: تالله ما رأيت كلاماً أوجز من كلامك، فقال الحسن: بل كلام عمر بن عبد العزيز أوجز وأبلغ من كلامي...»^(١).

وفي الحقيقة ليس وصف الدنيا هذا للبصري، بل ما هو إلا جزءاً من خطبة أمير المؤمنين عليه السلام التي تقول:

«مَا أَصِفُّ مِنْ دَارِ أَوَّلُهَا عَنَاءُ، وَآخِرُهَا فَنَاءُ، فِي حَلَالِهَا حِسَابُ، وَفِي حَرَامِهَا عِقَابُ، مَنِ اسْتَغْنَى فِيهَا فُتْنَةً، وَمَنِ افْتَقَرَ فِيهَا حَزْنَةً، وَمَنْ سَاعَاهَا فَاتَّهُ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَّهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ بَهَا بَصَرَ تُهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتُهُ»^(٢).

روي عن البصري أنه كان يقول: «من أيقن بالخلف جاد بالعطية»^(٣).

وهذه هي حكمة علوية بتمامها: «من أيقن بالخلف جاد بالعطية»^(٤).
وعظ البصري، فقال: «إنَّ فضل الفعال على الكلام مكرمة، وإنَّ فضل الكلام على الفعل عار»^(٥).

وهنا غير البصري طفيفاً في حكمة الإمام علي عليه السلام:

«إنَّ فضل القول على الفعل هُجنةٌ وإنَّ فضل الفعل على القول لجمالٍ

(١) آداب الحسن البصري ٧٦.

(٢) نهج البلاغة ١٠٩ . وينظر: كنز الفوائد ١٦٠ .

(٣) حياة الحسن البصري ١٢٥ .

(٤) نهج البلاغة ١٣٨ .

(٥) حياة الحسن البصري ١٤٤ .

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواضع الحسن البصري ٢٤٥
وزينَةٌ^(١).

والقائمة تطول وتطول جدًا بهذه الأمثال، ولكن لا ينبغي أن يحدث هذا، فهو أمرٌ مجانب للإنصاف، وبخاصة إذا عرفنا أنَّ البصري عندما كان يورد حكم الرسول الكريم محمد^ﷺ كان يذكر اسم الرسول، وهكذا كان يذكر أسماء الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل عندما يعظ بمواعظهم الناس، إلَّا الإمام علي^{عليه السلام} فلم يذكره البصري - على الرغم من أنَّه لعدِّ لا يُحصى من حكمه ومواعظه^{عليه السلام} - ولا مرَّة واحدة، إلَّا بتلميح واحد فقط - هذه النتائج بحسب قراءة الباحث في نتاجات البصري الأدبية - حيث قال البصري: «روي عن بعض الصالحين أَنَّه كان يقول: أَفْضُلُ الزُّهْدِ إِخْفَاءُ الزُّهْدِ»^(٢).

وهذه هي حكمة علوية بنصّها^(٣).

وتجدر الإشارة إلى أنَّ هذا الأمر - أي عدم ذكره اسم من تأثر به، ووضعه بكلامه - له منبت في اعترافات البصري الشخصية، فعندما كان يُسأل عن صاحب الحكم التي يستشهد بها يغضب ويرفض الإجابة عن هذا السؤال، وهذا ما عرفنا طرفاً منه في توطئة هذا الفصل.

ولكنَّ الآن عرفنا إنها تعود لحكيم الإسلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب^{عليه السلام}، ذلك الشخص الذي وقع المتذبذبون في حيرة من أمرهم تجاهه، فهم من جهةٍ لا يستطيعون ذكر اسمه، لأنَّهم في ركب أعدائه، ومن جهة أخرى معاكسة لا يستطيعون الاستغناء عن كلامه الرفيع.

(١) غرر الحكم ودرر الكلم . ٢٣٣

(٢) م. ن . ١٧٠

(٣) ينظر نهج البلاغة ٥٥٤ . وينظر: دستور معالم الحكم . ٢٠

وبعد أن عرفنا تفصيلاً عمق أثر كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في أدب الحسن البصري كان من الجدير أن نشير هنا أيضاً إلى أنَّ الآراء التي عللت ثقافة البصري الأدبية لم يقصد منها إلاً رأيُ واحد، وهو رأي الشريف المرتضى، حين عدَّ جميع أو جُلَّ كلام البصري مأخوذاً من كلام أمير المؤمنين عليه السلام. أمَّا الآراء التي عاكست هذا الرأي، فهي عاكست الصواب أيضاً، من نحو قول الجاحظ: «فَأَمَّا الخطُبُ فَإِنَّا لَا نعْلَمُ أَحَدًا يَتَقدِّمُ الْحَسْنَ الْبَصْرِيَ فِيهَا»^(١). وهذا الكلام تعوزه الدقة، كون جميع خطب ورسائل ومواعظ البصري جاءت تقليداً صارخاً - بكلِّ ما تعنيه الكلمة من معنى - لكلام أمير المؤمنين عليه السلام. إذَا فكيف الجاحظ - وهو الخبير في التراث العربي الأدبي - لا يعلم أحداً يفوق البصري في هذا المجال؟

ورأى الجاحظ هذا هو الغالب، بل الساحق في أدبنا الحديث، فمثلاً الدكتور شوقي ضيف عدَّ البصري "بلا ريب أكبر من ثبتوا في هذا العصر - أي الأموي - ذلك الأسلوب المونق الذي تأثر به عبد الحميد ومن خلفوه من الكتاب"^(٢). وكان للبصري إسلوباً خاصاً وطابعاً متميزاً في نظر كلِّ من طه حسين، وإحسان النص^(٣).

أمَّا من حيث الأسلوب، فبعد مقارنة كلام البصري بكلام أمير المؤمنين عليه السلام يثبت للبصري أسلوب ممِيزٍ قط، بل أسلوبه الموصوف بالمونق والقائم على "الطبق والتوصير"^(٤)، ثبت أنَّه ورثه عن أمير المؤمنين عليه السلام، وقلَّده فيه تقليداً

(١) البيان والتبيين ١ / ٢٠٧.

(٢) تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) ٤٥٠.

(٣) ينظر: من حديث الشعر والترجمة ٢٦ - ٢٧، وينظر: الخطابة العربية في عصرها الذهبي ٣٥٤.

(٤) تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) ٤٥٠.

الفصل الثاني: المبحث الرابع: أثر كلام الإمام علي في مواضع الحسن البصري ٢٤٧

صارخاً. ويستشفُّ أيضًا من كلام الدكتور شوقي ضيف أنه أراد أن يقول: إنَّ عبد الحميد تأثر بالحسن البصري، وهذا لا يمكن أن يقبل بحال من الأحوال، لأنَّ الحسن البصري هو متأثِّرًا أكثر بكثير من كونه مؤثِّرًا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا النقاد قالوا بتأثير عبد الحميد بالبصري، ولا عبد الحميد قال بذلك، بل إنَّ اعتراف الآخرين كان صريحةً عندما سُئل ما الذي خرَّجك في البلاغة قال: «بعد أن حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع قال الشعالي: يعني أمير المؤمنين»^(١). وليت الوقت أمهلنا لندوَّن ما استخر جناه من تأثيرات عبد الحميد الهائلة بكلام أمير المؤمنين لللهِ عزَّ وجلَّ.

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ١ / ١٨٩.



الفصل الثالث

أثر كلام الإمام علي عليه السلام

في نثر ابن المقفع

توطئة

قلما تجد كتاباً عنى بالتراث العربي الفني ومدارسه وأصوله ومن أبدع فيه دونها تجد شهيته مفتوحة أمام هذا المنشئ الذي احتمم الصراع حول دياناته، وموارد ثقافته، ومنزلته الأدبية، ولذا لا أراني بحاجة إلى التوسع في تلك الآراء، إلا بما يخدم البحث، ويوضح ما يذهب إليه الباحث.

وإجمالاً هو أبو عمرو روزبه بن داذويه قبل الإسلام، فلما اسلم سمي عبد الله وكني بأبي محمد وكان في نهاية الفصاحة والبلاغة^(١). ويعد من العشرة المبشرين بالبلاغة بحسب تصنيف ابن النديم^(٢). حصل على نصيبٍ وافرٍ من العلم في البصرة عن طريق الأعراب الذين يفدونها؛ لأنها كانت تمثل كعبة العلم والأدب

(١) خزانة الأدب / ٨ / ١٨٠.

(٢) ينظر: الفهرست ١٨٢.

يومئذ، ومحط أنظار طلّاب العلم، لاسيما وأنّها ضمّت سوق المربد الذي عرف باحتضانه للعلم والعلماء، وقد ضاهى سوق عكاظ الذي عُرِف قبل الإسلام، وبها اتصل بالآهتم المشهورين بالفصاحة^(١).

ومن بعض الرّوايات يُفهم أنَّ ابن المقفع قضى رحمةً من الزمن بالكوفة فقدم ذكر سعيد بن سلم^(٢): «قصدت الكوفة فرأيتُ ابن المقفع فرحب بي وقال: ما تصنع هنا، فقلت: ركبني دين... فقال: أين منزلك؟ فعرّفته. فأتاني في اليوم الثاني... ومعه منديل فوضعه بين يدي، فإذا فيه أسوارة... ودرارهم متفرقة، مقدار أربعة آلاف درهم، وحيثئذ زمان المنصور، وفي الدرارهم ضيق...»^(٣). ومن هذا يعرف إنَّ ابن المقفع كان قبل سعيد بالكوفة، ولهذا رحب به وسألَه عن حاله، ثم أعطاه مكرمةً سخيةً. ولو كان ابن المقفع غريباً على الكوفة، أو ضيفاً مارباً بها لما استطاع أن يفعل ذلك مع الرجل. ولعلَّ أدبينا في رحلته إلى الكوفة اطلع على كلام أمير المؤمنين عليه السلام فتأثرَ به، وحفظَ بعضه. وسواء البصرة أم الكوفة فإنها مصران عربيان تخرجَ فيها ابن المقفع وغدا عربي الثقافة والمنشأ.

أما بالنسبة لديانته فقد عُرِفَ بالتدين من خلال كلامه، وقد رُبِّيَ تربية إسلامية، وأولع بالعلوم والآداب فما بلغ العشرين حتى كان آية من الآيات في الفطنة والذكاء لا يشق له غبار في حسن البيان ومتانة التبيّان^(٤). وإلى هذا ذهب

(١) نظر : دفاتر عياسة ٢٨٦ .

(٢) وهو سعيد بن سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلي، سكن خراسان، وولي بعض أعمالها، وقدم بغداد وحدث بها. كان عالماً بال الحديث والعربية. ينظر: تاريخ بغداد / ٧٤.

. ٢٩ / ١) مُحَاضَّةُ الْأَدِيَاءِ

(٤) نظر : ابن المقفع، حاته، آثار، ١٥، ٤١.

الأستاذ محمد كرد علي فقد أنصف ابن المقفع في هذا المجال لما قال: «لم يخالف الشرع بل خدمه وأحني عليه»^(١). ولا توجد عنده فيما أثر عنه من نصوص نثيرية كلمة واحدة تشعر بزندقتة^(٢). وكيف يكون زنديقاً ويخالف الشرع وهو الذي كانت وصاياته ومواعظه تزخر بالأخلاق والأداب الإسلامية في صغار الأمور وكبارها من نحو قوله: «لا يعجبنَك إكرامُ من يُكرمُك لمنزلةِ أو سلطانٍ، فإنَّ السلطانَ أو شُكُّ أمورِ الدنيا زوالاً». ولا يعجبنَك إكرامُ من يُكرمُك للهَمَّ، فإنه هو الذي يتلو السلطان في سرعةِ الزوال.. ولكن إذا أكرمتَ على دينِ أو مروءةِ فذلك فليعجبك ! فإنَّ المروءة لا تُترايلك في الدنيا. وإنَّ الدينَ لا يُرايلك في الآخرة»^(٣). وخلاصة قوله إنَّ المكرمة إذا جاءت من أجل الدين والمروءة فهي غالبة على كُلِّ المكرمات. واضح من كلامِه إنَّه يؤمن بالآخرة وأنَّ طريقها السليم هو الدين.

ولكن مع هذا ما زال ابن المقفع عند جمهور من الباحثين معلقاً على شماعة الزندقة. والزندة في زمن ابن المقفع - مثلما معروف - أريد بها أهدافاً سياسية أكثر منها دينية، فكانت من التهم الجاهزة التي تُساقُ لمن لا يسوق للسلطان كامل الطاعة. فكان من الذين اتهموه بهذه التهمة الدكتور شوقي ضيف، حيث قال: «ويظهر أنه على الرغم من زندقته كان يبهره جمال القرآن»^(٤).

ولو كان زنديقاً حقاً لنفذ به المنصور الحكم بطريقة علنية لا بطريقة

(١) أمراء البيان ١ / ١٢٣ .

(٢) ينظر: م. ن ١٢٢ .

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٢٤ .

(٤) تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي) ٥٢٣ .

وإلى جانب الزندقة اتهمه حنا الفاخوري بالشعوبية، ولكن شعوبيته هذه المرة «اختذت طريق التشيع، فأظهر مع المولى ميله إلى بنى العباس وإن لم يكن قلبه معهم، وكان علوى السياسة، فارسي التزعّة، يدين بالإسلام ظاهراً لا باطناً، ويأخذ بالتقىة..»^(٢).

وبحسب ما يرى الباحث إنَّ في كلام الفاخوري غموضاً، أو تناقضاً بعض الشيء، إذ كيف كان ابن المفعع غير إسلامي فارسي التزعّة ثمَّ يعمل بالتقىة، والتقىة هي مبدأ إسلامي؟ وعندما أخذ بها ابن المفعع هل أراد تمرير شعوبيته أم تمرير سياسته العلوية؟ وهناك بون شاسع بين الشعوبية وبين السياسة العلوية التي كانت جامعة مانعة ليس فيها تقصير لا في الدين ولا في الدنيا، ثم لا أدري كيف اتفقت هذه الصفات الثلاث (الشعوبية، السياسة العلوية، التقىة) في نصٍّ واحد عند الفاخوري؟

أما رواد ثقافته فعلى الرغم من اختلاف الباحثين حول مصدرها الأهم، إلاَّ أنَّ غالبيتهم قد أرجعوا السواد الأعظم منها إلى الإرث الأدبي الفارسي، وبعد حديثه عن ثقافة ابن المفعع وبخاصة في الأدبين الكبير والصغير قال أحمد أمين: «في الكتابين اثُرٌ كبير من الثقافة الفارسية. وفيها حكم كثيرة من حكم الفرس... وكثيراً ما كان يقول (احفظ قول الحكيم) و (قال الحكيم) و (قالت الحكمة) وهو يقصد حكماء الفرس...»^(٣).

(١) ينظر رسائل البلغاء ١٢.

(٢) الجامع في تاريخ الأدب العربي ١ / ٥٣٤.

(٣) ضحي الإسلام ١ / ٢٠٣.

وبدورنا أن نردّ على مقوله أَحْمَدُ أَمِينٍ في حُكْمِهِ عَلَى ابْنِ الْمَقْفُعِ بِأَنَّهُ أَرَادَ حُكْمَاءَ الْفَرَسِ، فَلِمَاذَا يَقْصِدُ حُكْمَاءَ الْفَرَسِ «حَصْرًا»؟ وَهَلْ الْأَمَةُ الْفَارَسِيَّةُ تَمْتَلِكُ مِنْ الْحُكْمَاءِ مَا فَاقَ حُكْمَاءِنَا عَلَمًاً وَأَدَبًاً وَبِلَاغَةً...؟

وكان الأَجْدَرُ بِالْأَسْتَاذِ وَهُوَ يَتَهَمُّمُ ابْنَ الْمَقْفُعَ بِهَذَا أَنْ يَذْكُرَ الْحُكْمَةَ التِي ضَمَّنَهَا ابْنَ الْمَقْفُعَ، ثُمَّ يَذْكُرُ الْحَكِيمَ الْفَارَسِيَّ الَّذِي أَخْذَتْ عَنْهُ، حَتَّى يَضْمَنْ صَمْودَ رَأْيِهِ عَنْ طَرِيقِ هَكُذا دَلِيلً.

وَعَلَى كُلِّ الْأَحْوَالِ فَذِيلُ كَلَامِ الْمَرْحُومِ لَمْ يَكُنْ دَقِيقًا، لَأَنَّ هُؤُلَاءِ الْحُكْمَاءِ الَّذِينَ تَحَدَّثُ عَنْهُمْ ابْنُ الْمَقْفُعَ، وَاحْتَاجَ إِلَيْهِمْ أَحْمَدُ أَمِينٍ لَمْ يَكُونُوا - بِحَسْبِ نَتَائِجِ الْدَّرْسَةِ - فُوسًا قَطُّ، بَلْ هُمْ إِسْلَامِيُّونَ وَيَتَصَدِّرُهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام.

وَإِلَى جَانِبِ هَذِهِ الْآرَاءِ الَّتِي عَدَّتْ ابْنَ الْمَقْفُعَ فَارِسِيَّ الْثَقَافَةِ، تَوْجِدُ هَنالِكَ آرَاءً فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ أَرْجَعَتْ ثَقَافَةً أَدِيبِنَا الْمَذْكُورَ إِلَى الْإِرْثِ الْأَدْبَرِ الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ، وَبِالتَّحْدِيدِ إِلَى كَلَامِ الْإِمَامِ عليه السلام، فَمِثْلًا الْقَلْقَشَنْدِيُّ كَانَ يَرَى إِنَّ ابْنَ الْمَقْفُعَ مِنْ فَرَسَانِ الْكَلَامِ الَّذِينَ اقْتَفَوْا طَرِيقَةَ الْإِمَامِ عليه السلام فِي الْكِتَابَةِ^(١).

أَمَّا الْمَحْدُثُونَ الَّذِينَ تَحَدَّثُوا عَنْ وَجْدَ رَابِطٍ بَيْنِ ثَقَافَةِ ابْنِ الْمَقْفُعِ وَبَيْنِ كَلَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَمِنْهُمْ يُوسُفُ أَبُو حَلْقَةُ، فَبَعْدَ دراستِهِ وَتَحْلِيلِهِ لِكَلَامِ ابْنِ الْمَقْفُعِ قَالَ: إِنَّهُ يَرَى - أَيِّ ابْنِ الْمَقْفُعِ - فِي كَلَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام الْبَنَاءُ التَّشْرِيُّ الْأَوَّلُ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَلَهُذَا عَمِدَ إِلَى تَفْصِيلِهِ^(٢).

وَقَالَ الدَّكْتُورُ مُحَمَّدُ نَبِيِّهُ حَجَابُ: «إِنَّ ابْنَ الْمَقْفُعَ كَانَ مَشْغُوفًا بِإِسْلَامِيَّ

(١) يَنْظَرُ: صَبَحَ الْأَعْشَى فِي صَنَاعَةِ الْإِنْشَا / ٣٥٣.

(٢) يَنْظَرُ: عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمَقْفُعِ دراسة وَتَحْلِيلٌ ٧.

ومنهم من كان يرى إنّ ابن المقفع تبنّى جانباً من آراء الإمام عليه السلام فقد قال جورج غريب «يتبنّى ابن المقفع رأيَ عليَّ بن أبي طالب، القائل بكون السلطان عماد الناس»^(٢).

وبافي رجالات أدبنا المعاصر الذين تحدّثوا عن هذا الشأن، جاءت آراؤهم على استحياء وتشكّيك، فمثلاً قال محمد كرد علي: «وقيلَ آنَهُ تخرَّجَ في البلاغة بخطبِ عليٍّ بن أبي طالب»^(٣). وما نقله محمد كرد علي لم يرق لحمد كرد علي نفسه بدعوى «قلة المؤثر من تلك الخطب يومئذ»^(٤).

ولا أدرى كيف علم الأستاذ المرحوم بقلة خطب الإمام يومذاك، والمصادر التأريخية تحدّثنا عن المئات منها، والتي كانت محفوظة مدونةً ومشهورة، وعليها تخرج الأدباء، وأقللَّها على الإطلاق ما دونه الشريف الرضي في نهج البلاغة، لأنَّه كان يصطفى من كلام جده اصطفاءً بها يتلاءم وذوقه الأدبي، وهذا ما تطرقنا له في الفصل الأول.

وشبيه ما قاله كرد علي ذهب إليه الدكتور محمد مهدي البصير بقوله: «يرى بعض مؤرّخي الأدب العربي آنَهُ حفظَ القرآن، وقرأ الشعر الجاهلي، وعرف الشيء الكثير من خطب علي بن أبي طالب عليه السلام»^(٥).

(١) بلاغة الكتاب في العصر العباسي ١٣٣ (الخامس).

(٢) عبد الله بن المقفع ٨١.

(٣) أمراء البيان ١ / ١٠٥.

(٤) م. ن. ١ / ١٠٥.

(٥) في الأدب العباسي ٩.

ولكن الدكتور في نفسه شيءٌ من هذا الرأي، لأنَّه رأى من الصعوبة إثباته لعدم وجود دليل من آثار ابن المقفع يُدلُّ على تأثيرِه بالأدب العربي دلالة واضحة^(١).

ورأى الدكتور المرحوم هذا يفتقر إلى الدقة، كون الدراسة تكفلت بكشف عشرات الأدلة التي بيَّنت تأثر ابن المقفع العميق بأحد أهم زعماء الأدب العربي، ألا وهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رض.

ولو عدنا إلى ابن المقفع نفسه، وتوخينا رأيه عن أي راَفِد استقى ثقافته الأدبية، لوجدناه يقرَّ صراحة بتأثُّره تأثُّرًا كبيرًا بآناس لكنَّه لم يسمِّهم، فمثلاً عندما سُئلَ عن هذا الأمر قال: «شربت من الخطب رِيًّا. ولم أضبط لها روِيًّا. ففاضت ثمَّ فاضت. فلا هي نظامًا، ولا نسيتُ غيرها كلامًا»^(٢).

وكلمة خطب هنا فيها دلالة على العروبة، لأنَّ الفرس لم تُنَقلْ لنا عنهم خطبٌ، بل حُكْمٌ ومواعظ هذا من جانب، ومن جانب آخر لو أمعنَّ النظر القارئ معي لوجدنا في كلام صاحبنا ابن المقفع تضمينًا نصيًّا من قول صاحبه المقرب عبد الحميد بن يحيى الكاتب لماً سُئلَ ما الذي خرَّجك في البلاغة فقال: «حفظتُ سبعين خطبةً من خطبِ الأصلع ففاضت ثمَّ فاضت»^(٣). إذًا (ففاضت ثمَّ فاضت) علمنا من أين أخذها ابن المقفع. وهذا الفيضان في بلاغة الرجلين كان وراءه واحد، لكنَّ عبد الحميد صرَّح بذلك وابن المقفع لمَّا له. وهذا بدوره عائدٌ إلى الإستراتيجية التي يتَّبعُها كلُّ من البالغين، فعبد الحميد كان أموي التوجه

(١) ينظر: م. ن. ٩ (الهامش).

(٢) البداية والنهاية ١٠ / ١٠٢. وينظر: وفيات الأعيان ٢ / ١٥١. وينظر: سير أعلام النبلاء ٦ / ٢٠٩. وينظر: تاريخ الإسلام ٩ / ١٩٨.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ٢٨.

في السر والعلن، ورأينا كيف استعمل النبي مع أمير المؤمنين عليهما السلام، ولذا فهو لا يتهيّب من ذكره الإمام عليهما السلام بهذه الغلظة. أمّا ابن المقفع فهو على العكس من ذلك كان على التوجّه «يأخذ بالحقيقة فيما يعمل وفيما يقول، ويُسعي لقلب وجهه الحكم عن طريق العقل والفلسفة... وهذا كله من طلائع الحركة الشيعية... وهكذا نفهم السبب الذي لأجله انتشرت آراء ابن المقفع في كتب رجال التشيع والإسماعيلية من مثل المتنبي، وأبي العلاء المعري وإخوان الصفاء وغيرهم، وهكذا نفهم أيضًا السبب الخفي الذي لأجله اضطهدَ ابن المقفع، وُقتل شرًّا قتلة»^(١).

توجّهَ ابنُ المقفع هذا التوجّه لأنّه «كان ينظر إلى مثل أعلى لم يجده عند الأمويين، كما إنّه لم يقع عليه عند العباسيين. ولكنّه رآهُ أغلب الظن، عند بعض جماعات لم يتسلّموا مقاليد الحكم»^(٢) ولعلّ حديث ابن المقفع «عن السلطة والإمام»^(٣) يبيّن هؤلاء الناس الذين اقتربت بهم المُثل العليا، ولكن يوسف أبو حلقة يرى في حديث ابن المقفع هذا «حديثاً غامضاً...، حتى أنّه ليوقع ابن المقفع في تناقض مقىت. وما ذاك إلا لأنّ ابن المقفع كان يعمدُ إلى اللفّ والدوران خوفاً من الخليفة المتسلّح بالحكم المطلق»^(٤).

والباحث يرى إنّ دراسة نتاج ابن المقفع وعرضه على كلام أمير المؤمنين عليهما السلام هو وحده الذي يتكفل بكشف هذا الغموض.

(١) الجامع في تاريخ الأدب العربي ١ / ٥٣٤.

(٢) عبد الله بن المقفع دراسة وتحليل ٧.

(٣) م. ن. ٢٠.

(٤) م. ن. ٢٠.

أمّا في كتابيه الأدب الكبير والأدب الصغير فقد تحدثَ ابن المقفع مراراً وتكراراً على آنَّه ضمنها حِكماً وأمثالاً ومواضعاً من أنس وصفهم، ووصف كلامهم، وأخلاقهم، ومذهبهم، ودياناتهم، وعلاقتهم بالله تعالى، وبلاغتهم... ولكنَّه مع ذلك - كعادته - لم يسمِّهم، فهو بوصفه «أكثُر أصحابِ المُثل العليا يترك لأبناء الإنسانية أن يقرؤوا ما بين السطور، خوفاً من ظلم بطاش يمنع تأدية الواجب الفكري لأبناء العامل للخير العام»^(١). ففي الأدب الصغير مثلاً قال: «وقد وضعْتُ في هذا الكتاب من كلام الناسِ المحفوظِ حروفاً فيها عونٌ على عمارة القلوبِ وصقالها وتجليةِ أبصارها، وإحياءً للفكرِ وإقامةً للتذكرة، ودليلٌ على محامِد الأمورِ ومكارِمِ الأخلاقِ إن شاء اللهُ»^(٢).

ثم يستمر ابن المقفع واصفاً أولئك الناسَ الّذين أخذ عنهم. وهذه المرة في الأدب الكبير، فقال: «إنا وجدنا الناس قبلنا كانوا أعظم أجساماً، وأوفر مع أجسامهم أحلاماً... فكان صاحبُ الدين منهم أبلغ في أمر الدين علمًا وعملاً من صاحبُ الدين منا، وكان صاحبُ الدنيا على مثل ذلك من البلاغةِ والفضلِ... وبلغَ من اهتمامهم بذلكَ أن الرجلَ منهم يفتحُ له البابُ من العلم»^(٣). وعلى هذا وبعد أن عددَ صفات كثيرة كانت إسلامية، بل لم تجتمع كلّها إلا عند الصفة من الإسلاميين، خلص ابن المقفع إلى نتيجة هي آنَّ «مُنتهى علم عالمنا في هذا الزَّمان، آن يأخذَ من علمِهم، وغايةُ إحسانِ مُحِسِّننا آن يقتدي بسيرتهم. وأحسن ما يصيبُ من الحديثِ محدثُنا آن ينظرَ في كُتبِهم فيكون كائناً إِيَّاهُمْ يحاوِرُ، ومنهم

(١) عبد الله بن المقفع دراسة وتحليل ٧.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٣٢.

(٣) م. ن ٦٣ - ٦٤.

يستمع، وآثارهم يتَّبع ... ولم نجد لهم شيئاً يجُدُّ واصفُ بلِيغُ في صفةٍ له
مقالاً لم يسبقونه إليه: لا في تعظيم الله، عَزَّ وجَلَّ، ولا في تحرير صنوفِ العلم
وتقسيم أقسامها وتجزئتها أجزاءها وتوضيح سُبُلِها، وتبين مآخذها، ولا في وجْهِ
من وجوه الأدبِ وَضُرُوبِ الأخلاق»^(١).

ومما تقدم هل يبقى بعد ذلك لقائل مقال أنّ هؤلاء الذين تأثَّرُ بهم ابن المقفع
غير إسلاميين. ولكن مع هذا وما يُؤسف له إنَّ هذه التصريحات ومثلما يرى
الباحث أنها فُهمت عكس ما أراد لها ابن المقفع، فمثلاً الأستاذ محمد كرد علي
يرى في قول ابن المقفع الأخير مسألة فيها نظر، فقال: «وقوله: إنَّ القدماء لم
يغادروا شيئاً لا في تعظيم الله... قولٌ فيه نظر، ولعلَّه مما قاله قبل إسلامه، ولا
يعقل أن تتحتوي كتب زرادشت وغيرها من الكتب أموراً في تعظيم الخالق
وتصغير الدنيا أكثر من القرآن»^(٢)

ورداً على كرد علي فهنا إذا قسنا على أنَّ إسلام ابن المقفع كان إيزاناً بمرحلة
جديدة أو نوع جديد من الخطاب، فإنَّ قوله المذكور يدلُّ على إسلاميته
الواضحة، لما طفح به من ألفاظ ومعانٍ تدلُّ على ذلك لا العكس هذا من جهة.
ومن جهة أخرى من قال إنَّ ابن المقفع كان يقصد كتب زرادشت حتى تُطلق
هكذا أحكام؟

وهنالك من ذهب أبعد من هذا بكثير، وأطلق أحكاماً قاسية على تصريحات
ابن المقفع تلك. فقد قال أنعام الجندي: «كان فارسيُّ النزعة يطمح إلى عودة
استقلال بلاده، وحكمها الذاتي، وكان يرى أنَّ العقبة الوحيدة، هي العرب

(١) م. ن. ٦٤

(٢) أمراء البيان / ١١٣.

والحكم العربي، ولهذا عمل جاهداً على الطعن بهم، والتقليل من شأن حضارتهم وفتوتهم جميعاً، وما قدمتا كتابي الأدب الكبير والأدب الصغير، إلا دليل على ذلك. ولقد كان شديد التوكيد على تحسين كلام الأقدمين... حتى لا يدعى أنَّ كلَّ نتاج جديد إنما هو تردید وتقليل لما أثر عن السابقين. هذه الفكرة وحدها، لا إلحادية أولاً، لأنَّها تجرد الإنسان من قيم الإبداع... وهي لا إنسانية ثانِياً لأنَّها لا تؤمن بالعقل..»^(١).

فما ذهب إليه الجندي في طعن ابن المقفع بالعرب وهم عقبته الوحيدة، فهذا ليس له أي دليل يذكر في ما قال أدinya المخصوص بالدراسة، بل كان على العكس من ذلك، يمدح العرب، ويعلّي من شأنهم، ويمني نفسه بأنَّه لو كان منهم. ففي قصَّةٍ طويلة سأله شبيب بن شيبة^(٢) ابن المقفع أيَّ الْأُمُّ أعقل: الفرس أم الروم أم الصين...؟ فقال: العرب «قال: أي شبيب - فصحكنا. فقال: أما آنِي ما أردتُ موافقتكم ولكن إذ فاتني حظٌّي من النسبة فلا يفوتي حظٌّي من المعرفة، إنَّ العرب حكمتُ على غير مثالٍ مُثُلٍ لها، وأثارٍ أثْرٍ... يجودُ أحدهم بقوَّته، ويتفضُّل بمجهودِه، ويُشارِكُ في ميسورِه ومعسوريه، ويصفُ الشيءَ بعقلِه فيكون قدوةً ويفعلُه فيصيرُ حجَّةً... أدَّبَتْهُمْ أَنفُسُهُمْ، ورفعتُهُمْ هَمَّهُمْ، وأعلَّتْهُمْ قلوبَهُمْ وألسنتَهُمْ، فلم يزل حباء الله فيهم، وحباؤهُم في أنفسِهِم حتى رفع لهم الفخر، وبلغ بهم أشرف الذِّكر... وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر، على الخير فيهم ولهُم».

(١) دراسات في الأدب العربي ٥٦.

(٢) هو شبيب بن شيبة المنقري يكنى أباً معمراً. كان متازاً بالفصاحة. قدم بغداد في أيام المنصور العباسي واتصل به، ومن بعده بالمهدي، وكان كريباً عليهما أثيراً عندهما. ينظر: وفيات الأعيان ٢ / ٤٥٨.

وقال:

﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١).

فمن وضع حقهم خسر، ومن أنكر فضلهم خصم، ودفع الحق باللسان أكبث للجنان»^(٢).

والغريب إنّ من يُقدّس العرب بهذا التقديس هل من المنطقي أنْ يُقال عنه إنّ عقبته الوحيدة العرب، وإنّه عمل جاهداً على الطعن بهم؟ وعلى كلّ حال فابن المفع أجاد في دحض هذه الشبهة عن نفسه هذا أولًا. ثانياً: إنّ اعتراض الجندي على امتيازات أولئك الناس الذين وصفهم ابن المفع بأنّهم لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة.. ثمّ عدّ دعوة ابن المفع تلك - بموجب هذا الوصف - لا أخلاقية ولا ثقافية. فيما لا يشكُ فيه الباحث إنّه ليس؛ فابن المفع لم يكن يقصد أو يدعو بها ذكر إلى الجمود أو الإتكاء على الأقدمين وتقليلهم الأعمى - مثلما فهم الجندي وغيره - وإنّا لو كان يقصد هذا الجمود لبقى هو في تلك الخانة، ولما وصل إلى ما وصل إليه من ذلك الإبداع النثري الذي ما زال متميّزاً على الرغم من زحمة التشر والناثرين، ولكن غاية ما هنالك آنه وجد كلاماً لأناس امتازوا به «تعظيم الله عزّ وجلّ، ومعرفتهم بالأولى وتحقيقها، وترغيبهم بالآخرة، ومعرفتهم في صنوف العلم المتعددة وتقسيم أقسامها، وتجزئة أجزائها، وسمو أخلاقهم، وعظيم حلمهم على الرغم من قوّة أجسامهم، فضلاً عما امتازوا به من البلاغة...» فوصفهم بما يستحقون وأثني عليهم، وحبيّ الأخذ عنهم، والسير على هديهم. أما ثالثاً فلم يكن ابن المفع متأثراً بالفرس بقدر تأثيره بالعرب لأنّه حين سُئل عن الفرس

(١) الأعراف ١٢٨.

(٢) أمراء البيان ١ / ١١٤ - ١١٥.

قال: «ليسوا بذلك، إنهم ملکوا كثيراً من الأرض، ووجدوا عظيماً من الملك، وغلبوا على كثير منخلق، ولبث فيهم عقد الأمر، فما استنبطوا شيئاً بعقولهم، ولا ابتدعوا باقي حكم في نفوسهم..»^(١). وهكذا أجوبته عن باقي القوميات، حتى إذا وصل إلى العرب أجاب ما عرفته، وكانت إجابته تلك تنم عن معرفة ودراسة لا تعصب، فيما فاته الحظ أن يلتحق بهم من ناحية النسب، لم يفته الحظ من معرفتهم والتأثير بهم. ومن هنا نستنتج أهم الإستنتاجات، وينكشف لنا جزء كبير من الغموض الذي لفّ مقدمتي الأدب الكبير والأدب الصغير وما علينا في ذلك إلا إرجاع آراء وانطباعات ابن المفع في الأمم والقوميات وعرضها على مقدمتي الأدبين سنعرف أنّ ما كان مقصوداً هناك هم العرب.

وخلاصة القول بعد هذا إنّ الذين اتهموا ابن المفع بأنّه نقل الكتابين عن الفارسية كانوا قد اعتمدوا على ما قدّمه لهذين الكتابين. وبرأي الباحث إنّ القوم فهموا عكس ما أراد ابن المفع، لأنّه كان قاصداً العرب فيما قدّم، أو على الأقل كان لهم النصيبُ الأكبر في ذلك. وعلى رأسهم أمير المؤمنين عليه السلام، فقد كان أديبنا يحمل في بنّيات أفكاره جانباً من السياسة والأهداف والطلعات العلوية. هذا فضلاً عن تأثيره بأبناء وذرية أمير المؤمنين كالإمام الحسن، وزيّن العابدين والصادق عليه السلام - مثلما سيمر علينا - ولكنّه لا يستطيع أن يجهّر بذلك، لما كانت تكتّنه لهم السلطات الأموية ومن ثم العباسية - واللتان كان ابن المفع يعيش في ظلّهما - من عداء مبرم.

وعلى هذا فإنّ المفع كان واقعاً بين قوتين متعاكستين: الأولى شدّة تأثيره بهؤلاء النفر الذين رأى في كلامهم حلاً جذرياً لكلّ معضلة. الثانية بعض

السلطتين لهم. ولكن ابن المقفع بفطنته وذكائه الحاد، ورغبة رسالية الهدافة، استطاع أن يوفق بين هاتين الطائفتين، وأن يسير ببرهه من الزمن وهو يكتب ما يريد في هذا الطريق طريق ذات الشوكة مثلما سيتضح ذلك.

المبحث الأول

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في رسالة الأدب الكبير

الأدب الكبير رسالة، أو كتيبٌ ضمّنه ابن المقفع طائفة من الحكم والمواعظ في أسلوب خطابي موجّه إلى العقلاة الذين هدفهم الحصول على سعادة الدارين^(١). يحتوي هذا الكتاب على مقدمة - عُرِفَ محتواها في الصفحات السابقة - وقسمين: الأول قسمه على بابين أيضًا. خصّ بأولهما الحديث عن السلطان، وما يحتاجه من أمور في تدبير ملكه، وما ينبغي عليه أن يتجنبه من آفات كالبخل، والكذب، والاحتجاب عن الناس...، وخص بالثاني صاحب السلطان وكيف يتعامل مع السلطان.

أما القسم الثاني: فبسط القول فيه عن الصداقة والصديق، ومكارم من الأخلاق عدّة. وكانت تنضوي تحت هذه العنوانات الثلاثة ما شئت من الحكم والمواعظ كماً ونوعاً. وهي في حقيقتها وبغاليتها لا تخلو من اثر لكلام أمير

(١) ينظر: الجامع في تاريخ الأدب العربي / ٥٤٦ .

المؤمنين عليه السلام فقد كان له هيمنة عجيبة عليها واثر بالغ فيها تجلّى بمظاهر عدّة، منها:

أولاً: التضمين:

عرفنا مما سبق إن التضمين له محرك أساس، وهو أنّ تضمين نصٌّ ما معتمد على الإعجاب بذلك النص، والرغبة من قبل الأديب المتأثر في أن يكون ذلك النص ضمن نتاجاته من جهة، ورغبة ذلك الأديب في أن يؤثر نصه الكلي بشفاعة النص المُضمن على المتلقين من جهة أخرى.

وقد بُرِزَ التضمين بروزاً واضحاً في رسالة الأدب الكبير حتى أصبح يشكل ظاهرة من أكبر مظاهير تأثير ابن المفعع بكلام أمير المؤمنين عليه السلام، وقد ظهر فنّ التضمين عند ابن المفعع بنوعين:

١- التضمين النصي:

ومن هذا التضمين قوله الذي افتتح به الباب الثاني من رسالة الأدب الكبير وقد خص به الأصدقاء: «ابذل لصديقك دمك ومالك، ولعروفتك رفك ومحضرك، وللعامنة بشرك وتحنك، ولعدوك عدلك وإنصافك، واضئنْ بدينك وعرضك على كل أحد»^(١).

وما هذا إلا فقرة من وصية أمير المؤمنين لولده محمد ابن الحنفية عليهما السلام التي قال فيها:

«اللزم نفسك التودّد... وأبذل لصديقك نفسك ومالك، ولعروفتك رفك ومحضرك وللعامنة بشرك ومحبتك، ولعدوك عدلك وإنصافك، واضئنْ

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير .٩٨

الفصل الثالث: المبحث الأول: أثر كلام الإمام في رسالة الأدب الكبير ٢٦٧
بدينك وعرضك عن كُلّ أحدٍ فإنَّه أسلمَ لدینِکَ وَدُنْیاکَ^(١).

فواضح إذَا إنَّ أغلب كلام ابن المفع المذكور أخذه بالنصّ من هذه
الوصية.

والملفت للانتباه إنَّ ابن المفع وبعد صفحات ذكر هذا المعنى
وهذه التفاصيل، مكررًا بعض الألفاظ ولكن باختزال شديد، ثم نسبها
للحكيم فقال: «احفظ قول الحكيم الذي قال: لِتُكُنْ غَايُّكَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ
عَدُوِّكَ الْعَدْلَ، وَفِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ صَدِيقِكَ الرِّضَا»^(٢).

ومن هذا نستتّج أمرتين:

الأول:

إذا كانت حكمة ابن المفع السابقة هي له، فهو لم يعد مطلقاً بحاجة
إلى الاستشهاد بقول الحكيم هذا، لأنَّ تلك الحكمة هي أبلغ، وأكثر بياناً،
وتفصيلاً، وإيصالاً للمعنى من قول الحكيم، وما الداعي إذا كان ابن المفع
يمتلك أكثر من قول الحكيم بكثير أن يستشهد بكلامه، وعلى هذا فإنَّ هذا
دليل آخر على إن الحكمة الأولى هي ليست لأبن المفع أيضاً.

الثاني:

حكمة الحكيم هذه مكونة من فقرتين لا غير، الأولى أخذت بتحوير طفيف
عن قول أمير المؤمنين عليه السلام السالف وهي كالتالي:

أمير المؤمنين عليه السلام: «ولعدوك عدلك».

(١) نهج السعادة ٧/٢٣٢، وينظر بحار الأنوار: ٧٤/٣٩٦.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٠٣.

الحكيم: «بينك وبين عدوک العدل».

ابن المفعع: «ولعدوك عدلك».

بينما الفقرة الثانية أخذت بالمعنى عن كلامه عليه السلام.

أمير المؤمنين عليه السلام: «ابذل لصديقك نفسك ومالك».

الحكيم: «وفيما بينك وبين صديقك الرضاة».

ابن المفعع: «أبذل لصديقك دمك ومالك».

وبالتالي فإن هذا الحكيم إما هو أمير المؤمنين عليه السلام، بعد أن غير في كلامه المذكور، وإما شخص كانت مرجعيته كلام الإمام عليه السلام، وفي كل الأحوال أصل هذا كله هي وصية أمير المؤمنين عليه السلام المذكورة.

وأماماً من يطالع مجموعة المغريات التي أمر ابن المفعع باجتنابها «تحرّز من سكر السلطان وسكر المال وسكر المنزلة وسكر الشباب، فإنه ليس هذا شيء إلا وهو ريح حنة تسلب العقل، وتذهب بالوقار، وتصرف القلب والسمع والبصر واللسان إلى غير المنافع»^(١) فسيجد عبارات عدّة منها مضمنة نصيّاً من حكمة أمير المؤمنين عليه السلام:

«ينبغي للعاقل أن يحترس من سكر المال وسكر القدرة وسكر العلم وسكر الشباب، فإن لكل ذلك ريحًا خبيثة تسلب العقل وتسْخَفُ الوقار»^(٢).

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٩٦ - ٩٧.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم ٢٤٢.

«كان أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) يقول: ليجتمع في قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم، يكون افتقارك إليهم في لين كلامك، وحسن بشرك، ويكون استغناوك عنهم في نزاهة عرضك، وبقاء عزك»^(١).

فقد أكد عليه معاين سامية، وأعطى منهاج عمل وطريقة تصرف رائعة بين الفرد ومجتمعه موظفاً فن المقابلة من أجل إيصال المعنى بطريقة مؤثرة، فهو من جهة يأمر بالافتقار إلى الناس والتودد لهم من خلال أعمال تسمح بذلك كلين الكلام، وبشاشة الوجه، ومن جهة أخرى أمر بالاستغناء عن الناس من خلال صون العرض وعيش العز، لأن مثل العرض والعز لا يمكن التقرّب على حسابها إلى أي جهة كانت.

وقد ابن المفع ضالته في هذه الحكمة؛ فنظمها في عقد حكم الأدب الكبير بنصها، فقال: «وليجتمع في قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم، ول يكن افتقارك إليهم في لين كلمتك لهم، وحسن بشرك بهم. ول يكن استغناوك عنهم في نزاهة عرضك، وبقاء عزك»^(٢).

وقال عليه في بيان فضل العقل على القول:

«إن فضل القول على الفعل هُجنة، وإن فضل الفعل على القول بِحَالٍ وزينة»^(٣).

ضمن ابن المفع هذه الحكمة في الأدب الكبير فقال: «فإن فضل القول على

(١) الكافي / ٢، ١٤٩، وينظر: معاني الأخبار . ٢٦٧

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير . ١٢٦

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم . ٢٣٣

ال فعل عاًز و هجنة، وفضل الفعل على القول زينة^(١).

ومن أكثر حكم الإمام أثراً في الأدب الكبير قوله عليه السلام في وصف أخي له:

«كَانَ لِي فِيهَا مَضْسَى أَخْ فِي اللَّهِ، وَكَانَ يُعْظِمُهُ فِي عَيْنِي صِغَرُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِيهِ. وَكَانَ خَارِجاً مِنْ سُلْطَانِ بَطْنِي، فَلَا يَشْتَهِي مَا لَا يَجِدُ، وَلَا يُكْثِرُ إِذَا وَجَدَ. وَكَانَ أَكْثَرَ دَهْرِهِ صَامِتاً، فَإِنْ قَالَ بَدَّ الْقَائِلِينَ، وَنَقَعَ غَلِيلَ السَّائِلِينَ، وَكَانَ ضَعِيفاً مُسْتَضْعِفاً! فَإِنْ جَاءَ الْجِدُّ فَهُوَ لَيْثُ غَاب، وَصِلْ وَادٍ، لَا يُدْلِي بِحُجَّةٍ حَتَّى يَأْتِي قَاضِياً، وَكَانَ لَا يُلُومُ أَحَدًا عَلَى مَا يَجِدُ الْعُذْرَ فِي مِثْلِهِ، حَتَّى يَسْمَعَ اعْتِذَارَهُ؛ وَكَانَ إِذَا لَا يَشْكُو وَجَعًا إِلَّا عِنْدَ بُرْئِهِ؛ وَكَانَ يَقُولُ مَا يَفْعُلُ وَلَا يَقُولُ مَا لَا يَفْعُلُ؛ وَكَانَ إِذَا غُلِبَ عَلَى الْكَلَامِ لَمْ يُغْلِبْ عَلَى السُّكُوتِ، وَكَانَ عَلَى مَا يَسْمَعُ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ؛ وَكَانَ إِذَا بَدَهُ أَمْرًا نَظَرَ إِلَيْهَا أَقْرَبَ إِلَى الْهُوَى فِي خَالِفِهِ، فَعَلَيْكُمْ بِهِنْدِهِ الْخَلَاثِيقِ فَالْزُّمُوهَا، وَتَنَافَسُوا فِيهَا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعُوهَا فَاعْلَمُوا أَنَّ أَخْدَ الْقَلِيلِ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ الْكَثِيرِ»^(٢).

وهذه الحكمة امتازت بالطول نوعاً ما، لأنها قائمة على وصف شخص معين عُرف بأخلاقه النبيلة لا يرغب أمير المؤمنين عليه السلام بذكر إحداها وترك الأخرى لذا طال الكلام فيها، إلا أنّ وحدة الموضوع سمة بارزة فيها تجلت في التركيز على بيان صفات ذلك الأخ الذي اختلف فيه من هو، فقال قوم: هو رسول الله عليه السلام واستبعده آخرون لقوله: «كَانَ مُسْتَضْعِفًا» فإنّ الرسول الأكرم عليه السلام لا يقال في صفاته مثل هذه الكلمة، وقال قوم: هو أبو ذر الغفارى، وقال غيرهم هو المقداد، وذهب غيرهم إلى إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يُشر إلى أخي معين،

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٠٣.

(٢) نهج البلاغة ٦٠٦ - ٦٠٥.

ولكنه كلامٌ خارج مخرج المثل^(١).

كان ابن المفع شديد التأثر بهذه الحكمة وعلى طول الأدب الكبير لما اجتمع فيها من عبقرية فدّة تجلت في الوصف الدقيق الرائع المعبر عن أغزر المعاني^(٢) بفنون بلاغية عدّة منها: أسلوب الأخبار الذي ابتدأ به الحكمة، وهذا الأسلوب موائم مع الحكمة تماماً لأنّ غرضها الرئيس هو الإخبار وبيان صفات ذلك المدوح الذي وصفه أمير المؤمنين عليه السلام بالأخ.

ثم ما فيها من فنون أخرى كالكلنائية في قوله: «خارجًا من سلطان بطنه» وهو كنائيّة عن الخروج من أسر الشهوة والرذيلة إلى فضيلة العفة^(٣).

والتشبيه «فإن جاء الجُدُّ فهو ليث الغاب وصل واد»... فضلاً عن الفنون البدعية المتعددة من تكرار متعدد الطرق. مرة باللفظ نفسه «وكان يقول ما يفعل، ولا يقول ما لا يفعل» إذ ذكر الفعل المضارع «يقول» مرتين وكذلك «يفعل»، لبيان رجاحة القول على الفعل، ورذالة القول إذا اقتصر عن الفعل. وأخرى كرر الفعل نفسه ولكن مرة بالمضارع وأخرى بالماضي «..ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد». وثالثة كرر الأسماء «وكان يعظّمه في عيني صغر الدنيا في عينيه» وفي الجملة هذه فضلاً عن تكرار «عيني - عينيه» أسلوب التقديم والتأخير إذ قدم عليهما جملة «يعظّمه في عيني» في حين أنّ حقّها التأخير بعد جملة «صغر الدنيا في عينيه» فعل الإمام هذا للتأكيد على ع神性 ذلك المدوح، ولأنّ الغرض الرئيس الذي جاءت من أجله الحكمة هو التعظيم والتجليل،

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ١٩٦ / ١٠٩.

(٢) ينظر: شرح ابن ميثم / ٥ / ٤٧١.

(٣) م ٥ / ٥ / ٤٧١.

فضلاً عن استعماله - لأجل هذا البيان - الجملة الفعلية وبالتحديد الفعل المضارع «يعظم» لما فيه من دلالة على الحركة والاستمرارية. أمّا طباق الإيجاب الذي ورد في هذا المقطع والتمثيل العظيم والصغر، فكان عماد معناه، إذ أنّ هناك علاقة عكسية مفادها إن صغر الدنيا وتحقيقها في عين المدوح، ولد له عظم المنزلة عند أمير المؤمنين عليه السلام.

وسجع بأنواع متعددة، فمرة السجع المتفق بالفاصلة والوزن «إِنْ قَالَ بِذِّ
الْقَائِلِينَ، وَنَقَعَ غَلِيلُ السَّائِلِينَ».

وآخرى متفق بالفاصلة دون الوزن «فَلَا يَشْتَهِي مَا لَا يَجِدُ، وَلَا يَكْثُرُ إِذَا وَجَدَ
». فـ «يجد - وجد» بيهما اتفاق في الفاصلة دون الوزن.

وثالثة متفق بالوزن دون الفاصلة «أَنْ أَخْذَ الْقَلِيلَ خَيْرٌ مِّنْ تَرْكِ الْكَثِيرِ»، «فَهُوَ
لِيَثَ غَابَ، وَصَلُّ وَادِ».

فقد اتفق «قليل - كثير» بالوزن دون الفاصلة، ومثلهما «غاب - واد». كانت هذه وقفة قصيرة مع صياغة النص الفنية.

وفي هذا التناغم العميق بين المضمون والفن وجد ابن المفع ضالته وجعل من تلك الحكمة مسك الختام للأدب الكبير فقال: «وَإِنِّي مُخْبِرُكَ عَنْ صَاحِبِ لِي
كَانَ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ فِي عَيْنِي، وَكَانَ رَأْسُ مَا أَعْظَمَهُ فِي عَيْنِي صَغْرُ الدُّنْيَا فِي
عَيْنِهِ: كَانَ خَارِجًا مِنْ سُلْطَانِ بَطْنِهِ، فَلَا يَشْتَهِي مَا لَا يَجِدُ، وَلَا يَكْثُرُ إِذَا وَجَدَ،
وَكَانَ خَارِجًا مِنْ سُلْطَانِ فَرْجِهِ، فَلَا يَدْعُو إِلَيْهِ رِبِّهِ، وَلَا يَسْتَخْفُ لَهُ رَأْيًا وَلَا
بَدْنًا، وَكَانَ خَارِجًا مِنْ سُلْطَانِ لِسَانِهِ، فَلَا يَقُولُ مَا لَا يَعْلَمُ، وَلَا يُنَازِعُ فِي
مَا يَعْلَمُ، وَكَانَ خَارِجًا مِنْ سُلْطَانِ الْجَهَالَةِ، فَلَا يَقْدُمُ أَبَدًا إِلَّا عَلَى ثَقَةٍ بِمَنْفَعَةِ

كان أكثر دهرو صامتاً. فإذا نطق بذَّ الناطقينَ.

كان يرى متضاعفاً مستضعفَا، فإذا جاء الجد فهو الليث عادياً.

كان لا يدخلُ في دعوى، ولا يشتركُ في مراءٍ، ولا يدلِّي بحجَّةٍ حتى يرى
قاضياً عدلاً وشهوداً عدولًا.

وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذرُ في مثلِه حتى يعلمَ ما اعتذارُه.

وكان لا يشكُّ ورعاً إلا إلى من يرجو عنده البرء.

وكان لا يستشير صاحباً إلى من يرجو عنده النصيحة.

وكان لا يتبرُّمُ، ولا يتسرَّطُ، ولا يشتهي، ولا يتشكى.

وكان لا ينقمُ على الولي، ولا يغفلُ عن العدو، ولا يخص نفسه دون إخوانه
 بشيءٍ من اهتمامٍ حيلته وقوته.

فعليكَ بهذه الأخلاقِ إن أطقت، ولن تطبق، ولكن أخذ القليل خيرٌ من تركِ
 الجميع»^(١).

وما دمنا بين النصيَّن المذكورين بودَ الباحث أن يفرغ من أمرين هامين هما:

الأمر الأول:

إن متأمل النصيَّن بدقة يجد غالبية كلام ابن المقفع تضميناً نصياً من الحكمَة،
 ويجد أيضاً إنَّ ابن المقفع قد مسَّ حكمَة أمير المؤمنين عليه السلام مرّةً بزيادةٍ عليها،
 وأخرى بحذف منها.

أما الزيادة فهو أسلوب واضح يلجمُ إليه ابن المقفع في أحايin كثيرة مع كلام

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٣٣ - ١٣٤.

أمير المؤمنين عليه السلام الذي يضمّنه في رسائله، وهي هنا كثيرة ومنها قوله: «كان لا يدخل في دعوى، ولا يشترك في مراءٍ، ولا يُدلِّي بحُجَّةٍ حتى يرى قاضياً عدلاً وشهوداً عدو لا». ^١

وما هذا إلا توسيعاً لإحدى فقر حكمة الإمام عليه السلام: «لا يُدلِّي بحُجَّةٍ حتى يأتي قاضياً» فأخذ ابن المفعع هذا وبدأ يفصل: أن لا يدخل ذلك الصاحب في دعوى إلا إذا وجد قاضياً، والقاضي ينبغي كونه عادلاً، ومعه شهود، والشهود يجب توافر العدالة فيهم.

وأمّا الحذف، فإن فقرات حكمة أمير المؤمنين عليه السلام والتي لم يذكرها ابن المفعع في حكمته المذكورة لم يُفْرِط بها لكنه ذكرها سابقاً، وجعلها متداولة على طول الأدب الكبير. وهي كالتالي: فقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وكان على ما يسمع احرصَ منه على أن يتكلّم «نجده في وسط الأدب الكبير «وليعرف العلماء حين تُحالُ عليهم آنئَة على أن تسمع أحراصَ منك على أن تقول»^(١).

وقوله عليه السلام:

«وكان إذا غلِّبَ على الكلام لم يُغلِّبْ على السكوت». ^٢

لم يغفله ابن المفعع، بل ضمّنه إحدى مقاطعه متوسعاً فيه من خلال تبيان محسن السكوت «وإن غلبت على الكلام وقتاً فلا تغلبن على السكوت، فإنه لعله يكون أشدهما لك زينة، وأجلبهما إليك للمودة، وأبقاهم للمهابة، وأنفاهما للحسد»^(٢).

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٩٩

(٢) م ١٢٦ ن ٠.

وهكذا فعل ابن المفع مع قوله ﴿لِلَّهِ﴾:

«وَكَانَ إِذَا بَدَهَهُهُ أَمْرَانِ يَنْظُرُ أَيْمَانًا اقْرَبَ إِلَى الْهَوَى فَيُخَالِفُهُ».

وبدهمه: إذا خطَرَ بِيالهُ أَمْرَانِ دَفْعَةً مِنْ غَيْرِ سَابِقَةٍ^(١). رأى أَيْمَانًا تَسْتَهْوِيهِ نَفْسَهُ أَكْثَرَ فَعْلَهُ بِالْآخِرِ الَّذِي يَشْتَقُّ عَلَيْهَا، وَلَعِلَّهُ كَانَ مَنْتَلِقًا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿إِنَّ التَّفْسَرَ لِأَمَارَةٍ بِالسُّوءِ﴾^(٢).

ضمِّنَ ابن المفع هذا المقطع من حكمَةِ الإمام عليه السلام في نهاية الأدب الكبير بتحوير بسيط مع زيادة عليها، فقال: «إِذَا بَدَهَكَ أَمْرَانِ لَا تَدْرِي أَيْمَانًا أَصْوَبَ فَانْظُرْ أَيْمَانًا اقْرُبُ إِلَى هَوَاكَ فَخَالِفُهُ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الصَّوَابِ فِي خَلَافِ الْهَوَى»^(٣).

وإِما قوله عليه السلام: «وَكَانَ يَقُولُ مَا يَفْعُلُ وَلَا يَقُولُ مَا لَا يَفْعُلُ». فقد ضمِّنَهُ ابن المفع في وصاياه التي دعا فيها إلى تقديم الفعل على القول فقال: «وَلِيَعْرُفَ إِخْوَانَكَ وَالْعَامَّةَ أَنَّكَ، إِنْ أَسْتَطَعْتَ، أَنْ تَفْعَلَ مَا لَا تَقُولُ أَقْرُبُ مِنْكَ إِلَى أَنْ تَقُولَ مَا لَا تَفْعُلُ»^(٤).

الأمر الثاني:

إنَّ الأَسْتَاذَ الْمَرْحُومَ مُحَمَّدَ كَرَدَ عَلَيْ وَبَعْدَ أَنْ قَرَأَ نَصَّ الْحُكْمَةِ الْعُلُوِّيَّةِ فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ، وَقَرَأَهَا عِنْدَ ابْنِ الْمَفْعَ، شَكَّ بِمَرْجِعِهَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مَدِّعِيًّا بِأَنَّهَا لِابْنِ الْمَفْعَ، فَقَالَ فِي اسْتِدْرَاكِهِ الَّذِي جَعَلَهُ فِي آخِرِ كِتَابِ (أَمْرَاءِ الْبَيَانِ):

(١) شَرْحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ لِابْنِ مَيْشَمِ .٤٧١ / ٥.

(٢) سُورَةُ يُوسُفَ .٥٣.

(٣) الأَدْبُ الصَّغِيرُ وَالْأَدْبُ الْكَبِيرُ .١٢٦.

(٤) م .١٠٣ ن .١٠.

«أنّ صفة الرّجل الكامل الذي عرفه ابن المفعع قد استحسنها بعض المؤخرین فأدّجوها في الكتاب الذي كسروه على كلام الخليفة الرابع»^(١). وقال: «إِنَّ نصَّ عبارة ابن المفعع مُعلنةً عن نفسها بِأَنَّهُ عَرَفَ رَجُلًا هَذِهِ صَفَاتُهُ الْحَسَنَةُ فَوَصَفَهُ وَلَا يَعْقُلُ أَنْ يَأْخُذَ كَلَامًا لِغَيْرِهِ وَيَسْتَحْلِلَ نَسْبَتَهُ إِلَيْهِ خَصْوَصًا إِذَا كَانَ مِنَ الْكَلَامِ الْمُؤْثِرِ الْمَعْرُوفِ صَاحِبَهُ ثُمَّ إِنَّ يَتِيمَتُهُ اشْتَهِرَتْ قَبْلَ أَنْ يُؤَلَّفَ نَهْجُ الْبَلَاغَةِ بِنَحْوِ قَرْنَيْنِ وَنَصْفِ»^(٢).

والباحث يدّحض هذا بما يأتي:

١ - الأستاذ قال عن الحكمة: «استحسنها بعض المؤخرین فأدّجوها في الكتاب..». وهذا الكلام فيه انتقاد واضح من المقابل، إذ إنّه يرمي الآخرين بالانتحال لمجرد استحسانهم لكلام ما وسرقة ذلك الكلام ونسبه لأمير المؤمنين عليه السلام.

فهل أمير المؤمنين عليه السلام بحاجة إلى هكذا عمل شنيع تُسرق الحكمة من غيره وتُنسب له؟ ثم مَنْ هذا الذي استحسنها ونسبها زوراً للإمام عليه السلام؟ فضلاً عن إنّ الكلام المستحسن كثير جداً فلماذا هذه الحكمة بالذات أخذت من ابن المفعع وُنُسبت لأمير المؤمنين عليه السلام؟

وأما قوله بأنّ المؤخرین وضعوها في كتاب نهج البلاغة. فهذا غير مقبول أيضاً، لأنّ الحكمة معروفة منذ وقت مبكر على أنها من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، ومعروف أيضاً إنّ ابن المفعع أخذها عنه عليه السلام. فمثلاً قال صاحب التذكرة الحمدونية بعد أن دون الحكمة المقصودة: «وقد ادعى ابن المفعع أكثر

(١) أمراء البيان . ٥٧٥

(٢) م ٥٧٤ . ن

هذا الكلام في رسالة له»^(١).

٢- إنَّ ابن المفع لم يتأثر بهذه الحكمة العلوية فحسب، بل جميع رسائله المشهورة كانت تتوهج بالتأثير العلوي. وعليه فمَاذا عن عشرات الحكم التي ضمنها ابن المفع في نتاجاً ته هل كُلُّها من الحكم التي «استحسنها بعض المتأخرین فأدبوها في الكتاب الذي كسروه على كلام الخليفة الرابع..»؟

٣- وبالنسبة لقوله: «فإِنْ نَصَّ عبارة ابن المفع معلنة عن نفسها بـأنَّه عرف رجلاً هذه صفاتـه...». فهذا ليس دليلاً، فإنَّ كان هذا دليلاً؛ فإنَّ حكمة الإمام أيضاً معلنة عن نفسها بـأنَّه عرف رجلاً هذه صفاتـه. وما يؤكد إِنَّها لأمير المؤمنين، وإنَّ الصاحب هو صاحب أمير المؤمنين عليه السلام ذلك الاهتمام المكثف بمعرفة شخص ذلك الصاحب. ولذا قيلت فيه أقوال عدَّة:

قال قوم: هو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واستبعده قوم لقول الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وكان ضعيفاً مستضعفأً»، وقال قوم: هو أبو ذر الغفاري، واستبعده قوم لقول الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فإن جاء الجد فهو ليث عادٍ..»، وأبو ذر لم يكن من الموصوفين بالشجاعة، وقال قوم: هو المقداد بن الأسود وكان شجاعاً حسن الطريقة^(٢).

أما صاحب ابن المفع المزعوم - وهو يحمل تلك الصفات الفاضلة - كان من المفترض أن يُعرف مَنْ هو، ولكن لم يبحثه أحد ولم تصلنا أخبار عنه.

٤- ثم قال الأستاذ عن ابن المفع: «ولا يعقل أن يأخذ كلاماً لغيره

(١) التذكرة الحمدونية ١/٣٩٧

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد ١٩ / ١٠٩

ويستحِل نسبته إليه «وهل يعقل أم لا يعقل بأن ابن المفعع أخذ كلاماً لغيره، فهذه مسألة تحدثنا فيها سابقاً، وتكفل بالإجابة عنها ابن المفعع نفسه. فقد ذكر في الأدب الكبير وهو الذي وردت فيه تلك الحكمة بأن كلامه مأخوذ من حكم الأولين، فقال: «فلم يبق في جليل الأمر ولا صغيره لقائل بعدهم مقال، وقد بقيت أشياء... مشتقة من جسام حكم الأولين وقولهم،... ضمن ذلك بعض ما أنا كاتب في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الناس»^(١).

وقال في هذا الغرض أيضاً: «وأحسن ما يصيب محدثنا أن ينظر في كتبهم فيكون بأنه إياهم يحاور،... وأثارهم يتبع»^(٢).

فالمحسن عند ابن المفعع من يتأثر بـ «حكم الأولين» - وسنعرف الأولين من هم أكثر فأكثر - إذاً لماذا لا يعقل أن يأخذ ابن المفعع كلاماً لغيره؟

ثم أليس الأستاذ المرحوم هو الذي أعرف وأكّد في ترجمته لأن ابن المفعع بأن حكمه منقوله، ولم يكن أباً لذرتها^(٣).

فهل نقل الحكم هذا - بنظر المرحوم - جائز عن غير الإمام فقط؟ أم يجوز عنه عليه السلام، وإذا جاز ذلك لماذا رفع لواء التشكيك لما وجد أول تماثل بين الكلاميين؟

٥ - تحدث الأستاذ عن «الكلام المؤثر المعروف صاحبه». وهو بهذا عدَّ الحكمة المذكورة متأثرة عن ابن المفعع أكثر منه عند أمير المؤمنين عليه السلام، وهذا بجانب للصواب جملةً وتفصيلاً، لأن - وبحسب إطلاع الباحث - جميع من

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٦٥.

(٢) م ٠٦٤.

(٣) ينظر: أمراء البيان ١١٢.

الفصل الثالث: المبحث الأول: أثر كلام الإمام في رسالة الأدب الكبير ٢٧٩

رواها إما عن أمير المؤمنين، وإما عن الإمام الحسن عليه السلام، وهناك من رواها في كتاب واحد مرتّة عن الوالد وأخرى عن الولد عليه السلام.

فمن المصنفات التي روتها عن أمير المؤمنين عليه السلام ما يأتي: - نهج البلاغة^(١) - التذكرة الحمدونية^(٢) - ربيع الأبرار^(٣) - غرر الحكم ودرر الكلم^(٤) - أعيان

الشيعة^(٥)

ومن المصنفات التي روت الحكمة عن الأئمّة الحسن عليه السلام ما يأتي: - عيون الأخبار^(٦) - الكافي^(٧) - تاريخ بغداد^(٨) - تحف العقول عن آل الرسول^(٩) - البداية والنهاية^(١٠)

أما المصنّفات التي روتها عن الإمامين معاً فم منها:

- ميزان الحكمة، فقد وردت فيه مرتّة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام^(١١)، وأخرى

(١) ينظر: نهج البلاغة .٦٠٦ - ٦٠٥.

(٢) ينظر: التذكرة الحمدونية ١ / ٣٩٧.

(٣) ينظر: ربيع الأبرار ١ / ٣٠٨.

(٤) ينظر: غرر الحكم ودرر الكلم .٥٤٠.

(٥) ينظر: أعيان الشيعة ١ / ٥٧٧.

(٦) ينظر: عيون الأخبار ٢ / ٣٨٣.

(٧) ينظر: الكافي ٢ / ٢٣٧.

(٨) ينظر: تاريخ بغداد ١٢ / ٣١١.

(٩) ينظر: تحف العقول .٢٦٢.

(١٠) ينظر: البداية والنهاية ٨ / ٤٣.

(١١) ينظر: ميزان الحكمة ٢ / ٢٦٤.

عن الإمام الحسن عليه السلام^(١).

- بحار الأنوار، وردت فيه مرّة عن أمير المؤمنين عليه السلام^(٢)، وأخرى عن الإمام الحسن عليه السلام^(٣).

والذي يراه الباحث إنّ الحكمة لأمير المؤمنين استشهد بها من بعده ولده الحسن عليه السلام وهذا أمر طبيعي جداً. ولهذا منهم من سمعها عن الوالد فروها عنده، ومنهم من سمعها عن الولد فرواها عنه. وما جاء في كتاب مشكاة الأنوار يؤيد هذا ويحيل النزاع إذ ورد فيه:»من كلام أمير المؤمنين عليٌّ، خطبَ به الحسنُ بن عليٍّ فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَخْبِرُكُمْ عَنْ أَخْ لِي، كَانَ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ فِي عَيْنِي، وَكَانَ رَأْسُ مَا عَظُمَ بِهِ فِي عَيْنِي صِغْرُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِي، وَكَانَ خَارِجًا مِنْ سُلْطَانِ بَطْنِهِ...»^(٤).

وعليه فهل يعقل ترك هذه الروايات والتي جاءت من مصادر مهمة في التراث الإسلامي، ومنها ما هو سبق نهج البلاغة زماناً، ومنها معاصر له، ومنها متأخر عنه والأخذ بمجرد شك للمرحوم محمد كرد علي.

٦ - أما قوله: بأنّ اليتيمة اشتهرت قبل أن يؤلّف النهج، فلم يعد حجة، لأنّها وإن جاءت قبل النهج، إلاّ أنها تبقى متأخرة عن كلام الإمام عليه السلام بما يقارب المائة عام، وبعبارة أخرى إن كلام أمير المؤمنين عليه السلام سابق لكلّ كلام ابن المفع

(١) ينظر: م ٠٠ ن ١ / ٤٧.

(٢) ينظر بحار الأنوار ٧٥ / ١٠٨.

(٣) ينظر: م ٠٠ ن ١١٠ / ٣٥.

(٤) مشكاة الأنوار ٤٢١.

الفصل الثالث: المبحث الأول: أثر كلام الإمام في رسالة الأدب الكبير ٢٨١
زمناً، وبلاعنةً، وتأثيراً.

٧- حاول المرحوم محمد كرد علي أن يدعم شكه في الحكمة العلوية وعدم عائديتها لأمير المؤمنين عليه السلام بتصريح ظاهره صحيح وباطنه عليل، فقال: «وقد اعترف ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة بأنّ ما عزي إلى أمير المؤمنين عليه السلام هو من كلام غيره من الحكماء...»^(١) وهنا أودُّ الخذر والنظر بدقة. فالحكمة التي هي مدار الحديث الآن مدونة في نهج البلاغة، وابن أبي الحديد أكد مراراً وتكراراً وبطرق عدة بأنّ ما جاء بين دفتري النهج قطعي الصدور عن أمير المؤمنين عليه السلام، ولا غبار على ذلك وحمل حملاتٍ على من شكّوا فيه ووصفهم بأنّهم «أقوام أعمت العصبية أعينهم، فضلوا عن النهج الواضح وركبوا بنىّاتِ الطريق، ضللاً وقلة معرفة بأساليب الكلام...»^(٢). إذًا كيف يستدلّ محمد كرد علي على شكه في هذه الحكمة بكلام ابن أبي الحديد وهو يخالفه جملةً وتفصيلاً. وهذا الرأي الذي تحدث فيه المرحوم هو موجود فعلاً في شرح نهج البلاغة، ولكن آتى هي طريقة وجوده وأين؟

بعد أن فرغ ابن أبي الحديد من شرح النهج تبرع بجمع بعض كلام أمير المؤمنين عليه السلام وقال: «ونحن الآن ذاكرون ما لم يذكره الرضي مما نسبه قوم إليه - يعني إلى الإمام - فبعض مشهورٌ عنه، وبعضه ليس بذلك المشهور، لكنه روی عنه، وعزّي إليه...»^(٣).

فكلام المعترلي هذا لا يقصد به ما جاء في نهج البلاغة مطلقاً، بل صرّح بملء

(١) أمراء البيان / ٢ / ٥٧٤.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ١٠ / ٣٠٣.

(٣) م. ن. ٤٢٠ / ٢٠ - ٤٢١.

فيه وأكد على أنه قصد بهذا الحديث الحكم الألف التي جمعها هو «فوجدناه ألف كلمة»^(١). ومن هذا يتضح أن محمد كرد على إماماً وقع في لبس واشتباه، أو أراد أن يخلط الأوراق ليثبت ما يراه ولعل الأولى أقرب. وعلى كل الأحوال لا يحق مطلقاً للأديب أن يستدل بقول ابن أبي الحديد هذا على أيّ نصٍّ من نصوص نهج البلاغة لما عرفت.

- هناك دليل قاطع ولا يحيد على أنّ الحكمة كانت موجودة قبل ابن المقفع، وهذا الدليل قائمٌ على التأثير والتأثير، فقول أمير المؤمنين عليه السلام في الحكمة المذكورة: «وَكَانَ عَلَىٰ مَا يَسْمَعُ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَىٰ أَنْ يَتَكَلَّمُ» أخذُهُ الحسن البصري، فقال: «فَكَنْ عَلَىٰ أَنْ تَسْمَعَ أَحْرَصَ مِنْكَ عَلَىٰ أَنْ تَقُولُ»^(٢). والبصري متوفى سنة (١١٠ هـ)، وابن المقفع مولود سنة (١٠٦ هـ) بمعنى إنّ البصري توفي وللآخر أربع سنوات مع العمر، وهو بالتأكيد في هذه المدة لم يسمع بالبصري، ولم يره، وعليه فلا شك بوجود الحكمة قبل ابن المقفع، بل وإنّها كانت معروفة ومؤثرة، ولذا تأثر بها البصري. مع جدير التنبيه إلى أنّ هذا المقطع مما ضمنه ابن المقفع أيضاً، وأشارنا إليه سابقاً.

وبعد هذا تجدر الإشارة إلى أنّ محمد كرد على يقال عنه قد غير رأيه وتلاشت شكوكه في نهج البلاغة^(٣). وهذا ما يراه الباحث مستدلاً بقول الأستاذ في مقاله الذي يحمل عنوان «الإنشاء والمشئون»: «إذا أردنا أن نحكم على المشئين بما انتهى إلينا من خطبهم، ورسائلهم، ومحاوراتهم، ومصنفاتهم، وبدأنا بأهل

(١) م. ن. ٤٢١ / ٢٠.

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٣٧٣.

(٣) ينظر: مع المشككين في نهج البلاغة ٩٧.

القرن الأول للهجرة، نرى على رأسهم أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب (كرم الله وجهه)، فإنه سيد البلغاء على الإطلاق وواضع البيان العربي... ونرجع البلاغة الذي جمعه الشريف الرضي من كلامه وشرحه ابن أبي الحديد كتاب الدهر الحالد...»^(١).

وقال: «إذا طلبت البلاغة في أتم مظاهرها، والفصاحة التي لم تتشبه عجمة، فعليك بنهج البلاغة الذي فيه خطب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليهما وسائله إلى عماله...»^(٢).

٢- التضمين المحور:

لقد ورد هذا النوع من التضمين في أماكن عدّة من رسالة الأدب الكبير، وكان لعهد الإمام علي عليهما مالك لأشرتر (رضوان الله عليه) نصيبٌ وافر من هذا النوع من التضمين، فكان مما نهى عنه عليهما هو الاحتياج عن الناس وبيان نتائج الاحتياج^(٣) المهلكة، ثم بين إن لا مبرر للاحتجاج، فقال:

«وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رُجُلَيْنِ: إِمَّا امْرُؤٌ سَخَّنْتْ نَفْسُكَ بِالْبَدْلِ فِي الْحُقْقِ، فَقِيمَ احْتِيَاجَكَ مِنْ وَاجِبٍ حَقٌّ تُعْطِيهِ، أَوْ فِعْلٌ كَرِيمٌ تُسْدِيهِ، أَوْ مُبْتَلٌ بِالْمُنْعِ، فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إِذَا أَيْسُوا مِنْ بَدْلِكَ»^(٤).

أخذ ابن المفعع هذا بتقسيماته، ولكن وظفه في وصيته للوزير لما أوصاه بالرقق بنظرائه قائلاً: «فإنما أنت في ذلك أحد رجلين: إما أن يكون عندك فضلٌ

(١) مجلةتراثناع ١ / ٣٤.

(٢) م. نع ١ / ٣٤.

(٣) وهذا أيضاً ما أخذه ابن المفعع ولكنه جعله في مكان آخر سنوضحه في نقطة التلقيق.

(٤) نهج البلاغة ٥١٧.

على ما عند غيرك، فسوف يبدُّ ذلك ويحتاج إليه ويلتمسُ منك وأنْتَ محملٌ.
وإِمَّا أَلَا يَكُونُ ذَلِكَ عِنْدَكَ»^(١).

فالنَّصَّانِ يتكونانِ من ثلَاث فقراتٍ هي:

الأولى: وفيها تضمين لم يزد فيه ابن المقفع على كلام أمير المؤمنين عليه السلام إلا اسم
الإشارة «ذلك»:

«إِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ «أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ» إِلَّا اسْمُ

«إِنَّمَا أَنْتَ فِي ذَلِكَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ» ابن المقفع

الثانية: الجود والعطاء وهنا ازداد التحوير:

«إِمَّا امْرُؤٌ سَخَّتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ» عند أمير المؤمنين عليه السلام

«إِمَّا أَنْ يَكُونَ عِنْدَكَ فَضْلٌ .. عَلَى غَيْرِكَ» عند ابن المقفع

الثالثة: المنع:

«أَوْ مُبْتَلٍ بِالْمَنْعِ» عند أمير المؤمنين عليه السلام

«وَأَمَّا أَنْ لَا يَكُونُ ذَلِكَ عِنْدَكَ» عند ابن المقفع

و«ذلك» إِسم إشارة أشار به ابن المقفع إلى الفضل أو الجود الذي يجده
بِهِ الرَّجُلُ عَلَى غَيْرِهِ - وَهَذِهِ مِنْ طُرُقِ التَّمَوِيهِ عِنْدَ ابْنِ الْمَقْفَعِ عَلَى كَلَامِ
الإِمَامِ عليه السلام - وَعَلَيْهِ يَكُونُ الْكَلَامُ: وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ لَكَ فَضْلٌ عَلَى غَيْرِكَ،
وَعِنْدَهَا يَكُونُ كَلَامُهُ أَكْثَرُ شَبَهًا بِكَلَامِ أمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام «مُبْتَلٍ بِالْمَنْعِ».

وبعمق نظرٍ من أمير المؤمنين عليه السلام ونتيجة لإهتمامه بالوالى والرعاية على حدٍ

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير . ٩٠

سواء وشدّ أو اصر المودة بينهم، وجّه واليه إلى ما من شأنه أن يؤدي إلى ذلك ومنه حسن الظن «وذلك إنّ الوالي إذا أحسنَ إلى رعيتهِ قويت رغبتهِ فيه وأقبلوا بطبعِهم على محبتِهِ وطاعتهِ، وذلك يُستلزمُ حُسنَ ظنِّهِ بهم»^(١) فقال عليه السلام:

«فليكُنْ منكَ في ذلك أَمْرٌ يجتمعُ لَكَ بِهِ حُسنُ الظَّنِّ بِرَعْيَتَكَ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يقطعُ عنكَ نصباً طويلاً»^(٢).

أتى ابن المفعع على هذا المعنى وبعض ألفاظه مع تحوير عليها، فقال: «لا يُولَعَنَّ الوالي بسوء الظن لقول الناس، وليجعل لحسن الظن من نفسه نصباً موفوراً يرُوح عن قلبه، ويُصدِّر عنه في أعماله»^(٣).

أكَدَ أمير المؤمنين عليه السلام على حسن الظن من خلال لام الأمر المسبوقة بالفاء. لأن الفاء أو الواو إذا اقترن أحادها بلام الأمر يتوجان أمراً أبلغ مما لو كانت اللام وحدها. وبتغير طفيف افتح ابن المفعع فقرته بلا النهاية ناهياً عن سوء الظن. والنقطة الدالة التي يلتقي عندها الطرفان هي «حسن الظن». وهذا بمفرده لا يمكن لعاقل أن يدعى بأنه أثر علوي خالص إلا إذا عزز بأدلة أخرى. وبعد أن أمر أمير المؤمنين عليه السلام بحسن الظن علل أن حسن الظن يجعلك في روح ويبعد

(١) شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحرياني / ٥ . ٣٣٩

(٢) نهج البلاغة . ٥٠٤

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ٧١ . والذي يجعلنا نؤكِد بلا شك إنَّ هذا مما أحْنَه ابن المفعع من كلام أمير المؤمنين عليه السلام المذكور هو تضمينه للفقرة العلوية التي وردت قبل هذه المذكورة تضميناً أشبَه ما يكون نصبياً إلا أنه أبعدها بعيداً جداً حيث وضعها في الأدب الصغير وليس هنا في الأدب الكبير وستعرف في مكانها.

عنك التعب الشديد «نصباً طويلاً». ولم يجد ابن المفعع عن هذا بل سار عليه وببر دعوته عاداً حسن الظن يروح عن القلب.

والباحث يرى في كلام ابن المفعع السالف شيئاً من الرבקة. فما إن نهى عن سوء الظن «لا يولعنَ الوالي بسوء الظن» سرعان ما عاد وأمر بحسن الظن «وليجعلْ لحسنِ الظنِّ من نفسه نصيباً موفوراً» وهذا تكرار لا طائل منه لأنَّ المعنى واحدٌ بين الجملتين تماماً.

وبهذه الطريقة نستجلِّي التحوير الذي أجراه ابن المفعع على فقرة العهد العلوي أكثر فقوله: «لا يولعنَ الوالي» من قوله عليه السلام: «فليكن منك» والكاف في قول أمير المؤمنين عليه السلام «منك» تدلُّ على «الواли» الذي ذكره ابن المفعع صراحةً. وقوله «وليجعل لحسن الظن نصيباً موفوراً» من قوله عليه السلام: «يجتمع لك به حسن الظن»، وقوله: «يروح به عن قلبه» من قوله عليه السلام: «يقطع عنك نصيبياً طويلاً»؛ فالمعنى واحد بين كلٍّ هذه الفقرات، فضلاً عن ألفاظ بنصها.

ومن حكم أمير المؤمنين عليه السلام التي ضمنها ابن المفعع بهذه الطريقة قوله عليه السلام: «صاحبُ السُّلْطَانِ كراكِبُ الأَسَدِ يُغَبَّطُ بِمَوْقِعِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَوْقِعِهِ»^(١).

فقد شبه صاحب السلطان براكب الأسد، الناس تمنى منزلته التي هو عليها من القرب والنعم بأنعم السلطان، لكنه بقراره نفسه مت Hibيب من تلك المنزلة، لما علم من أنَّ ليس للسلطان مودة دائمة.

ضمن ابن المفعع هذه الحكمة، ولكنَّه خاطب بها السلطان وليس صاحبه فقال: «تضيّق أمورك وتصول على عدوك بقومٍ لست منهم على ثقةٍ

الفصل الثالث: المبحث الأول: أثر كلام الإمام في رسالة الأدب الكبير ٢٨٧

من دين ولا رأي ولا حفاظ من نِيَّةٍ... فإنما أنت في ذلك كراكِبُ الأَسْدِ الذي
يَهَا به من نظرٍ إِلَيْهِ، وهو لمركبِه أَهِيَّبُ»^(١).

ثانياً: التل斐ق:

التل斐ق لغة من اللَّفْقِ بمعنى «خياطة شُقَّتين تلْفُقُ إِحْدَاهُما بِالْأُخْرَى لِفَقًا»
والتل斐ق أعم فـإِن انفصلت الشقتين يقال: انفصل لفَقَهُما فلا يلزمُهُ اسْمُ اللَّفْقِ
قبل الخياطة»^(٢).

وهذا المعنى ما أقرّه من المعنى الاصطلاحي، فبدل جمع شقتي
قمash جمع نصين أدبيّين أو أكثر عندها يكون النص مُلْفِقاً.

وعرفهُ أَسَامِةُ بْنُ مَنْقُذٍ (ت ٥٨٤ هـ)، فـقال: «هُوَ أَنْ يَكُونَ الْبَيْتُ مُلْفِقاً
مِنْ أَبْيَاتٍ قَبْلِهِ»^(٣)

وعلى الأديب في هذا الفن أن يراعي مسألة تناسب النصوص فيما بينها
تناسباً لا فجوة فيه، وذلك بعد أن يضمَّ إلى ذكر الشيء ما يليق به ويجرِي مجراه،
لأنَّ التل斐ق يُقال عنه مراعاة النظير أيضاً^(٤). وللتل斐ق أهمية واسعة، وبخاصة
في ميدان النثر، فقد قال الحريري (ت ٥١٠ هـ) في المقامات الفراتية: إنَّ صناعة
الإنشاء مبنيةٌ على التل斐ق^(٥). وهو بهذه الحالة يعتمد بالدرجة الأساس على
ثقافة الأديب، فكلما كانت تلك الثقافة متنوعة ومتعددة المشارب كان النصُّ

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٧٥. وينظر: أدب ابن المقفع دراسة اسلوبية ٥١.

(٢) العين ٥ / ١٦٥.

(٣) البديع في نقد الشعر ٢٠١.

(٤) ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب ٧ / ١٠٦.

(٥) ينظر: مقامات الحريري ٢١٧، وينظر: صبح الأعشى ٢ / ٣١٦.

مُتَسِّماً بالتل菲ق أكثر، وهو مباح أيضاً من أي نص ولأي أديب، غير أنّ وجوده في الأدب الكبير مختلف نوعاً ما لأنّ - وبدون مبالغة - جميع التلقيقات التي عشر عليها الباحث في هذا الأدب هي من كلام أمير المؤمنين عليه السلام. ويرى الباحث إنّ هذا الأمر يحمل في طياته دلالات عدّة منها:

- ١- الغرام الشديد بكلام أمير المؤمنين عليه السلام حتى أنه فرض هيمنةً ولم يترك مجالاً لأبن المفعع أن يستعين بحكمة أخرى يردد بها الحكمة العلوية.
- ٢- فعل ابن المفعع هذا لربما لإيمانه بأنّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام يباين باقي الكلام، وبالتالي فإنّ تلقيق كلام غريب مع كلامه عليه السلام سيُكتشف، أو يكون شاذًا.
- ٣- إيمانه بأن الموضوع الذي يريد معالجته في أدبه لا يمكن استيفاء معناه، ورواجه، إلا بـتلقيق كلام أمير المؤمنين عليه السلام.
- ٤- قد تكون ثقافة الأديب المُلْفَق بهذه الطريقة مُقتصرة ومؤخوذة من الكلام المُلْفَق.

ولا يهمنا أيّ الطرق سلك ابن المفعع وأي المقاصد قصد، لأنّ التبيجة واحدة، وهي تأثره البالغ بكلام أمير المؤمنين عليه السلام وبهذه الطريقة التي جعلته يردد الحكمة العلوية بأختها والرسالة بالرسالة والمعنى بالمعنى .. حتى يمكن عد هذا المظهر أكبر مظاهر تأثر ابن المفعع بكلام أمير البيان عليه السلام، سواء هنا في الأدب الكبير، أو ما سيأتي في الأدب الصغير.

وبدقّة أكثر فإن تلقيق ابن المفعع بكلام الإمام عليه السلام قد ورد مكون من:

١- حكمتين علويتين:

كتب ابن المفعع في الأدب الكبير موسيّاً الوالي: «لا يُضيعن الوالي التثبت

الفصل الثالث: المبحث الأول: أثر كلام الإمام في رسالة الأدب الكبير ٢٨٩

عندما يقول، وعندما يعطي.. فإن الرجوع عن الصمت أحسن من الرجوع عن الكلام، وإن العطية بعد المنع أجمل من المنع بعد الإعطاء»^(١).

فابن المقفع أوصى الوالي وصدره مطمئن لأن ما أوصى به ببرره بكلام أمير المؤمنين عليه السلام. فحكمته التي هي في القول ما هي إلا معنى، وصياغة، وأسلوباً من وصية أمير المؤمنين لولده الحسن عليه السلام منها:

«وتلافيَكَ ما فرطَ من صمتكَ أيسِرَ من إدراكِكَ ما فاتَ من منطقك»^(٢).

فالمعنى واحد بين النصين ومفadه إن المتكلم قادر على أن يتكلم بعد صمته، ولكن لا يستطيع أن يعيد ما تكلَّم به. لأنَّ الكلام يُسمع وينقل؛ فلا يُستطيع إعادةِ صمتاً... وليس الصمت بمنقولٍ ولا مسموعٍ فُيُغَذِّرُ استدراكه»^(٣).

وهكذا الصياغة فهي صياغة علوية بإمتياز، فقد جعل ابن المقفع حكمته تتكون من مقطعين يفصل بينهما اسم التفضيل: «إن الرجوع عن الصمت أسهل من الرجوع عن الكلام».

وهكذا أمير المؤمنين عليه السلام:

«تلافيَكَ ما فرطَ من صمتكَ أيسِرَ من إدراكِكَ ما فاتَكَ من منطقك».

وحتى بعد أن غيرَ ابن المقفع بعض الألفاظ إلا أن دلالتها هي لم تتغير.

فقد أبدل (صمتك) بـ (الصمت).

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٧٨-٧٩.

(٢) نهج البلاغة ٤٦٨.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦ / ٢٦٨.

و (أيسر) بـ (أسهل).

و (منطقك) بـ (الكلام).

و (تلافيك) بـ (الرجوع).

وأمّا قوله الآخر والذى تحدّث فيه عن العطاء، فهو تضمين نصي لحكمة أمير المؤمنين عليه السلام:

«العطية» بعد المُعْجَلِ من المُنْعِ بعدها العطية»^(١).

وقد قال ابن المقفع وهو يلفق أيضاً من حكمتين علويتين: «واعلم أن الصبر صبران: صبرُ المرء على ما يكرهُ، وصبرُه عما يحب. والصبرُ على المكره أكبرهما وأشباههما أن يكون صاحبه مضطراً». واعلم أن اللئام أصبرُ أجساداً، وأنَّ الكرامَ هم أصبرُ نفوساً»^(٢).

فأول كلامه من حكمة أمير المؤمنين (عليه السلام):

«الصبر صبران: صبرٌ على ما تكرهُ، وصبرٌ عما تحبُّ»^(٣).

وبعد أن عشق ابن المقفع كلام أمير المؤمنين عليهما عشق تأكيده أيضاً وما ابتدأ فيه من فعل الأمر «اعلم» - الذي غالباً ما يقدم به لقول الإمام - وما عزّزه بـ «إن» التوكيدية، إلا دلالة على ذلك.

ومن عشقه البالغ لهذا الكلام رغبته في التوسيع به، أو شرحه حتى وإنْ قوله: «والصبر على المكرور أكترهما». لا يكاد يختلف عن شرح ابن

(١) غرر الحكم ودرر الكلم .٧٩

.١١٠) الأدب الصغير والأدب الكبير

(٣) نهج البلاغة ٥٦١، وينظر: أدب ابن المقفع دراسة أسلوبية ٥٢.

أبي الحديد: «النوع الأول أشّق من الثاني»^(١)، ولربما لهذا السبب قدّم أمير المؤمنين عليه السلام الصبر على الضرّاء على الصبر عن السرّاء، أي بجسامته الأولى.

أما قول ابن المفعع الأخير فهو تضمين لحكمة أمير المؤمنين عليه السلام: «اللئامُ أصْبِرُ أَجسادًا»^(٢).

غير أنّ ابن المفعع - كعادته - قدّم لها بفعل الأمر ثم توسيع عليها كاختها.

٢- ثلاث حكم علوية:

تحدث أمير المؤمنين عليه السلام عن الصدقة والصديق في أقوالٍ كثيرة؛ فمرة يعدّ الصديق أفضل عدّة لنوب الزمان، وأخرى يعده زينة في أيام الأمان، مؤكداً على أنّ من يعجز عن اكتساب الصديق فهو أعجز الناس، فقال في هذه المعاني:

- «إِخْوَانُ الصَّدِيقِ أَفْضَلُ عَدَّةٍ»^(٣).
- «الْأَخْوَانُ زِينَةٌ فِي الرَّخَاءِ، وَعَدَّةٌ فِي الْبَلَاءِ»^(٤).
- «أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اِكْتِسَابِ الْإِخْوَانِ وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفَرَ بِهِ مِنْهُمْ»^(٥).

جمع ابن المفعع هذه الحكم الثلاث، فقال: «اعلم أنّ إخوان الصديق هم خير مكاسب الدنيا، هم زينة في الرخاء، وعدّة في الشدة، ومعونة على

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٨ / ٣١١.

(٢) غر الحكم ودرر الكلم ٢٦٠.

(٣) عيون الحكم والمواعظ ١٢٦، ميزان الحكم ١ / ٤١.

(٤) غر الحكم ودرر الكلم ٨٢.

(٥) نهج البلاغة ٥٢٢.

خير المعاش والمعاد. فلا تفرطون في اكتسابهم وابتغاء الوصلات والأسباب إليهم»^(١).

إذاً فهذه الحكم التي فرقها الإمام جمعها ابن المقفع في نصٍ واحد، وكان قد ابتدأها بفعل الأمر «اعلم» وهذه الطريقة غالباً ما يستعملها مع كلام الإمام عليه السلام الذي يضمنه. ضمن من الحكمة الأولى حرفيًا «إخوان الصدق». ومن الثانية حرفيًا أيضًا «هم زينة في الرخاء». والضمير «هم» هنا عائد على «الإخوان» واستعمال الضمير بدلاً من الاسم الصريح طريقة شائعة جداً في تعامله مع كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

أما تضمينه المحور فمن الحكمة الثانية والثالثة.

ففي الحكمة الثانية قال الإمام عليه السلام:

«وعدة في البلاء».

غير فيها ابن المقفع تغييرًا طفيفاً فقال: «وعدة في الشدة». والمعنى واحد إذ لا فرق بين الشدة والبلاء.

وأما قول الإمام عليه السلام في حكمته الثالثة:

«أعجز الناس من عجز عن اكتساب الأخوان».

جعله ابن المقفع آخرًا «فلا تفرطون في اكتسابهم».

والضمير «هم» هنا أيضاً عائد على الأخوان أي لا تفرط في اكتساب الأخوان، وهنا يبرز الأثر العلوي أكثر جلاءً.

(١) الأدب الصغير والدب الكبير . ١٠٨

٣- حكمتين ووصية:

فمن هذا النوع من التلقيق قول ابن المقفع في باب الاعتذار: «لا تعذرنَّ إِلَى مَن يُحِبُّ أَن يَجِدَ لَكَ عَذْرًا، وَلَا تُسْتَعِنَّ إِلَّا بِمَن يُحِبُّ أَن يَظْفِرَكَ بِحاجَتَكَ، وَلَا تُحَدِّثَنَّ إِلَّا مَن يَرَى حَدِيثَكَ مَغْنِيًّا، مَا لَمْ يَغْلِبَكَ اضْطَرَارُهُ. وَإِذَا اعْتَذَرَ إِلَيْكَ مُعْتَذِرٌ، فَتَلَقَّهُ بِوْجَهٍ مَشْرِقٍ وَبِشَرٍ وَلِسَانٍ طَلْقٍ إِلَّا أَن يَكُونَ مِن قَطْعِيْتُهُ غَنِيمَةً»^(١).

فكلامه هذا مكون من أربعة نصوص علوية: حكمتين، ثم مقطعين من وصية أمير المؤمنين لولده الحسن عليه السلام.

أما بداية كلامه فهو تضمين لحكمة علوية نهى فيها عليه السلام عن الإعتذار إِلَى مقابل يتقبله وفي نفس غرس لتلقينه، وإِلَّا فالرغبة عنه أولى، فقال: «لا تعذرنَّ إِلَى مَن لا يُحِبُّ أَن يَجِدَ لَكَ عَذْرًا»^(٢).

وأما قوله: «ولا تُحَدِّثَنَّ إِلَّا مَن يَرَى حَدِيثَكَ مَغْنِيًّا». فهو يشبه ما جاء في وصية الإمام لولده الحسن عليه السلام: «ولا ترَغَبَنَّ فِيمَنْ رَاهَدَ فِيهِ»^(٣).

ثم عاد مجددًا إلى الحديث عن الاعتذار: «وإِذَا اعْتَذَرَ إِلَيْكَ مُعْتَذِرٌ فَتَلَقَّهُ بِوْجَهٍ مَتْرَفٍ..».

وهذا كقول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الباب:

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٠٧.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم ٧٤٩.

(٣) نهج البلاغة ٤٧٠.

«واقبِلْ عُذْرَ مَنْ اعْتَذَرَ إِلَيْكَ»^(١).

وبالنسبة لما ورد في ذيل كلامه: «إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِمْنَ قَطِيعَتِهِ غَنِيمَةً». فكان فيه صدى لقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«قَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صَلَةَ الْعَاقِلِ»^(٢). و«هَذَا حَقٌّ، لَأَنَّ الْجَاهِلَ إِذَا قَطَعَكَ انتَفَعَ بِعِدِّهِ، كَمَا تَنْتَفَعُ بِمَوَاصِلِ الصَّدِيقِ الْعَاقِلِ لَكَ»^(٣).

وبعبارة أخرى مثلما أَنَّ صَلَةَ الْعَاقِلِ غَنِيمَةً كَذَلِكَ قَطِيعَةُ الْجَاهِلِ غَنِيمَةً أيضًا، لَأَنَّ فِي الْجَاهِلِ شَرًّا، وَبِجَفَائِهِ يَجْفُونَ ذَلِكَ الشَّرُّ، وَبِالْتَّالِي إِنَّ بَعْدَهُ غَنِيمَةً. وهنا يتضح بجلاء التطابق بين كلام أمير المؤمنين عليه السلام وكلام ابن المقفع.

ومثلما اتضحت في إِنَّ ابن المقفع تحدَّثَ في مستهلِ كلامِهِ عن الاعتذار، ثُمَّ انتقل إلى معنى آخر عندما بيَّنَ مَنْ تُفَضِّلُ الاستعانة بهم، ثُمَّ إلى معنى ثالث تحدَّثَ فيه عَمَّنْ تُفَضِّلُ محادثته، ثُمَّ عَادَ رابعةً إلى الاعتذار، وهو بهذا كُلُّ يلْفَقُ كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام إلا أنَّ هذا التلفيق - مثلما يراه الباحث - لم يكن مدوحًا، لأنَّه جمع بين معانٍ ليست هي بالمتقاربة، بينما التلفيق المحبب هو مثلما قال الدكتور إحسان عباس: «أنْ يأخذَ الشاعر المعاني المتقاربة ويستخرج منها معنى مؤكّداً يكون له كالاختراع»^(٤).

كـ حِكْمَةٌ وَمَقْطَعٌ مِنَ الْعَهْدِ:

فمن ذلك قول ابن المقفع: «حَقُّ الْوَالِي أَنْ يَتَفَقَّدَ لَطِيفَ أَمْوَارِ رِعْيَتِهِ، فَضْلًا

(١) غُرُّ الْحِكْمَ وَدَرْرُ الْكَلْمِ . ٤٣٦

(٢) نَهْجُ الْبَلَاغَةِ . ٤٧١

(٣) شِرْحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ لَابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ / ١٦ / ٢٨٤

(٤) تَارِيخُ النَّقْدِ الْأَدْبَرِ عِنْدَ الْعَرَبِ . ٤٥٩

عن جسيمها، فإنَّ للطيف موضعًا ينتفعُ به، وللجسيم موضعًا لا يُستغنى عنه. ليتفقد الوالي، في ما يتفقدُ من أمورِ رعيته، فاقةَ الأخيارِ الأحرارِ منهم، فليعمل في سدِّها، وطغيانَ السفلةِ منهم فليقمعهُ، وليسو حش من الكريمِ الجائعِ واللئيمِ الشبعانِ، فإنَّها يصلُّ الْكَرِيمُ إِذَا جَاءَ، وَاللَّئِيمُ إِذَا شَبَعَ»^(١).

يرى ابن المفع في أول كلامه إنَّ من واجبات الوالي معرفة وتفقد ما تحتاجه الرعية في صغار الأمور وكبارها. وهو بذلك اعتمد كلياً على ما جاء في عهد أمير المؤمنين عليهما السلام الأشتر (رضوان الله عليه) في هذا الشأن:

«ثُمَّ تَفَقَّدُ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا، وَلَا يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتُهُمْ بِهِ، وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفًا تَعاهَدْتُهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَ؛ فَإِنَّهُ دَاعِيَهُ لُهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ. وَلَا تَدْعُ تَفَقَّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ إِتَّكالًا عَلَى جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِلْيُسِيرِ مِنْ لَطْفَكَ مَوْضِعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعًا لَا يَسْتَغْفُونَ عَنْهُ»^(٢).

فأغلب النص العلوي ضمنه ابن المفع بنصه، ولكن كعادته؛ فهو يرغب في أن يغير شكلياً في فقرات كلام الإمام عليهما السلام - هذا أو غيره - إذ نجد هذه الطريقة في مقاطع عدّة من أول نص المذكور، فقد أبدل: «ولا تدع تفقد لطيف أمورهم» بـ «أن يتفقد الوالي لطيف أمور رعيته».

و «اتكالاً على جسيمها» بـ «فضلاً عن جسيمها».

و «فإنَّ لليسير من لطفك موضعًا» بـ «فإنَّ للطيف موضعًا».

و «ينتفعون به» بـ «ينتفع به».

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٧٧-٧٨.

(٢) نهج البلاغة ٥٠٦ - ٥٠٧.

و «للجسم موقعاً» بـ «وللجسم موضعًا».

و «لا يستغنون عنه» بـ «لا يستغنى عنه»^(١).

ومثلما بيّنا سابقاً إنَّ من مناورات ابن المقفع مع كلام أمير المؤمنين عليه السلام هي أن يعمد إلى الاسم الظاهر فيحوّله إلى ضمير، أو بالعكس، ونجد هذا هنا في قوله: «أن يتفقد الوالي لطيف أمور رعيته» ولفظة «رعايته» عائدة على الضمير الموجود في قول الإمام عليه السلام:

«ولا تدع تفقد لطيف أمورهم».

فالضمير «هم» هنا عائد على الرعية، لأنَّه عليه ذكرها سابقاً.

وأما الإسم «تفقد» في قول الإمام عليه السلام، فقد حوله ابن المقفع إلى مصدر مؤول من أن والفعل فقال: «أن يتفقد» ولو أرجعنا المصدر لأصله لقلنا كما قال الإمام عليه «تفقد».

وعلى هذا فإنَّ حتى هذه التغيرات التي أجرتها ابن المقفع على كلام إمام الكلام عليه فهي شكلية تمويهية لا أكثر، وإلاً فإنَّ كلامه أشبه ما يكون تضميناً نصياً لكلام الإمام عليه.

ومن مناوراته العدّة هي التقديم والتأخير في كلام أمير المؤمنين عليه، فما افتتح به الإمام المقطع المذكور: «ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من

(١) وهنا ومن النصوص التي تأكي نؤكد ثانية إنَّ عهد أمير المؤمنين عليه لمالك الأشتر كان موجوداً وكان مؤثراً وبالتالي بطلان الشكوك والاتهامات التي تقول بأنَّ العهد لم يكن موجوداً في زمن الشريف الرضا ولو كان موجوداً لأنَّه الطبرى في تاريخه بينما هنا تبين أنه موجود قبل الطبرى والرضى بمئات السنين.

ولدهما» آخره ابن المفعع إلى المقطع الثاني: «ليتفقد الوالي، ما يتفقد من أمور رعيته». غير إنّ ابن المفعع قصر كثيراً لما أبدل «الوالدان» بـ«الوالبي»، لأنّ في تعبير الإمام عليهما السلام «نهاية عن نهاية الشفقة»^(١). وممّا زاد في نهاية الشفقة - مثلما يرى الباحث - هو إنّ أمير المؤمنين عليهما السلام لم يقل: ما تفقد الوالد، بل قال: «الوالدان»، لأنّ طبيعياً لو اشترك الوالدان معاً في رعاية أبنائهم وتفتيش أمورهم لكان ذلك أكثر إمعاناً والتفاتاً لصغار الأمور وكبارها، وأقدر على توفيقية احتياجاتهم، لما لكلٍّ منها - أي الوالدان - من نظرة خاصة و المجال عملٌ خاص مكلف به تجاه أولاده، وبالتالي تكون النتيجة هي تلبية جميع احتياجات الأبناء، وهكذا أراد أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) للوالبي أن يكون.

يذكر إن الإمام عليهما السلام استعمل اسمياً المكان: «موقع» مع اللطيف اليسير، و«موقع» للجسيم العظيم، وهذا لم يكن بمحض الصدفة، ولعل السبب الذي نراه في ذلك هو إنّ اللطيف اليسير بمعناهما الإيجابي، وبدلاتهما الهادئة يناسبهما كلمة «موقع»، في حين إن الجسيم وما فيه من دلالة الشدة والمشقة تخيّر لها عليهما ما يناسبها، لأنّ الموضع أو الواقعة أو الموقعة توحى إلى ذلك. ولهذا جعل (صلوات الله عليه) لكلّ أمرٍ ما يناسبه. ولكن أنتَ لابن المفعع هذا، إذ جعل «الموضع» مع اللطيف والجسيم.

وفي نهاية كلامه المذكور استدل ابن المفعع على نصيحته التي وجهها بحكمة علوية ضمنها حرفياً جاءَ فيها: «اْحذِرُوا صُولَةَ الْكَرِيمِ إِذَا جَاءَ، وَاللَّئِيمِ إِذَا شَيْءَ»^(٢).

(١) شرح نهج البلاغة لابن ميمون ٥/٣٤٦.

(٢) نهج البلاغة ٥٦١. ولتوثيق الحكمة ينظر: حكم الإمام علي عليهما السلام ومواعظه دراسة وتحقيق =

علق الشيخ عباس القمي على هذه الحكمة قائلاً: «يراد بال الكريم شريف النفس، ذو الهمة العالية، وبجوعه ضيمه وامتهانه، وشدة حاجته. ذلك مستلزم لثوران غضبه وحيثيته عند التفات الناس إليه، وشعب اللئيم كنایة عن غناه وعدم حاجته، وذلك يستلزم تمرده وأذيته لمن كان تحت يده.. فربما كان جوعه سبباً للتغيير أخلاقه وتجويدها»^(١).

٥. وصية وحديث:

لم تسلم حتى مقدمة الأدب الكبير من الأثر العلوي، وبالتحديد كان التأثير بوصية أمير المؤمنين لولده الحسن عليه السلام، وابن المفعع وفي هذا المكان بالذات كان مصيباً بهذا التأثير، لأنّه في تلك المقدمة أوصى بالتوجه نحو ثلة متميزة والسير على هديها في كل شيء، والوصية في جزء منها توصي بالإقتداء بالصالحين، وأخذ ما توصلوا إليه من آراء نخبة. فمنها قوله عليه السلام:

«فَبَادِرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ، لِتَسْتَقْبِلَ بِحِدْدِ رَأْيِكَ مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجَرَّبَتَهُ، فَتَكُونَ قَدْ كُنِيَتَ مَؤْوَنَةً لِلَّطَّلِبِ، وَعُوْفِيَتِ مِنْ عِلاجِ التَّجْرِبَةِ... أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمَرًا مِنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ؛ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ؛ بَلْ كَأَنِّي بِمَا إِنْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ

= من شروح نهج البلاغة حتى نهاية القرن السابع الهجري ٤١. وأشار إلى تصميم ابن المفعع لهذه الحكمة الباحث عبد الحسين العمري في رسالته للماجستير (أدب ابن المفعع دراسة أسلوبية) ٥١.

(١) شرح حكم أمير المؤمنين عليه السلام ١٢ - ١٣ .

ضَرِّرْهُ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ... وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَّا يِ مِنْ أَمْرِكَ
مَا يَعْنِي الْوَالِدُ الشَّفِيق»^(١).

إن من أهم ما يتمركز عليه النص وأكده عليه أمير المؤمنين هو أنه عليه السلام من أهم أهل التجارب، وأدقهم نظراً للأحداث، وأبعدهم سيراً للواقع حتى كأنه عمر مع أوّلهم كما عمر مع آخرهم، وبالتالي استخلص «من كل أمير نخيله» أي المختار منه^(٢)، ثم وظف عليه السلام تلك المقدرة على استخلاص الصفو من الكدر، وهو ما كنaitان: الأولى عن الخير، والثانية عن الشر^(٣)، وبث ما استخلصه من تلك التجارب ليتفق بها الإمام الحسن عليه السلام وكل من قرأها.

وقال عليه السلام في بيان ما يمتلكه من علم:

«عَلِّمْنِي رَسُولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلْفَ بَابٍ مِنَ الْعِلْمِ يُفْتَحُ لِي مِنْ كُلِّ بَابٍ أَلْفَ
بَابٍ»^(٤).

نظر ابن المقفع إلى المعاني المذكورة وتفاصيلها، وبعض العبارات بنصها، حتى قال في الأدب الكبير: «ووجدناهم لم يرضوا بها فازوا به من الفضل الذي قسم لأنفسهم حتى أشركونا معهم في ما أدركوا من علم الأولى والآخرة فكتبوا به الكتب الباقية، وضربو الأمثال الشافية، وكفونا به مؤونة التجارب والقطن. وبلغ من اهتمامهم بذلك أن الرجل منهم. كان يفتح له الباب من العلم، أو الكلمة من الصواب... فكان صنيعهم في ذلك صنيع الوالد الشفيف على ولده،

(١) نهج البلاغة . ٤٥٩

(٢) ينظر: لسان العرب مادة (نخل).

(٣) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٥/٢٦٣.

(٤) نشأة التشيع والشيعة ١١٢ . وينظر: رسائل المرتضى ١/٢١٥.

وبمقارنة بعض الفقرات ببعضها بين النصين يتضح كيف اعتمد ابن المقفع على كلام أمير المؤمنين عليه السلام المذكور.

فقد أبدل جملة الإمام «كفالك» بـ «كفونا». و «أهل التجارب بغطيه و تجربته» بـ «مؤونة التجارب». و «وقد كفيت مؤونة الطلب» بـ «إرادة ألا تكون عليهم مؤونة في الطلب». و «وعناني ما يعني» بـ «صنيعهم في ذلك صنيع». و «الوالد الشفيف» بـ «الوالد الشفيف».

فهنا ضمن ابن المقفع عبارة الإمام الأخيرة بنصها، أمّا التي قبلها، وإن كان غير في الفاظها، إلاّ إنه استعمل التكرار» صنيعهم.. صنيع» مثلما وجده عند الإمام: «عناني.. يعني».

والملفت إن ابن المقفع لم يمدح هؤلاء الناس الذين تأثر بهم ودون كلامهم فحسب، بل اعتمد على كلامهم ووصفهم لترسلهم ليمدحهم به. فقوله: «يُفتح له الباب من العلم» مشكّل كلمةً كلامةً من حديث المرتضى عليه السلام: «علمني... ألف بابٍ من العلم يُفتح لي من كلّ باب..».

٦- نصين من العهد:

ومن هذا النوع من التلقيق قول ابن المقفع: «إن استطعتَ أن تجعل صحبتكَ لمن قد عرفك بصالحِ مروءتكَ وصحة دينكَ وسلامةِ أمروكَ قبلَ

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٦٣ - ٦٤.

ولايته فافعل فإنّ الوالي لا علم له بالناس إلا ما قد علم قبل ولايته. أما إذا ولّي فكل الناس يلقاه بالترzin والتصنعن وكلهم يحتال لأن يشني عليه عنده بمال ليس فيه. غير أن الأنذال والأرذال هم أشد لذلك تصنعاً وأشد عليه مثابرة وفيه تحلاً. فلا يمتنع الوالي، وإن كان بلغ الرأي والنظر، من أن ينزل عنده كثير من الأشرار بمنزلة الأخيار، وكثير من الخانة بمنزلة الأماء، وكثير من الغدرة بمنزلة الأوفىاء، ويغطى عليه أمر كثير من أهل الفضل الذين يصونون أنفسهم عن التمحل والتصنعن^(١).

فُكِّلَ هذه المعاني، وبعض الألفاظ قد وردت في مقطعين متبعدين من مقاطع عهد أمير المؤمنين عليه السلام مالك الأشتر «رضوان الله عليه»، إلا أن ما قام به ابن المفع هو دمجهما معاً، وتدخلهما أيضاً من خلال التقديم والتأخير.

المقطع الأول:

كان أمير المؤمنين عليه السلام مهتماً بالغاً في تخير الكتاب، لما لهم من سلطة فاعلة وقوّة مقتدرة على التأثير في المجتمع، لا تقل عن سلطة الإعلام ودوره في وقتنا الراهن، لذا أعطى عليه السلام طريقة مُثل تُتبع من أجل تخير هذه الثلّة المهمة، لا تقوم هذه الطريقة على أساس التفرس والتصنعن الذي يجده عامة الناس، بل على وفق ضوابط وأسس فصلها عليه السلام منها:

«لا يُكُنْ اخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاستِكَ، وَاسْتِنَامَتِكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ
مِنْكَ»^(٢).

الفراسة هي حسن النظر في الأمور وقوّة الظن، والاستقامة هي السكون

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير .٨١

(٢) نهج البلاغة .٥١٢

والثقة، والمعنى لا يكون انتخابك لكتابك نابعاً من ميلك الخاص^(١)، لأنّ ومثلها قال عليه السلام: «الرجال يعترفون لفراسات الولاة بتصنّعهم وحسن خدمتهم»^(٢).

وهذا ما وجدناه في قول ابن المقفع: «فُكُلَ الناس يلقاه بالتزين والتصنّع».

وكان عليه السلام قد حذر من أن كلّ هؤلاء المتصنعين يكذبون، وتصنّعهم هذا ما هو إلا حبالة لاصطياد ود الوالي فقال (صلوات الله عليه): «وليس وراء ذلك - أي التصنّع - من النصيحة والأمانة شيء»^(٣).

وعن هذا قال ابن المقفع لما وصف المتصنعين: «وكلّهم يحتال لأن يُثني عليه عنده بما ليس فيه...».

وبعد هذه التحذيرات جاءَ المقياس الحقيقِي عند أمير المؤمنين عليه السلام الذي يحدّد تسمّم هذا المنصب فقال: «ولكن أختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك، فاعمد لأحسنهِم كأن في العامة أثراً، وأعرفهم بالأمانة وجهها»^(٤).

وهذا المقياس قدّمه ابن المقفع إلى أول كلامه المذكور. ولكن هذه الإرشادات التي حددتها أمير المؤمنين عليه السلام لتخيير الكتاب وضفتها ابن المقفع مع مَنْ يُصحِّب من الولاة.

المقطع الثاني:

وفيه نهى أمير المؤمنين عليه السلام واليه عن الاحتياج من الرعية فقال:

«وأما بعد، فلا تطولنَ احتجابك عن رعيتك»^(٥).

(١) ينظر شرح نهج البلاغة لمحمد عبده /٣٤٦.

(٢) نهج البلاغة .٥١٢

(٣) م. ن. ٥١٢

(٤) م. ن. ٥١٢

(٥) م. ن. ٥١٦

وهذا ما وجدناه في قول ابن المقفع: «فلا يمتنع الوالي». وبایضاح أكثر فإن لفظة «احتياجاتك» مكونة من الاحتياج، والضمير «الكاف» الدال على الوالي، وابن المقفع أبدل الاحتياج بـ «يمتنع» والمعنى واحد، وأبدل الضمير بالاسم الظاهر «الوالى».

والذي نلحظه في دقة كلام أمير المؤمنين عليه السلام هنا أنّه لم ينه عن الاحتياج مطلقاً، لأنّه مدرك بأنّ للوالي مشاغل تتحمّل عليه الاحتياج عن الرعية، ولكنه نهى عن طول الاحتياج «لا تطولنَّ»، ثم بعد ذلك برر عليه السلام نهي الوالي عن الاحتياج بقوله:

«فَإِنَّ احْتِيَاجَ الْوَلَاةِ عَنِ الرَّعْيَةِ... يَقْطُعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُونَهُ، فَيَصْفُرُ عِنْدَهُمُ الْكَبِيرُ، وَيَعْظُمُ الصَّغِيرُ، وَيَقْبُحُ الْحُسْنَ، وَيَخْسُنُ الْقَبِيحُ، وَيُشَابِّهُ الْحُكْمَ بِالْبَاطِلِ»^(١).

إذاً باحتياج الوالي تفلت الموازين ويصبح عزيز القوم ذليلهم «ولا خير في قوم يذلّ كرامهم»^(٢) ... موصلاً هذا المعنى عن طريق تلك المقابلات المؤثرة ذات الفقرة المتوازية، وهذا النوع من التخاطب له القابلية على أن «يكشف دلالة المعنى، ويضاعف من الطاقة الشعرية بشرعية النسق الإيقاعي القائم على الضد... ليخلق جوّاً إيقاعياً... يوصل الفكرة»^(٣).

وعلى أية حال فإن المقفع وهو يجدو حذو أمير المؤمنين عليه السلام برر رفضه

(١) نهج البلاغة .٥١٦

(٢) البيت لأبي هلال العسكري وتمامه: لا خير في قوم يذلّ كرامهم ويعظم فيهم نذلهم ويسود بنظر معجم الأدباء / ٨ - ٢٦١ - ٢٦٢.

(٣) المستويات الجمالية في نهج البلاغة .٧٤

٣٠٤ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الشر العربي

لاحتجاب الوالي بما برأه الأئمّة. وذلك في قوله: «من أن ينزل عنده كثير من الأسرار بمنزلة الأخبار، وكثير من الخانة منزلة الأمانة، وكثير من الغدرة بمنزلة الأفياء... إلى آخر قوله».

ومثّلما اتّضح فإنّ هذا الاتّباع لم يكن بالمعنى فحسب، بل نجد إنّ ابن المفع
يعدّ إلى فن المقابلة عند أمير المؤمنين عليه السلام:

فيصغر عندهم الكبير - ويعظم الصغير.

يُقبح الحسن - يُحسّن القبيح.

ليحوّله إلى ما يشبهه وهو الطلاق:

الأسرار - بمنزلة الأخبار.

الخانة - بمنزلة الأمانة.

الغدرة - بمنزلة الأفياء.

ثالثاً: البسط:

البسط مثلّما سلف آليّة أو مظاهر من مظاهر تأثير الأديب تقوم على التوسيع والزيادة. ونرى أنّ هذا المظاهر يقوم على أساسين:

الأول:

أن يتميّز الكلام الذي يُراد بسطه بمضمونٍ عالٍ، وصياغة فنية متميّزة - لأنّ بعض الصياغات لها تأثير مباشر على المعنى سلباً أو إيجاباً - فإذا فقد النص هذه الخاصية تعسّر بسطه، وحتى إن أمكن يكون دون جدوى.

الثاني:

يُنْصِ الأَدِيبُ الْمُتَأْثِرُ، إِذَا عَلَيْهِ أَنْ يَجْعَلَ الْبَسْطَ أَمْرًا إِيجَابِيًّا مِنْ خَلَالِ الإِتِيَانِ بِمَعْنَى جَدِيدٍ، أَوْ إِظْهَارِ مَعْنَى مَوْجُودٍ لِكُنَّهِ مَبْهُمٌ، أَوْ يَعْرُضُ الْكَلَامَ الْأَصْلَ بِطَرِيقَةٍ تَفُوقُ الْأُولَى. إِمَّا إِذَا فَقَدْنَا هَذِهِ الْأَسْسَ فَإِنَّ الْبَسْطَ لَا يَكُونُ، وَإِنْ كَانَ فَلَرَبِّا يَعْدُ نَفْلًا مِنَ الْقَوْلِ غَيْرِ مُحَمَّدًا، وَلَرَبِّا يُعَدُّ مَحَاوِلَةً مِنَ الْأَدِيبِ الْمُتَأْثِرِ لِلتمويهِ عَلَى الْكَلَامِ الَّذِي تَأَثَّرَهُ وَقَامَ بِبَسْطِهِ.

أَمَّا وَرُودُ الْبَسْطِ عِنْدَ ابْنِ الْمَقْفَعِ فَهَذَا مَا عَرَفَهُ عَنْهُ بَعْضُهُمْ فَقِيلَ عَنْهُ: «لَا يَتَنَاهُ مَعْنَى مِنَ الْمَعْنَى، إِلَّا وَيَتَبَعُهُ حَتَّى نَهَايَتِهِ، وَهَذِهِ حَقَّهُ مِنَ الْوَضُوحِ. وَكَثِيرًا مَا يَفْصِّلُ، وَيَشْرِحُ حَتَّى لَا يَدْعُ لِلقارئِ مَحَالًا لِأَعْمَالِ الْذَّهَنِ». وَلَقَدْ انتَدَ بَعْضُ النَّفَادِ هَذِهِ النَّاحِيَةَ، فَقَالُوا إِنَّ ابْنَ الْمَقْفَعَ، إِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ يُقْنَصُ بِالْقَارئِ، وَإِمَّا أَنَّهُ يَخْشِي أَنْ لَا يَكُونَ مَفْهُومًا، وَكَلَا الْحَالَتَيْنِ سِيءٌ، لِأَنَّهُ يَوْقَعُ الْكَاتِبُ فِي خَطَا الْأَسْهَابِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ»^(١). وَقِيلَ أَيْضًا: «إِنَّهُ أَفَادَ مَمَّا سَمِعَ، وَزَادَ عَلَيْهِ مِنْ عَنْدِهِ، وَتَوَسَّعَ فِي الْكَلْمَةِ الصَّغِيرَةِ، وَاللُّفْتَةِ الْقَصِيرَةِ»^(٢).

وَلَكِنَّ أَصْحَابَ هَذَا الرَّأْيِ لَمْ يُخْبِرُونَا قَطُّ عَنْ هَذِهِ الْكَلْمَةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي توَسَّعَ عَلَيْهَا ابْنُ الْمَقْفَعِ لِمَنْ هِيَ.

وَفِي مَقْدِمَةِ أَدِيبِهِ الْمُذَكُورِ أَشَارَ ابْنُ الْمَقْفَعِ صِرَاطَهُ إِلَى أَنَّهُ اعْتَدَ هَذِهِ الْآلِيَةَ مَعَ مَنْ أَسْمَاهُمْ بِ«الْأَوْلَىنِ»، فَقَالَ: «وَقَدْ بَقِيتُ أَشْيَاءُ مِنْ لَطَائِفِ الْأَمْوَارِ فِيهَا مَوَاضِعُ لِصَغَارِ الْفَطْنِ، مَشْتَقَةٌ مِنْ جَسَامِ حُكْمِ الْأَوْلَىنِ وَقَوْلِهِمْ، فَمَنْ

(١) دراسات في الأدب العربي ٥٤.

(٢) آثار ابن المفع ٣٠.

ذلك بعض ما أنا كاتب في كتابي هذا^(١). إذاً فهو كان يعتمد على حكم الأولين ويشتق منها صغار الفطن وطبعاً هذا الاستيقاف لا يحدث إلاّ بعد أن يزيد ما يراه مناسباً على الحكمة التي يتآثر بها وهذا هو معنى البسط بعينه. أما من هم الذين اشتقَّ ابن المفع من حكمهم؟ وبعد مقارنة الأدب الكبير ببعض كلام أمير المؤمنين عليه السلام تم تحديد كثيراً من الحكم العلوية قام ابن المفع ببساطها ومنها قوله عليه السلام:

«لا قربة بالتوافل إذا أضرت بالفرائض»^(٢).

النفل هو الزيادة على الأصل^(٣). والتوافل جمع نافلة، وهي ما يُنطَوَّعُ به من الأعمال الصالحة زيادة على الفرائض المكتوبة^(٤).

وكلامه هذا يمكن أن يحمل على الحقيقة، وعلى المجاز أيضاً، فإنْ حُمِّلَ على الحقيقة فيعني أنَّ النفل لا يصح ممَّن عليه قضاء فريضية فاته لا في الصلاة ولا في غيرها، أمّا لو حُمِّلَ على المجاز فيعني وجوب الابتداء بالأهم^(٥).

وسواء حُمِّل على الحقيقة أم المجاز فإنَّ صداؤه واضح في قول ابن المفع، لكن بتوسيع وتفصيل كبير: «يا طالب الأدب [العلم] إن كنت نوع العلم تريده فأعرِّف الأصول والفصل. فإنَّ كثيراً من الناس يطلبون الفصول مع إضاعة الأصول فلا يكونُ دركهم دركاً. ومن أحرز الأصول اكتفى بها عن الفصول. وإن أصاب

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٦٥.

(٢) نهج البلاغة ٥٥٩.

(٣) ينظر: لسان العرب ١١/٦٧١ مادة (نفل).

(٤) نهج البلاغة ٥٥٩. (الخامس).

(٥) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٨/٢٩٤.

الفصل بعد إحراز الأصل فهو أفضل. فأصل الأمر في الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب، وتحتسب الكبائر، وتؤدي الفريضة... وأصل الأمر في صلاح الجسد إلا تحمل عليه من المأكلي والمشارب... إلا خفاقاً، ثم إن قدرت على أن تعلم جميع منافع الجسد ومضاره والانتفاع بذلك كله فهو أفضل...»^(١).

فابن المقفع هنا منطلقاً من المعنى العلوي في إحراز الأصل أولاً، ثم التنفل عند الاستطاعة ثانياً، إلا أنه أبدل «النوافل» بـ«الफصوص» وكلاهما فروع، أو مستحبات، أو ليس عملهن بالأولى. وأبدل «الفرائض» بـ«الأصول». ثم قال: إنّ من عمل عملاً ما وهو متمسّك بالفروع دون الأصول فإن إدراك ذلك لا يكون دركاً، وهذا ما وجدهنا في قول أمير المؤمنين عليه السلام: «لا قربة بالنوافل».

ثم بعد ذلك أخذ ابن المقفع يفصل، ويضرب الأمثلة: ما هو الأصل في الدين، وما هو الأصل في إصلاح الجسد، وما هو الأصل في الشجاعة.... وهذه الطريقة من التوسيع القائمة على ضرب الأمثلة استعملها ابن المقفع كثيراً مع كلام الإمام عليه السلام، وسيوضح ذلك.

وبمثيل هذه الطريقة تعامل ابن المقفع مع حكمة أمير المؤمنين عليه السلام التي تقول:

«إِنَّ لِلْقُلُوبِ شَهْوَةً وَإِقْبَالًاً وَإِدْبَارًاً، فَأَتُوهَا مِنْ قِبَلِ شَهْوَتِهَا وَإِقْبَالِهَا، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِيَ»^(٢).

يُنَّ عليه السلام طريقة رائدة نتعاطى من خلالها مع القلب ومسايرته بإسلوب

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٦٥-٦٦.

(٢) نهج البلاغة ٥٨٦.

رياضي خوفاً من نفوره. وبما إن القلب هو المترکز هنا فقد أكد عليه مرتين الأولى من خلال تقديمه على إسم إن «إن للقلوب شهوة»، والثانية بإن المسبوقة بالفاء التعليلية «فإن للقلب»، ثم استعار له لفظة العمى المعروفة العواقب والمؤثرة في استعمالها، وما صاحب ذلك من فنون بديعية كالسجع والطباقي والتكرار. محدث الله: «إذا تواصل إكراه القلب على أمر لا يحبه ولا يؤثره تعب لأن فعل غير المحبوب متعب. وإذا أتعب القلب وأعيا عجز عن إدراك ما نكلّفه إدراكه، لأن فعله هو الإدراك... فإذا عجز القلب عن فعله الخاص به وهو العلم والإدراك فذاك هو عما»^(١). وطبعي عن الإمام علي بالشهوة والإقبال، الرغبة في الأمور التي يرضيها الدين الحنيف لا كل شهوة يُقبل القلب عليها.

نظر ابن المفع إلى هذه الحكمة وبخاصة إلى ما ورد في آخرها فقال مؤكداً: «اعلم أنك إن جاوزت الغاية في العبادة صرت إلى التقصير، وإن جاوزتها في حمل العلم لحقت بالجهال، وإن جاوزتها في تكليف رضي الناس والخلف معهم في حاجاتهم كنت المحسود المصنوع»^(٢).

والمعنى مشترك غير إن ابن المفع لم يذكر القلب الذي ورد ذكره بالحكمة العلوية، لكنه ذكر ما هو نابع من القلب والقلب وعاء له كذكره للعلم والعبادة. كما إنه لم يذكر الإكراه، بل ذكر ما يعطي دلالته «جاوزت الغاية». وهذا الإكراه أو مجاوزة الغاية يولدان «عمي» القلب عند أمير المؤمنين علي، والتقصير عند ابن المفع.

وبهذا الأسلوب أيضاً نظر ابن المفع إلى حكمة أمير المؤمنين علي التي تقول:

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩/٧-٨.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٢١.

الفصل الثالث: المبحث الأول: أثر كلام الإمام في رسالة الأدب الكبير ٣٠٩
«لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه»^(١).

وقد علق الرضي على الحكمة بقوله: «وهذا من المعاني العجيبة الشريفة، والمرادُ به إنَّ العاقل لا يطلق لسانه، إلَّا بعد مشاورة الرَّوِيَّةِ ومؤامرة الفكرَةِ. والأحمق سبق حذقات لسانِه وفلتات كلامِه مُراجعةً فكرَه، وما خصَّه رأيه فكانَ لسان العاقل تابعً لقلبيه، وكأنَّ قلب الأحمق تابعً للسانِه»^(٢).

أخذ ابن المفع هذه الحكمة وتوسيع فيها فقال: «اعلم أن لسانك أداةً مُصلحةٌ، يتغالبُ عليه عقلُكَ، وغضبكَ وهووكَ وجهلكَ. فكُلُّ غالِبٍ مستمتعٌ به وصارفُه في محنته، فإذا غالبَ عليه عقلُكَ فهو لكَ، وإن غالبَ عليه شيءٌ من أشباهِ ما سميتُ لكَ فهو لعدوكَ»^(٣).

وبننظرة على مقدمة كلامه يتبيَّن إنَّه متَحفَّزٌ لترسيخ هذا المعنى من خلال المقدمة التي غالباً ما يقدم بها ل الكلام أمير المؤمنين عليه السلام والمتمثلة بفعل الأمر وإنَّ التوكيدية، أو ما يدل دلالتها، ثم بعد ذلك ذكر لفظة اللسان، ومثلاً وجدها عند أمير المؤمنين عليه السلام، وهذه اللفظة هنا مجازية ذات علاقة آلية^(٤)، لأنَّه ذكر اللسان وأراد ما يجري عليه من كلمات بالخير أو الشرّ. أمّا لفظة «وراء» في كلام أمير المؤمنين عليه السلام والتي هي استعارة لما يعقل، من تأخُّر لفظ العاقل عن رويته ومن تأخُّر رؤية الأحمق وفكرة عند قوله من غير مراجعته لعقله^(٥)، فقد

(١) نهج البلاغة .٥٥٩.

(٢) م. ن. .٥٥٩

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير .١٠٦.

(٤) ينظر: الأثر القرآني في نهج البلاغة .١٣٧.

(٥) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم /٥ .٤٠٥

عبر عنها ابن المفعع بقوله: «يَتَغَالِبُ عَلَيْهِ عَقْلُكَ وَغَضِبُكَ وَهُوَاكَ وَجَهْلُكَ» . فإذا جعل المرء لسانه وراء قلبه، أي مكنّ القلب من أن يغلب اللسان فهذا هو «لسان العاقل» بحسب الحكمة العلوية، وبحسب قول ابن المفعع: «غلب عليه عقلك».

وإذا جعل المرء «قلبه وراء لسانه» أي جعل اللسان ينطق دون الرجوع إلى الروية والتفكير القلبي، فهذا هو «لسان الأحمق» بحسب الحكمة العلوية، وبحسب قول ابن المفعع: غلبة «غضبك وهواك وجهلك»

وعلى الرغم من إنّ روح كلام ابن المفعع ومحرك نصّه هذا هو الحكمة العلوية المذكورة، إلاّ أنها عند مبتدعها لها رونق خاص ووقع متميّز تمثّل بمعناها العظيم، وإيجازها الوسيم، وسبكها الملتحم، وفنونها البلاغية التي جاءت على غير تكلف كالتكلّر فقد كرّر عليه لفظة «اللسان» مرتين: الأولى افتح بها الحكمة، وبالثانية ختمها فهو بهذا جعل اللسان أولاً وأخراً، لأنّ الحكمة جاءت من أجله، ومن أجل القلب، لذا كرّر مرتين أيضاً. والسجع «قلبه - لسانه» والطباقي «العقل - الأحمق». فضلاً عن إيهما جاءت مكونة جميعها من أسماء بدون أي فعلٍ أو حرف.

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان له بالغ الأثر في أدب ابن المفعع لاسيما في الأدب الكبير عهده لمالك الأشتر (رضوان الله عليه)، وممّا جاء فيه:

«وأمض لك كل يوم عمله، فإن لك يوم ما فيه»^(١).

وهذا جدول عمل منظم، ودستور متقدم، حرّي به أن يطبق في كلّ مرافع

(١) نهج البلاغة . ٥١٦

الحياة؛ فهو ينهانا عن الذهاب إلى اليوم القابل ونحن محملين بأعمال اليوم الماضي، لأنَّ اليوم الجديد له عمل جديد أيضاً، والتقصير في عمل اليوم الماضي سيؤثر على اللاحق، وهكذا حتى تراكم الأعمال وبالتالي تصاب نتيجة العمل بخلل جراء ذلك التقصير.

ورد هذا المعنى في الأدب الكبير وبطريقة البسط: «إذا تراكمت عليكَ الأعمال فلا تلتمسِ الروح في مدافعتها بالروغانِ منها. فإنهُ لا راحة لكَ إلا في إصدارها، وإن الصبر عليها هو الذي يخففها عنكَ، والضجر هو الذي يُراكمُها عليكَ»^(١).

فهو ينهى عن مدافعة الأعمال أي تأخيرها إلى الغد، وهذا من أول كلام الإمام عليه السلام. ثم توسع ابن المفعع لما رغب بأن «لا راحة إلا في إصدار الأعمال بيومها والطريقة المشلى لإصدارها في يومها هو «الصبر عليها» لأنَّ «يُخففها» والضجر «يراكِمها». وكلُّ هذا روحه الكلام العلوي السالف.

وفي بعض مقاطعه كان عليه السلام يعطي منهاجاً دقيقاً لتوخي الأصدقاء، ومن ذلك قوله عليه السلام:

«والصَّقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصَّدْقِ»^(٢).

وعلى هذا سار ابن المفعع متوسعاً فقال: «اعرف الفضل في أهل الدين والمروءة في كل كورةٍ وقريةٍ وقبيلةٍ. فيكونوا هم إخوانك وأعوانك وأخدانك وأصفياءك وبطانتك وثقاتك وخلطاءك»^(٣).

فلفظة «الصَّقْ» التي وصفها ابن أبي الحديد بأنها لفظة فصيحة والتي تعني

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٢٠.

(٢) نهج البلاغة ٥٠٤.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ٧٠.

اجعل أهل الورع خاصتك، وخلصاءك^(١). توسع عليها ابن المقفع كثيراً في قوله: «فليكونوا هم إخوانك وأعوانك وأخذانك وأصفياءك...» والأهم إنّ ما جاء في الأدب الكبير هنا أكثر تفصيلاً حتى من شرح ابن أبي الحديد السالف لكتاب أمير المؤمنين عليه السلام.

وبعدما أمر أمير المؤمنين عليه السلام بملائقة أهل الورع والصدق قال بعد ذلك مباشرة:

لَمْ رُضُّهُمْ عَلَى أَلَا يُطْرُوكَ وَلَا يُبَجِّحُوكَ بِيَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كُثْرَةَ
الْإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الْزَّهْوَ، وَتُنْدِنِي مِنَ الْعِزَّةِ»^(٢).

أي «عودهم ألا يمدحوك في وجهك ولا يجعلوك من يسخط أي يفخر بباطل لم يفعله كما يُبَجِّحُ أصحاب الأمراء الأمراء بأن يقولوا لهم: ما رأينا أعدل منكم ولا أسمح»^(٣).

وهذا أيضاً نجده بتوسيع عند ابن المقفع، لكنه قدّمه على فقرته السابقة بمعنى انه عمل عكس ماعامل أمير المؤمنين عليه السلام لما أمر بملائقة أهل الورع، ثم أمر بتعويدهم على الإبعاد عن المدح الزائد، فقال في الأدب الكبير: «وإياكَ إِذَا كُنْتَ
وَالْيَا، أَنْ يَكُونَ مِنْ شَأنِكَ حُبَّ الْمَدْحِ وَالتَّرْكِيَّةِ وَأَنْ يَعْرَفَ النَّاسُ ذَلِكَ مِنْكَ،
فَتَكُونَ ثَلْمَةً مِنَ الْثَّلْمَةِ يَتَّقْحِمُونَ عَلَيْكَ مِنْهَا، وَبَابًا يَفْتَحُونَكَ مِنْهُ، وَغَيْبَةً
يَغْتَابُونَكَ بِهَا وَيَضْحِكُونَ مِنْكَ لَهَا. وَاعْلَمُ أَنْ قَابِلَ الْمَدْحِ كَمَادِحِ نَفْسِهِ. وَالرَّءُوْ
جَدِيرٌ أَنْ يَكُونَ حَبَّ الْمَدْحِ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُ عَلَى رَدِّهِ . فَإِنَّ الرَّادِلَةَ مُحَمَّدٌ، وَالْقَابِلَ

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد ١٧ / ٣٢.

(٢) نهج البلاغة ٥٠٤.

(٣) شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد ١٧ / ٣٢.

وبعد هذا التقديم والتأخير الذي عمله ابن المفع على كلام أمير المؤمنين عليه السلام جعل في أثر كل مقطع من المقطعين السابقين حكمة علوية، وبطريقة التوسيع، فقال بعد أن نهى الوالي عن حب المدح: «لتكن حاجتك في الولاية إلى ثلاثة خصالٍ: رضي ربّك ورضي سلطانٍ، إن كان فوقك، ورضي صالحٍ من تلي عليه»^(٢).

ففي هذا بسط لبعض ما جاءَ في الحكمة العلوية:
«من الحكمة طاعتُكَ لَمْ فوَقَكَ، وإجلالُكَ مَنْ هُوَ فِي طبقِكَ، وإنصافُكَ لَمْ هُوَ دونكَ»^(٣).

فهنا جعل أمير المؤمنين عليه السلام جانباً من الحكمة يتحقق في ثلاثة أمور هي طاعة من هو أعلى منزلة، واحترام وإجلال من هو مساواً في المنزلة، وإنصاف من هو دونها. مستعملاً أسلوب التقديم والتأخير إذ قدم الجار والمحروم» من الحكمة» وجعل لها الصدارة في الكلام، لأنَّه أراد لها صدارة المعنى. وبطريقة مشابهة عمل ابن المفع لما افتتح كلامه مؤكداً بلا ماء الأمر.

وأما بؤرة البسيط هنا فتكمّن في قول ابن المفع: «ورضي ربّك ورضي سلطانٍ إن كان فوقك» فقد يراه الباحث بسطاً لما وردَ في الحكمة العلوية: «طاعتُكَ لَمْ فوَقَكَ»، لأنَّ لفظة «فوق» في حكمة الإمام عليه السلام مفتوحة الدلالة، فيمكن

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٦٩.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ٦٩.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم ١١٢.

أن تنطبق على الله تعالى، ويمكن أن تنطبق على السلطان الشرعي، بل على كل من هو أعلى منزلة، ومن ثم فإن بوسعها اختزال ما قاله ابن المقفع في هذا الصدد، ولكن توسيعه هذا كان على حساب القسم الثاني الذي أمر فيه أمير المؤمنين عليه السلام بـ «إجلال من في طبقتك». وهذا ما يؤخذ عليه ابن المقفع، لأنّه أوصى بمن هو فوق «ربك، سلطان»، ومن هو دون «من تلي عليه»، وأهمّل من هو مساوٍ في المنزلة.

أما قوله الذي وجه فيه إلى مصاحبة أهل الدين والمرؤة والالتصاق بهم فقد قال بعده: «إنك إن تلتمس رضي جميع الناس تلتمس ما لا يدركُ. وكيف يتتفقُ لك رأي المختلفينَ، وما حاجتك إلى رضي من رضا الجورُ، وإلى موافقة من موافقته الضلالُ والجهالة؟ فعليك بالتماسِ رضي الآخيارِ منهم وذوي العقلِ. فإنك متى تصب ذلك تضع عنكَ مؤونة ما سواه»^(١).

وما هذا إلا بسطاً لحكمة أمير المؤمنين عليه السلام التي عدَّ فيها رضي الناس غاية بعيدة المنال، لأنَّ كثيراً من الناس يقيسون بمقاييسٍ منحرف، وعليه سيفتركون في حكمهم على شخصٍ ما. ولكن هذا لا ينبغي أن يكون حاجزاً ومثبطاً عن فعل الخير، فقال عليه السلام:

«رضي الناسِ غايةٌ لا تُدركُ فتَحرَّرَ الخيرُ بجهدكَ و لا تُبالي بسخطِ منْ يُرضيه الباطلُ»^(٢).

فنجد ابن المقفع قد قام بتغييرات شكلية على الحكمة وذلك لما أبدل قول الإمام عليه السلام «رضي الناس» بـ «رضي جميع الناس»

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٧٠.

(٢) شرح نهج البلاغة لأبي الحميد ٢٠ / ٤٥٩.

الفصل الثالث: المبحث الأول: أثر كلام الإمام في رسالة الأدب الكبير ٣١٥
و «غاية لا تدرك» بـ «تلتمس ما لا يدرك».

ونجده أيضاً لم يكتف بالبسط الذي أجراه على باقي الحكمة، بل آخر و قدّم فيه، فقوله عليه السلام الذي أمر فيه بتحرر الخير و جعله هدفاً منشوداً «فتح حير الخير بجهدك» آخره ابن المفع، ثمّ بسطه لما قال: «فعليك بالتماس رضي الآخيار منهم و ذوي العقل». وبعد ذلك نهى عن الأكتراث لأهل الباطل إن غضبوا «ولا تبال بسخط من يرضيه الباطل» قلّمه ابن المفع، ثم بسطه أيضاً بقوله: «وما حاجتك إلى رضي من رضاه الجور وإلى موافقة من موافقته الضلاله والجهالة».

وبالطريقة نفسها تأثر ابن المفع بحكمة علوية أمر فيها أمير المؤمنين عليه السلام بالإشكال على الباري - سبحانه و تعالى - واليأس عمّا في أيدي الخلق، وهذا اليأس عن الخلق والتوجيه للخلق يمثل قمة الإيمان، فقال عليه السلام:

«الغني الأكبر اليأس عمّا في أيدي الناس»^(١).

ضمن ابن المفع هذه الحكمة متوسعاً فيها، فقال: «عوّد نفسك السخاء واعلم أنه سخاءان: سخاوة نفس الرجل بما في يديه، وسخاوتُه بما في أيدي الناس. وسخاوة نفس الرجل بما في يديه أكثرهما وأقربهما من أن تدخل فيه المفاحرة. وتركه ما في أيدي الناس أحضر في التكرم وأبرا من الدنس وأنزه. فإن هو جمعها فبذل وعف فقد استكمل الجود والكرم»^(٢).

فافتتاحية ابن المفع هذه عبارة عن تركيب أشبه ما يكون جاهزاً يقدّم به لكلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي يتأثر به، ويكون أيضاً بمثابة مدخلية. وابن المفع

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد /١٩/ ١٤٤.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ١١٢-١١١.

هنا يقدّم قبل أن يضمن الحكمة تقديماً من صلب الموضوع لما يريد أن يقوله، فقبل تضمين الحكمة أمر بتعويد النفس على السخاء، ثم فرع السخاء إلى فرعين: الأول أن يجود الرجل بما يملكه، والثاني أن يرغب عمّا في أيدي الناس، وهنا في الثاني تجلت الحكمة العلوية، إذ أبدل ابن المفعع «اليس» بـ«سخاوه»، بينما باقي الحكمة «عمّا في أيدي الناس» ضمنه ابن المفعع بنصّه «عمّا في أيدي الناس».

ثم اخذ بعد التفريع يقارن بين السخاعين، إذ بالأول تدخل المفاخرة «أكثرهما من أن تدخل فيه المفاخرة»، وبالثاني يصان ماء الوجه «أمحض في التكرّم، وأبرا من الدنس»، والأفضل عنده الجمع بينهما.

ولا يختلف تعامل ابن المفعع عن تعامله السابق مع حكمة أمير المؤمنين عليه السلام التي تقول:

«الحسد خُلُقُ دُنْيَةٍ وَمَنْ دَنَعَهُ أَنَّهُ مُوكَلٌ بِالْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ»^(١).

يخبرنا عليه السلام بأنّ الحسد من الأخلاق الذميمة الدينية، وما زاد في دناعته هذه وقوعه بين الأقرب فالأقرب.

اعتمد ابن المفعع هذه الحكمة اعتماداً كلياً، مع تقديم لها وشرح وتفصيل طويل عليها فقال: «ليكن ما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسوداً. فإن الحسد خلق لئيم. ومن لؤمه أنه موكل بالأدنى فالإدنى من الأقارب والأكفاء والمعارف والخلطاء والإخوان فليكن ما تُعامل به الحسد أن تعلم أن خير ما تكون حين تكون مع من هو خير منك، وأن غنم حسناً لك أن يكون عشيرك، وخليطك أفضل منك في العلم، فتقتبس من علمه، وأفضل

(١) شرح نهج البلاغة لأبي الحسين علي عليهما السلام / ٢٠ / ٤٥٥.

منكَ في القوة، فيدفع عنكَ بقوتهِ، وأفضلَ منكَ في المالِ، فتفيد من مالهِ، وأفضل منكَ في الجاهِ، فتصيب حاجتكَ بجاههِ، وأفضلَ منكَ في الدينِ، فتزداد صلاحاً^(١).

فُكُلُّ هذا الكلام منبته ونواته الحكمة السالفة، وقبل أن يضمنها ابن المفع قدّم لها بجملة عَدَّ فيها الحسد يجلب النصب والعذاب للنفس، مفتاحاً هذا التقديم بطريقته التي باتت معروفة إما بفعل الأمر أو بلام الأمر، ثم حَوْرَ طفيفاً في الحكمة حيث أبدل قول الإمام عليه السلام:

«الحسد خلق دنيء» بـ «الحسد خلق لئيم». و«أنه موكلٌ».

أوردها بنصّها «أنه موكلٌ».

و«الأقرب فالأقرب» بـ «الأدنى فالأدنى».

و«الأقرب» هذا في كلام الإمام قابل للبساط والشرح، فهو يمكن أن يكون الأقرب من ناحية النسب، أو الأقرب من ناحية العمل، أو الأقرب من ناحية الأفكار... وفي هذه العبارة المكتنزة بمدلولاتها وجد ابن المفع ضالته فبسطها بقوله: «بالأدنى فالأدنى من الأقارب، والأ��اء، والمعارف والخلطاء والإخوان».

ثم بعد ذلك اتّخذ هذه الحكمة... منطلقًا ليث إرشادهِ حول خصلة الحسد، مبيّناً إنَّ أفضل من ينبغي أن تكون على مقربة منه مَنْ هو أفضل منك، وإنَّ عشيرتك إذا كانوا أعلى منك منزلة فذلك الغنم بعينه،.. وبكلٌّ هذا ينبغي تحبّ حسد هؤلاء بل الإفادة منهم ماديًّا «تفيد من ماله»، ومعنوياً فتفيد من جاههِ

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير . ١١٢

«فتُصِيب حاجتك به، ومن دينه «فَتَزَدَاد صلاحاً بصلاحه».

وبعد هذا انتقل ابن المقفع إلى كيفية معاملة العدو قائلاً: «ليكن مما تنظر فيه من أمر عدوك وحاسدك أن تعلم أنه لا ينفعك أن تخبر عدوك وحاسدك أنك له عدو، فتنذره بنفسك وتؤذنه بحربك قبل الإعداد والفرصة»^(١).

وصفوة كلامه هذا لا تواجه أعداءك قبل إعدادك، وبالتالي فهذا أشبه ما يكون بسطاً للحكمة العلوية التي تقول:

«لَا تُوقِعُ بِالْعَدُوِّ قَبْلَ الْقَدْرَةِ»^(٢).

أما حكمته التي قال فيها:

«أَقِيلُوا ذُوي الْمُرْوَءَاتِ عَشَرَاتِهِمْ، فَمَا يَعْثُرُ مِنْهُمْ عَاثِرٌ إِلَّا وَيَدُهُ بِيَدِ اللَّهِ يَدُ اللَّهِ بِيَدِهِ يَرْفَعُهُ»^(٣).

والتي من خلاها «رغب في إقالة ذوي المروءات عشراتهم التي وقوعها نادراً كييعهم لما يلحقهم الندم عليه... واستعار لفظ العثرات لما يقع منهم خطأً ومن غير ثبيت»^(٤).

فقد اعتمدتها ابن المقفع - لما رغب أيضاً في إقالة هؤلاء عشراتهم - اعتماداً كلياً وبالتحديد الفقرة الأولى منها، فقال: «واعلم أنك واجد رغبتك من الإخاء عند أقوام قد حالت بينك وبينهم بعض الأبهة التي قد تعترى بعض أهل المروءات

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ١١٢ - ١١٣.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم ١١٩.

(٣) نهج البلاغة ٥٥٣.

(٤) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٥ / ٣٩٦ - ٣٩٧.

الفصل الثالث: المبحث الأول: أثر كلام الإمام في رسالة الأدب الكبير ٣١٩

فتتجزُّ عنهم كثيراً من يرحبُ في أمثالهم. فإذا رأيتَ أحداً من أولئكَ قد عثربَ الدهرُ فأقله»^(١).

فهو إذاً ضمِّنَ كلمات الحكمة الأربع الأولى، وزعها في قوله المذكور جاعلاً منها ركائز لقوله، مع التقديم لها، والتوسيع عليها، والتحوير فيها تحويراً أقل من القليل، إذ أبدل «اقيلوا» بـ «فأقله»

و«ذوي المروءات» بـ «أهل المروءات»

و«عشراتهم» بـ «عشر به الدهر»

وبطريقة مماثلة تعامل مع حكمه لأمير المؤمنين عليه السلام، قال فيها:

«أحْيُوا الْمَعْرُوفَ بِإِيمَانِهِ، فَإِنَّ الْمُنَاهَةَ تَهْدِمُ الصَّنْيَعَةَ»^(٢).

والمعنى إذ أردت لمعروفك أن يحيا ويدوم فعليك بإيمانته، وهذه كناية عن عدم ذكره؛ لأنَّ ذكره أشبه ما يكون بالمنة، وهذه المنة تهدم ما بُنيَ من معروف.

ضمِّن ابن المفع هذه الكلمات بتمامها وكماها جاعلاً منها عماداً لمقالٍ طويلاً في هذا المعنى، فقال: «إذا كانت لكَ عند أحدٍ صنيعةُ، أو كان لكَ عليه طول فالتمس إحياء ذلك بإيمانته، وتعظيمه بالتصغير لهُ. ولا تقتصرُ في قلَّةِ المنَّ به على أن تقول: لا أذكره ولا أصغي بسمعي إلى من يذكره، فإنَّ هذا قد يستحيي منه بعض من لا يوصف بعقلٍ ولا كرمٍ. ولكن احذر أن يكون في مجالستك إياه، وما تكلمه به، أو تستعينه عليه، أو تجاريه فيه، شيءٌ من الاستطاله، فإن

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٠٢.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم ١٥٤.

الاستطالة تهدم الصناعة وتقدر المعروف»^(١).

ولعل هذه المرة الأولى التي لم يفتح فيها ابن المفهوم حديثه المتأثر بكلام أمير المؤمنين عليه السلام بفعل أو لام الأمر، ولكنه سرعان ما عاد إلى ذلك بعد أن شرع في تضمين الحكم، ومن جانب البسط فقبل أن يضمنها أيضاً قدّم حديثاً عاماً عن موضوعها، ثم شرع في تضمينها، ولكن لم يجعلها في مكان واحد بل افتح بعضها، ثم عاد ليختتم ببعضها الآخر. وما ذلك إلا لتكون عنده حرية واسعة للحديث عن هذا الموضوع من خلال الربط بين كلمات الحكم والتعليق على مقاطعها، وحتى تكون هذه الكلمات بمثابة ركائز يرتكز عليها وعظمه، مجرياً عليها بعض التحويرات الشكلية تماماً. فأول الحكم: «أحيوا المعروف بإماتته» وجدناها في أول كلام ابن المفهوم: «إحياء ذلك بإماتته». و«ذلك» اسم إشارة أشار به ابن المفهوم إلى «الصناعة» و«الطول» اللذين ذكرهما في مقدمة كلامه، وعليه يكون كلامه إحياء الطول بإماتته وبالتالي لا يوجد اختلاف يذكر

عن كلام الإمام علي عليه السلام. ولفظة «المعروف» التي أبدلها ابن المفهوم بما ذكر عاد وذكرها في آخر كلامه المذكور مثلما وجدتها عند الإمام علي عليه السلام. أما باقي الحكم: «فإن الله تهدم الصناعة». فقد ألفيناها آخرأ عند ابن المفهوم: «فإن الاستطالة تهدم الصناعة». وهو ما بين هذين المقطعين تحدث بها شاء عن إسداء المعروف وفضل تناصيه.

وعلى هذا الأساس بُنيت كثيرون من موضوعات الأدب الكبير، إذ كان ابن المفهوم يعتمد إلى حكمه أمير المؤمنين عليه السلام الموجزة فيبسط القول فيها،

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٠٩ - ١٠٨.

ويفرّع منها فروعًا، ويوظفها في المكان الذي يراه مناسباً، فمرةً مع السلطان، وأخرى مع الوالي، وثالثة مع الصديق وهكذا. وفي هذه المرة نجد ابن المفع يأتي على حكمة أمير المؤمنين عليه السلام التي تقول:

«مَا أَضْمَرَ أَحَدُ شَيْئاً إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ، وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ»^(١).

الفلة: الأمر الذي يقع من غير ترّوٍ، وصفحة الوجه: بشرته أي أنَّ المرء لم يتمكن من حفظ ما أضمره كلياً، لأنَّ مراعاة الحفظ يكون للعقل، فإذا انشغل العقل في مهم آخر يغفل عمّا أضمره، فينفلت ذلك في فلتات القول^(٢).

استعار ابن المفع هذه الحكمة ليضمّنها في باب تحذيره من احتقان القلب على الوالي، فقال: «إياك أن يقع في قلبك تعتبُ على الوالي أو استزراء له. فإنه إن وقع في قلبك بدا في وجهك، إن كنت حليماً، وبدا على لسانك، إن كنت سفيهاً. فإن لم يزد ذلك على أن يظهر في وجهك لأنَّ الناس عندك فلا تأمنن أن يظهر ذلك للوالي. فإنَّ الناس إلى السلطان بعوراتِ الإخوانِ سراغٌ»^(٣).

فهو ينهى من وقوع التعجب والإستزراء على الوالي - ملجنًا ظهره تماماً إلى الحكمة العلوية - لأنَّ ذلك التعجب وإن خفي لا بدَّ من ظهوره، إما على صفحات الوجه من خلال تلوّنها، وإما على اللسان من خلال فلتاته. إلا إنَّ ابن المفع لم يذكر لفظة الإضمار صراحة بل ذكر آلته الإضمار أو مكمنها وهو القلب لما قال: «إياك أن يقع في قلبك تعتبُ على الوالي أو استزراء له».

(١) نهج البلاغة . ٥٥٤

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم / ٥ ٣٩٨

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير . ٨٤

وکُلُّ هذا بسط لأول الحکمة: «ما أضمر أحد».

وبعد هذا لا فرق مطلقاً بين قول الإمام عليه السلام: «ظهر في لسانه» وبين قول ابن المقفع: « بدا على لسانك»

فقد كان الأخير هنا دقيقاً في تحويراته حيث جعل:

ال فعل مقابل الفعل: ظهر—— بدا

والحرف مقابل الحرف: في - على

والاسم مقابل الاسم: لسان - لسان

والضمير مقابل الضمير: الهماء - الكاف

ومثلها العبارة التي قبلها « بدا في وجهك»، إلا أنه زاد على الأولى «إن كنت حليماً»، وعلى الثانية «إن كنت سفيها». واستمر ابن المقفع بالتفصيل عن هذا الموضوع محدراً من إن هذه الفلتة حتى وإن لم يكتشفها إنسان تأمنه، ولم تظهر هي أمامه، فلا تأمن ظهورها أمام الوالي.

وتجدر الإشارة إلى إن هذه الحکمة وجل حکم أمير المؤمنين عليه السلام لم يوجّهها إلى فئة أو طائفة بعينها، بل يجعلها مفتوحة بحيث كل من يقرؤها يجد لها تنطبق عليه سواء كان مولى أو عبداً، وهذا مما زاد في تأثيرها وفاعليتها «ما أضمر أحد» أيًا كان هذا الأحد، بينما ابن المقفع يضيق كثيراً من دلالة هذه الحکمة لما يجعلها مختصة بجهة ما، ومثل ذلك ما فعله في قوله المذكور لما نهى عن هذا الأمر أمام الوالي «إياك أن يقع في قلبك تعجب على الوالي».

ومثلما سلف فإن ابن المقفع كان قد اتخذ كلام أمير المؤمنين عليه شعاراً يعظ به كل الجهات التي كان يخاطبها دون استثناء، فإن كان وظف الحکمة السابقة مع

الوالي وطريقة معاملته القلبية، فقد وظفَ في باب منع التطاول على الأصحاب حكمة علوية أيضاً، جاء فيها:

«لِيْسَ يَضُرُّكَ أَنْ تَرَى صَدِيقَكَ عَنْدَ عَدُوِّكَ، فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يَنْفَعْكَ لَمْ يُضُرِّكَ»^(١).

فإنَّ الصديق قد يتقدّر إذا رأى صديقه عند عدوٍ إشفاقاً من العدو على الصديق، أو تهيباً من قطع حبل الوصل بسبب وشایة من ذلك العدو، ولكنَّ أمير المؤمنين عليه السلام نهى عن ذلك وعدَ هذه المقاربة أمراً إيجابياً.

اعتمد ابن المفع هذه الحكمة كسابقاتها من التغير الطفيف على بعضها، ثم البسط عليها، والتفریع منها، فقال: «إِنْ رأَيْتَ صَاحِبَكَ مَعَ عَدُوكَ فَلَا يَغْضِبَنَّكَ ذَلِكَ، فَإِنَّمَا هُوَ أَحَدُ رِجَالِنِ: إِنْ كَانَ رَجُلًا مِنْ أَخْوَانِ الثَّقَةِ فَأَنْفَعُ مَوَاطِنِهِ لَكَ أَقْرَبَهَا مِنْ عَدُوكَ لِشِرِّ يَكْفُهُ عَنَّكَ، أَوْ لِعُورَةِ يَسْتَرُهَا مِنْكَ، أَوْ غَائِبَةٍ يَطْلُعُ عَلَيْهَا لَكَ، فَأَمَّا صَدِيقَكَ فَمَا أَغْنَاكَ أَنْ يَحْضُرُهُ ذُو ثُقْتِكَ. وَإِنْ كَانَ رَجُلًا مِنْ غَيْرِ خَاصَّةِ إِخْوَانِكَ فَبَأْيِ حَقٍّ تَقْطَعُهُ عَنِ النَّاسِ وَتَكْلِفُهُ أَلَا يَتَصَاحَّبَ وَلَا يُجَالِسَ إِلَّا مِنْ تَهْوِي»^(٢).

فهو نهى عمّا نهى عنه أمير المؤمنين عليه السلام وبرر بما برر به عليه السلام، فأول كلامه: «إِنْ رأَيْتَ صَاحِبَكَ مَعَ عَدُوكَ فَلَا يَغْضِبَكَ ذَلِكَ» من أول الحكمة «لِيْسَ يَضُرُّكَ أَنْ تَرَى صَدِيقَكَ عَنْدَ عَدُوكَ» بلا زيادة ولا نقصان عدا تحويرات شكلية للغاية فقد أبدل «صديقك» بـ «صاحبك»، و«يضررك» بـ «يغضبك»، «وعند عدوك» بـ «مع عدوك».

ولما عدَّ أمير المؤمنين عليه السلام تلك المقاربة أمراً إيجابياً بررها بأنها لا تخلي من

(١) موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام / ٥ / ٢٧٢.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٠١ - ١٠٠.

أمررين: إما أن تعود تلك المقاربة بنفع على ذلك الصديق الغاضب ولكننه لم يحدد ما هو النفع وأين يكمن حتى لا تكون دلالة هذه الكلمة «النفع» محدودة بجانب ما وهذه سمة واضحة في حكمه عليه. أما ابن المقفع فقد أخذ هذه التفريع من الحكمه وبسطه بأنّ بين بعض مواطن النفع تلك وذلك لما قال: «فإنما هو أحد رجلين: إن كان رجلاً من إخوان الثقة فأనفع مواطنه لك أقربها من عدوك إلى قوله يطلع عليها لك».

وإما أن لا تعود تلك المقاربة بنفع ولكنها خالية من الضرر، لأنّ الصديق الصدوق وإن جالس العدو لم يفرط بصديقه. ولكن هذا أجرى عليه ابن المقفع تغيراً بيناً في فقرته الأخيرة. وأرى في ذلك تحالياً عميقاً للخروج عمّا تبقى من تسلسل حكمة أمير المؤمنين عليه وهذا المحاولة التمويهية مهدّ لها لما قسم الأصدقاء على «إخوان الثقة» و«رجلاً من غير خاصة إخوانك» وهذا لربما لا يتفق مع مقدمة كلامه التي تحدّث فيها عن الصاحب، ومطالبته بعدم الاكتئاث منه إذا جالس العدو، أما إذا كان ذلك الصاحب بعيد الصلة بصاحبه، وهو ليس من الخاصة فلا يهم إذاً إن اقترب أو ابتعد عن العدو، ولا يوجد داعي من أن ينهي ابن المقفع عن الغضب من هذا الفعل.

أما موعظته عليه لعسكره وقد سمع بعضهم يسبون أهل الشام أيام حرب صفين، والتي قال فيها:

«إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَاهُمْ، وَذَكَرْتُمْ حَاهُمْ، كَانَ أَصْوَبَ فِي الْقَوْلِ، وَأَبْلَغَ فِي الْعُدُرِ»^(١).

أمر أتباعه باجتناب السب، لأنّه لغة المفلسين من الدليل، لكنه وجّههم

(١) نهج البلاغة .٣٧٤

إلى وصف أعمال الشاميين وما هم عليه من ضلال؛ ففي ذلك الحجّة البالغة،
والقول الصائب.

فأخذ ابن المقفع هذا لما تحدّث عن كيفية معاملة العدو، فقال: «لا تدع، مع السكوت عن شتم عدوك، إحصاء مثالبِه ومعايبِه وإتباعَ عوراتهِ، حتى لا يشذ عنك من ذلك صغيرٌ ولا كبيرٌ، من غير أن تشيع ذلك عليه فيتقيك به، ويستعد لهُ، أو تذكرهُ في غير موضعه ف تكون كمستعرض الهواء بنبله قبل إمكان الرمي. ولا تخذن اللعن والشتم على عدوك سلاحاً، فإنه لا يجرح في نفسِ ولا منزلةٍ ولا مالٍ ولا دينٍ».^(١)

فكل هذا يدور في فلك المعنى العلوي بدقة. فقول الإمام عليه السلام:
«أكره لكم أن تكونوا سبابين».

كرّره ابن المقفع مرتين وذلك لما أفتتح حديثه به «السكوت عن شتم عدوك»، ولما ختمه به أيضاً «لا تخذن اللعن والشتم على عدوك سلاحاً» مبدلاً السب بالشتم.

أما قوله: «لا تدع... إحصاء مثالبِه ومعايبِه وإتباعَ عوراتهِ» فهو من قول الإمام عليه السلام:

«لكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حا لهم».

أي قوله: «إنهم فساق، وإنهم أهل ضلالٍ وباطلٍ»^(٢) وبشرح ابن أبي الحديد هذا يتضح إن ابن المقفع يتحول في أحابين كثيرة إلى شارح لكلام أمير

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ١١٤.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١/١٨.

المؤمنين عليه السلام.

ومن طرفٍ خفي يلحظ إنَّ ابن المفعع حاول التمويه على كلام الإمام عليه السلام لما جعل الشقة تبعد بين الفعل «تدع» وبين المفعول به «إحصاء».

وللنساء نصيبٌ من الحديث في الأدب الكبير، فقد ذكرهنَّ فيه مرتين وفي مقطعين متالين، وفي المقطعين كليهما أثر واضح لكلام أمير المؤمنين عليه السلام. فقد روي عنه أَنَّه حذَّر جنوده من الغرام بالنساء - لما شيَّعهم في إحدى الغزوات - قائلاً: «أَعِذُّبُوا عَنِ النِّسَاءِ مَا اسْتَطَعْتُمْ»^(١).

شرح الشريف الرضي بهذه الكلمات بقوله: «ومعناه أصدروا عن ذكر النساء، وشغل القلوب بهن، وامتنعوا من المقاربة لهن، لأنَّ ذلك يفت في عضد الحمية، ويقدح في معاقد العزيمة، ويكسر عن العدو، ويلفت عن الإبعاد في الغزو، فكل من امتنع من شيء فقد أعزب عنه، والعازب والعزوب الممتنع من الأكل والشرب»^(٢).

ففي نهيء عن الغرام بالنساء ونتائج هذا الغرام، نظر ابن المفعع باسطا - حتى كأنَّه سبق الرضي إلى شرح هذا المعنى - فقال: «اعلم أن من أوقع الأمور في الدين وأنهكها للجسد وأتلفها للمال وأقتلها للعقل وأزرها للمرءة وأسرعها في ذهابِ الحلالِ والوقارِ الغرام بالنساء»^(٣).

وفي حديث ذي صلة قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته المعروفة بالوسيلة:

«إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ إِمْرَأَةً تُعْجِبُهُ فَلْيَقُلْ أَهْلَهُ فَإِنَّ عِنْدَهَا مُثْلُ الَّذِي رَأَى، وَلَا

(١) نهج البلاغة . ٥٩٨

(٢) م. ن . ٥٩٨

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير . ١١٧

يَجْعَلُ لِلشَّيْطَانِ عَلَى قَلْبِهِ سَبِيلًاً، وَلِيَصْرِفْ بَصَرَهُ عَنْهَا»^(١).

وورد عنه عليه السلام بإختلاف يسير، وذلك قوله لما كان جالساً ومعه أصحابه فمررت بهم امرأة جميلة، فرمقها القوم بأبصرارهم:

«إِنَّ أَبْصَارَ هَذِهِ الْفُحُولِ طَوَامِحٌ؛ ... فَإِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى إِمْرَأَةٍ تُعْجِبُهُ فَلِيُلْأِمْسِنْ أَهْلَهُ، فَإِنَّمَا هِيَ إِمْرَأَةٌ كَامِرَاتِهِ»^(٢).

أكّد أمير المؤمنين عليه السلام على أن النساء أشباه النساء، ومادام الأمر هكذا فعل الرجل إذا رأى امرأة تعجبه فليلاق أهلها حتى لا يجعل للشيطان على نفسه سبيلاً. جعل ابن المفعع هذا المعنى في إثر كلامه السابق، ولكن ببسطٍ كبير جداً فقال: «ومن البلاء على المغرِّم بهن أنه لا ينفك يأجمُ ما عنده وتطمح عيناه إلى ما ليسَ عندهُ منها. إنما النساء أشباهُ، وما يتزينُ في العيونِ والقلوبِ من فضلِ مجهولاتهن على معرفاتهن باطلٌ وخدعةٌ، بل كثيرٌ مما يرغِّب عنهُ الراغبُ ممّا عندهُ أفضلٌ مما تتوقُّ إليه نفسهُ منها، وإنما المرتغِبُ عمّا في رحلهِ منها إلى ما في رحالِ الناسِ كالمرغِبُ عن طعامِ بيتهِ إلى ما في بيتهِ الناسِ: بل النساء بالنساء أشباهُ من الطعام بالطعام، وما في رحالِ الناسِ من الأطعمةِ أشد تفاضلاً وتفاوتاً مما في رحالهم من النساء»^(٣). ولو أطال ما أطال فإن الجذوة التي كان منطلقها منها هي ذلك السطر من الخطبة أو الحكمة العلوية. فقوله: «ومن البلاء إلى قوله عنده منها» بسط لكلام الإمام عليه السلام: «إذا رأى أحدكم امرأة تعجبه». وبعد ذلك عدّ أمير المؤمنين عليه السلام

(١) تحف العقول . ١٤٨

(٢) نهج البلاغة . ٦٢٩

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير . ١١٧

النساء «مثل» النساء، وهذه «المثل» حوصلها ابن المقفع إلى شبه لما قال: «إنما النساء أشباه»، وكلامه هذا لا يختلف مطلقاً عن شرح ابن ميثم للنص العلوي الثاني، «فإنما أهل الرجل امرأة تشبه المرأة المرثية»^(١).

ثم زاد كلامه بسطاً لما أدخل طرفاً آخر في تقرير صورة التشبيه هذه وهو الطعام، وذلك في قوله: «النساء بالنساء أشبه من الطعام بالطعام» وكأنه يقول: «والنساء يشبهن النساء أكثر مما يشبه الطعام بالطعام»^(٢).

وقد عدّ هذا التركيب والتشبيه من طرائف ابن المقفع اللطيفة^(٣)، والأهم فيه - التشبيه - إنّه من توسعات ابن المقفع الكثيرة على كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

لقد لحظنا - في النص الأخير - إنّ ابن المقفع تأثر بخطبة علوية وليس بحكمة ولا رسالة وهذه حالة نادرة جداً عنده - أي تأثره بالخطب العلوية - فهو لم يتأثر إلا بخطبتيين فقط. الأولى مررت سلفاً. وتأثر بخطبة ثانية صنف فيها أمير المؤمنين عليه السلام الناس إلى أربعة أصناف قال في الرابع منها:

«وَمِنْهُمْ مَنْ أَبْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ الْمُلْكِ ضُؤُولَةٌ نَفْسِيهِ، وَإِنْقِطَاعٌ سَبِيلِهِ، فَقَصَرَتْهُ الْحُكْمُ عَلَى حَالِهِ، فَتَحَلَّ بِاسْمِ الْقَنَاعَةِ، وَتَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ الْرَّهَادَةِ، وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَرَاحٍ وَلَا مَغْدُرِي»^(٤).

الضّئولة: من ضال الشيء إذا صغر وضعف^(٥).

(١) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٥ / ٥٠٠.

(٢) بنية الجملة ودلالتها البلاغية في الأدب الكبير دراسة تركيبية تطبيقية . ٢٦

(٣) م ٠ ٢٦.

(٤) نهج البلاغة . ٦٤

(٥) ينظر: لسان العرب ١١ / ٣٨٨ مادة(ضال).

ومعناه: «إِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ تَنْقَطَعَ أُمَّامَهُ سَبِيلُ الْوَصْولِ إِلَى الْمَلْكِ وَالشَّرْوَةِ فِي خَلْدِ إِلَى الْقَنَاعَةِ، وَيَتَحَلِّ بِحَلِيَّةِ الزَّهَادِ فِي الْلَّذَّاتِ الدُّنْيَا... وَلَيْسَ بِزَاهِدٍ فِي الْحَقِيقَةِ»^(١).

أخذ ابن المفع هذا المعنى وتوسع عليه، فقال: «إِنْ رَأَيْتَ نَفْسَكَ تصَاغِرَتْ إِلَيْهَا الدُّنْيَا، أَوْ دَعْتَكَ إِلَى الزَّهَادِ فِيهَا عَلَى حَالٍ تَعْذِيرٌ مِنَ الدُّنْيَا عَلَيْكَ فَلَا يَغْرِيَنَّكَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسَكَ عَلَى تَلْكَ الْحَالِ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِزَهَادَةٍ، وَلَكِنَّهَا ضَجْرٌ وَاسْتَخْذَاءٌ وَتَغْيِيرٌ نَفْسٍ عِنْدَمَا أَعْجَزَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَغَضِبَ مِنَكَ عَلَيْهَا مَا التَّوْىَ عَلَيْكَ مِنَهَا. وَلَوْ تَمَتَ عَلَى رَفْضِهَا وَأَمْسَكَتْ عَنْ طَلْبِهَا أَوْ شَكَتْ أَنْ تَرَى مِنْ نَفْسَكَ مِنَ الضَّجْرِ وَالْجَزْعِ أَشَدَّ مِنْ ضَجْرَكَ الْأَوَّلِ بِأَضْعَافٍ. وَلَكِنْ إِذَا دَعْتَكَ نَفْسَكَ إِلَى رَفْضِ الدُّنْيَا وَهِيَ مَقْبَلَةٌ عَلَيْكَ، فَأَسْرَعَ إِلَى إِجَابَتِهَا»^(٢).

والمعنى واحد بين النصين فابن المفع يقول: إذا أذبرت عنك الدنيا وأنت أقبلت على الزهادة فيها، فهذه ليست بزهادة حقيقة، وعند أمير المؤمنين عليه السلام: «ليس من ذلك في مراح ولا مغدي» و«ذلك» أسم إشارة إلى ما سبق من كلامه: «تخل باسماً القناعة وتزين بلباس أهل الزهادة»، والمعنى: ليس من القناعة والزهادة في شيء وعليه تبين القرب القريب بين الجملتين، ولكنها - هذه الزهادة - جاءت نتيجة «تعذر من الدنيا عليك» ونتيجة «ضجر واستخذاء وتغيير نفس عندما أعجزك من الدنيا وغضب منك عليها مما التوى عليك منها» ولا شك إن هذا بسط لقول الإمام عليه السلام: «أبعده عن طلب ملك ضئولة نفسه وانقطاع سبيه». ثم توسع ابن المفع أكثر في آخر كلامه لما ين

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ٢ / ٣٨١.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير . ١٣٠.

إنّ الزاهد الحقيقي هو من يرحب عن الدنيا في وقتِ الدنيا راغبة فيه، وهذا لم يذكره أمير المؤمنين عليه السلام لأنّه كان في وصف صنف معين من الناس صفاتهم التي ذكرها لا معالجة هذه الحالة بدقائقها.

وفي ختام البسط في الأدب الكبير نعود إلى ما قدمناه من حديث ابن المقفع عن البسط لما قال: إنه كان يعمد إلى حكم «الأولين» ويستمد منها ما شاء، إذًا فالبسط الذي اسماه ابن المقفع بالاشتقاق لا ينفصل عنده عن حكم الأولين، لأنّه معتمد عليها كلياً، ولما عرفنا إنّ هذه الحكم التي يُسْطَع تتصدرها حكم أمير المؤمنين عليه السلام سنعرف - بهذه الطريقة - إنّ أمير المؤمنين عليه السلام - على الأقل - يتتصدر هؤلاء الذين اسماهم ابن المقفع بـ«الأولين».

رابعاً: الإيجاز:

لما عرفنا أنّ الإيجاز هو اداء المقصود من المعاني بأقل كلمات، كان من الأهمية الإشارة إلى أنّ هذا المظاهر شكل أرضية خصبة لآلية التكثيف الذي يعني: «إيجاز النص وتکثیف بنیته»^(١). فإنّ آلية التناص هذه تقترب بشدة من دائرة الاختزال.

ولما عرفنا فيما سبق الإيجاز هو نقض البسط، فكذلك ورد عند ابن المقفع في الأدب الكبير بالنسبة لكتاب الإمام عليه السلام نقىض البسط أيضًا، إذ لم يرد إلا في مواطن قليلة جداً ومن ذلك قوله: «فإنّ المعايبة مقطعة لِلْوَد»^(٢). فهو ينهى عن عتاب الصديق لأنّه يرى العتاب قاطعاً للمودة، وهذا يشبه بشدة بعض ما جاء في وصية أمير المؤمنين لولده الحسن عليه السلام: «ولا تكثر العتاب فإنه يورث الضغينة

(١) التناص في الشعر الأندلسي ٥٦.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٢٣.

الفصل الثالث: المبحث الأول: أثر كلام الإمام في رسالة الأدب الكبير ٣٣١

ويجُر إلى البُغضَة»^(١). فأبدل «العتاب» بـ «المعاتبة» وأوْجز «بورث الضغينة ويجُر البُغضَة» بـ «مقطعة للود»^(٢).

وبحسب ظن الباحث إنَّ ابن المفعع جانب الصواب لما نهى عن كلِّ العتاب وجعله صارماً لحبل المودة، لأنَّ في العتاب حلاوة لا توجد إلاَّ فيه، وهو محذر وله وقع خاص في النفوس الطيبة، ولكن الصواب ما نهى عنه المصيَب أمير المؤمنين عليه السلام لما عدَ المذموم من العتاب كثرته «لا تكثر العتاب».

وما ورد في الوصية أيضًا قول الإمام عليه السلام:

«قطيعةُ الجاهلِ تعِدُ صلةَ العاقِل»^(٢).

و«هذا حقٌّ، لأنَّ الجاهلَ إذا قطعَكَ انتفعتَ ببعده عنكَ كما تستفِعُ بمواصلة الصديق العاقِل لك»^(٣). وبعبارة أخرى كما أن صلة العاقِل غنية فإنَّ قطيعة الجاهل غنية أيضًا.

ورد هذا المعنى في الأدب الكبير بطريقة مكثفة وذلك في حديث ابن المفعع الذي وجَّه فيه إلى ملاقاة المعتذر بوجهه مشرق ولسان طلق، مستثنياً: «إلاَّ أن يكون مِنْ قطيعته غنية»^(٤). فقول ابن المفعع «قطيعته» إختزال لقول أمير المؤمنين عليه السلام: «قطيعةُ الجاهلِ»، فذكر لفظة «قطيعة» بنصها وأبدل الاسم الظاهر «الجاهل» بالضمير «الهاء». وأما قوله «غنية» اختزال لـ «صلة العاقِل» التي هي بلا شكُّ غنية.

(١) تحف العقول . ١٠٧

(٢) نهج البلاغة . ٤٧١

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦ / ٢٨٤

(٤) الأدب الصغير والأدب الكبير . ١٠٧

ولكنّ اختزال ابن المقفع هذا ضيّع جلّ محسن هذه الفقرة من الوصية التي تمثلت بالتشبيه والمقابلة والسبّع، ثم كيف جاءت كلمة «تعدل» في هذا المكان بالذات بطريقة ملفتة حينما عادلت المعنى بين قطيعة الجاهم وصلة العاقل. وحينما عادلت أيضاً تماماً بين مقطعي الحكم: «قطيعة الجاهم تعدل صلة العاقل». ولو كانت بدلها كلمة أخرى مثل تشبه أو حرف كالكاف لذهب كثير من وقعها.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لملك الأشتر:

«ثُمَّ أَللَّهُ أَللَّهُ فِي الْطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ مِنَ الْمُسَاكِينِ، وَالْمُحْتَاجِينَ، وَأَهْلِ الْبُؤْسِيِّ، وَالرَّمَدَى، فَإِنَّ فِي هَذِهِ الْطَّبَقَةِ قَانِعاً وَمُعْتَرِضاً... وَإِجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكٍ... فَإِنَّ لِلْأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلْأَذْنَى، وَكُلُّ قَدِ إِسْتَرْعِيَتْ حَقَّهُ، وَلَا يَسْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطْرُ، فَإِنَّكَ لَا تُعْذَرُ بِتَضْيِيقِكَ التَّافِهَ لِإِحْكَامِكَ الْكَثِيرَ الْمُهِمَّ»^(١).

أمرُ أمير المؤمنين عليه السلام هذا يدور حول معنيين:

الأول:

والذي أفتتحه بتكرار لفظ الحالة رغبةً منه في التوكيد اللفظي المشدد على إعطاء ذوي الحقوق حقوقهم وهم: المساكين...، وأهل البؤس وهم الذين مسّهم الفقر بشدة، والزمني أي المصابون بالعاهة، والقانع وهو السائل، وأخيراً المعتّر وهو المتعرض للعطاء بلا سؤال^(٢).

(١) نهج البلاغة - ٥١٣ - ٥١٤.

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة لمحمد عبده / ٣ - ٤٧٠.

الثاني:

أمرٌ واليه بإحکام الأمور وأن لا يهتم بالجليل المهم دون الحقير التافه، لأنَّه وإن حکم المهم لا يعذر بتضييع التافه.

وليس من الصدفة مطلقاً أن يجتمع هذان المعينان أو قریب منهما عند ابن المفع وفی نصٍ واحد، لكنه قدّم وأخْرَ فیهما، فقال: «لا تترکن مُباشرة جسمِ أمركَ فيعود شأنكَ صغيراً، ولا تُلزم نفسكَ مباشرة الصغير، فيصيَّر الكبير ضائعاً». وأعلم أنَّ مالكَ لا يغْنِي الناسَ كلهم فاخصص به أهل الحق»^(١).

والفرق إنَّ ابن المفع أوصى السلطان مباشرة الجسم مزرياً بصغرائه الأمور مُكرّراً هذا المعنى بجملتين وهذا التكرار لا طائل منه لأنَّه أوضحته في الجملة الأولى. بينما أمير المؤمنين عليه السلام لا يعذر واليه إذا أضاع التافه حتى ياتقانه المهم. وأمّا «أهل الحق» الذين طلب ابن المفع إعطاءهم حقوقهم، فهو اختزال لما عدّده الإمام عليه السلام من المؤسسي، والزموني والمحاجين، ولكن على ابن المفع هنا أن يذكرهم - وإن كان أهل الحق معروفين - لأنَّ ذكرهم وتذكير الناس بهم يعد حسنة بحد ذاته.

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٧١.

المبحث الثاني

أثر كلام الإمام علي (عليه السلام)

في رسالة الأدب الصغير

الأدب الصغير عبارة عن رسالة تتضمن طائفَةً من الحكم والوصايا في أغراضٍ شتى منها: الدينية، والسياسية، والعسكرية وغيرها حرصَ ابن المفع فيها على إرشاد الناس إلى معاشهم ومعادهم وما بين ذلك من أعمال. وتعد هذه الرسالة «من بداعِ ابن المفعَّ أملاها عقله الفياض على قلمه السيّال فجاءت كالماء الزلال بل كالسحر الحلال»^(١). والحقيقة لو لا كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) لم تكن هذه الرسالة بهذه المنزلة الأدبية.

لا تختلف هذه الرسالة عن رسالة الأدب الكبير في الهدف والمضمون والمنهج، بل ما هي إلّا صورة مصغّرة لها. ومن أهم ما في الأدب الصغير تلك المقدمة

(١) الأدب الصغير . ٢٣

التي جاءت كمقدمة الأدب الكبير من الاعتراف بأنّ جانباً كبيراً من الرسالة نُقل عن أولئك الأشخاص الذين اكتفى ابن المفعع بوصفهم وذكر بعض محامدهم. وفي هذه المرة لم يصفهم بالقدماء بمعنى أنَّ الحجة الدَّاحضة - مثلما عرف في الأدب الكبير - التي أعتمدت عليها من اعتمد في أنَّ ابن المفعع كان يقصدُ القدماء الفرس لم تكن موجودة هنا.

قال ابن المفعع في الأدب الصغير مؤكداً على تأثيره بالصالحين، وتضمين كلامهم: «وقد وضعْتُ في هذا الكتاب من كلام الناسِ المحفوظِ حروفاً فيها عونٌ على عمارة القلوبِ وصقاها وتجليّة أبصارها، وإحياءُ للتفكيرِ وإقامةُ للتذكرة، ودليلٌ على حامدِ الأمورِ ومكارمِ الأخلاقِ إن شاء الله»^(١). وكان لا يرى في الأخذ من هؤلاء والسير على هديهم ضيراً، لأنَّهم مصييون وصالحون وكلامهم حسن مثلهم، بل ذهب إلى ابعد من هذا لما عدَّ الأخذ عنهم وحفظ كلامهم يحتاج إلى توفيق وعون وهدایة، وبهذا الأخذ يبلغ الأديب الغاية، فقال في ذلك: «ومن أخذ كلاماً حسناً من غيره فتكلّم به في موضعه وعلى وجهه، فلا ترَى عليه في ذلك ضئولةً. فإنَّ من أعين على حفظِ كلام المصييون، وهديَ للإقتداء بالصالحين، ووُفقَ للأخذِ عنِ الحكماء، ولا عليه أنْ لا يزداد، فقد بلغ الغاية»^(٢).

فابن المفعع يصرح بأنَّه أخذ عن أولئك الحكماء. ويؤكد على أنَّ هذا الأخذ تضمينٌ حرفي «من أخذ كلاماً.. فتكلّم به.. على وجهه» أي دون تغيير، مشجّعاً على أخذ المزيد من هذا الكلام، لأنَّ فيه بلوغ الغاية «ولا عليه أنْ لا يزداد،

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٥.

(٢) م ٠ ن ١٣ .

الفصل الثالث: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسالة الأدب الصغير ٣٣٧

فقد بلغَ الغاية». وعنده أيضًا ومهما بلغ الأديب من الفضل والمنزلة فلا يزال مديناً لهم، ملتجئاً إلى كلامهم؛ لأنّهم مبدعون مخترعون، ومن جاء بعدهم واصفون ناظمون كمن يجدُ فصوصاً من الجوادر معدّة فينظمها ويضعُ كلَّ فصٍ موضعه^(١).

ومثلاً هو موجود لم يصرّح ابن المفعع بذكر اسم الشخص أو الأشخاص الذين تأثّر بهم، بل اكتفى بتعذّر بعض صفاتهم ومنها: - كلامهم حسن. - صالحون. - مصيّبون. - حكماء. - مخترعون. - مبدعون. - في كلامهم عمارة القلوب وصقاها وتجليّة أبصارها. - فيه إحياء للفكر. - فيه إقامة التدبر. - فيه مدح الأمور. - فيه مكارم الأخلاق.

وهذه الصفات هي صفات إسلامية كانت متوفّرة عند الصفوّة من الإسلاميين وأمير المؤمنين عليه السلام من أهمّ مصاديقها.

هذه هي فحوى مقدمة الأدب الصغير. ولكن الغريب عنها ما صرّح به الدكتور محمد مهدي البصير بعد أن عرّفها لنا، إذ قال: «مجموعة عظات ونصائح نقلها المترجم عن الفارسية كما ينصُّ على ذلك هو في مقدمتها»^(٢).

ويرى الباحث أنَّ في هذا الكلام تقوّلاً واضحاً على ابن المفعع، إذ إنه لم ينص مطلقاً على أنه نقل عن الفارسية ولم يلمح إلى ذلك أيضاً لا من قريب ولا من بعيد، بل كل الذي قاله الرجل ما ذكرناه عنه. ولا أدري من أين جاء المرحوم الدكتور بهذا التصرّح.

وعلى أية حال وبعد عرض ما جاء في رسالة الأدب الصغير على مجموعة

(١) ينظر: الأدب الصغير والأدب الكبير ١٢ - ١٣.

(٢) في الأدب العباسي ١٦.

واسعة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام وجد الباحث نصيباً كبيراً من تلك الحروف التي تحدث عنها ابن المفعع للإمام علي عليه السلام، الذي توّكّأ ابن المفعع كثيراً على كلامه. وبدون مغالاة فإني لم أجده ولا صفحة واحدة من صفحات الأدب الصغير تخلو من اثر لكلام أمير المؤمنين عليه السلام ولكن سأقتصر على بعضها وبالمظاهر الآتية:

أولاً: التضمين:

ضمن ابن المفعع حكمـاً كثيرة جداً لأمير المؤمنين عليه السلام ولكن هذه الحكمـ العلوية لم يوردها ابن المفعع بمفردها دون أختـ لها، أو دون توسيع عليها. إلاـ من الندرة النادرة. ومن هذه الندرة في الأدب الصغير قول ابن المفعع في باب توصية الملك بالحرز: «الظفر بالحرز، والحرز بـإجـالة الرأـي بـتحصـينـ الأـسرـار»^(١).

وهذا بنصـه من حكمة أمير المؤمنين عليه السلام:

«الظـفـرـ بـالـحـزـمـ، وـالـحـزـمـ بـإـجـالـةـ الرـأـيـ، وـالـرـأـيـ بـتـحـصـينـ الـأـسـرـارـ»^(٢).

إـجـالةـ الرـأـيـ إـعـمالـهـ^(٣)، وـالـبـاءـاتـ لـلـلـصـاقـ وـالـاسـتـعـانـةـ^(٤). وفيـ الحـكـمةـ «يـشـيرـ إـلـىـ إـلـامـهـ» بهذا إلىـ أنـ التـخطـيطـ شـرـطـ أـسـاسـيـ لـلـظـفـرـ وـالـنـجـاحـ، وـإـنـ أـيـ عـمـلـ مـنـ غـيرـ تـصـمـيمـ وـتـخـطـيطـ يـذـهـبـ سـدـيـ، وـ ربـماـ كـانـ ضـرـراـ مـحـضـاـ. وـ هـذـهـ الـحـقـيقـةـ سـمـةـ الـعـصـرـ الـحـدـيـثـ...»

(١) -الأدب الصغير والأدب الكبير . ٥٣

(٢) نهج البلاغة ٥٦١ . وينظر: أدب ابن المفعع دراسة اسلوبية . ٥٠

(٣) يـنـظـرـ: شـرـحـ اـبـنـ مـيـمـ / ٥ـ ٤٠٨ـ

(٤) يـنـظـرـ: منـهـاجـ الـبرـاعـةـ فـيـ شـرـحـ نـهـجـ الـبـلـاغـةـ . ٢١/٨٧ـ

الفصل الثالث: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسالة الأدب الصغير ٣٣٩

إنهم يخططون لكل شيء... حتى الكذب... له عندهم تخطيط ودراسة. والشرط الأساسي في التخطيط الحزم، وفسره الإمام بإجالة الرأي أي بالدراسة العلمية على أن تبقى هذه الدراسة طي الكتمان»^(١).

وبفعل تلك الموسوعية الهائلة التي يحملها أمير المؤمنين عليهما السلام فهو لم يغفل شيئاً لم يوصي به، حتى المسافة التي ينبغي الإلتزام بها والوقف عندها بين الجيшиين. فمن حكمته له يأمر فيها صاحب الجندي بعدم الإبعاد المفرط، كما أمره بعدم الإقتراب المفرط من معسكر العدو، فقال: «قارب عدوك بعض المقاربة تدل حاجتك ولا نفرط في مقاربته فتذل نفسك وناصرك وتأمل حال الخشبة المنصوبة في الشمس التي إن أملتها زاد ظلها وإن أفرطت في الإمالة نقص الظل»^(٢).

استعمل أمير المؤمنين عليهما السلام هذا التشبيه الضمني الرائع في توضيح ما أراد، فقد شبه المعسكر بالخشبة الشاخصة إن أملتها قليلاً زاد ظلها؛ لأنّ الشمس تضرب بأشعتها على جانب هذه الخشبة فيصبح ظلها مديداً. ووجه الشبه من هذا هو إذا التزم الجندي بالبعد المطلوب من المسافة عن العدو كان لهم ظلاً أكثر ويترتب على هذا هيبة ووقع أكثر للجيش بسبب عدم معرفة العدو بالعدة والعدد الفعلي لذلك الجيش.

أما لو أفرطت في إمالتها فإنّ طولها سيتلاشى على الأرض، لأنّ الشمس تكون عمودية عليها، وبالتالي فإنّ ظلّها سيكون تحتها لا يُستعين منه إلا القليل، ولربما يختفي تماماً وستكون الخشبة على حقيقتها فلا تزداد

(١) في ظلال نهج البلاغة / ٤ / ٤٤٧.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ٢٠ / ٤٨٧.

من الظلّ أي طولٍ وهذا هو وجه الشبه إذ إنَّ الجندي لو اقتربوا أكثر من معسكر عدوهم ستُعرف مقدرتهم الحقيقية، ولربما تزول هويتهم في نفوس عدوهم بفعل هذه المعرفة.

ضمَّن ابن المقفع هذه الحكمة في الأدب الصغير مبيِّناً أنها ليست له، فقال: «وكان يقال: قاربْ عدوكَ بعض المقاربة، تدل حاجتك، ولا تقاربُه كل المقاربة، فيجري عليك عدوك وتذل نفسك ويرغب عنك ناصرك. ومثل ذلك مثل العود المنصوب في الشمس، إن أملته قليلاً زاد ظله، وإن جاوزته الحد في إمانته، نقص الظل»^(١).

ومن قبيل هذا الإعتراف قال ابن المقفع أيضاً: «وكان يقال: عمل الرجل فيما يعلم أنه خطأ هوى، والهوى آفة العفاف. وتركه العمل بما يعلم أنه صوابٌ تهاونٌ، والتهاون آفة الدين. وإقاده على ما لا يدرى أصوابٌ على ما لا يدرى أصوابٌ هو أم خطأ جماح، والجماح آفة العقل»^(٢).

وهذا الذي قال هو أمير المؤمنين عليه السلام:

«عَمَلَ الرَّجُلُ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ خَطَا هَوَى، وَالْهَوَى آفَةُ الْعَفَافِ، وَتَرَكُ الْعَمَلَ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ صَوَابٌ تَهَاوِنٌ، وَالتَّهَاوِنُ آفَةُ الدِّينِ، وَإِقْدَامُهُ عَلَى مَا لَا يَدْرِي أَصَوَابٌ هُوَ أَمْ خَطَا لِحَاجٌ، وَاللِّجَاجُ آفَةُ الْعَقْلِ»^(٣).

وقال ابن المقفع في أدبه الصغير: «قال رجلٌ حكيمٌ: ما خيرٌ ما يؤتى المرء؟ قال: غريزة عقلٍ. قال: فإن لم يكن؟ قال: فتعلمُ علمٍ. قال: فإن حرمٌ؟ قال:

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٥٢.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ٤٣.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤٥١ - ٤٥٢ / ٢٠.

الفصل الثالث: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسالة الأدب الصغير ٣٤١

صدق اللسان قال: فإن حرمه؟ قال: سكوت طويلٌ. قال: فإن حرمه؟ قال:
«ميتة عاجلة»^(١).

وهذا الحكيم هو حكيم الإسلام أمير المؤمنين عليه السلام وذلك هو جوابه، فقد سُئل:
«ما أفضلي ما أعطي الإنسان؟ قال غريرة في عقلٍ، قيل: فإن لم يكن؟ قال:
فأخ مستشيرٌ، قيل فإن لم يكن؟ قال: فصمت في المجالسِ، قيل، فإن لم يكن؟ قال:
فموت عاجلٌ»^(٢).

ومثلما هو واضح، فإن ابن المقفع ضمن هنا النص العلوي بطريقة التحوير،
فقد أبدل قول الإمام عليه السلام:

«ما أفضلي ما أعطي الإنسان».

بـ «ما خير ما يؤتى المرء».

وأبدل «ميتة عاجلة».

بـ «موت عاجل».

وأبدل «فصمت في المجالس».

بـ «سكوت طويل».

وبطريقته التي يأبى مفارقتها إلا نادراً مع النص العلوي، تلك الطريقة
القائمة على الريادة، فهو قد زاد على الحكمة «فتعلم علم» و «صدق لسان».

ومن التضمين الذي ورد في الأدب الصغير: «أصل العقل التثبت وثمرته

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٤٩.

(٢) جامع الأحاديث ١٩٤.

السلامة»^(١).

فهذا تضمين لحكمة أمير المؤمنين عليه السلام:

«أصل العقل الفِكْرُ وَثَمَرَتُهُ السَّلَامَةُ»^(٢).

فلم يبدل ابن المفعع سوى «الفكر» بـ«الثبت» والأولى خاصة بالعقل وأكثر مواءمة له من الثانية، وعليه فإن إبدال ابن المفعع هذا لم يكن في محله.

ثانياً: التلفيق:

كان ابن المفعع كاتباً حكيمًا تغلب عليه الحكمة في كل شيء^(٣)، وبما إن أمير المؤمنين عليه السلام مثلما قال البروفسور فيليب يقوم في التراث الإسلامي مقام سليمان الحكيم... وله من الحكم والمواعظ عدداً لا يحصى^(٤)، فقد وجد ابن المفعع ضالته في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام الحكيمية تلك، فلفق كثيراً منها. وقد ورد التلفيق في الأدب الصغير مكون من:

١- حكمتين علويتين:

ومن هذا قول ابن المفعع في الأدب الصغير: «أَحَقُّ النَّاسِ.. بِالْفَضْلِ أَعُوَدُهُمْ عَلَى النَّاسِ بِفَضْلِهِ.. وَأَحَقُّهُمْ بِالنِّعَمِ أَشْكَرُهُمْ لِمَا أُوتِيَ مِنْهَا»^(٥).

فأول كلامه الذي أكد فيه على أن المتفضل على الناس هو أجدرهم بأن يدوم

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٤٥.

(٢) غر الحكم ودرر الكلم ١٩٨.

(٣) ينظر: ابن المفعع ٦٢.

(٤) ينظر: وعاظ السلاطين ١٨٣.

(٥) الأدب الصغير والأدب الكبير ٣٣-٣٤.

له ذلك الفضل. وعلة دوام ذلك الفضل على الناس من السعي في قضاء حوائجهم، والاهتمام بأمورهم له شبه بلغ بجانب من حكمه لأمير المؤمنين عليه السلام بين فيها لجابر بن عبد الله الأنباري أنَّ الله سبحانه وتعالى قد أسبغ نعمه على خلقه، فمن أراد هذه النعم الدوام والبقاء عليه أن يقوم بها بما يرضي الله، ويقضي حوائج الناس، ومن لم يفعل هذا عرّض نعمته للزوال فقال:

«يَا جَابِرُ، مَنْ كَثُرَتْ نِعَمُ اللَّهِ عَلَيْهِ كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَامَ بِمَا يُحِبُّ اللَّهُ فِيهَا عَرَّضَ نِعْمَةَ اللَّهِ لِدَوَامِهَا، وَمَنْ ضَيَّعَ مَا يُحِبُّ اللَّهُ فِيهَا عَرَّضَ نِعْمَتَهُ لِزَوَالِهِ اللَّهُ فِيهَا بِمَا يُحِبُّ فِيهَا عَرَّضَهَا لِلدَّوَامِ وَالْبَقَاءِ، وَمَنْ لَمْ يَقُمْ فِيهَا بِمَا يُحِبُّ عَرَّضَهَا لِلزَّوَالِ وَالْفَنَاءِ»^(١).

أمّا قول ابن المقفع الأخير: «وأحقهم بالنعم أشكرهم لما أؤتي منها» فيكاد يكون بنصه عن حكمه لأمير المؤمنين عليه السلام التي تقول:

«وَأَحْقُّ النَّاسِ بِزِيادةِ النِّعْمَةِ أَشْكَرُهُمْ لَمَا أُعْطَى مِنْهَا»^(٢).

قوله «وأحقهم» أي «أحق الناس» مثلما ذكر هو في بداية حديثه، وهذا بنصه من أول الحكمة «وأحق الناس»، والباقي بنصه سوى أنَّ ابن المقفع حذف لفظة «بزيادة»، وأبدل الفعل الماضي المبني للمجهول «أعطي» بآخر مثله معنى وصياغة «أؤتي».

وبطريقة ماثلة تعامل ابن المقفع مع حكمتين لأمير المؤمنين عليه السلام فرق بهما بين مودة الأخيار وبين مودة الأشرار من حيث الديمومة والرسوخ. فال الأولى ثابت أصلها وارف فرعها، والثانية سريع إنقطاعها، فقال في ذلك:

(١) نهج البلاغة . ٦٢٠

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم . ٣٥٩

«مودة ذوي الدين بطیئة الإنقطاع دائمًا ثبات وبقاء»^(١).

«مودة الحمقى تزول كما يزول السراب وتقشع كما يقشع السحاب»^(٢).

لفق ابن المفعع بين الحكمتين، فقال: «ومودة بين الأخيار سريع اتصالها بطئ الانكسار هين الإصلاح. والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بطئ اتصالها، كالكوز من الفخار يكسره أدنى عبث ثم لا يصل له أبداً»^(٣).

فأبدل ابن المفعع «مودة ذوي الدين» بـ «المودة بين الأخيار».

وأبدل «مودة الحمقى» بـ «المودة بين الأشرار».

وقوله عليه السلام: «بطیئة الإنقطاع» فمثله التام في قول ابن المفعع:

«بطيء إنقطاعها»

أما تشبيه أمير المؤمنين عليه السلام لمودة الحمقى وزواها بالسراب وتقشع السحاب فقد أراد من ذلك وجه الشبه المتمثل بسرعة زوال هذه المودة وتصرّفها، وابن المفعع اقتبس وجه الشبه هذا لما قال: «سريع إنقطاعها». وبطريقته التي لا يكاد يفارقها مع كلام أمير المؤمنين عليه السلام وهي التوسيع بطرق شتى وهو هنا ضرب مثالاً بعد كُلّ من الحكمتين اللتين لفقيهما.

ومن نحو هذا أيضاً قول ابن المفعع: «... ومن لا إخوان له فلا أهل له...، ومن لا عقل له فلا دنيا له ولا آخرة»^(٤).

(١) عيون الحكم والمواعظ . ٤٨٩

(٢) م. ن. ٤٨٧

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير . ٥٤

(٤) م. ن. ٥٥

الفصل الثالث: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسالة الأدب الصغير ٣٤٥

فمقطعه الأول الذي يبيّن فيه منزلة الأخوان بنصيه من قول الإمام علي عليه السلام: «مَنْ لَا إِخْرَانَ لَهُ لَا أَهْلَ لَهُ»^(١).

وأما الثاني فلا يعدو تقديمًا وتأخيرًا بين كلمات حكمة الإمام علي عليه السلام التي تقول: «مَنْ لَمْ يُؤْثِرْ الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا فَلَا عَقْلَ لَهُ»^(٢).

وبمثل هذه الطريقة تعامل ابن المفع مع حكمتين آخرتين لأمير المؤمنين عليه السلام قال في الأولى مشفقاً على ولده محمد بن الحنفية من الفقر:

«يَا بُنَيَّ إِنِّي أَحَافُ عَلَيْكَ الْفَقْرَ فَاسْتَعِدْ بِاللَّهِ مِنْهُ، فَإِنَّ الْفَقْرَ مَنْقَصَةٌ لِلَّدَنِينَ، مَدْهَشَةٌ لِلْعَقْلِ، دَاعِيَةٌ لِلْمَقْتِ»^(٣).

قال ابن ميثم: «أَمّا كونه منقصةً للدين فللاشتغال بهمه وتحصيل قوام البدن عن العبادة، وكونه مدهشةً للعقل: أي محل دهشة العقل وحياته وضيق الصدر به ظاهر، وكذلك كونه داعية مقت الخلق لصاحبها»^(٤).

وقال عليه السلام في الثانية:

«.. وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ خَطْءُهُ، وَمَنْ كَثُرَ حَطَّوْهُ قَلَ حَيَاوُهُ قَلَ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَ وَرَعُهُ مَاتَ قُلْبُهُ، وَمَنْ مَاتَ قُلْبُهُ دَخَلَ النَّارَ..»^(٥).

لفق ابن المفع الحكمتين وذلك في حديثه عن الفقر، فقال: «والفقير داعية إلى صاحبه مقت الناس، وهو مسلبة للعقل والمرءة، مذهبة للعلم والأدب،

(١) غرر الحكم ودرر الكلم . ٦٣٦.

(٢) م. ن. ٦٥١.

(٣) نهج البلاغة . ٦١٠.

(٤) شرح نهج البلاغة لابن ميثم / ٥٠ - ٤٧٧٠.

(٥) نهج البلاغة . ٦١٤.

ومعدن للتهمة، وجمعية للبلايا. ومن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بُدًّا من ترك الحياة، ومن ذهب حياؤه ذهب سروره، ومن ذهب سروره مقت، ومن مقت أو ذي، ومن أوذى حزن، ومن حزن فقد ذهب عقله^(١).

فالحكمة التي أمر فيها أمير المؤمنين عليه ولده بالإستعاذه من الفقر بالله العزيز نجد منها عبارات واضحة في كلام ابن المقفع مع تقديم وتأخير، فقول الإمام عليه: «إِنَّ الْفَقْرَ .. دَاعِيَةً لِلْمَقْتِ» جعله ابن المقفع في مقدمة كلامه: «والفقـ داعية إلى صاحبه مقت الناس».

وقوله عليه: «مَدْهَشَةُ الْعَقْلِ» قال عنه ابن المقفع «مسلبة للعقل» ولفظة «مَدْهَشَةٌ» أدق في وصف عقل الفقير من «مسلبة»، فالذى يصيبه الفقر يُدهش فكره، ويصاب بـ حيرة من أمره لا يُسلب عقله.

ومثـا عرفنا سلفـاً - وكما نعرف لاحقاً - لا تكاد تمر حـمة واحدة من حـمـ أمـرـ المؤـمنـينـ عليهـ عندـ ابنـ المـقـفعـ - إـلاـ نـادـراـ جـداـ دونـ أنـ يتـوـسـعـ عـلـيـهاـ، أوـ يـقـدـمـ لهاـ، أوـ يـفـرـعـ منـهاـ، أوـ يـضـرـبـ مـثـالـاـ عـلـيـهاـ. وهوـ هـنـاـ بـعـدـ أنـ ذـكـرـ ماـ قـالـهـ الإـمـامـ توـسعـ عـلـيـهـ بـقـولـهـ: «مـذـهـبـةـ لـلـعـلـمـ وـمـعـدـنـ لـلـتـهـمـةـ، وـجـمـعـةـ لـلـبـلـاـيـاـ».

أما حـمةـ الإـمـامـ الثـانـيـ لاـ يـقـلـ أـثـرـهـ عـنـ الـأـوـلـىـ مـنـ حـيـثـ المـفـرـدـاتـ، وـالـمعـانـيـ، وـالـتـرـكـيبـ، فـقـولـهـ عليهـ: «..، وـمـنـ قـلـ حـيـاؤـهـ قـلـ وـرـعـهـ».

لـهـ صـدـىـ بـيـنـ فـيـ قـوـلـ اـبـنـ المـقـفعـ: «وـمـنـ ذـهـبـ حـيـاؤـهـ ذـهـبـ سـرـورـهـ» وـهـوـ فيـ اـسـتـعـمـالـهـ الـفـعـلـ (ـذـهـبـ) بـدـلـاـ مـنـ الـفـعـلـ (ـقـلـ) عـادـ إـلـىـ الـمـبـالـغـةـ غـيـرـ الـمـحـمـودـةـ

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٥٥ - ٥٦

الفصل الثالث: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسالة الأدب الصغير ٣٤٧

لأنَّ مَنْ يفتقر لا يعني أنَّ حياءَه قد ذهب، ومثلياً أكَدَ على ذلك هو «لم يجد بدًا من ترك الحياة»، بل الحياة لربِّها يقلُّ إذا افتقر حامله، وعليه لو استعمل الفعل «قلَّ» مثلما وجده عند أمير البيان عليه السلام لكانَ أصوب.

أما صياغة الجملة وتركيبها القائم على افتتاحها بـ «مَنْ» واتباعها بفعلٍ ماضٍ ثم اختتامها بنتيجةٍ معينٍ كقوله عليه السلام:

«...وَمَنْ قَلَّ وَرَعْهَ ماتَ قَلْبُه». .

فالجملة مكونة من:

من الشرطية + فعل الشرط الماضي مع فاعله + جواب الشرط وفاعله وهو ماضٍ أيضاً.

فكل هذا نجده تماماً في قول ابن المقفع «وَمَنْ ذَهَبَ حِيَاوَهُ ذَهَبَ سَرُورَهُ». إلا أنه وفي بعض الجمل تخلصَ من الفاعلين لأنَّه جاء بالفعل الماضي مبنياً للمجهول كقوله: «وَمَنْ مَقْتَ قَدْ أُذِي». .

وتجدر الإشارة إلى أنَّ التشابه بين كلام ابن المقفع «وَمَنْ نَزَّلَ بِهِ الْفَقْرَ إِلَى قَوْلِهِ ذَهَبَ عَقْلَهُ» وبين حكمة الإمام الثانية أشار إليه -أيضاً- الدكتور محمد مهدي البصیر في قوله: «يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ ابْنَ الْمَقْفَعِ يَحْارِي بِكَلَامِهِ هَذَا كَلَامًا بَلِيغًا لِإِلَامِ عَلَيِّ - ثُمَّ ذَكَرَ الدَّكْتُورُ الْحَكْمَةَ - وَلَكِنَّ كَمْ بَيْنَ كَلَامِ إِلَامِ عَلَيِّ وَهَذِهِ ابْنِ الْمَقْفَعِ مِنْ فَرْقٍ»^(١).

وفي حكم عدة كان أمير المؤمنين عليه السلام ينهى عن الاستهانة بالخير واستقلال الصغير والقليل منه، ومن ذلك قوله:

(١) في الأدب العباسى ٢٠ (الهامش).

«إِفْعَلُوا الْخَيْرَ وَلَا تَحْقِرُوا مِنْهُ شَيْئًا، فَإِنَّ صَغِيرَهُ كَبِيرٌ وَقَلِيلَهُ كَثِيرٌ»^(١).

وفي حكمةٍ أخرى نهى عن تحقيـرـ الخـيرـ والـشـرـ مـعاً؛ لـإنـ الخـيرـ
وـإنـ كانـ صـغـيرـاًـ فـصـغـيرـهـ يـسـرـ،ـ والـشـرـ وـإنـ كانـ ضـءـولـاًـ فـضـالـتـهـ تـضـرـ،ـ
فـقالـ فـيـ ذـلـكـ:

«لَا تَحْقِرَنَّ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ وَلَا صَغْرًا، فَإِنَّكَ إِذَا رَأَيْتَهُ سَرَّكَ مَكَانُهُ، وَلَا
تُحَقِّرَنَّ شَيْئًا مِنَ الشَّرِّ وَلَا صَغْرًا، فَإِنَّكَ إِذَا رَأَيْتَهُ سَاءَكَ مَكَانُهُ»^(٢).

نجد مضمون الحكمتين معاً وبعضاً من تراكيبيهما في قول ابن المقفع «وعلى العاقل أن لا يستصغر شيئاً من الخطأ في الرأي، والزلل في العلم، والإغفال في الأمور، فإنه من استصغر الصغير أوشك أن يجمع إليه صغيراً وصغيراً، فإن الصغير كبير.. ولم نر شيئاً قط إلا قد أتي من قبل الصغير المتهاون به، قد رأينا الملك يؤتى من العدو المحترق به، ورأينا الصحة تؤتى من الداء الذي لا يحفل به، ورأينا الأنهار تنبع من الجدول الذي يستخف به»^(٣).

فنـهـيـ الإـمامـ عـلـيـ عليهـ السـلـامـ عـنـ تـحـقـيرـ الشـرـ:ـ «وـ لـاـ تـحـقـرـنـ شـيـئـاـ مـنـ الشـرـ».ـ لـاـ
يـخـتـلـفـ عـنـ رـفـضـ اـبـنـ المـقـفـعـ لـإـسـتـصـغـارـ الـخـطـأـ وـالـزـلـلـ:ـ «لـاـ يـسـتـصـغـرـ شـيـئـاـ مـنـ
الـخـطـأـ».

أمـاـ قولـ الإـمامـ عـلـيـ عليهـ السـلـامـ:ـ «فـإـنـ صـغـيرـهـ كـبـيرـ».

ضمـمـنهـ اـبـنـ المـقـفـعـ بـتـحـوـيـرـ طـفـيفـ لـماـ قـالـ:ـ «فـإـنـ الصـغـيرـ كـبـيرـ».

(١) نهج البلاغة . ٦٢٩

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ٢٠ / ٤٢٠

(٣) الأدب الكبير والأدب الصغير . ٢٣

وکعادته التي يأبى ابن المقفع مفارقتها مع كلام الإمام علي ﷺ إلا نادراً. فهو لم يكتف بالتضمين، ولا التلفيق وحدهما، بل عمد إلى التوسيع أيضاً على الحكمة العلوية. ومن طرقه بالتوسيع ضرب الأمثال وهي هنا ثلاثة، لكنها بمعنى واحد تماماً، ومنها قوله: «ورأينا الأنهر تنبثق من الجدول الذي يستخف به». ومعنى المثل: لا تحقرنوا ولا تستصغروا الصغير النافع لأنّ فيه نتيجة تسرُّ. وبالتالي فإن ابن المقفع قد استوحى هذا المثل تماماً مما جاء في الحكمة الثانية: «لا تُحقرنَّ شيئاً مِنَ الْخَيْرِ وَإِنْ صَغْرٌ، فَإِنَّكَ إِذَا رَأَيْتَهُ سَرَّاً كَمَا كَانَهُ».

٢- وصية وحكمة:

فمما جاء في وصية أمير المؤمنين ولده الحسن عليه السلام:

«يا بُنْيَيْ إِجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيهَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَإِكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرُهُ هَا، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضِ مِنَ النَّاسِ بِهَا تَرْضَاهُ لُهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا تَقُولْ مَا لَا تَعْلَمُ، وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُولْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ»^(١).

فهو يريد من ولده الحسن عليه السلام أن يكون عادلاً بينه وبين غيره كما الميزان عادل لا يفضل إحدى كفتتية على الكفة الأخرى إلا بوزن حقٍّ. وقال عليه السلام في هذا المعنى:

«أَعْدُلُ السِّيرَةَ أَنْ تُعَامِلَ النَّاسَ بِمَا تُحِبُّ أَنْ يُعَامِلُوكَ بِهِ»^(٢)

(١) نهج البلاغة - ٤٦٢ - ٤٦٣.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم . ٢٠٣

لا يخرج قول ابن المقفع: «أَعْدُلُ السَّيِّرَ أَنْ تَقِيسَ النَّاسَ بِنَفْسِكَ، فَلَا تَأْتِي إِلَيْهِمْ إِلَّا مَا تَرْضِي أَنْ يُؤْتَى إِلَيْكَ»^(١) عن دائرة النصيين العلويين، فأول قوله: «أَعْدُلُ السَّيِّرَ أَنْ تَقِيسَ النَّاسَ» عن كلام الإمام علي عليه السلام:

«أَعْدُلُ السِّيرَةَ أَنْ تُعَامِلَ النَّاسَ».

فقد أبدل ابن المقفع «تعامل» بـ «تقيس». إلا أن التحوير الذي أجراه ابن المقفع على مفردة «السيرة» وحوها إلى «السيير» لم يكن محموداً بنظر الباحث، كون هناك فرق شاسع بين السيرة التي هي السنة والطريقة^(٢)، وبين السيير الذي هو الذهاب^(٣). وبالتالي فإن المعنى عند الطرفين لا تستقيم معه مفردة «السيير» بقدر مفردة «السيرة».

وبافي كلامه أخذه من الوصية إلا أنه حذف منها «الميزان» الذي أعطى لوصية الإمام بعداً تصویریاً جميلاً إلا بوزن حق. وكذلك لم نجد في كلام ابن المقفع طرق ومقاييس العدل تلك التي وجدناها في كلام الإمام علي عليه السلام:

– أَنْ تُحِبَ لغِيرِكَ مَا تُحِبُ لِنَفْسِكَ

– أَنْ لَا تَظْلِمِ كَمَا تُحِبُ أَنْ لَا تُظْلَمَ

– أَنْ تَسْتَقِبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقِبِحْ مِنْ غَيْرِكَ

وتنبغي الإشارة بعد هذا إلى أن ما جاء في نهاية المقطع المذكور من الوصية: «وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمْ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمْ». لم يذكره ابن المقفع مع كلامه السابق، بل

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٤٠.

(٢) ينظر: تاج العروس ٦ / ٥٥٩ مادة (سيير).

(٣) ينظر: لسان العرب ١ / ٣٩٣ مادة (سيير).

الفصل الثالث: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسالة الأدب الصغير ٣٥١

آخره قليلاً، فقال: «ومن ورع الرجل أن لا يقول ما لا يعلم»^(١).

٣- حكمتين ورسالة:

قال أمير المؤمنين في إحدى حكمه:

«وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى بُلْغَةِ الْكَفَافِ فَقَدِ اِنْتَظَمَ الرَّاحَةَ، وَتَبَوَّأَ خَفْضَ الدَّعَةِ.
وَالرَّغْبَةُ مِفْتَاحُ النَّصَبِ، وَمَطِيَّةُ التَّعَبِ»^(٢).

وقال في أخرى: «مَنْ سَأَلَ فَوْقَ قَدْرِهِ اسْتَحْقَّ الْحِرْمَانَ»^(٣).

وقال في رسالة كتبها على عبد الله بن عباس:

«الَّدُّنْيَا دَارُ دُولٍ، فَمَا كَانَ مِنْهَا لَكَ أَتَاكَ عَلَى ضَعْفِكَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَيْكَ لَمْ
تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ»^(٤).

أتى ابن المفعع على هذه النصوص الثلاثة بتمامها ونظمها في عقد واحد، فقال: «اقتصارُ السعي إبقاءً للجمام، وفي بعد الهمة يكون النصب، ومن سأل فوق قدرته استحق الحرمان، وسوء حمل الغنى أن يكون عند الفرح مرحاً، وسوء حمل الفاقة أن يكون عند الطلب شرعاً، وعار الفقر أهون من عار الغنى، وال الحاجة مع المحبة خير من الغنى مع البغضية. الدنيا دول، فما كان لك منها أتاكَ على ضعفكَ، وما كان عليك لم تدفعه بقوتك»^(٥).

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٤٣.

(٢) نهج البلاغة ٦١٩.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم ٦٢٤.

(٤) نهج البلاغة ٥٤٢.

(٥) الأدب الصغير والأدب الكبير ٢٦.

فالحكمة الأولى ضمنها ابن المقفع وجعلها في أول كلامه مع تحowيرات طفيفة فقد أبدل «من اقتصر» بـ «اقتصر السعي»، وأبدل «أننظم الراحة» بـ «إبقاء الجمام» والمعنى واحد تماماً في النصين وخاصة إذا عرفنا الجمام بمعنى الراحة^(١)، إلا أنّ ابن المقفع لم يبيّن إلى أيّ حدّ ينبغي معه الاقتصر في السعي، لأنّ الاقتصر قد يصل إلى التقصير، وهذه الدرجة سلبية وليس إيجابية، وابن المقفع بهذا يكون حذف محوراً من حكمة الإمام لا غنى عنه لمن أراد الإجادة في هذا المعنى، وهو قوله «الكافاف». وعلى أية حال فالذى اقتصر واكتفى بما يكفيه من كدّ يده ولم يجعل نفسه وجسده يلهثان خلف الدنيا أورث «الراحة» بحسب تعبير الإمام، أو «الجام» بحسب تحowير ابن المقفع.

وفي حال لم يقتصر الساعي على ما يكفيه وانقاد إلى «الرغبة» بحسب تعبير الإمام عليه السلام والتي حولها ابن المقفع إلى «بعد الهمة»، فحينئذ تكون النتيجة باتفاق الطرفين هي «النصب» أي التعب الشديد.

وبطبيعة الإمام لم يترك معناه بدون فنٍ بلاجيٍ جميل وهو هنا «استعار للرغبة في الدنيا لفظ المفتاح باعتبار فتحه لباب التعب على الرّاغب، وكذلك لفظ المطية باعتبار استلزمها كالمطية المُتّعب ركبها»^(٢).

أما حكمة الإمام الثانية «مَنْ سَأَلَ فَوْقَ قَدْرِهِ اسْتَحْقَقَ الْحِرْمَانَ»، فقد ضمنها ابن المقفع لما قال: «من سأّل فوق قدرته استحقّ الحرمان»، وليته لم ينله النصب لما أبدل «قدرته» بـ «قدرته». وبالنسبة للنص الثالث فقد ضمنه ابن المقفع بنصّه في آخر كلامه المذكور.

(١) ينظر: لسان العرب ١٢ / ١٠٥ مادة (جم).

(٢) شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٥ / ٤٩٠.

كـ نصوص عدّة متفرقة من العهد:

خـصـ ابن المـقـعـ السـلـطـانـ بـنـ صـيـبـ كـبـيرـ مـنـ الـمـوـاعـظـ فـيـ الـأـدـبـ الصـغـيرـ، وـكـانـ يـرـىـ إـنـ هـنـاكـ خـصـالـ أـرـبـعـ يـنـبـغـيـ عـلـىـ السـلـطـانـ إـحـراـزـهـ وـالتـوـثـقـ مـنـهـ كـيـماـ تـدـولـ دـوـلـتـهـ، وـتـنـفـذـ كـلـمـتـهـ، فـقـالـ: «وـلـاـيـةـ النـاسـ بـلـاءـ عـظـيمـ»، وـعـلـىـ الـوـالـيـ أـرـبـعـ خـصـالـ هـيـ أـعـمـدـ السـلـطـانـ، وـأـرـكـانـ الـتـيـ بـهـ يـقـومـ وـعـلـيـهـ يـثـبـتـ: الـاجـتـهـادـ فـيـ التـخـيرـ، وـالـمـبـالـغـةـ فـيـ التـقـدـمـ، وـالـتـعـهـدـ الشـدـيدـ، وـالـجـزـاءـ الـعـتـيدـ»^(١).

وبـعـدـ أـنـ عـدـدـ هـذـهـ الـأـرـكـانـ الـأـرـبـعـةـ بـدـأـ بـتـفـصـيلـ كـلـّـ مـنـهـاـ. وـهـذـهـ عـنـ بـكـرـةـ أـبـيـهـاـ مـنـ عـهـدـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـينـ لـلـهـلـلـهـ لـمـالـكـ الـأـشـتـرـ (رضـوانـ اللـهـ عـلـيـهـ)ـ بـالـنـصـ أوـ بـالـمـعـنـىـ.

فـقـالـ ابنـ المـقـعـ عـنـ التـخـيرـ: «فـأـمـاـ التـخـيرـ لـلـعـمـالـ وـالـلـوـزـرـاءـ فـإـنـهـ نـظـامـ الـأـمـرـ وـوـضـعـ مـؤـونـةـ الـبـعـيدـ الـمـنـتـشـرـ... وـلـعـلـ عـمـالـ الـعـاـمـلـ وـعـمـالـ عـمـالـ يـلـغـوـنـ عـدـدـ كـثـيرـاـ، فـمـنـ تـبـيـنـ التـخـيرـ فـقـدـ أـخـذـ بـسـبـبـ وـثـيقـ، وـمـنـ أـسـسـ أـمـرـهـ عـلـىـ غـيرـ ذـلـكـ لـمـ يـجـدـ لـبـنـائـهـ قـوـاماـ»^(٢).

فـالـعـمـالـ كـثـيرـونـ، وـلـاـ يـمـكـنـ اـسـتـعـاـهـمـ بـأـجـمـعـهـمـ وـلـكـنـ السـبـبـ الـوـثـيقـ هوـ تـخـيرـهـمـ، وـهـذـاـ كـقـوـلـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـينـ لـلـهـلـلـهـ فـيـ عـهـدـهـ لـلـأـشـتـرـ:

«ثـمـ اـنـظـرـ فـيـ أـمـورـ عـمـالـكـ فـاـسـتـعـمـلـهـمـ [إـخـتـيـارـاـ]، وـلـاـ تـوـلـهـمـ مـحـابـةـ وـأـكـرـةـ»^(٣).

وـهـذـاـ التـخـيرـ يـحـتـاجـ إـلـىـ توـكـيدـ حـتـىـ يـتـمـ بـنـجـاحـ، قـالـ ابنـ المـقـعـ: «وـأـمـاـ التـقـدـيمـ

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير . ٢٥

(٢) م. ن . ٢٥

(٣) نهج البلاغة . ٥٠٩

والتوكيد، فإنَّهُ ليس كُلُّ ذي لُبٍّ أو ذي أمانةٍ يعرُفُ وجوهَ الأمورِ والأعمالِ»^(١).

فهو يرى هنا أنَّ العقل والأمانة غير كافيتين للتعرُف على وجوه الأمور الصحيحة وتأدية الأعمال بشكلها الحسن. وكأنَّه هنا أراد أن يقول ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام بعد أن أمر بتخيير العمال أيضًا:

«وَتَوَحَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجْرِبَةِ، وَالْحُيَاءِ، مِنْ أَهْلِ الْبَيْوَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالْقَدَمِ فِي الْإِسْلَامِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلَاقًاً، وَأَصَحُّ أَعْرَاضًاً، وَأَقْلُّ فِي الْمُطَامِعِ إِشْرَاقًاً، وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الْأَمْوَارِ نَظَرًاً»^(٢).

وبعد التوكيد قال ابن المفع عن التعهد: «وأما التعهد، فإن الوالي إذا فعل ذلكَ كان سميًّا بصيراً، وإن العامل إذا فعل ذلكَ به كان متھضناً حرizaً»^(٣). وبعد أسطرٍ معدوداتٍ كررَ القول مجددًا في التعهد قائلاً: «ثم على الملوك، .. تعاهدُ عما لهم وتفقدُ أمورِهم»^(٤).

وهذا الكلام نظيره قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«ثُمَّ تَفَقَّدُ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَلَدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا... وَلَا تَحْقِرْنَ لَطْفًا تَعاهدُهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ»^(٥).

فالمعنى واحدٌ بين الكلامين وهو التأكيد على تعهدٍ وتفقد الولاة لما في التعهد

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٢٥.

(٢) نهج البلاغة ٥٠٩.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ٢٥.

(٤) م. ن. ٢٦.

(٥) نهج البلاغة ٥٠٧-٥٠٦.

والمحاسبة من مردود إيجابي على إدارة الدولة ونجاح أعمالها. وليس المعنى هو نقطة الأشتراك الوحيد بين النصوص، بل ثمة هناك جمل علوية نجدتها في حديث ابن المفعع، كقول الإمام: «تفقد من أمرهم» وعند ابن المفعع: «وتفقد أمرهم» والفرق أن التفقد جاء في كلام الإمام عليه فعل أمر لزيادة التأكيد عليه، بينما جاء عند ابن المفعع اسم وهو مبتدأ مؤخر وخبره شبه الجملة «على الملوك». ولعله فعل هذا التقديم والتأخير طمعاً في التأكيد أيضاً.

وكقوله عليه: «تعاهدتم» فالضمير «الهاء» هنا عائدٌ على العمال أو الأصحاب والميم علامة الجمع، أي تعاهدت عمالك أو أصحابك، وبالتالي لا فرق فيه عن قول ابن المفعع: «تعاهدوا عليهم». فتراء عمد إلى الضمير الذي ورد في كلام الإمام وأرجعه إلى الإسم الصريح، وما أكثر تعامل ابن المفعع بهذه الطريقة مع كلام أمير المؤمنين عليه.

أما رابع الأركان السلطانية فهو الجزاء وإعطاء كل ذي حق حق، فجاء في الأدب الصغير: «وأما الجزاء فإنه ثبيت المحسن والراحة من المسيء»^(١). ثم بعد أسطير قليلة عاد ابن المفعع وكرر هذا المعنى بتفصيل أكثر، قائلاً: «ثم عليهم، بعد ذلك، أن لا يتركوا محسناً بغير جزاء، ولا يقرروا مسيئاً، ولا عاجزاً على الإساءة والعجز، فإنهم إن تركوا ذلك، تهانَ المحسن، واجترأَ المسيء، وفسدَ الأمر، وضعَ العمل»^(٢).

ومن دون أدنى شك فإن هذا الكلام علوي المنبع والأصل، إذ وردنا عن الدوحة العلوية بطريقتين:

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير . ٢٥

(٢) م. ن. ٢٦ .

الأول:

ما رواه أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥) في كتابه الصناعتين وبسند متصل إلى أمير المؤمنين عليه السلام - سبق أن تحدث عنه الباحث - فقال: «ومن حسن الإتباع أيضاً قول إبراهيم بن العباس حيث كتب: إذا كان للمحسن من الشواب ما يقنعه، وللمسيء من العقاب ما يقمعه، ازداد المحسن في الإحسان رغبة، وانقاد المسئ للحق رهبة. أخذته من قول علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أخبرنا به أبو أحمد، قال أخبرنا أبو بكر الجوهري، قال: أخبرنا أبو يعلى المنقري، قال: أخبرنا العلاء بن الفضل بن جرير قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يجب على الوالي أن يتبعه أموره، ويتفقد أحواله، حتى لا يخفى عليه إحسان محسن، ولا إساءة مسيء. ثم لا يترك واحداً منهما بغير جزاء، فإن ترك ذلك تهاون المحسن، واجتراه المسيء، وفسد الأمر، وضاع العمل»^(١).

وعليه فإن ما جاء في قول ابن المقفع الأخير معتمد اعتماداً كلياً على قول الإمام المذكور.

الثاني:

ما رواه الرضي (رضي الله عنه) في نهج البلاغة. فقد ورد في العهد: «وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةِ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيداً لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ، وَتَدْرِيباً لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَى الْأَسَاءَةِ، وَأَلْزِمْ كُلَّاً مِنْهُمْ مَا الْزَّمَ نَفْسَهُ»^(٢).

(١) الصناعتين ٢٢٠.

(٢) نهج البلاغة ٥٠٤.

الفصل الثالث: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسالة الأدب الصغير ٣٥٧

نَحْنُ لِلّٰهِ وَإِلَيْهِ أَنْ يَكُونُ الْمُحْسِنُ وَالْمُسَيِّءُ بِمَنْزِلَةِ سَوَاءٍ، وَسِرْ ذَلِكَ إِنَّ أَكْثَرَ فَعْلِ الْإِحْسَانِ إِنَّمَا يَكُونُ طَلَبًا لِلمَجَازَةِ خَصْوَصًا مِنَ الْوَلَاةِ. فَإِنْ رَأَى الْمُحْسِنُ مَسَاوَةً مِنْزِلَتِهِ بِمَنْزِلَةِ الْمُسَيِّءِ انْصَرَفَ عَنِ الْإِحْسَانِ وَالْجَدِّ وَالْإِجْتِهَادِ إِلَى الرَّاحَةِ، وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ التَّارِكِينَ لِلإِسَاعَةِ إِنَّمَا يَتَرَكُونَهَا خَوَافِيًّا مِنَ الْوَلَاةِ^(١). لَا بَدْافَعَ ذَاتِيٍّ وَإِيمَانٌ بِاطْنِيٌّ بِالْفَضْيَلَةِ. وَابْنُ الْمَقْعُودِ حِينَمَا إِجْتَرَحَ أَنْ لَا يَتَرَكَ الْمُحْسِنُ وَلَا الْمُسَيِّءُ مِنْ دُونِ جَزَاءٍ يُسْتَحْقِّهُ سَارَ تَمَامًا عَلَى نَصِيبَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِلّٰهِ فِي ذَلِكَ.

ثالثاً: البسط:

لقد كان ابن المقعد مولعاً ببسط كلام أمير المؤمنين للله حتى يمكن عدّ هذا المظاهر من أبين مظاهر تأثير ابن المقادير بكلام الإمام للله، حيث كان يأتي على الحكمة العلوية فيجعلها في مقدمة كلامه، ثم يتواتر فيها كثيراً وكأنه يشرحها، أو يجعلها منطلقاً لتفريعات عدّة، أو يضرب عليها أمثلة توضيحية. وشواهد لهذا كثيرة جداً منها قوله:

«أَفْضَلُ مَا يُورِثُ الْآبَاءُ الْأَبْنَاءُ، الثَّنَاءُ الْخَيْرُ وَالْأَدْبُ النَّافِعُ وَالْإِخْوَانُ الصَّالِحُونُ»^(٢).

فصدر كلامه تضمين حكمة أمير المؤمنين للله:

«خَيْرٌ مَا وَرَثَ الْآبَاءُ الْأَبْنَاءُ الْأَدْبُ»^(٣).

وأول ما فعله ابن المقادير أبدل اسم التفضيل «خير» في حكمة الإمام بإسم

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٣٣٩ / ٥.

(٢) الأدب الصغير والدب الكبير .٣٤

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم .٣٥٩

تفضیل أيضاً «أفضل»، وهذا الذي هو أفضل إرث يقدمه الأب لابنه، وهو «الأدب» بحسب تعبير الإمام توسع عليه ابن المفعع لما قال: «الثناء الحسن والأدب النافع والإخوان الصالحون».

وبطريقة مماثلة تعامل ابن المفعع مع حکمة لأمير المؤمنين عليه السلام نرى فيها عن عيب معيب متمثل بخفاء عيوب المرء على نفسه، فقال:

«مِنْ أَشَدُّ عُيُوبِ الْمَرْءِ أَنْ تَخْفَى عَلَيْهِ عُيُوبُهُ»^(١).

ضمن ابن المفعع هذه الحکمة، ثم توسع عليها، فقال: «من أشد عيوب الإنسان خفاء عيوبه عليه. فإن من خفي عليه عيوبه خفيت عليه محسنون غيره، ومن خفي عليه عيوب نفسه ومحاسنون غيره فلن يقلع عن عيوبه الذي لا يعرف، ولن ينال محسنون غيره التي لا يبصر أبداً»^(٢).

فتعنى أن لا يكون ابن المفعع قد تكلّف في تغييراته التي أجراها على جانب من الحکمة وبخاصة لما أبدى «المرء» بـ «الإنسان»، ولما أبدى المصدر المسؤول في كلام الإمام «أن تخفي» والذي هو في محل تقدير خفاء بـ «خفاء». ثم ما أجراه من تقديم وتأخير على ذيل الحکمة «عليه عيوبه» ليجعله «عيوبه عليه» أمّا قوله عليه السلام: «من أشد عيوب» فقد أبقاء ابن المفعع على حاله «من أشد عيوب»، ثم بعد ذلك انطلق ابن المفعع من الحکمة المذكورة ليبيّن إنَّ من لا يستطيع تحديد عيوبه لا يمكن من معرفة محسنون غيره، ومن كان هكذا لا إصلاح ذاتي ولا تأثير خارجي، فسيكون بؤرة للعيوب.

ومن شدة تأثيره بكلام أمير المؤمنين عليه السلام فعل كما فعل في الأدب الكبير، إذ

(١) م. ن. ٦٧٣

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ٥٠

الفصل الثالث: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسالة الأدب الصغير ٣٥٩

جعل ابن المفعع مسکٌ ختام الأدب الصغير حكمةً علوية جاءَ فيها: «لا يزالُ
المرءُ مُسْتَمِراً مَا لَمْ يَعْثُرْ فَإِذَا عَثَرَ مَرَّةً لَجَّ بِهِ الْعِثَارُ وَلَوْ كَانَ فِي جَدَدٍ»^(١). الجدد يعني
الأرض المستوية^(٢).

فإن كان ابن المفعع قد ضمن الحكمتين السالفتين دون الإشارة إلى أنها ليست
له، فهو هنا ضمن الحكمة المذكورة، ثم توسيع عليها، مشيراً إلى أنها ليست له
فقال: «لا يزال الرجل مستمراً ما لم يعثر، فإذا عثر مرة واحدةً في أرض الخبر
لَجَّ بِهِ الْعِثَارُ، وإن مشى في جدد لأن هذا الإنسان موكل به البلاء، فلا يزال في
تصرُّفٍ وفي تقلبٍ لا يدوم له شيءٌ ولا يثبت معه، كما لا يدوم لطالع النجوم
طلوّعهُ ولا لأفلها أفالهُ. ولكنها في تقلبٍ وتعاقبٍ: فلا يزال الطالع يكُون آفلاً
طالعاً»^(٣).

وبعد أن ضمن الحكمة علل ابن المفعع ما ورد فيها، وذلك لما أكدَ على أنَّ
الإنسان غرض للبلاء، ومن البلاء أنه لا يقرُّ على حالة واحدة، بل هو في انتصاف
وتقلب من حالٍ إلى آخر مثل النجوم: فلا طالعها يبقى طالعاً ولا أفلها يبقى
آفلاً. وبهذا التعليل - الذي يفوق الحكمة حجمها - يكمن البسط الذي أجراه ابن
المفعع على حكمة أمير المؤمنين عليه السلام.

ومن تلك المواعظ العلوية التي تردد صداها عند ابن المفعع وبطريقة
البسط أيضًا ما جاء في كتاب لأمير المؤمنين عليه السلام بعثه إلى عبد الله بن عباس،
قال فيه:

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤٤٦ / ٢٠.

(٢) ينظر: لسان العرب ١٠٧ / ٣ مادة (جدد).

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ٦٠.

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسُرُّهُ دَرْكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَقُولَهُ، وَيَسُوُّهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ، فَلَيْكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نَلَتْ مِنْ آخِرَتِكَ، وَلَيْكُنْ أَسْفُكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْهَا؛ وَمَا نَلَتْ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحًا، وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَّعاً، وَلَيْكُنْ هُمْكَ فِيهَا بَعْدَ الْمُوْتِ»^(١).

وكان ابن عباس يقول عن هذه الحكمة: «ما انتفعت بكلام بعد كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كانتفاعي بهذا الكلام»^(٢).

وحصل كلامه عليه النهي عن شدة الفرح بما يحصل من المطالب الدنيوية وأشار إلى هذا بقوله: «إِنَّ الْمَرْءَ إِلَى قَوْلِهِ لِيُدْرِكَهُ» وهو خبر في معنى النهي، كما ترى أيضاً عن شدة الأسف على ما يفوت من تلك المطالب، ولفظ «ما» في الموضعين يراد به المطالب الدنيوية^(٣).

اعتمد ابن المفعع على هذا المعنى وبعض ألفاظه، فقال: «وَعَلَى الْعَاكِلِ أَنْ لَا يحزن على شيءٍ فاتَهُ مِنَ الدُّنْيَا أَوْ تُولِي، وَأَنْ يَنْزَلَ مَا أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ انْقَطَعَ عَنْهُ مِنْزَلَةً مَا لَمْ يَصُبْ، وَيَنْزَلَ مَا طَلَبَ مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ لَمْ يَدْرِكْهُ مِنْزَلَةً مَا لَمْ يَطْلُبْ، وَلَا يَدْعُ حَظَّهُ مِنَ السُّرُورِ بِمَا أَقْبَلَ مِنْهَا، وَلَا يَلْغَنَّ ذَلِكَ سُكْرًا وَلَا طَعْيَانًا، فَإِنَّ مَعَ السُّكْرِ النُّسْيَانَ، وَمَعَ الطَّعْيَانِ التَّهَاوُنَ، وَمَنْ نَسِيَ وَتَهَاوَنَ خَسَرَ»^(٤).

أجرى ابن المفعع عدّة تحويرات على رسالة أمير المؤمنين عليه السلام المذكورة، وأوها التقديم والتأخير. فما ختم به الإمام رسالته:

(١) نهج البلاغة ٤٤١.

(٢) نهج البلاغة ٤٤١.

(٣) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم / ٤ - ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٤) الأدب الصغير والأدب الكبير ٢١.

«وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأسَ عَلَيْهِ جَرَعاً».

جعله ابن المقفع أولاً: «أن لا يحزن على شيءٍ فاته من الدنيا أو تولى».

ولم يكتف ابن المقفع بأن قدم وأخر بل عمد - في الفقرة المذكورة - إلى المقطع نفسه وقدم وآخر فيه أيضاً، فقول الإمام: «وما فاتك منها» أي الدنيا آخره ابن المقفع، فقال: «فاته من الدنيا». وأمّا قوله عليه السلام: «فلا تأس» قدّمه ابن المقفع وأبدلها بـ «لا تحزن».

ثم زاد على المقطع العلوي لفظة واحدة وهي «تولى» ولعلها تشير إلى ما كان بحيازة الفرد ثم فقدَ، أما «فات» فمعناه ما يمر على الإنسان من خيرات الدنيا دونها يدرك منه الإنسان شيئاً.

وب قبل هذا المقطع وجدنا الإمام قد قال: «وَمَا نِلتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحًا» ومعناه واضح: لا تكثروا السرور بما أقبل عليكم من دنياكم. وهذا لم يقدمه ابن المقفع بل بسطه بسطاً واضحاً لما قال: «ولا يدع حظه من السرور بما أقبل منها، ولا يبلغن ذلك سُكراً ولا طغياناً، فإنَّ مع السكر النسيان، ومع الطغيان التهاون، ومن نسي وتهاون خسر». فقبل أن يتسع على المقطع العلوي المذكور ضمن ابن المقفع كلماته - أي المقطع - كلمة كلمة ولكن بتغيير ترتيبها وثوبيها فقط، إذ حافظ على أصل المعنى تماماً كمحافظته على الصياغة أيضاً وذلك لما أبدل:

الاسم «الفرح» بـ الاسم «سرور».

وما الموصلة والفعل «ما نلت» بما الموصلة والفعل «ما أقبل».

وشبه الجملة «من دنياك» بشبه الجملة «منها».

وهنا انكشف تلاعب ابن المفعع أكثر قبـل قليل - في هذه الحكمة - لما وجد الإمام علي عليه السلام قال: «منها» قال هو: «من الدنيا»، وهنا قال الإمام علي عليه السلام: «من دنياك» قال هو: «منها».

والحرف ولا الناهية والفعل المضارع «فلا تكثـر بالحرف ولا الناهية والفعل المضارع «ولا يبلغن».

و «به» بـ «ذلك» و «هما معاً» إشارة إلى ما أقبل من خيرات الدنيا.

وبعد هذه التغيرات الشكلية توسع ابن المفعع بما هو مذكور، وذلك لما نهى عن وصول الفرح إلى درجة شديدة أسمـاها بالسكر والطغيان، عاداً الأول يجـر إلى النساء والثاني يجـر إلى الطغيان، و «هما معاً» يورثان الخسران.

ويبدو أنـ ابن المفعع قد أطال النظر في رسالة أمير المؤمنين عليه السلام هذه، إذ لم يحمل منها جانباً، وفي الوقت نفسه لم يترك ما أخذـه من دون تغيير شـكلي بـحـث، ففضلاً عـما ذكر بـقـيـت تراكـيب وألفـاظ في الرسـالة لم يـفرـط ابن المـفعـع بـها، بل غـيرـ ثـوـبـها، فقد أبدـل «لـيدـرـكـه» وهو بـمعـنى يـصـيـبـه بـ «أـصـابـه»، وأـبـدـل «لـيفـوـتـه» بـ «إـنـقـطـعـ عـنـه». ومـثـلـاً وـجـدـ أمـيـرـ المؤـمـنـيـنـ عليهـ السـلـامـ قدـ استـعـمـلـ التـركـيبـ «ماـ لـمـ +ـ فعلـ مـضـارـعـ» مـرـتـيـنـ استـعـمـلـهـ هوـ مـرـتـيـنـ أـيـضاـ وـذـلـكـ لـمـ قالـ: «ماـ لـمـ يـصـبـ» وـ «ماـ لـمـ يـطـلـبـ».

ومـاـ أـنـ اـنـتـهـىـ ابنـ المـفعـعـ مـنـ الرـسـالـةـ الـعـلـوـيـةـ السـالـفـةـ، اـتـجـهـ بـعـدـهاـ إـلـىـ جـانـبـ منـ وـصـيـةـ أمـيـرـ المؤـمـنـيـنـ عليهـ السـلـامـ - روـاهـاـ الطـوـسيـ (تـ ٤٥٠ـ هـ) بـسـنـدـ تـامـ - لـولـدـهـ الحـسـنـ عليهـ السـلـامـ، مـنـهاـ:

«يـاـ بـنـيـ لـلـمـؤـمـنـ ثـلـاثـ سـاعـاتـ: سـاعـةـ يـنـاجـيـ فـيـهـ رـبـهـ، وـسـاعـةـ يـحـاسـبـ

الفصل الثالث: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسالة الأدب الصغير ٣٦٣

فِيهَا نَفْسَهُ، وَسَاعَةٌ يُخْلِو فِيهَا بَيْنَ نَفْسِهِ وَلَذَّتِهَا فِيمَا يَحْلُّ وَيَجْعُلُ، وَلَيْسَ لِلْمُؤْمِنِ يَدُّ منْ أَنْ يَكُونَ شَاحِصاً فِي ثَلَاثٍ: مَرَّةٌ لِمَعَاشٍ أَوْ خُطْوَةٌ فِي مَعَادٍ أَوْ لَذَّةٌ فِي غَيْرِ حُمَرَّمٍ»^(١).

وهذا التقسيم الجامع بين الدين والدنيا، والمانع من تشتت الوقت الذي يمكن عده أفضلاً منهاج عملٍ للمرء العاقل، ضمنه ابن المقفع بطريقته المفضلة القائمة على التوسيع، فقال: «على العاقل، ما لم يكن مغلوباً على نفسه، أن لا يشغلُ عن أربع ساعاتٍ: ساعةٌ يرفع فيها حاجته إلى ربه، وساعةٌ يحاسبُ فيها نفسه، وساعةٌ يفضي فيها إلى إخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن غيبه ويصونونه في أمره، وساعةٌ يخلِّي فيها بين نفسه وبين لذتها مما يحمل ويتحمل، فإن هذه الساعة عونٌ على الساعات الأخرى، وإن استجمام القلوب وتوديعها زيادةً قوية لها وفضل بلغةٍ. وعلى العاقل أن لا يكون راغباً إلا في إحدى ثلاثٍ: تزود لمعادٍ، أو مرمةً لمعاشٍ، أو لذةٌ في غير حرمٍ»^(٢).

فأول الزيادات إن ابن المقفع جعل الساعات أربعاً بدلاً من ثلاث مع تغيير على الأولى فقط.

أما الساعة الأولى التي وجه الإمام علي عليه السلام إلى أن تكون لمناجاة الله - سبحانه وتعالى - حورَ فيها ابن المقفع تحويراً لم يكن مدوحاً وذلك لما عدها لرفع الحاجة؛ فكانه إذا لم تكن حاجة إلى الله - تعالى - فإنّ ساعة الإتصال به ستنتفي أي بانتفاء سببها، وهذا النوع من العبادة أسمها أمير المؤمنين عليه السلام بعبادة التجار، لما قال:

(١) أمالى الطوسي ١٤٧.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ٢٢.

«إِنْ قَوْمًاً عَبَدُوا اللَّهَ رَغْبَةً فَتَلَكَ عِبَادَةَ التِّجَارِ..»^(١).

أما الساعة الثانية عند ابن المقفع فهي ساعة الإمام علي عليه السلام الثانية بنصّها، وهنا ابن المقفع وجد مجالاً ليزيد الساعة التي دعا فيها إلى الإفضاء إلى الإخوان والأصدقاء. وبالنسبة للساعة الرابعة فهي تضمّين لساعة أمير المؤمنين عليه السلام الثالثة، وفيها أيضاً يكمن التوسيع الآخر الذي قام به ابن المقفع وذلك لما عدّ هذه الساعة مميزة، فهي عنده عون على الساعات الآخر لما فيها من راحة للقلوب واطمئنان لها.

وبهذه الطريقة المميزة والغريبة - القائمة على تجزئة الحكمـة والتوسيع عليها - تعامل ابن المقفع مع الحكمة العلوية التي تقول:

«مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً فَلْيَبْدأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ؛ وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالْإِجْلَالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ»^(٢).

فقد أوردها بتمامها في الأدب الصغير، فقال: «ومن نصب نفسه للناس إماماً في الدين، فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة، والطعمة، والرأي، واللفظ، والأخذان، فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه، فإنه كما أن كلام الحكمـة يونق الأسماع، فكذلك عمل الحكمـة يروق العيون والقلوب. ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم»^(٣).

(١) نهج البلاغة ٥٩٢.

(٢) نهج البلاغة ٥٦٢.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ٢٤.

الفصل الثالث: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسالة الأدب الصغير ٣٦٥

ومثلما بانَّ ابن المفع قد جعل الحكمة ثلاثة مقاطع يفصل المقطع عن أخيه بزيادة معينة.

فأول كلامه: «من نصب نفسه للناسِ إماماً في الدين»

بنصه عن الحكمة: «مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً»

غير إنَّ ابن المفع زاد على مقطع الحكمه شبه الجملة «في الدين»، وهذه الزيادة لم تكن موَفَّقة؛ لأنَّها ضيَّقت دلالة هذا المعنى الجميل وحصرته بأئمَّة الدين فقط. فإمام الدين في نظر ابن المفع هو وحده من يبدأ بتعليم نفسه ثمَّ يعلم الآخرين، بينما أمير المؤمنين عليه السلام ذكر كلمة «إماماً» دون أن يقرنها بعمل معين، أو بتخصيص ما، بل جعلها مفتوحة الدلالَة؛ لأنَّه أراد لكلَّ إمام - في أيِّ مكانٍ حلَّ وأيِّ عملٍ عمل في الدين أو غيره - أنْ يكون قدوةً يُقتدي به من خلال تعليم نفسه أو لاً، ثمَّ تعليم غيره تعليماً صائباً ثانياً. ومن البسط أيضاً على هذه الفقرة من الحكمه أنْ بينَ ابن المفع بعض الطرق التي يمكن للإمام أنْ يكون قدوة فيها كتقويم النفس «في السيرة، والطَّعمة، والرأي، واللُّفظ، والأحدان».

وبعد هذا البسط عاد للحكمة ثانيةً ليضمن منها قول الإمام عليه السلام:

«وَلَيْكُنْ تَأْدِيهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيهِ بِلِسَانِهِ».

وبتحوير أقل من القليل: «فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه».

ثم بسط هذا أيضاً، وذلك لما ضرب مثلاً توضيحيًا على أنَّ التعليم بالفعل أبلغ أثراً من التعليم بالقول: «فإنَّه كما أنَّ كلام الحكمة مفاده إذا كان قول الحكمة يعجب الأسماع؛ فإنَّ فعلها يستهوي القلوب.

ثم عاد ثالثة إلى الحكمة ليضمن ما تبقى منها حرفيًّا، وينتَهِ به كلامه.

وهكذا كان ابن المفعع يتخير ما شاء من حكم أمير البيان عليه السلام، ويتوسّع عليها بما شاء. وهذه المرة أتى على جانب من حكمة للإمام علي عليه السلام - أوصى بها كميل بن زياد - جاء فيه:

«يَا كُمَيْلَ الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ. وَالْمَالُ تَنْفُصُهُ النَّفَقَةُ، وَالْعِلْمُ يَزْكُوْا عَلَى الْإِنْفَاقِ، وَصَنْبَعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ. يَا كُمَيْلَ بْنَ زِيَادٍ مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينُ يَدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ الْطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلُ الْأُخْدُوْنَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ. وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ»^(١).

فضل الإمام علي عليه السلام على المال، وقد برر ذلك ببريرات عده: فالعلم يحرس حامله في حياته ويطيب ذكره بعد وفاته، بينما المال عاجز عن حراسة نفسه فيحتاج إلى من يحرسه، والعلم يزداد نماءً وسعةً إذا أُنفق، بينما المال ينقص بقدر الإنفاق منه.

فهذه المعاني وبعض ألفاظها وإن كان ابن المفعع قد قدم وأخر وحور فيها إلا أنها تبقى روح قوله: «القسم الذي يقسم للناس ويتمتعون به نحوان: فمنه حارس ومنه محروس، فالحارس العقل، والمحروس المال، والعقل، بإذن الله، هو الذي يحرز الحظ، ويؤنس الغربة، وينفي الفاقة، ويعرف النكرة، ويثرثر المسيبة، ويطيب الثمرة، ويوجه السوقـة عند السلطـان، ويستنزل للسلطـان نصيحةـة السوقـة، ويكتبـ الصديـق، ويكـيـ العـدو»^(٢).

فالقسم مصدر قسم الشيء يقسمه قسمـاً، وقسمـه جزـأـه، والقسمـ النـصـيب

(١) نهج البلاغة ٥٧٩

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ٢٨

الفصل الثالث: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسالة الأدب الصغير ٣٦٧

والحظ^(١)، وهو مثلما رأه ابن المقفع قسماً: منه «حارس» يحرسُ غيره وهو العقل
«الحارسُ العقلُ». وهذا عن كلام أمير المؤمنين عليه السلام:
«العلم يحرسك».

ومنه «محروس» وهو المال «والمحروس المال» بمعنى المال يحتاج إلى من يحرسه
وهذا عن كلام أمير المؤمنين عليه السلام:
«وأنت تحرس المال».

غير أنّ ابن المقفع عمل تغييراً طفيفاً حين أبدل الأفعال التي جاءت في كلام
أمير المؤمنين عليه السلام بالمعايير:

يحرس - حارس «اسم فاعل».

تحرس - محروس «اسم مفعول».

ولما أبدل أيضاً «العلم» بـ «العقل» بإعتبار العقل وعاء العلم، ثم أخذ يعدد
محامد العقل، وقد جعل لها نصيباً يمثل أكثر من نصف كلامه: «والعقل بإذن الله،
هو الذي يحرز الحظ ويؤنس الغربة، ويفني الفاقة ويشرم المكسبة.. إلى آخر قوله».
وهذا هو مكمن التوسيع الذي أجراه ابن المقفع على ما ذكره الإمام علي عليه السلام من
محامد العلم:

«مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاَتِهِ، وَجَمِيلٌ
الْأُحْدُوثَةَ بَعْدَ وَفَاتِهِ».

وأما ما جاء في آخر حكمة الإمام عليه السلام:

(١) ينظر: لسان العرب / ١٢ / ٤٧٨ مادة (قسماً).

«وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ، وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ».

فقد قدمه ابن المفع إلى صدر حدثه لما قال: «فمنه حارس، ومنه محروس».

د. الإيجاز:

لقد وردت بعض الحكم العلوية بشكل موجز في الأدب الصغير كورودها في الأدب الكبير، أي قليلة جدًا، ومنها قوله عليه السلام:

«إِعْقِلُوا الْخُبَرَ إِذَا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعَايَةً لَا عَقْلَ رِوَايَةً، فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرُعَايَاتُهُ قَلِيلٌ»^(١).

فهو ينهى عن كثرة رواية الكلام بدون هضمه، ويأمر بعقل الخبر عقل معرفة، مؤكداً على أن من يرعاي العلم ويتدبره قليل^(٢).

نظر ابن المفع إلى الفقرة الثانية من الحكمة وأوجزها بصدر قوله: «الواصفون أكثر من العارفين، والعارفون أكثر من الفاعلين»^(٣).

فقول ابن المفع: «الواصفون» وهم مكثروا الكلام^(٤) إيجاز لكلام الإمام عليه السلام: «رواة العلم». وهؤلاء استعمل لهم الإمام صيغة المبالغة «كثير» للدلالة على كثرتهم، وهكذا ابن المفع فقد استعمل لهم اسم التفضيل «أكثر» للدلالة على كثرتهم أيضًا. أما «العارفون» وهم الذين عرفوا وهضموا ما يتكلمون، فيه إيجاز لكلام الإمام عليه السلام: «رعاية

(١) نهج البلاغة .٥٦٧

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٨ / ٣٤٤ - ٣٤٥.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٦.

(٤) ينظر: الأدب الصغير والأدب الكبير ١٦ (الهامش).

الفصل الثالث: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسالة الأدب الصغير ٣٦٩

العلم» وهم الذين حملوا العلم حمل معرفة وتفكير وهؤلاء «قليل» بحسب وصف الإمام عليه السلام لهم، وبحسب وصف ابن المقفع هم أقل على اعتبار إنَّ الواصفين أكثر منهم، فهم إذاً أقلُّ من الواصفين.

وقال الإمام علي في وصيته لولده الحسن عليه السلام:

«إِعْلَمُ أَنَّ الْإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ وَآفَةُ الْأَلْبَابِ»^(١).

فنهي الإمام علي عليه السلام هذا عن الإعجاب والذي يعني استحسان الفرد لعمله مطلقاً، وهو من أعظم الأخلاق مصيبة ومن اشد الآفات ضرراً على معتقده^(٢) ضمنَّه ابن المقفع بشكل موجز، فقال: «العجبُ آفةُ العقل»^(٣).

فابن المقفع هنا - كعادته مع كلام أمير المؤمنين عليه السلام - غير شكلياً لما أبدل «الإعجاب» بـ «العجب» ولما حول «الألباب» إلى مرادفها «العقل». وعلى الرغم من إنَّ المعنى واحد والكلمات هي هي إلا أنَّ ابن المقفع بإيجازه هذا ضيَّع ذلك التناغم الصوتي والواقع المحبب المتأتى من سجع الألفاظ في الحكمة العلوية «الإعجاب - الصواب - الألباب».

وللموَّدة نصيبٌ في وصايا الوصيّ عليه السلام، فقد عدّها أئمَّة المُوَّدة غنيمةً عن القرابة والقرابة فقيرةً إليها. وأكَّد هذا في غير ما حكمَةٍ

(١) نهج البلاغة ٤٦٣.

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة لمحمد عبد الله / ٣ / ٤٢٧.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ٣٤.

من حكمه، ومنها قوله:

«...وَالْقَرَابَةُ إِلَى الْمَوْدَةِ أَحَوْجُ مِنَ الْمَوْدَةِ إِلَى الْقَرَابَةِ»^(١)

أوجز ابن المقفع هذه الحكمة بوضوح فقال: «والقرابة تَبَعُ للمودة»^(٢) ولكن لا أرى في حكمة ابن المقفع تلك الدقة العلوية. نعم فالقرابة تحتاج إلى المودة - مثلما قال أمير المؤمنين عليه السلام - كي تثمر وترسخ، ولكن ليست القرابة تبع للمودة مثلما قال ابن المقفع، فالمودة لا تؤثر بالقرابة، لأن القرابة تبع للنسب، بل تأثيرها ينحصر على العلاقة ودوامها.

هذا ما عثينا عليه من إيجاز لكلام أمير المؤمنين عليه السلام في الأدب الصغير، وهو بهذا قد ورد تماماً كوروده في الأدب الكبير أي قليل جداً، بينما البسط على العكس من ذلك إذ ورد في الأدبين بكثرة حتى إنَّ ابن المقفع بنفسه قد أشار إلى ذلك. ونرى إنَّ السبب الذي يقف وراء هذه الظاهرة عائد لكلام أمير المؤمنين عليه السلام، فهو كلام مكتنز على صعيد المعنى، ومنظوم نظماً خاصاً، وعليه فإنَّ إيجازه غير ممكن لأنَّ الأخير - الإيجاز - يستوجب الحذف، ولا يوجد في كلام أمير المؤمنين عليه السلام ما يمكن حذفه دون أن يحدث خللاً ما في النص. ولكن غزاره المعنى ودقة الصياغة هذه في كلامه عليه السلام استوجبت - من أجل أن يفهم النص العلوي أكثر - الزيادة، وهذا ما أدركه ابن المقفع، فتوسع في كلام الإمام علي عليه السلام كثيراً. ولهذا السبب أيضاً كثُر شرح كلام الإمام علي عليه السلام، لا سيما ما جُمع منه في كتاب (نوح البلاغة).

(١) نوح البلاغة ٦٠٨

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ٤٥

الفصل الثالث: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسالة الأدب الصغير ٣٧١

وبعد هذه نعود للأدب الصغير لنبيِّن - تبياناً هاماً - إنَّ من هذه الحروف أو كلام الصالحين الذي تحدَّث عنه ابن المقفع وأقرَّ بتأثيره به عائد للرسول الأكرم ﷺ. فمن وصية له أوصى بها الإمام علي عليه السلام منها:

«يا عليٌ إِنَّهُ لَا عَقْلَ كَالْتَدْبِيرِ، وَلَا حَسْبَ كَحْسُنِ الْخُلُقِ..»^(١).

ضمِّن ابن المقفع هذه المقطع من الوصية قائلاً: «وسمعت العلماء قالوا: لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكفر، ولا حسب كحسن الخلق»^(٢).

ومن هذه الحروف عائد للإمام السجاد، فوصيَّته التي أوصى بها هشام بن الحكم:

«يا هشام إِنَّ الْعَاقِلَ لَا يُحَدِّثَ مَنْ يَخَافُ تَكْذِيهُ، وَلَا يَسْأَلُ مَنْ يَخَافُ مَنَعَهُ، وَلَا يَعْدُ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَلَا يَرْجُو مَا يُعْنِفَ بِرَجَائِهِ، وَلَا يَقْدُمُ عَلَى مَا يَخَافُ فَوْتَهُ بالعجز عنْهُ»^(٣)

نجد لها حيزاً في الأدب الصغير: «لَا تَجُدُ الْعَاقِلَ يُحَدِّثُ مَنْ يَخَافُ تَكْذِيهُ، وَلَا يَسْأَلُ مَنْ يَخَافُ مَنَعَهُ، وَلَا يَعْدُ بِمَا لَا يَجِدُ إِنْجَازَهُ، وَلَا يَرْجُو مَا يُعْنِفَ بِرَجَائِهِ، وَلَا يَقْدُمُ عَلَى مَا يَخَافُ الْعِجزَ عَنْهُ...»^(٤)

ومنها عائد للإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، فحكمته:

«الْعَاقِلُ لَا يُسْتَخْفَ بِأَحَدٍ. وَأَحَقُّ مَنْ لَا يُسْتَخْفَ بِهِ ثَلَاثَةٌ: الْعُلَمَاءُ، وَالسُّلْطَانُ

(١) تحف العقول ٢٧. وينظر: البصائر والذخائر ١٣.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ٥٧.

(٣) الكافي ١ / ٢١. وينظر: بحار الأنوار ٧٥ / ٣٠٤. وهذا الحديث يرويه ابن أبي الحديد عن الصادق عليه السلام، ينظر: سرح نهج البلاغة ١٨ / ٣١٠.

(٤) الأدب الصغير والأدب الكبير ٤٧.

والإخوان، لأنه من استخف بالعلماء أفسد دينه، ومن استخف بالسلطان أفسد دنياه، ومن استخف بالإخوان أفسد مرونته»^(١)

نجدنا في الأدب الصغير بتحوير طفيف: «لا يستخفُ ذو العقلِ بأحدٍ. وأحق من لم يستخف به ثلاثة: الأتقياء والولاة والإخوان، فإنه من استخف بالأتقياء أهلك دينه، ومن استخف بالولاة أهلك دنياه، ومن استخف بالإخوان أفسد مرونته»^(٢)

وفي حكمة أخرى قال الصادق عليه السلام:

«إذا هممتَ بخَيْرٍ فبادرِ، فإنَّكَ لا تدرِي»^(٣).

وهذا الكلام الذي عُدَّ جامعاً لوجوه المبادرة إلى فعل الخير قبل أن يحول حائل دون ذلك كالهرم المستلزم لضعف العقل والنية، والمرض، وفجأة الموت، ووسوسة الشيطان وغيرها^(٤)، ضمّنه ابن المقفع بنصّه، ثمَّ توسيع عليه، فقال: «إذا هممتَ بخَيْرٍ فبادرِ هواكَ، لا يغلبكَ، وإذا هممتَ بشَرِّ فسوف هواكَ لعلكَ تظفرُ. فإنَّ ما مضى من الأَيَّامِ والساعاتِ على ذلك هو الغنم»^(٥)

ومن شدة تأثير ابن المقفع بهذا الكلام عاد وكررُه بمعناه، فقال: «اغتنم من الخير ما تعجلت، ومن الأهواء ما سوت»^(٦).

(١) تحف العقول ٣٥٢.

(٢) الأدب الصغير والدب الكبير ٤٦.

(٣) الكافي ١٤٢ / ٢.

(٤) ينظر: شرح أصول الكافي ٨ / ٤١٦.

(٥) الأدب الصغير والأدب الكبير ٣٥.

(٦) م ٤٦ ن ٠.

الفصل الثالث: المبحث الثاني: أثر كلام الإمام علي في رسالة الأدب الصغير ٣٧٣

وما دام ورد ذكر إمامنا الصادق عليه السلام فلا بدّ من معرفة إنّ ابن المقفع كان يجيئه ويقدّسه عليه السلام ففي خبر طويل - وبسند متّصل - ذكره الشیخان الكلیني، والصدوق منه:»إنّ ابن المقفع رأى الصادق عليه السلام في الكعبة وهي مزدحمة بالحجاج فقال: ترون هذا الخلق - وأوّل ما بيده إلى موضع الطواف - ما منهم أحد أو جب له إسم الإنسانية إلا ذلك الشیخ الجالس - يعني أبا عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام - فأمّا الباقيون فرعاع وبهائم«^(١).

وعلى أيّة حال، فإنّ الذي يهمنا هنا أكثر من غيره هو أنّ في هذه التأثيرات بأئمّة الهدى وبجدهم المصطفى، دليل تأكيد آخر على إسلامية الأشخاص الذين تأثّر بهم ابن المقفع وأطّرّ عليهم في مقدّمتى الأدبين الكبير والصغير لا على أنّهم فرس أو يونانيون.

(١) الكافي / ١ . ٧٥ . وينظر التوحيد ١٢٦ .

المبحث الثالث

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في رسالتى الصحابة، والدرة اليتيمة ورسائل أخرى

أولاً: أثره في رسالة الصحابة:

رسالة الصحابة، وسميت بالهاشمية في بعض المصادر نسبة لبني هاشم أجداد بنى العباس^(١)، رسالة ألفها ابن المقفع وأرسلها إلى المنصور الـدوانيقي . وتعد هذه الرسالة - مثلما يراها الفاخوري - «من أروع ما كتبه ابن المـقـفـع فيـ الحـقـلـيـنـ الـفـكـريـ وـالـإـجـتمـاعـيـ، وـأـئـمـاـهـ مـنـ أـجـمـلـ الدـسـاتـيرـ المـكتـوـبـةـ بـالـلـغـةـ الـعـرـيـّـةـ»^(٢) وكان موقف الكاتب فيها «موقف المصلح الذي لا تفوته شاردة ولا

(١) ينظر ابن المقفع بين ناقديه قدّيماً وحديثاً ٥٣.

(٢) ابن المقفع ٢٦.

واردة، المُصلح الّذِي يعللُ أسباب الداء ويُقدّم الدواء، وذلك كله في تقىٰ ولينٍ وتحفظ^(١).

ولعلَّ كلمات ابن المقفع التي سطّرها في هذه الرسالة مع ما تحمله من إصلاحاتٍ جذرية، أسهمت في توسيع هوة الخلاف بينه وبين السلطة العباسية، وأنتجت التفكير في تصفيته جسدياً، وإلى هذا ذهب طه حسين بقوله: «لابن المقفع رسالة أخشي أن تكون هي التي قتلتة لأنها توشك أن تكون برنامج ثورة، وهي موجّهة إلى المنصور»^(٢).

تعرّض ابن المقفع في رسالته هذه إلى موضوعاتٍ عدّة منها دينية إذ كان ينوي عن استعمال القياس والرأي في الدين، مشدّداً في ذلك ومؤكداً على اتّباع الإمام الذي كان يراه منصباً إلهياً، ومنها اقتصادية كالإهتمام بالخارج ومنبع الخراج الذي هو الأرض، ومنها عسكرية كالإهتمام بأمر الجندي وتوفير ما يستحقونه، وغيرها من الأفكار العميقة والأراء الجريئة التي كان يمني نفسه بأن يأخذ الخليفة بها، لكن الخليفة فضلَ التخلّص من منشئها دون الأخذ بإصلاحاته الجذرية.

وابن المقفع - مثلما يرى الباحث - سار في مواطن كثيرة جداً من هذه الرسالة مقتفيًا أثر العهد الخالد الذي كتبه أمير المؤمنين عليه السلام إلى مالك الأشتر، وغير العهد، وأمامنا في هذا دليلان:

الأول: التشابهات الكبيرة والكثيرة في الأفكار العميقة وغير المبتذلة.

(١) الجامع في تاريخ الأدب العربي / ١ / ٥٣٥.

(٢) من حديث الشعر والنشر - ٤٦ - ٤٧.

الفصل الثالث: المبحث الثالث: أثر كلام الإمام علي في رسالتي الصحابة ٣٧٧

الثاني: اعتراف ابن المقفع بأنه لم يبقَ أمامه وأمام غيره من الكتاب «في جليلِ الأمر ولا صغيره لقائلٍ بعدهم مقالٌ». وقد بقيت أشياءً من لطائفِ الأمورِ فيها مواضعُ لصغارِ الفطنِ، مشتقةً من جسام حكمِ الأولينَ وقولهم»^(١). وكان على رأس هؤلاء الأولينَ أمير المؤمنين عليه السلام مثلما عرفنا ذلك في الأديبين الكبير والصغير وما سنعرفه لا حقاً في اليتيمة وغيرها. ومن تأثر بهذه الرتبة ويعرف بتلك الإعترافات طبيعياً أن لا يكون تأثيره في نتاج دون آخر، أوفي رسالة دون أخرى.

رسالة الصحابة إحدى رسائله التي برزت بينها وبين كلام الإمام علي عليه السلام تشابهات جمة. فمن حكمته له عليه السلام بينَ فيها منْ هلكَ فيه من الناس، فقال:

«يَهْلِكُ فِي رُجُلَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ، وَبَاهِتٌ مُفْتَرٌ»^(٢).

فقد شكا عليه السلام من الذين أفرطوا في حبه حتى ألهوه، ثمَّ الذين بهتهو أي قالوا عليه ما لم يفعل^(٣) وكلامهما هالكان.

قال الرضي: «وهذا مثل قوله عليه السلام:

«هَلَكَ فِي رُجُلَانِ: مُحِبٌّ غَالٍ، وَمِبْغَضٌ قَالٍ»^(٤).

أخذَ ابن المقفع هذا، فقال: «فَإِنَّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَخْلاطًا: مِنْ

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ٦٥.

(٢) نهج البلاغة ٦٣٦.

(٣) ينظر: شرح نهج البلاغة لمحمد عبد الله / ٤ / ٥٩٧.

(٤) نهج البلاغة ٦٣٦.

رأس مفرط غالٍ، وتابع مت Hwy شاكٌ»^(١).

فما ابتدأ به ابن المقفع «..مفرط غالٍ» تضمين من بداية حكمتي الإمام عليه السلام «محبٌ مفرطٌ» «محبٌ غالٍ»، لكن ابن المقفع أهمل لفظة (محب) وهي ضرورية هنا، لأنها توضح طبيعة هذه المغالاة والإفراط هل هي بإتجاه الحب أم البغض؟

ثم بعد ذلك أبدل قول الإمام عليه السلام: «بغضي قال» بـ «مت Hwy شاكٌ» ولكن حتى وإن غير في الشق الثاني من كلامه إلا أن صياغة الحكمة العلوية مسيطرة تماماً على كلام ابن المقفع المذكور وذلك لما شكله من ستة أسماء منونة لا غير، وعند الإمام أربعة أسماء منونة لا غير وطبيعي هذا من دون المقدمة التي قدم بها كلّ منها لكلامه.

وتبقى أغلب التأثيرات في رسالة الصحابة هي بعهد الإمام عليه السلام مالك الأشتر، فمما جاء فيه:

«فَاجْلِنُودُ بِإِذْنِ اللَّهِ، حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ الْوُلَاةِ، وَعَزُّ الْدِينِ، وَسُبْلُ الْأَمْنِ، وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ. ثُمَّ لَا قِوَامٌ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوُونَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ»^(٢).

فقد نبه عليه السلام إلى أهمية الجنود، وأهميتهم تكمن في ما عدد لهم

(١) جمهرة رسائل العرب / ٣ / ٣٣.

(٢) نهج البلاغة . ٥٠٥

الفصل الثالث: المبحث الثالث: أثر كلام الإمام علي في رسالتي الصحابة ٣٧٩

من أعمال فهم «حصون الرعية» مستعيرًا لهم لفظ الحصون باعتبار حياطتهم وحفظهم للرعاية بمثابة الحصن^(١)، وهم «عِزُّ الدِّين» إذ لولاهم لم يكن للدين عِزٌّ ولا منعة، وهؤلاء الجنود هُم الآخرون يحتاجون إلى قوم حتى يؤدّوا واجباتهم بصورة ناصعة، وقوامهم هذا يأتي من الخراج، والخرج لا يكون وفيراً - مثلما قال الإمام عليه السلام في مواطن أخرى من العهد ستتضاح لا حقاً - إذا لم يكن للأرض إصلاح وعمارة.

وردَ في رسالة الصحابة ما يشبه هذا كثيراً، إذ قال ابن المقفع: «وأنْ لُكُّلْ شَيْءٍ دِرَّةً وغزارَةً، وإنَّمَا دُرُورُ خراج العرَاقِ بارتفاع الأسعار، وإنَّمَا يَحْتَاجُ الْجَنْدُ الْيَوْمَ إِلَى مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ كثرةِ الرِّزْقِ، لغلاءِ السعر، فَمَنْ حُسِنَ التَّقْدِيرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا يَدْخُلَ عَلَى الْأَرْضِ ضَرَرٌ.. إِلَّا دَخَلَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فِي أَرْزَاقِهِمْ»^(٢).

فابن المقفع لا يختلف عموماً مع ركائز نص الإمام عليه السلام، إذ رأى فيها رآه أنَّ للجنود نصيباً مفروضاً من المال، فإذا دخل (على الأرض ضرر) سيصيب بيت المال النقصان، ومن ثمَّ سيدخل ذلك النقص على مستحقات الجنود. وهذا ما عبر عنه الإمام علي عليه السلام بقوله:

«ثُمَّ لَا قَوَامٌ لِلْجَنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ».

ومن وصاياته البالغة التي وردت في العهد قوله عليه السلام الذي شدَّ فيه على تخيرِ الوزراء:

(١) ينظر شرح نهج البلاغة لإبن ميثم ٥ / ٣٤٤.

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٣٧.

”ثُمَّ لَا يَكُنْ إِخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ، وَإِسْتِنَامَتِكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ مِنْكَ، فَإِنَّ الرِّجَالَ [يَتَعَرَّضُونَ] يَتَعَرَّفُونَ لِفِرَاسَاتِ الْأُولَاءِ بِتَصْنِعِهِمْ وَحُسْنِ [حَدِيثِهِمْ] خِدْمَتِهِمْ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالْأَمَانَةِ شَيْءٌ، وَلَكِنْ إِخْتِرْهُمْ بِمَا وُلُوا لِ الصَّالِحِينَ قَبْلَكَ، فَاعْمِدْ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي الْعَامَةِ أَثْرًا، وَأَعْرِفْهُمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهًا“^(١).

فأمير المؤمنين عليه السلام ينهى عن الإختيار القائم على التفّرس وحسن الظن والثقة، مبرّراً هذا بأنّ الرجال يخدعون فراسة الواي بتصنيعهم الذي يجيدونه وحسن خدمتهم له، بينما هم في الحقيقة لا في مراحٍ ولا مغدى من تلك النصيحة التي أبدوها، والمعارف التي أظهروها. ثم ي يأتي بعد هذا النهي والتحذير الإختيار الحقيقي القائم على ما عده الإمام عليه السلام من توليتهم من قبل الصالحين، وهذا غير كافٍ أيضاً، بل ينبغي توظيف أحسنهم أثراً في العامة، وأعرفهم وجهاً بالأمانة. ولا يخفى استعمال الإمام عليه السلام لإسمي التفضيل (أحسن، أعرف) من أنه يريد تسليم المناصب للأحسن لا المحسن، والأعرف لا العارف.

أخذ ابن المقفع هذا المعنى بشقيه، مقدّماً الأخير على الأول، فقال: «وإنْ كان صاحب السُّلْطَانِ مِنْ لَمْ يَعْرُفَ النَّاسَ قَبْلَ أَنْ يَلِيهِمْ، ثُمَّ لَمْ يَزِلْ يَسْأَلُ عَنْهُمْ مِنْ يَعْرِفُهُمْ، وَلَمْ يَسْتَبِّثْ فِي اسْتِقْضَائِهِمْ، زَالَتِ الْأَمْوَارُ عَنْ مَرَاكِرِهَا، وَتَرَكَتِ الرِّجَالُ عَنْ مَنَازِهَا، لَأَنَّ النَّاسَ لَا يَلْقَوْنَهُ إِلَّا مَتَصْنَعُونَ بِأَحْسَنِ مَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّمَتِ وَالْكَلَامِ، غَيْرَ أَنَّ أَهْلَ النَّقْصِ هُمْ أَشَدُّ تَصْنِعًا..»^(٢).

وحاصل كلامه إنّ على صاحب السلطان أن لا يولي من الناس قبل معرفتهم

(١) نهج البلاغة ٥١٢

(٢) جمهرة رسائل العرب / ٣٩

الفصل الثالث: المبحث الثالث: أثر كلام الإمام علي في رسالتي الصحابة ٣٨١

والسؤال عنهم. متخلوّفاً من التصنّع المقدور عليه من الناس. ومن ثم وقوع الوالي في حالة هذا التصنّع. وهذا بدقائقه موجود في نص أمير المؤمنين عليه السلام المذكور.

ومن توجيهات الإمام علي عليه السلام التي وردت في العهد قوله:

«فَافْسُحْ فِي آمَاهِمْ، وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ الشَّاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذُوو الْبَلَاءِ مِنْهُمْ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الدَّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تُهْزِزُ الشُّجَاعَ، وَتُخْرِصُ النَّاكِلَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

ثُمَّ اغْرِفْ لِكُلِّ إِمْرِيٍّ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى، وَلَا تُضْمَنَّ بَلَاءً إِمْرِيٍّ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا تُقْسِرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةَ بَلَائِهِ..»^(١).

فمن باب العدل أن يُلْصق بكل أمرٍ ما أبلأه من عمل، حسن أو قبيح، لأن ذلك من شأنه ترغيب المحسن وتشجيعه في أن يزداد ويدع في عمله من جهة. وتحريض المتأخر وحثه على التقدم من جهة أخرى.

لم يغفل ابن المفعع هذا المعنى وبعض ألفاظه، إذ كان بيناً في قوله: «إِنْ فِي إِذنِ الْخَلِيفَةِ وَالْمَدْخَلِ عَلَيْهِ وَالْمَجْلِسِ عَنْهُ، وَمَا يُجْرِي عَلَى صَاحِبَتِهِ مِنِ الرِّزْقِ وَالْمَعْوِنَةِ، وَتَفْضِيلِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ فِي ذَلِكَ حُكْمًا عَظِيمًا عَلَى النَّاسِ فِي أَنْسَابِهِمْ وَأَخْطَارِهِمْ وَبَلَاءِ أَهْلِ الْبَلَاءِ مِنْهُمْ وَلَيْسَ ذَلِكَ كَخَواصِّ الْمَعْرُوفِ وَلَطِيفُ الْمَنَازِلِ.. وَلَكِنَّهُ بَابٌ مِنَ الْقَضَاءِ جَسِيمٌ عَامٌ يُقْضَى فِيهِ لِلْمَاضِينَ مِنَ أَهْلِ السَّوَابِقِ وَالْمَاشِرِ مِنَ أَهْلِ الْبَاقِينَ، وَأَهْلِ الْبَلَاءِ وَالْغَنَاءِ بِالْعَدْلِ..»^(٢).

فابن المفعع يرى ما رأى الإمام عليه السلام قبله، من تفضيل بعض الصحابة أو الجنود على أساس مآثرهم، وسبقهم للفضيلة، وما عمله أهل البلاء

(١) نهج البلاغة ٥٠٧ - ٥٠٨.

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٤٤.

منهم. وليس المعنى هو سيد الموقف بين النّصين، بل نجد إنَّ ابن المقفع ضمنَ قول الإمام علي عليه السلام:

«وَتَعْدِيدِ مَا أَبَلَ ذُوُو الْبَلَاءِ مِنْهُمْ» مع تحويل طفيف لـما قال: «وبلاء أهل البلاء منهم».

ويبدو أنَّ ابن المقفع متاثراً بهذه المعاني كثيراً ولذا كررها في موطن آخر من رسالة الصحابة موصياً من سماه الإمام بأن «يأخذ أهل القوة والغناء.. ولا يفضل أحداً منهم على أحد، إلا على خاصة معلومة..»^(١).

وهو بهذا يدعوا أميره أن لا يفضل أحداً من الجنود على غيره «إلا على خاصة معلومة» أي ما عُلم عنه وما عُرف به من بلاء أبناءه. وهذا كقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«ثُمَّ إِعْرِفْ لِكُلِّ اِمْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبَلَ، وَلَا تَضْمَنَ بَلَاءَ اِمْرِئٍ إِلَى غَيْرِهِ».

وبعد أن تعرَّض الإمام علي عليه السلام لأمر الخراج وعدده قوام الجنادل الذين هم قوام الدولة، عاد ليؤسس نظرية مثل شأنها صلاح الخراج ووفرته، فقال:

«وَتَقَدَّمَ أَمْرَ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنَّ فِي صَالِحِهِ وَصَالِحِهِمْ صَالِحًا لِمَنْ سِوَاهُمْ، وَلَا صَالِحٌ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلَّا بِهِمْ، لِأَنَّ النَّاسَ كُلُّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ، وَلَيْكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغُ مِنْ نَظَرِكَ فِي إِسْتِجْلَابِ الْخَرَاجِ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ؛ وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلَادَ،

الفصل الثالث: المبحث الثالث: أثر كلام الإمام علي في رسالتي الصحابة ٣٨٣
وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ»^(١).

ففي زمن لم يكن فيه للصناعة مقدرة اقتصادية تذكر أكد عليه السلام على أمر الخراج، وعدّه المحرّك الاقتصادي الأكبر في البلاد، إذ بدونه تهلك العباد وتخرّب البلاد. وكلّما أراد الوالي وفرة الخراج فلا عليه إلا بزيادة إعمار الأرض، لأنّها سبيله الوحيد. وعرفت هذه القاعدة في عصرنا الحديث بقاعدة «ليس للخارج أن يعرقل الإنتاج»^(٢). معناها: لا يجدر بالحكومة وضع العراقيل كالضرائب المجنحة أمام الفلاح ليتحول دون السعي والإنتاج وتنقص ثمرات المساعي الشعبية بتخرّب وإهمال الأراضي الزراعية^(٣).

وقول الإمام عليه السلام في هذا الصدد لم يغفله ابن المفعع، بل نجد شبّهًا له في قوله: «وممّا يُذكّر به أمير المؤمنين، أمرُ الأرضِ والخرج فإنَّ أجسمَ ذلك وأعظمَه خطرًا، وأشدَّه مؤونةً وأقربه من الضياع، ما بين سهله وجبله.. فليس للعمالِ أمرٌ يتّهون إليه، ولا يحاسبون عليه، ويحول بينهم وبين الحكم على أهل الأرض بعدما يتأنّقون لها في العمارة، ويرجونَ لها فضلَ ما تعملُ أيديهم.. حتى لا يؤخذَ رجلٌ إلا بوظيفةٍ قدْ عرفها وضمنها، ولا يجتهد في عمارة إلا كان له فضلُها ونفعها، لرجونا أنْ يكون في ذلك صلاحٌ للرّعية، وعمارة للأرض..»^(٤).

وخلالص كلامه إنَّ للأرض والخرج أمرًا جسيماً، لأنَّ الأخير يفتح فيما ينتج «صلاح الرّعية» وهذا ما عبر عنه الإمام علي عليه السلام بقوله:

(١) نهج البلاغة .٥١٠

(٢) الراعي والرعية .٢٩٦

(٣) ينظر: م. ن. ٢٩٦

(٤) جمّهورة رسائل العرب / ٣ - ٤٥ .٤٦

«فَإِنَّ فِي صَلَاحِهِ - أَيِّ الْخُرَاجِ - وَصَلَاحِهِمْ صَلَاحًا لِمَنْ سَوَاهُمْ» <

وسواهم هنا تعود على الخراج وأهله. أي صلاحاً لعامة الرعية.

ولا يكون خراج، ولا صلاح رعية إلا بـ «عِمارَةِ الْأَرْضِ»، وهذا ما نجده في قول الإمام علي السالف:

«وَلْيُكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي إِسْتِبْجَلَابِ الْخُرَاجِ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ».

وبعد تشديده على الخراج، عاد ابن المقفع إلى تخير العمال وتفقدهم، وهي وصية طالما كررها في الأدب الصغير، وأكّدتها في رسالة الصحابة في غير ما

موطن، منها قوله: «وليس بعد هذا في أمرِ الخراج إلا رأي قد رأينا أمير المؤمنين أخذ به، ولم نره من أحدٍ قبله، من تخير العمال وتفقدِهم والاستعاتب لهم، والإستبدال بهم»^(٥).

والجدير بالذكر هنا قول ابن المقفع عن تخير العمال وتفقدِهم إنَّه لم يرَ من فعل ذلك قبل أميره: «لم نره من أحدٍ قبله». فهذا إن دلَّ على شيءٍ فإنَّه يدلُّ على أنَّ باقي ركائز رسالة الصحابة كان قد رأها ابن المقفع عند حكام سبقوه أميره فتأثَّر بها ونقلها، وإلاًّ لماذا هذه الفقرة بالذات قال عنها إنَّه لم يرها من قبل، ولم يقل هذا الكلام في مكان آخر من رسالة الصحابة الطويلة والغنية بالموضوعات والأفكار، ولا في غيرها من رسائله المتعددة؟ علمًاً إنَّ وصيته في تخير العمال وتفقدِهم ذكرها بالتفصيل في رسالة الأدب الصغير.

ومهما يكن من شيءٍ فإنَّ تخير العمال من أهم وأشد ما كان يأمر به الإمام

عليه ويفعله أيضاً، ومن ذلك قوله:

«ثُمَّ انْظُرْ فِي أُمُورِ عِمَالِكَ فَاسْتَعْمِلْهُمْ [إِخْتِيارًا] إِخْتِيارًا، وَلَا تُوَلِّهُمْ مُحَابَاةً وَأَئْثَرْهُمْ»^(١).

وكذلك التفقد إذ قال فيه:

«ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا»^(٢).

أيما استبدال العمال والوزراء فهو الآخر من أوليات أمير المؤمنين عليه فعلاً وقولاً. ومنه ما ورد في العهد:

«إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيرًا.. وَأَنْتَ وَاجِدُ مِنْهُمْ حَيْرَ الْخُلْفِ..»^(٣).

ولم يكتف الإمام علي عليه بحسن الإختيار وإن شرطها الخطوة الأولى في تقريب العامل من العمل لدى الدولة، إذ بعد الإختيار القائم على الإختبار أوصى عليه خيراً بمن يحتاجون هذه العقبة، فقال:

«ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ، فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةً لَهُمْ عَلَى إِسْتِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ، وَغَنِيَّ لَهُمْ عَنْ تَنَاؤِلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَحُجَّةً عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ أَوْ ثَلَمُوا أَمَانَتَكَ. ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ، وَرَبِيعَتِ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصَّدْقِ وَالْوَافَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السَّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدْوَةً لَهُمْ عَلَى إِسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ، وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ»^(٤).

(١) نهج البلاغة .٥٠٩

(٢) م. ن .٥٠٦ - ٥٠٧

(٣) م. ن .٥٠٣

(٤) نهج البلاغة .٥١٠ - ٥٠٩

وهذه القوانين من أجل الدساتير وأروعها لو طُبقَت بالشكل الذي أراده الإمام عليه السلام، فهو يتطلب توسيع الأرزاق على موظفي الدولة، لأنّ في تلك التوسيعة المادية عوناً للموظف أو العامل على استصلاح نفسه أولاً، وغنىً له عن التطاول على الذي ^{يُؤْمِن} عليه من أموال وغيرها ثانياً، ثم إنّ الوالي إذا فعل هذا يكون في حلّ إذا أقام الحدّ على مَنْ يسلِم الأمانة ثالثاً.

وبعد هذه نلمس في كلامه عليه السلام فكرة متقدمة أخرى وذلك لما أمر بأن يكون للمراقب السري الصادق الوفي «وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء» دورٌ فاعل لأنّ العامل «حين يعلم أنّ ثمة عيناً ترقبُ أفعاله يحذر من الخروج عن الجادة، ويحرصُ على اتّباع ما يصلح بلاده، وهذا التدبير الذي نهجه الإمام هو نظام التفتيش المعمول به الآن في الدول المعاصرة»^(١).

وليس من الصدفة، أو من باب توارد الخواطر أن تجتمع تلك المعاني العميقية وبعض ألفاظها في قول ابن المقفع: «وفي كلّ قوم خواصُ رجالٍ عندهم.. معونةٌ، إذا صنعوا لذلك، وتلطفَ لهم، وأعينوا على رأيهم، وقووا على معاشِهم بعضٍ ما يفرّغُهم لذلك ويسيطرُ لهم، وخطرُ هذا جسمٌ في أمرين: أحدهما رجوع أهلِ الفساد إلى الصلاحِ، وأهلِ الفرقَة إلى الألفةٍ، والأمر الآخر أن لا يتحرّك متحرّك في أمرٍ من أمورِ العامة إلّا وعيّن ناصحةً ترمّقه.. وإذا كان ذلك لم يقدِرْ أهلُ الفساد على تربيضِ الأمور وتلقيحها، وإذا لم تلْقَحْ كان نِتاجُها بإذن الله مأموناً»^(٢).

فابن المقفع هنا يطلب برفد بعض العمال بأمور منها: تقويتهم على

(١) دراسات في نهج البلاغة ٩٧.

(٢) جهرة رسائل العرب ٣ / ٤٦ - ٤٧.

الفصل الثالث: المبحث الثالث: أثر كلام الإمام علي في رسالتي الصحابة ٣٨٧

معاشهم «وَقُوُوا عَلَى مَعَاشِهِمْ». وهذا ما نجده في قول الإمام علي عليه السلام «وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ». وخطر هذا مثلما رأه ابن المفعع جسيم في أمرين:

الأول: «رجوع أهل الفساد إلى الصلاح» وهذا من قول الإمام علي عليه السلام «فَإِنَّ ذَلِكَ قَوَّةً لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلَاحِ أَنفُسِهِمْ».

الثاني: «لا يتحرّك متحرّك.. إِلَّا وَعِنْ تَرْمِقَهُ» «ولا اختلاف في هذا عن قول الإمام علي عليه السلام»:

«وَابْعَثْتُ الْعَيْنَنِ مِنْ أَهْلِ الصَّدْقِ وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ».

فأمير المؤمنين عليه السلام وبعمق نظر وحساسية هذا المنصب شرط في العيون «الصدق والوفاء»، وابن المفعع لم يذهب بعيداً عن هذا عندما اشترط فيهم النصيحة، ولا فرق إذ لا نصيحة بدون صدق ووفاء.

هذه بعض آثار العهد التي تلمستها الدراسة في رسالة الصحابة.

لم يكن العهد وحده من أثر في هذه الرسالة، بل هناك خطبة للإمام علي عليه السلام ذكر فيها فضله، وفضل عترة النبي الأكرم عليه السلام مشدداً على التمسك بهم والسير على هديهم. ثم بعد أن بين بعض هذه الفضائل نهى عليه السلام عن استعمال الرأي، لأن كثيراً من الأمور وبخاصة الجسيمة منها لا يصلها المرء برأيه مهما أتي من بصيرة نافذة، فقال في ذلك:

«..فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ؟! وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ وَبَيْنَكُمْ عِزْرَةُ نَسِيْكُمْ؟! وَهُمْ أَزِمَّةُ الْحُقْقِ، وَأَعْلَامُ الدِّينِ، وَالْأَسْنَةُ الْصَّدِيقِ! فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ، وَرِدُوهُمْ وُرُودَ أَهْلِيمِ الْعِطَاشِ.. أَيْهَا النَّاسُ... فَلَا تَقُولُوا بِمَا لَا تَعْرِفُونَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحُقْقِ فِيهَا تُنْكِرُونَ، وَأَعْذِرُوا مَنْ لَا حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ وَهُوَ أَنَا، أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقْلِ أَكْبَرِ!»

وَأَتُرُكْ فِيْكُمُ الْثَّقَلَ الْأَصْغَرَ! قَدْ رَكَزْتُ فِيْكُمْ رَايَةَ الْإِيمَانِ، وَوَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ
الْحُلَالِ وَالْحُرَامِ، وَأَبْسَطْتُكُمُ الْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِيِّ، وَفَرَشْتُكُمُ الْمُعْرُوفَ مِنْ قَوْلِيِّ وَفِعْلِيِّ،
وَأَرْيَتُكُمْ كَرَائِمَ الْأَخْلَاقِ مِنْ نَفْسِيِّ، فَلَا تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِيهَا لَا يُدْرِكُ قَعْدَهُ الْبَصَرُ،
وَلَا تَتَغَلَّفُ إِلَيْهِ الْفِكَرُ»^(١).

في الخطبة معانٍ غزيرةٌ، وفنون بلاغية ممتعة منها: قوله عليه السلام «وهم أزمة الحق». فقد جعل للحق زمام، وعروة هذا الزمام بيد العترة الطاهرة. وقال ابن أبي الحديد: «وقد نبهَ الرسول الأكرم عليه السلام على صدق هذه القضية بقوله: وأدْرِجْ
الْحَقَّ مَعَهُ حِيثَ دَارَ»^(٢).

أمّا قوله: «فَأَنْزِلُوهُمْ مَنَازِلَ الْقُرْآنِ» فـ «تَحْتَهُ سُرُّ عَظِيمٍ وَذَلِكَ أَنَّهُ أَمْرٌ
الْمُكَلِّفِينَ بِأَنْ يُجْرِوَا الْعُتْرَةَ فِي إِجْلَالِهَا وَإِعْظَامِهَا وَالْأَنْقِيادِ لَهَا وَالطَّاعَةِ لَأَوْامِرِهَا
مُجْرِيُّ الْقُرْآنِ»^(٣).

ثم أمر الناس أن تُسرع إلى بحار علومهم كما تُسرع الheim العطاش إلى الماء^(٤)

وعلى كُلِّ الْأَحْوَالِ فإننا نجد هاتين الركيزتين من التمسك والإقتداء
بالآئمة، والإبعاد عن استعمال الرأي قبال أمرهم في قول ابن المفع: «وقد
علمنا علماً لا يخالطه شكٌ أَنَّ عَامَّةً قَطْ لَمْ تَصْلُحْ مِنْ قِبَلَ أَنْفُسِهَا، وَأَئْتَاهَا لَمْ وَلَمْ
يَأْتِهَا الصَّلَاحُ إِلَّا مِنْ قَبْلِ خَاصَّتِهَا، وَأَنَّ خَاصَّةً قَطْ لَمْ تَصْلُحْ مِنْ قِبَلَ أَنْفُسِهَا،
وَأَئْتَاهَا لَمْ يَأْتِهَا الصَّلَاحُ إِلَّا مِنْ قَبْلِ إِمَامَهَا، وَذَلِكَ لِأَنَّ عَدَدَ النَّاسِ فِي ضَعْفِهِمْ

(١) نهج البلاغة . ١٣٠

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦ / ٤٣٠

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦ / ٤٣١-٤٣٠

(٤) م. ن ١ / ١٣٧

الفصل الثالث: المبحث الثالث: أثر كلام الإمام علي في رسالتي الصحابة ٣٨٩

وَجُهَّا تَهْمَ الَّذِينَ لَا يَسْتَغْنُونَ بِرَأْيِ أَنفُسِهِمْ، وَلَا يَحْمِلُونَ الْعِلْمَ، وَلَا يَتَقدَّمُونَ فِي الْأَمْوَارِ، فَإِذَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهِمْ خَواصًّا مِنْ أَهْلِ الدِّينِ وَالْعُقُولِ.. جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ صَلَاحًا لِجَمِيعِهِمْ.. وَحاجَةُ الْخَاصَّةِ إِلَى الْإِمَامِ الَّذِي يُصْلِحُهُمُ اللَّهُ بِهِ كَحَاجَةِ الْعَامَّةِ إِلَى خَواصِهِمْ وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، فَبِالْإِمَامِ يَجْمِعُ اللَّهُ أَمْرَهُمْ، وَيَبْكِيُ أَهْلَ الطَّعْنِ عَلَيْهِمْ، وَيَجْمِعُ رَأْيَهُمْ وَكَلْمَتَهُمْ..»^(١).

فكلام ابن المفعع يدور حول أمرين غاية في الأهمية، روحهما كلام الإمام على عليه السلام السالف:

الأول:

في حديثه عن الإمام اتضحت بـأنه يؤيد فكرة الإمامة، فإذا أُريد صلاح المجتمع فينبغي إصلاح العامة والـ «عامة قط لم تصلح من قبل أنفسها» بل صلاحها يأتي من «صلاح خاصتها»، والخاصة هذه لم تستطع أيضًا إصلاح نفسها ولا غيرها إلا إذا كان هنالك إمام يسيرها بالسيرة الصحيحة «إلا من قبل إمامها». إذاً فالإمام ينبغي أن يكون على قمة الهرم، ولا غنى للخاصة، والعامة عنه مطلقاً لأنهما - أي الخاصة والعامة - «لا يحملون العلم ولا يتقدمون في الأمور» وهذا يعني - بوضوح - إن هاتين الصفتين يحملهما الإمام لذا رأى ابن المفعع الرجوع إليه، والإمام وسيلة ربانية بينه تعالى وبين خلقه، إذ به «يجمع الله أمرهم»، وبه يكون اجتماع «رأيهم» وبه يكون توحيد «كلمتهם». وهذا كله كقول الإمام علي عليه السلام في بداية خطبته حينما أمر بالإقتداء بالأئمة الأطهار عليهم السلام:

«فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ؟ وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ، وَبَيْنَكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ، وُهُمْ أَرِمَّةٌ

الحق، وأعلام الدين، وألسنة الصدق».

الثاني:

ما دام الإمام موجوداً فقد نهى ابن المقفع عامة الناس عن الإستغناء برأيه «لا يستغنوَنَّ برأيِّ أَنفُسِهِمْ». وهذا يشبه بشدة بالغة ما أمر به الإمام علي عليه السلام بعد أن يَبَيَّنَ منزلته العظمى ومقامه السامي، نهى عامة الناس عن استعمال الرأي «فلا تستعملوا الرأيَ فيما لا يُدْرِكُ قَعْرَهُ البَصْرُ، ولا تَتَغْلِفُ إِلَيْهِ الْفِكْرُ»، لأنَّ ما يدركه الإمام عليه السلام بصيرته الثاقبة لا يدركه الناس بآرائهم.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ للفاخوري تعليقاً على نصِّ ابن المقفع المذكور يتلاءم مع ما يثبته الباحث، قال فيه: «وأخيراً يصلُّ ابن المقفع إلى موضوع يستقيه من فكرٍ شيعيَّة، ويقدمه في لباقةٍ عجيبة. فالناس في حاجةٍ إلى من يهديهم سُوَيْ السبيل، إلى إمامٍ يُنير، ..»^(١). أمّا يوسف أبو حلقة فيرى في حديث ابن المقفع عن الإمام حديثاً غامضاً، كونه يعمد إلى اللفُّ والدوران خوفاً من الحاكم المتسلَّح بالحكم المطلق^(٢).

ولم يكن حديث ابن المقفع هذا الوحيد عن الإمام ووجوب طاعته، بل أكد على ذلك مراراً وتكراراً، ففي نصٍ آخر يذهب إلى أنَّ ما يتمتع به الأئمة من نفاذ الأمر والرأي هو منصب أو جعل إلهي وليس لأحدٍ غيرهم أن يأمر ويطيع، فقال في ذلك: «فَإِنَّا إِثْبَاتُنا

(١) الجامع في تاريخ الأدب العربي / ١ / ٥٣٥.

(٢) ينظر: عبد الله ابن المقفع دراسة وتحليل . ٢٠

الفصل الثالث: المبحث الثالث: أثر كلام الإمام علي في رسالتي الصحابة ٣٩١

لله الإمام الطاعة فيما لا يطاع فيه غيره، فإن ذلك في الرأي والتدبير والأمر الذي جعل الله أزمه وعراه بأيدي الأئمة، وليس لأحد فيه أمر ولا طاعة»^(١).

وبرأي ابن المقفع هذا الذي أكد فيه إن للأئمة مقاماً سامياً «ليس لأحد فيه أمر ولا طاعة» غيرهم، وبرأيه إن هذا الأمر والصلاحيات التي من خلالها يدبرون أمور الرعية ليست هي منة من أحد، بل هي جعل إلهي بتصريح عبارته: «جعل الله أزمه وعراه بأيدي الأئمة». فبآرائه هذه قد دخل في صميم معتقدات طائفة الشيعة الإمامية، وحاجتهم في ذلك القرآن الكريم، إذ لم ترد لفظة «الإمام» ومشتقاتها، إلا ومعها الكلمة «جعل» ومشتقاتها، ومنه قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا هُمْ أَئِمَّةً يَهُدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾^(٢).

إذاً فهذا «الجعل ليس بأمر من البشر، بل بأمر الله (بأمرنا)»^(٣). وقال الدكتور الوائلي: «تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة على أن الإمامة بجعل من الله»^(٤).

وهكذا تطفوا أفكار ابن المقفع الحقيقة شيئاً فشيئاً، بتصريحات تدل على أن عقيدته بالإمامية عقيدة متكاملة ابتداءً من أدوارهم عليهم السلام في عصره وإنتها

(١) جمهرة رسائل العرب / ٣ - ٣٤ / ٣٥.

(٢) الأنبياء . ٧٣.

(٣) بنور فاطمة اهتمت ١٢٣.

(٤) هوية التشيع . ١١٠.

بخاتمهم، فابن المقفع - فضلاً عما سبق - لم يتغافل حتمية خاتم الأئمة عليه السلام، ففي موطن آخر من مواطن حديثه عن الإمام وبعد أن حدث من أسماء أمير المؤمنين على النظر في ما وقع من اختلاف السنن في زمانه، واختلاف الأحكام، فمنهم من يحكم بالخطأ، ومنهم بالصواب، وتوحيد أهلها على الصواب، قال:

«ثم يكون ذلك من إمام آخر آخر الدهر إن شاء الله»^(١).

وهذا تصريح واضح بإيمان ابن المقفع بدولة العدل الإلهي التي تكون في آخر الزمان بقيادة الإمام الثاني عشر الحجة بن الحسن عليهما السلام. وهذا الإمام برأي ابن المقفع يوحد السنن، ويجمع الأمر، ويبعد الحكم المتخطي والمتذبذب بين الصواب والخطأ بحكم واحد مصيب. ونرى أيضاً إن رأيه هذا مشتق من حديث رسول الله عليهما السلام في الإمام المهدي عليهما السلام:

«لَوْلَمْ يَبْقَى مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ وَاحِدٌ لَطَوَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ فِيهِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَمْلَأُهَا عَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا»^(٢).

ومن أفكار ابن المقفع هذه نستنتج أمرتين:

الأول:

إن أفكاره هذه تؤيد بشدة تأثيره السابق بكلام أمير المؤمنين عليه السلام وتأثيره بكلام أمير المؤمنين يشهد ويؤكد على إيمان ابن المقفع بدور الإمام ونهجه في معالجة الأمور كافة. وبعبارة أخرى إن العلاقة بين أفكار ابن المقفع هذه وبين تأثيره

(١) جمهرة رسائل العرب / ٣ / ٤٠.

(٢) مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام / ٢ / ١٧٣، وينظر: مسند أحمد / ١٨ / ٦٢، وينظر: المستدرك على الصحيحين / ٤ / ٤٨٨.

الفصل الثالث: المبحث الثالث: أثر كلام الإمام علي في رسالتي الصحابة ٣٩٣
 بكلام أمير المؤمنين وبباقي الأئمة عليهم السلام علاقة تلازم، وعلاقة تأكيد، وعلاقة شاهد
 وممشود.

الثاني:

إنّ ابن المفعع بفكره هذا ركب مركباً صعباً، وذلك لما دعا إلى تفعيل فكرة الإمامة، على الرغم من إنّه يعيش بين أروقة الخلافة المناهضة لهذه الفكرة. وهذا المركب هو الذي كلف ابن المفعع حياته، وخاصة إذا علمنا أنّ هذه الرسالة (رسالة الصحابة) موجّهة للمنصور العباسي، وهذا الأخير كان قد أدرك جسامته هذه الأفكار التي وجهت له - تقريباً - من عقر داره، ولذا رأى أنّ الأمان يكمن بالخلص من حاملي هذه الأفكار، ومنهم ابن المفعع، وبعد إمامه الصادق عليه السلام.

ثانياً: أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الرسالة اليتيمة:

تُعدُّ اليتيمة من أهم رسائل ابن المفعع، وت تكون هذه الرسالة من مقدمة، ومجموعة من الأسئلة. ولكن ما يؤسف له إنّ هذه الرسالة لم تصلنا كاملةً، بل الذي وصلنا منها الجزء الأقل والمتمثل بمقدمتها، وجواب ابن المفعع عن سؤال الناس عن الزمان، أي الإجابة عن سؤالٍ واحدٍ فقط.

أما منزلتها الأدبية، فإنّ الذي قيل في هذه الرسالة لم يقل في جميع ما كتبه ابن المفعع غيرها، ومن ذلك قول ابن طيفور (ت ٢٨٠ هـ) - وهو ناقلها الوحيد - : «وَمِنَ الرِّسَائِلِ الْمُفَرَّدَاتِ الْلَّوَاتِي لَا نَظِيرَ لَهَا وَلَا أَشْبَاهُ، وَهِيَ أَرْكَانُ الْبَلَاغَةِ، وَمِنْهَا اسْتَقَى الْبُلْغَاءُ، لَأَنَّهَا نَهَايَةُ الْمُخْتَارِ مِنْ كَلَامِ وَحْسِنِ التَّأْلِيفِ وَالنَّظَامِ.. فَإِنَّ النَّاسَ جَمِيعًا مُجَمِّعُونَ أَنَّهَا لَمْ يَعْبُرْ أَحَدٌ عَنْ مِثْلِهَا، وَلَا تَقْدِمُهَا مِنَ الْكَلَامِ شَيْءٌ قَبْلَهَا، وَلَمْ نَكْتُبْهَا عَلَى تَمَامِهَا لِشَهْرِهَا وَكَثْرَتْهَا فِي أَيْدِي الرُّوَاةِ لَهَا فَمِنْ

فصوّلها...»^(١).

والباحث يرى في كلام ابن طيفور شيئاً من المبالغة غير المدروحة لوجوه منها: إذا كانت الرسالة بهذه المنزلة الأدبية التي لا تُدعى، لماذا اقتطع منها جزءاً قليلاً دون باقي أجزائها؟ بل كان عليه أن ينقلها كاملاً لما ذكر لها من قيمة في الأوساط الأدبية.

أما حجته بأنه لم يكتبها «على تمامها لشهرتها وكثرتها في أيدي الرواة» فهذا مردود لأن الرسالة لا توجد في كتاب قديم غير كتابه «المنثور والمنظوم»^(٢) إذاً أين كثرة رواتها؟ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن قوام الرسالة - بمقدمتها وجواب ابن المفعع فيها للسائل - حكم وفقرات من خطب للإمام علي عليه السلام بالنص، أو بتحوير طفيف، إذاً كيف «الناس جميعاً مجتمعون أنه لم يعبر أحد عن مثلها، ولا تقدمها من الكلام شيء قبلها»؟.

فمن حكم أمير المؤمنين عليه السلام التي صُمِّنت بالكامل في هذه الرسالة قوله:

«الْأَقَاوِيلُ حَفْوَظَةٌ، وَالسَّرَّائِرُ مَبْلُوَةٌ... وَالنَّاسُ مَنْقُوْصُونَ مَدْخُولُونَ إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ؛ سَائِلُهُمْ مُتَعَنِّتُ، وَجَحِيْبُهُمْ مُتَكَلِّفُ، يَكَادُ أَفْضَلُهُمْ رَأْيًا يَرُدُّهُ عَنْ فَضْلٍ رَأْيِهِ الرَّضَى وَالسُّخْطُ، وَيَكَادُ أَصْلَبُهُمْ عُودًا تَنْكُوْهُ الْلَّحْظَةُ، وَتَسْتَحِيلُهُ الْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ»^(٣).

(١) جمهرة رسائل العرب / ٣ / ٤٨.

(٢) كتاب يقع في أربعة عشر مجلداً لم يبق منه إلا جزآن هما الحادي عشر وقد طبعت قطعة منه باسم (بلغات النساء)، والآخر الثاني عشر، مخطوط ينظر: الأعلام ١ / ١٤١، والدرة اليتيمة منقولة عن المخطوط.

(٣) نهج البلاغة . ٦١٣

الفصل الثالث: المبحث الثالث: أثر كلام الإمام علي في رسالتي الصحابة ٣٩٥

السرائر: ما أُسِرَّ في القلوب مما يخفى من أعمال الجوارح، وبلاؤها تعرُّفها^(١).

المدخول: من أصيب بالدخل وهو مرض العقل والقلب^(٢).

و«أصلبهم عوداً» كنایة عن تمسکه بدينه وعلى الرغم من هذا «تنکؤه اللحظة»
يقال نکأ القرحة وينکؤها إذا قشرها قبل أن تبرأ^(٣)، أراد الإمام إن النظرة تكشف
مکنون ذلك الرجل.

و«تستحيله الكلمة» تحوله عما هو عليه^(٤) من عود صلب.

ضَمِّنَ ابن المفع هذه الحكمة برمتها بين النص والتحوير والتوصیع والتقديم
والتأخير، ثم عزّزها بفقرات من خطب وحكم علوية أخرى وجعل ذلك مقدمة
لرسالته التي لم يتقدمها «من الكلام شيء»!، فقال: «وقد أصبح الناس - إلا
منْ عصَمَ الله - مدخلين منقوصين، فقائلُهُمْ باعِ، وسامِعُهُمْ عيَابُ سائِلُهُمْ
متعنّتُ، ومجيئُهُمْ متکلّفُ، وواعظُهُمْ غَيْرُ مُحَقِّقٍ لقولِهِ بالفعل.. يتقارضونَ
الثَّنَاءِ، ويترقبونَ الدُّولَ، ويعيرونَ بالهمزِ، يکادُ أحَرَّهُمْ رأياً يلْفِتُهُ عن
رأيه أدنى الرّضا وأدنى السُّخْطِ، ويکادُ أمْتَنُهُمْ عوداً أنْ تسحرُهُ الكلمةُ،
وُشْكُرُهُ اللحظةُ، وقد ابتليتُ أَنْ أكونْ قائلاً، وابتليتُ أَنْ تكونوا سامعينِ،
ولا خير في القول إلاّ ما أنتُفَعَ به..»^(٥).

فقوله: «سائِلُهُمْ متعنّتُ، ومجيئُهُمْ متکلّفُ» هو قول الإمام عليه السلام:

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩ / ١٥٠.

(٢) شرح نهج البلاغة لمحمد عبده ٢ / ٣٣٤.

(٣) ينظر: لسان العرب ١ / ١٧٤ مادة (نکأ).

(٤) شرح نهج البلاغة لمحمد عبده ٤ / ٥٧٣.

(٥) جمارة رسائل العرب ٣ / ٤٨ - ٤٩.

«سَائِلُهُمْ مُتَعَنِّتُ، وَحِبُّهُمْ مُتَكَلِّفُ» بنصّه

أما قوله عليه السلام:

«وَالنَّاسُ مَنْقُوْصُونَ مَدْخُولُونَ إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ». .

قدم وأخر فيه ابن المفعع لما قال: «قد أصبح الناس - إلا من عصم الله - مدخولين منقوصين».

وهكذا بقية الحكمة تجدها منتشرة في كلام ابن المفعع مع تحوير طفيف مشوب بحذر شديد إذ نجده يحور بعض الألفاظ دون أن يمس ميزان اللغة، ولا معناها.

فأنظر إلى هذه المقارنة:

أمير المؤمنين عليه السلام: «يَكَادُ أَفْضَلُهُمْ رَأِيًّا».

ابن المفعع: «يَكَادُ أَحْزَمُهُمْ رَأِيًّا».

فالجملتان تتكونان من فعل مضارع ناقص + اسم الفعل بصيغة اسم تفضيل + خبر الفعل وهكذا قولهما:

أمير المؤمنين عليه السلام: «وَيَكَادُ أَصْلَبُهُمْ عَوْدًا».

ابن المفعع: «وَيَكَادُ أَمْتَنُهُمْ عَوْدًا».

أمير المؤمنين عليه السلام: «يَرْدَهُ عَنْ رَأِيهِ».

ابن المفعع: «يَلْفَتُهُ عَنْ رَأِيهِ».

وهذه سمة تسجلها الدراسة على ابن المفعع، إذ ورد من قبيل هذا التحوير كثير جداً أمّا لو عدنا إلى تأثير ابن المفعع في غير الحكمة المذكورة

الفصل الثالث: المبحث الثالث: أثر كلام الإمام علي في رسالتي الصحابة ٣٩٧
فسنجد قوله: «يتقارضون الشَّناء، ويترقبون الدُّوَلَ». من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام يصف فيها المنافقين منها:

«يتقارضون الشَّناء، ويترقبون الجزاء»^(١).

و معناه: كُلُّ منهم يثنى على صاحبه ليثنى صاحبه عليه كأنَّ كُلَّ واحدٍ منهم يقرض صاحبه دين ينتظر إرجاعه إليه، والجزاء عليه^(٢).

وبالنسبة لقوله: «وَوَاعْظُهُمْ غَيْرُ مُحَقِّقٍ لِقَوْلِهِ بِالْفَعْلِ» فهو يشبه كلام أمير المؤمنين عليه السلام:

«فَهُوَ بِالْقَوْلِ مُدَلٌّ، وَمِنَ الْعَمَلِ مُقْلٌ»^(٣).

وهكذا قوله: «وَلَا خَيْرٌ فِي الْقَوْلِ إِلَّا مَا أَنْتُفِعَ بِهِ» فإنَّه لا يختلف عَمَّا جاء في وصية الإمام ولده الحسن عليه السلام:

«وَتَهَمُّهُمْ وَصَيْتِي.. فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَ»^(٤).

هذا بالنسبة لمقدمة الرسالة اليتيمة. أمَّا ما جاء بعدها من جواب ابن المقفع عن سؤالٍ وجَّه له: «أَمَا سَوْالُكُمْ عَنِ الزَّمَانِ، فَإِنَّ الزَّمَانَ النَّاسُ، وَالنَّاسُ رُجُلَانِ: وَالِّي وَمُوَلَّٰٰ عَلَيْهِ، وَالْأَزْمَنَةُ أَرْبَعَةٌ عَلَى اخْتِلَافِ حَالَاتِ النَّاسِ..»^(٥). فإنَّه من دون أدنى شكٍ إعادة صياغةٍ لخطبةٍ علويةٍ قسم فيها الإمام علي عليه السلام الراعي والرعية

(١) نهج البلاغة ٣٥٦.

(٢) ينظر: شرح نهج البلاغة لمحمد عبده / ٢ ٣٣٤.

(٣) نهج البلاغة ٥٨١.

(٤) م ٤٥٨ ن ٠.

(٥) جمهرة رسائل العرب / ٣ ٥٠.

من حيث الصلاح والفساد على ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

وفيه يصلاح الراعي والرعية معاً. قال عليه السلام:

«ثُمَّ جَعَلَ - سُبْحَانَهُ - مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقًا إِفْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ، .. وَأَعْظَمُ مَا إِفْتَرَضَ - سُبْحَانَهُ - مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حُقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَحُقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي، فَرِيشَةُ فَرَضَهَا اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - لِكُلِّ عَلَى كُلِّ، فَجَعَلَهَا نِظَامًا لِلْفَتَيْهِمْ وَعِزًا لِدِيْنِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوُلَاةِ، وَلَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ؛ فَإِذَا أَدَدَتْ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَدَتِ الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ الْحُقُوقُ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ وَأَعْنَدَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، .. فَصَلَحَ بِذَلِكَ الْزَّمَانُ، وَطَمِيعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَسِّرَتْ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ»^(١).

فأمير المؤمنين عليه السلام يرى أنَّ أيدِي الدولة وهيبيتها تكمن في صلاح الراعي والرعية معاً، وأن يؤدي كُلُّ منها ما عليه من حقوق تجاه الآخر.

نظر ابن المقفع إلى هذا وجعله الزَّمانُ الْأَوَّلُ قائلًا: «فَخِيَارُ الْأَزْمَنَةِ: مَا اجْتَمَعَ فِيهِ صَلَاحُ الرَّاعِيِّ وَالرَّعِيَّةِ، فَكَانَ إِلَيْهِمْ مُؤْدِيًّا إِلَى الرَّعِيَّةِ حَقَّهُمْ فِي الرَّدِّ عَنْهُمْ، وَالْغَيْظُ عَلَى عَدُوِّهِمْ .. وَكَانَتِ الرَّعِيَّةُ مُؤْدِيًّا إِلَى إِلَيْهِمْ حَقَّهُ فِي الْمُوَدَّةِ وَالْمَنَاصِحَّةِ، .. وَتَرَكَ الْمَنَازِعَةَ فِي أَمْرِهِ، وَالصَّبَرُ عَنْ مَكْرُوهِ طَاعَتِهِ .. فَإِذَا اجْتَمَعَ ذَلِكَ فِي إِلَيْهِمْ وَالرَّعِيَّةِ، ثُمَّ صَلَاحُ الزَّمَانِ»^(٢).

(١) نهج البلاغة ٣٨٦

(٢) جمهرة رسائل العرب / ٣ - ٤٩ . ٥٠

الفصل الثالث: المبحث الثالث: أثر كلام الإمام علي في رسالتي الصحابة و ٣٩٩

فابن المقفع سار خطوة بخطوة في كلامه مقتفيًا أثر كلام أمير المؤمنين عليه السلام حتى ختَّم حديثه بنتيجة علوية أيضًا، إذ أَنَّه عَدَ صلاح الراعي والرعية ينتجان «صلاح الزمان» وهذا من قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«صلاح بذلك الزَّمان».

ونسبة الصلاح إلى الزَّمان عن طريق المجاز، لأنَّ الصلاح في الحقيقة يعود إلى حال أهل الزَّمان، وإنَّما يوصف بالصلاح والفساد باعتبار وقوعهما فيه^(١).

القسم الثاني:

فساد الرعية أو عصيانهم. قال عليه السلام:

«وإذا غلبت الرعية واليها..»^(٢).

أشار هنا إلى عصيان الرعية للإمام^(٣).

وهذا القسم جعله ابن المقفع الزَّمان الثاني فقال: «ثُمَّ إِنَّ الزَّمانَ الَّذِي يَلِيهِ: أَنْ يَصْلُحَ الْإِمَامَ وَيَفْسُدُ النَّاسُ..»^(٤).

القسم الثالث:

فساد الوالي. قال عليه السلام:

«أَوْ أَجْحَفَ الْوَالِي بِرَعْيَتِهِ..»^(٥) أي ظلمهم^(٦).

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٤ / ٣٠.

(٢) نهج البلاغة ٣٨٦.

(٣) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٤ / ٣٠.

(٤) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٥٠.

(٥) نهج البلاغة ٣٨٦.

(٦) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٢ / ٦٥.

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الشر العربي

أخذ ابن المفعع هذا جاعلاً منه الزمان الثالث. فقال: «والزَّمَانُ الثَّالِثُ صَلَاحُ النَّاسِ وَفَسَادُ الْوَالِي..»^(١).

أما الزَّمان الرابع عند ابن المفعع والذي قال عنه: «وَشَرُّ الْأَزْمَانِ: مَا اجتمع فيه فسادُ الْوَالِي وَالرَّعِيَّةِ، وَتَلَكَ كَارِثَةٌ لَمْ يَتَقَدَّمْ عَهْدُ كُونَهَا، وَلَمْ تَعْفُ عَنْكُمْ آثَارُهَا»^(٢). فهذا لم يوجد صراحة في خطبة الإمام عليه السلام، لكن ثمرة هذا الزمان من كونه كارثة تحل بالآمة نجد نظيرها عند الإمام بعد أن ذكر إجحاف الْوَالِي، أو غلبة الرعية، فقال:

«إِخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجُحُورِ، وَكَثُرَ الْإِدْعَاءُ فِي الدِّينِ، وَتَرَكَتْ مَحَاجُّ السُّنَّةِ فَعَمِلَ بِالْمُهَوِّيِّ، وَعُطَلَتِ الْأَحْكَامُ...»^(٣)

ولعل هذا الزمان الرابع عند ابن المفعع يدخل ضمن طريقة التعامل بها مع كلام أمير المؤمنين عليه السلام - ولا يفارقها إلا نادراً - وهي تلك الطريقة القائمة على التوسيع والزيادة.

ثالثاً: أثر كلام الإمام علي عليه السلام في رسائل أدبية أخرى لابن المفعع:

وردت لابن المفعع رسائل أدبية متعددة، كان يراسل بها بعض أصدقائه وإخوانه، مُعْزِّيَاً ذي المصيبة ومهنئاً ذي النعمة، وكان الطابع الغالب على هذه الرسائل - كسابقتها - طابع الوعظ والإرشاد. أما حجمها فقد تميزت بالقصر. أما تأثيرها بكلام أمير المؤمنين فقد كان جلياً. فمن حكمته له عليه السلام حتى فيها على تعلم العلم ممن هم أعلى مرتبة، ثم تعليم ممن هم أدنى مرتبة، فقال:

(١) جمهرة رسائل العرب / ٣ / ٥٠.

(٢) م. ن / ٣ / ٥٠.

(٣) نهج البلاغة ٣٨٦.

الفصل الثالث: المبحث الثالث: أثر كلام الإمام علي في رسالتي الصحابة ١٠٤

«تعلَّم عِلْمَ مَنْ يَعْلَمُ، وَعَلِمَ عِلْمَكَ مَنْ يَجْهَلُ، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ عَلِمْتَ مَا جَهِلْتَ وَانْتَفَعْتَ بِمَا عَلِمْتَ»^(١).

كتب ابن المقفع هذا، وأرسله إلى بعض إخوانه:

«أَمَّا بَعْدُ، فَتَعْلَمَ الْعِلْمَ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْكَ، وَعَلِمْهُ مَنْ أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ عَلِمْتَ مَا جَهِلْتَ، وَحَفِظْتَ مَا عَمِلْتَ»^(٢).

ومن كلام الإمام عليه السلام عزى فيه الأشعث بن قيس بعد أن رُزِّيَ بأحد أولاده، قال فيه:

«يَا أَشْعَثُ، إِنْ تَحْزَنْ عَلَى إِبْنِكَ فَقَدِ اسْتَحْقَتْ ذَلِكَ مِنْكَ الرَّحِيمُ، وَإِنْ تَصْبِرْ فَفِي اللَّهِ مِنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ خَلَفُ». يَا أَشْعَثُ إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدْرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ، وَإِنْ جَرِعْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدْرُ وَأَنْتَ مَأْزُورٌ»^(٣).

يقول عليه السلام تدعوك صلة الرحم إلى الحزن على ولدك، ولكن عليك بالصبر حتى تNAL الأجر، ولا تخزع فيصيبك الوزر، فإن القدر جارٍ في الحالتين كلتيهما أصبرت أم جزعت. فكان هذا المعنى مهيمناً تماماً على رسالةٍ كتبها ابن المقفع يعزّي فيها عن ولد: «إنما يستوجب على الله وعدُه، مَنْ صَبَرَ اللَّهَ بِحَقِّهِ، فَلَا تَجْمَعَنَّ إِلَى مَا فُجِعْتَ بِهِ مِنْ وَلَدِكَ، الْفَجِيْعَةُ بِالْأَجْرِ عَلَيْهِ وَالْعَوْضُ مِنْهُ، فَإِنَّمَا أَعْظَمُ الْمُصِيبَتَيْنِ عَلَيْكَ، وَأَنْكِي الْمُرْزِئَتَيْنِ لَكَ..»^(٤)

وهكذا كان ابن المقفع يأتي على المعنى العلوي ويكتبه إلى من يشاء من إخوانه.

(١) غر الحكم ودرر الكلم ٣٢٤ - ٣٢٥.

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٥٤.

(٣) نهج البلاغة ٦٠٦.

(٤) جمهرة رسائل العرب ٣ / ٥٦.

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في التشر العربي

ففي حكمة لأمير المؤمنين عليه السلام نهى فيها عن الزهد بالمعروف لقلة شاكرية، إذ لا بدّ لمن يفعل المعروف من تحصّله على شكرٍ وفير، ولو من طرفٍ غير مستفيد من ذلك المعروف، فقال:

«لَا يُزَهَّدْنَكَ فِي الْمَعْرُوفِ مَنْ لَا يَشْكُرُهُ لَكَ، فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَسْتَمْتَعُ
بِشَيْءٍ مِّنْهُ، وَقَدْ تُدْرِكُ مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ أَكْثَرَ إِمَّا أَصَاعَ الْكَافِرَ»^(١).

كتب ابن المقفع بهذا المعنى كتاباً إلى بعض إخوانه جاءَ فيه: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَنْ
قضى الْحَوَائِجَ لِإِخْرَانِهِ، وَاسْتَوْجَبَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ عَلَيْهِمْ فَلِنَفْسِهِ عَمِيلٌ لَا هُمْ،
وَالْمَعْرُوفُ إِذَا وُضِعَ عِنْدَ مَنْ لَا يَشْكُرُهُ فَهُوَ زَرْعٌ لَا بُدَّ لِزَارِعِهِ مِنْ حَصَادِهِ، أَوْ
لِعَقِبِهِ مِنْ بَعْدِهِ»^(٢).

وما دمنا في رسائل ابن المقفع فينبغي ذكر رسالة له متوسطة من حيث الطول صاغها على شكل مجموعة من الحكم والمواعظ القصار. كان لأثر كلام الإمام عليه السلام نصيبٌ موفورٌ فيها سواءً على صعيد التضمين الحرفي، أو المحور، أو المعنى.

فمثلاً حكمته:

«مَنْ عَذْبَ لِسَانُهُ كُثُرٌ إِخْرَانُهُ»^(٣).

أوردتها ابن المقفع بنصّها في رسالته، فقال: «مَنْ عَذْبَ لِسَانُهُ كُثُرٌ إِخْرَانُهُ»^(٤).

(١) نهج البلاغة . ٥٨٧

(٢) جمهرة رسائل العرب / ٣ . ٥٨

(٣) غر الحكم ودرر الكلم . ٥٧٨

(٤) آثار ابن المقفع . ٣٤١

أمّا حكمته ﷺ:

«أَحْسَنُ الْعَفْوِ مَا كَانَ عَنْ مَقْدِرَةِ»^(١).

فلم يغير ابن المقفع إلا في ذيلها: «أَحْسَنُ الْعَفْوِ مَا كَانَ عَنْ عَظِيمِ
الجُرُمِ»^(٢).

بينما الشق الثاني من حكمة الإمام ﷺ:

«ثَمَرَةُ الْقَنَاعَةِ الرَّاحَةُ، وَثَمَرَةُ التَّوَاضُعِ الْمَحَبَّةُ»^(٣).

فلا يختلف عنه ما ورد في رسالة ابن المقفع تلك: «الْتَّوَاضُعُ يُورِثُ الْمَحَبَّةَ»^(٤)
سوى أنّ الإمام ﷺ جعل التواضع يثمر محبةً، وعند ابن المقفع يورث محبةً !.

وبالنسبة لحكمة أمير المؤمنين ﷺ:

«الظَّفَرُ بِالْحَزْمِ، وَالْحَزْمُ بِإِجَالَةِ الرَّأْيِ، وَالرَّأْيُ بِتَحْصِينِ الْأَسْرَارِ»^(٥).

فقد ذكرناها عندما ضمّنها ابن المقفع حرفيًّا في الأدب الصغير. أمّا في هذه
الرسالة فقد أعاد ترتيب ما أخذه منها لا غير: «بالْحَزْمِ يَتَمُ الظَّفَرُ، بِإِجَالَةِ الرَّأْيِ
تَظْفَرُ بِالْحَزْمِ»^(٦).

أمّا حكمته ﷺ التي قال فيها:

(١) غر الحكم ودرر الكلم . ٢٠٤

(٢) آثار ابن المقفع . ٣٤١

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ٢٠ / ٤٥٢

(٤) آثار ابن المقفع . ٣٤١

(٥) نهج البلاغة . ٥٦١

(٦) آثار ابن المقفع . ٣٤٢

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الترجمة في التشر العربي

«أحِبْ حَبِيبَكَ هُونَا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بِغَيْضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغِضْ بِغَيْضَكَ
هُونَا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا»^(١).

فنجده جانباً من معناها القائم على احتمال تحول الحبيب بغياضاً، والبغضاً
حببياً في قول ابن المقفع: «رُبما تحولت البغضاء مودة، والمودة بغضاء»^(٢).

وقال عليه السلام:

«مَنْ أُعْطِيَ أَرْبَعًا لَمْ يُحْرِمْ أَرْبَعًا: مَنْ أُعْطِيَ الدُّعَاءَ لَمْ يُحْرِمِ الْإِجَابَةَ، وَمَنْ أُعْطِيَ
الْتَّوْبَةَ لَمْ يُحْرِمِ الْقُبُولَ، وَمَنْ أُعْطِيَ الْإِسْتِغْفَارَ لَمْ يُحْرِمِ الْمُغْفِرَةَ، وَمَنْ أُعْطِيَ الشُّكْرَ لَمْ
يُحْرِمِ الزِّيَادَةَ»^(٣).

أخذ ابن المقفع هذا بتمامه، فقال: «من رزق أربعاً لم يحرم أربعاً: من رزق
الشکر لم يحرم الزیادة، من رزق الإستغفار لم يحرم المغفرة، ومن رزق الدعاء لم
يحرم الإجابة، ومن رزق التوبه لو يحرم القبول»^(٤).

وتجدر الإشارة إلى أنَّ الشائع والمتداول إنَّ ابن المقفع ورث هذه الطريقة
من التقسيم في الكلام - كقوله المذكور، وقوله: إنما أنت أحد رجلين، وقوله:
العلم علمان - ورثها من اليونان^(٥)، ولكن الدراسة بينت إن ابن المقفع
اعتمدها - التقسيمات - بنصها عن أمير المؤمنين عليه السلام.

(١) جمهرة الأمثال ١ / ١٨٣ ، وينظر: نهج البلاغة ٦٠٢.

(٢) آثار ابن المقفع .٣٤٢

(٣) نهج البلاغة ٥٧٧.

(٤) بلاغة الكتاب في العصر العباسي ٢١٩.

(٥) ينظر: دراسات في الأدب العباسي ٥٤.

ونختِمُ هذا الأثر العلوي العميق في ابن المقفع بنصين كلِّيَّا من وصية أمير المؤمنين لولده الإمام الحسن عليه السلام، فكان ممّا جاء فيها قوله:

«أَيُّ بْنَى، إِيَّى وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمْرُتُ عُمْرًا مِنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ.. فَعَرَفْتُ صَفَوْ ذَلِكَ مِنْ كَدِيرَهُ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخَلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ..»^(١).

قدم الإمام عليه السلام مجموعةً صفاتٍ أمتاز بها حتى يؤكّد لولده إنّك لا تسمع ولم يأتِك، إلّاً المتخلّ من الآراء، والنخل هو التصفية، ويقال نخلت له النصيحة بمعنى أخلصتها^(٢). وقد وردَ مثل هذا في قول ابن المقفع: «أخذتُ من كل شيءٍ أحسنَ ما فيه حتى من الخنزير والكلب والفهد»^(٣).

وفي نهاية الوصية المذكورة قال عليه السلام:

«وَإِيَّاكَ وَمُشَاوِرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأَيْهُنَّ إِلَى أَفْنِ، وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْنِ. وَأُكْفُفُ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مِنْ لَا يُوثِقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ، وَإِنِّي إِسْتَطَعْتَ أَلَا يَعْرِفَنَ غَيْرُكَ فَافْعُلْ. وَلَا تُمْلِكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَرَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةُ، وَلَيْسَتْ بِقَهْرٍ مَانَةٍ، وَلَا تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا، وَلَا تُطْمِعَهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا. وَإِيَّاكَ وَالْتَّغَيْرِ فِي عَيْرِ مَوْضِعٍ عَيْرَةٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ، وَالْبَرِيَّةَ إِلَى الرَّيْبِ»^(٤).

(١) نهج البلاغة . ٤٥٩

(٢) لسان العرب ١١ / ٦٥١ مادة (نخل).

(٣) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ٢ / ٥٩

(٤) نهج البلاغة . ٤٧٢ - ٤٧١

اقتضى ابن المفعع هذا المقطع من الوصية، فقال: «إياك ومشاورة النساء فإن رأيهن إلى أفن وعزمهن إلى وهن. وأكف عنهم من أبصارهن بحجابك إياهن، فإن شدة الحجاب خير لك من الإرتياح، وليس خروجهن باشد من دخولهن لا تشق به عليهن، فإن استطعت ألا يعرفن غيرك فافعل. ولا تملكن امرأة من الأمر ما جاور نفسها فإن ذلك أنعم لها، وأرخي لهاها، وأدوم لجهاها؛ وإنما المرأة ريحانة، ولديست بقهر مانة، ولا تعد بكرامتها نفسها، ولا تعطها في أن تشفع لغيرها، ولا تطل الخلوة مع النساء في ملوكك وتملئهن، واستبقي من نفسك بقية، فإن إمساكك عنهن وهن يردنك باقتدار خير من أن يهجمن عليك على إنكسار. وإياك والتغيير في غير موضع غيره، فإن ذلك يدعو الصريح منهن إلى السقم»^(١).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن قول ابن المفعع: «لا تطل الخلوة إلى قوله على انكسار» لم يرد في الوصية التي أثبتها الشريف الرضي في نهج البلاغة، لكنه ورد في كتب أخرى روت الوصية هذه، وكانت سابقة للنهج زماناً^(٢).

(١) أمراء البيان ١ / ١٣٨.

(٢) ينظر: تحف العقول ١١٠.

المبحث الرابع

تكرار ابن المفع لكلام الإمام علي عليه السلام

التكرار هو الإعادة، والتكرار مظهر مهم جدًا من مظاهر التأثر لأنّه «يكشف تسلیط الضوء على نقطة حساسة... ويكشف عن اهتمام المتكلم بها، وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسية قيمة تفيد الناقد الأدبي الذي يدرس الأثر ويفحص نفسية كاتبه»^(١). وإذا كان تكرار لفظة واحدة أو اثنتين يكشف عن عناية المنشئ بأمر ما ومن أجل تلك العناية لجأ إلى تكرار هذه أو تلك^(٢)؛ فإنّ من يعمد إلى تكرار العشرات من اللفظة واللفظتين، بل مقاطع بأكملها لا بدّ وأنّه تأثر بها غایة التأثر، وهذا بعينه ما صنعه ابن المفع مع كلام أمير المؤمنين عليه السلام، فبدون مغalaة إن أغلب كلام ابن المفع السابق - إن لم نقل جميعه، بل وأكثر من السابق لأنّ منه متأثر ولم ندونه - الذي أخذه عن كلام أمير المؤمنين عليه السلام قام بتكراره، وكان قد اتبع طرقاً

(١) قضايا الشعر المعاصر ٢٤٢.

(٢) ينظر: قضايا الشعر المعاصر ٢٤٢

عدة لهذا التكرار، فمرة يكرر النص العلوي في الرسالة نفسها، وثانية بين رسالة وأخرى^(١)، وهو في هذا يكرر الحكمة حرفياً مرّة، وأخرى بالمعنى، وثالثة يكرر الحكمة نفسها حرفياً مرّة، ومرة المعنى، وغير ذلك من الطرق المتواتية.

قد عرّفنا فيما سبق إنَّ ابن المفعع اعتمد اعتماداً واضحاً على عهد أمير المؤمنين عليه السلام الأشرف. والأهم من هذا إنَّ النصوص التي اعتمدتها من العهد قام بتكرارها عن بكرة أبيها، سواء في الرسالة الواحدة، أو بين رسالاتٍ وأخرى.

فمِمَّا قاله الإمام عليه السلام في العهد:

«ولا تدع تفقد لطيف أمرهم اتكالاً على جسيمه»^(٢).

ذكر ابن المفعع هذا في ثلاثة مواطن، إذ ضمّنه في أدبه الكبير، فقال: «حق الوالي أن يتفقد لطيفَ أمرِ رعيتهِ، فضلاً عن جسيمه»^(٣).

وفي موطن آخر ذكر ذلك بمعناه وبعض ألفاظه مقدماً الشق الثاني على الأول، فقال: «لا عيبَ على الملكِ... إذا تعهد الجسيم من أمره بنفسهِ، وأحكَمَ المهم، وفوض ما دون ذلك إلى الكفافة»^(٤).

وهكذا تماماً فعل في موطنٍ ثالث، فقال: «لا تتركن مُباشرة جسيمِ أمركَ فيعود شأنكَ صغيراً، ولا تُلزِم نفسكَ مُباشرة الصغير، فيصيَّر الكبيرُ ضائعاً»^(٥)

(١) وهذا السبب - أي تكرار ابن المفعع النص العلوي في رسائل عدّة - جعلنا نؤخر هذا المظهر من التأثير في آخر هذه الرسائل.

(٢) نهج البلاغة . ٥٠٧

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير . ٧٧

(٤) الأدب الصغير والأدب الكبير . ٧٦

(٥) م. ن . ٧١

فالتحير يكمن في قولي ابن المقفع الآخرين، إذ ما جاء في آخر قول الإمام عليهما السلام لما نهى عن الإتيان على جسام الأمور «اتكالاً على جسمها» جعله ابن المقفع أولاً لما قال: «تعهد الجسيم من أمره» و «لا تركنَّ مباشرة جسيم أمرك».

أمّا قوله عليهما السلام:

«لا تدع تفقد لطيف أمورهم».

أخذه ابن المقفع بمعناه وجعله آخر لما قال: «وفوض ما دون ذلك إلى الكفافة» وأشار بـ«ذلك» إلى الجسيم وـ«دون» الجسام من الأمور هي صغائرها ولطائفها، ثم ذكر هذا المعنى بلفظ آخر لما قال: «ولا تلزم نفسك مباشرة الصغير» أي لا تهتم بصغر الأمور فقط.

وفي العهد أيضاً شدد أمير المؤمنين عليهما السلام على تخير الوزراء، فقال:

«لَا يَكُنْ اِخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ وَإِسْتِيَامَتِكَ، وَحُسْنَ الظَّنِّ مِنْكَ، فَإِنَّ الرِّجَالَ يَتَعَرَّضُونَ [يَتَعَرَّفُونَ] لِفِرَاسَاتِ الْوُلَاةِ بِتَصْنُعِهِمْ، وَحُسْنَ حَدِيثِهِمْ خِدْمَتِهِمْ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالْأَمَانَةِ شَيْءٌ، وَلَكِنِ اِخْتِبِرُهُمْ بِهَا وُلُوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ...»^(١).

فنهي أمير المؤمنين عليهما السلام عن اعتماد التفرس في اختيار الوزراء، وتحذيره من التصنع الذي يخدع الفراسة، ثم وضعه شروط القياس والحكم الصائب لهذا المنصب، فكل هذا ذكره ابن المقفع في الأدب الكبير، فقال: «إن استطعت أن تجعل صحيحتك من قد عرفك بصالح مروعتك... فإن الوالي لا علم له بالناس إلا ما قد

(١) نهج البلاغة . ٥١٢

علم قبل ولادته. أما إذا ولد فكل الناس يلقاه بالتزين والتصنع وكلهم يحتال لأن يشني عليه عنده بمال ليس فيه. غير أن الأنذال والأرذال هم أشد لذلوك تصنعاً»^(١).

ثم كرر ذلك في رسالة الصحابة، فقال: «وإن كان السلطان من لم يعرف الناس قبل أن يليهم، ثم لم يزل يسأل عنهم من يعرِفهم ولم يستثبت في استقضائهم، زالت الأمور عن مراكزها، ونَزَلت الرجال عن منازلها، لأن الناس لا يلقونه إلا متصنعين بأحسن ما يقدرون عليه من الصمت والكلام، غير أن أهل النقص هم أشد تصنعاً»^(٢).

فقول الإمام علي عليه السلام:

«فَإِنَّ الْرِّجَالَ يَتَعَرَّفُونَ لِنَرَاسَاتِ الْوُلَاةِ بِتَصْنِعِهِمْ، وَهُنَّ خَدْمَتِهِمْ».

ذكره ابن المقفع في الأدب الكبير بين اللفظ والمعنى لما قال: «فكل الناس يلقاه بالتزين والتصنع». وكرر هذه في رسالة الصحابة لما قال: «الناس لا يلقونه إلا متصنعين».

وبطريقته، لا يُدّ من أن يزيد على كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وزيادته في أدبه الكبير هي قوله: «غير أن الأنذال هم أشد لذلوك تصنعاً». وفي رسالة الصحابة كرر هذه الزيادة لما قال: «غير أن أهل النقص هم أشد تصنعاً».

ومن إرشادات أمير المؤمنين عليه السلام التي وردت في عهده للأشر ت تلك المفاضلة التي أجرها بين حواسص السلطان، وبين العامة من الشعب. مر جححاً كفة العامة لأسباب بينها في قوله:

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير .٨١

(٢) جمهورة رسائل العرب / ٣ .٣٩

«فَإِنْ سُخْطَ الْعَامَةِ يُجْحِفُ بِرَضَى الْخَاصَّةِ، وَإِنْ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَرِّرُ مَعَ رَضَى الْعَامَةِ. وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَنْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَؤْونَةً فِي الرَّحَاءِ، وَأَقْلَ مَعْوِنَةً لَهُ فِي الْبَلَاءِ، وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ، وَأَسَّالَ بِالْإِلْحَافِ، وَأَقْلَ شُكْرًا عِنْدَ الْإِغْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُذْرًا عِنْدَ الْمُنْعِنَ، وَأَضْعَفَ صَبْرًا عِنْدَ مُلَيَّاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ، وَإِنَّمَا عَمُودُ الدِّينِ، وَجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، وَالْعُدُّةُ لِلْأَعْدَاءِ الْعَامَةُ مِنَ الْأُمَّةِ، فَلَيْكُنْ صِغُوكُهُمْ، وَمَمِيلُكَ مَعَهُمْ»^(١).

بين الإمام عليه السلام لواليه: «إِنْ قَانُونُ الْإِمَارَةِ الْاجْتِهادُ فِي رَضِيِّ الْعَامَةِ فَإِنَّهُ لَا مُبَالَةٌ بِسُخْطٍ خَاصَّةِ الْأَمِيرِ مَعَ رَضِيِّ الْعَامَةِ فَإِنَّمَا إِذَا سُخْطَتِ الْعَامَةُ لَمْ يَنْفَعْهُ رَضِيُّ الْخَاصَّةِ... لَأَنَّهُمْ يَقْلُونَ عَلَيْهِ بِالْحَاجَاتِ وَالْمَسَائِلِ وَالشَّفَاعَاتِ فَإِذَا عُزِّلُ هُجْرُوهُ وَرُفْضُوهُ حَتَّى لَوْ لَقِوَهُ فِي الطَّرِيقِ لَمْ يَسْلِمُوا عَلَيْهِ»^(٢). أَمَّا الْعَامَةُ فَهُمْ الْعُدُّةُ لِلْأَعْدَاءِ، وَهُمُ السُّوَادُ الْأَعْظَمُ. وَهُمُ عُمُودُ الدِّينِ، وَاسْتِعَارَةُ لِفَظِ الْعُمُودِ لَهُمْ لِأَنَّ قِيَامَ الدِّينِ بِهِمْ كَقِيَامِ الْبَيْتِ بِالْعُمُودِ^(٣)، وَلَذَا فَضَّلُوهُمْ، وَأَمْرَ أَنْ يَكُونُ صَغُوكُهُمْ وَالصَّغُوكُ بالْكَسْرِ وَالْفَتْحِ: الْمِيلُ^(٤).

قال ابن المقفع في الأدب الكبير ما يشبه هذا بشدة: «البس للناسِ لباسِنِ ليس للعاقلِ بدُّ منها، ولا عيشَ ولا مروءةَ إلا بهما: لباسَ انقباضِ واحتياجِ من الناسِ، تلبسُهُ للعامَةِ فلا يلقونكَ إلا متحفظًا متشددًا متحرزاً مستعدًا، ولباسَ انبساطِ واستئناسِ، تلبسُهُ للخاصَّةِ الثقاتِ من أصدقائك فتلقاءهم

(١) نهج البلاغة . ٥٠٢

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد . ٢٦ / ١٧

(٣) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميمون . ٣٣٧ / ٥

(٤) ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد . ٢٦ / ١٧

بذاتِ صدركَ وتفضي إليهم بمصونِ حديثكَ وتضعُ عنكَ مؤونةَ الخذر
والتحفظِ في ما بينكَ وبينهم»^(١)

وكان ابن المفع قد أورد هذا في أدبه الصغير، فقال: «وعلى العاقلِ أن يجعل الناسَ طبقتينِ متبaitينِ، ويلبسُ لهم لباسينِ مختلفينِ، فطبقةٌ من العامة يلبسُ لهم لباسَ انقباضٍ وإنحصارٍ وتحفظٍ في كلِّ كلمةٍ وخطوةٍ، وطبقةٌ من الخاصة يخلعُ عندهم لباسَ ويلبسُ التشددَ لباسَ الأنسنةِ واللطفِ والذلةِ والمفاوضة»^(٢).

وعلى آية حال فإن التقسيم بين كلام الإمام علي عليه السلام وكلام ابن المفع هو التقسيم نفسه، والمعنى نفسه أيضاً، فضلاً عن تكرار بعض الألفاظ في النصوص الثلاثة. إلا أنَّ ابن المفع أوصى بال العامة ما أوصاه أمير المؤمنين عليه السلام بال خاصة، وأوصى بال خاصة ما أراده أمير المؤمنين عليه السلام لل العامة. ولعلَ السبب في ذلك عائدٌ إلى توظيف ابن المفع هذه الفقرة المذكورة من العهد مع الصديق، والصادقة تتبعه تقريب الخواص، والتحرُّز من العوام.

أما تكراره لحكم أمير المؤمنين عليه السلام فكان قد شكلَ علامة بارزة جداً في رسائله. ومن هذا إن لأمير المؤمنين عليه السلام حكمَةٌ بين فيها حسن الفعل إذا رجح على القول، وقبح القول إذا قصر عن الفعل، فقال:

«إنَّ فَضْلَ الْقَوْلِ عَلَى الْفَعْلِ هُجْنَةٌ، وَإِنَّ فَضْلَ الْفَعْلِ عَلَى الْقَوْلِ جَمَالٌ وزينة»^(٣).

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٠٦ - ١٠٧.

(٢) م. ن ٢٢ - ٢٣.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم ١٣٧. وينظر: ميزان الحكمة ٤٦٣ / ٣.

ضمّن ابن المقفع هذه الحكمة في أدبه الكبير، فقال: «إِنْ فَضْلَ الْقُولِ عَلَى
الْفَعْلِ عَارٌ وَهُجْنَةٌ، وَفَضْلَ الْفَعْلِ عَلَى الْقُولِ زِينَةٌ»^(١).

والملفت هنا إنّ ابن المقفع قد زاد لفظة «عار» على حكمة الحكيم أمير المؤمنين عليه السلام، لكنّه لما كررها حذف هذه اللفظة، مع قلبه للحكمة، فقال: «واعلم أن فضل الفعل على القول زينة، وفضل القول على الفعل هجنة»^(٢).

وقال أمير المؤمنين في وصيته لولده الحسن عليه السلام:

قطيعة الجاهل تعدّ صلة العاقل^(٣).

فكما أنّ من يواصل العاقل يغتنم من عقله فكذلك من يقاطع الجاهل يغتنم السلامة من جهله.

فكّأ ابن المقفع هذا المعنى وأورده في موضوعين، مرّةً في الأدب الكبير، فقال موصيّاً بقبول عذر المعذر، ومستثنياً: «إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَطْيَعَتِهِ غَنِيمَةً»^(٤). وهذه هي «قطيعة الجاهل» في حكمة الإمام عليه السلام.

والآخر في الأدب الصغير حيث قال: «ولقاء الأخوان، وإن كان يسيراً، غنم حسن»^(٥). وهذه هي «صلة العاقل» في حكمة الإمام عليه السلام.

وقال عليه السلام مشبّهاً صاحب السلطان براكب الأسد، لما في هذا المنصب من خوف واضطراب:

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٠٣.

(٢) م. ن. ١٢٠.

(٣) نهج البلاغة ٤٧١.

(٤) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٠٧.

(٥) م. ن. ٢٩.

«صَاحِبُ السُّلْطَانِ كَرَاكِبُ الْأَسَدِ: يُغْبَطُ بِمَوْقِعِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَوْضِعِهِ»^(١).

كرّر ابن المفعع هذه الحكمة ثلاث مرات، فقال في الأدب الكبير مخاطباً السلطان الذي لم يضبط أمور جنوده: «إإنما أنت في ذلك كراكب الأسد الذي يهابه من نظر إليه، وهو لمركيه أهيب»^(٢).

ثمّ كرّر هذا في الأدب الكبير أيضاً، ولكن بالمعنى، فقال: «اعلم أنّ أكثر الناس عدوّاً جاهداً حاضراً جريئاً واشياً وزير السلطان ذو المكانة عنده. لأنّه منفوسٌ عليه مكانه بما ينفسُ على صاحب السلطان، ومحسود كما يحسدُ. غير أنه يجيئُ عليه، ولا يجترأ على السلطان»^(٣).

ثمّ عاد ثالثةً، ولكن عدل عن المعنى ليعود إلى التضمين، فقال في رسالة الصحابة: «... فهو كراكب الأسد الذي يُوجَل من رآه، والراكب أشدُ وجلاً»^(٤).

وفي حكمة له عليه نهى فيها عن المّنْ بعد إسداء معروف لأحدٍ، فقال:
«أَحْبِيوا الْمَعْرُوفَ بِإِمَاتِهِ، فَإِنَّ الْمُنَاهَةَ تَهْدِمُ الصَّنْيِعَةَ»^(٥).

ضمّن ابن المفعع هذه الحكمة بتهامها في أدبه الكبير لكنّه نشرها بمقاطع نثري

(١) نهج البلاغة . ٦٠١

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير . ٦٠١

(٣) م. ن. ٨٥

(٤) جمهرة رسائل العرب / ٣ / ٣٣

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم . ١٥٤

طويل، منه موطن الشاهد: «إِذَا كَانَتْ لَكَ عِنْدَ أَحَدٍ صَنْيَعَةُ... فَالْتَّمِسْ إِحْيَاَ ذَلِكَ بِإِمَاتِهِ...، فَإِنِ الْاسْتِطَالَةَ تَهْدُمُ الصَّنْيَعَةَ»^(١).

وفي أدبه الصغير ذكر هذا ولكن بإيجاز، فقال: «لَا يَرَى الْعَاقِلُ مَعْرُوفًا صَنْعَهُ، وَإِنْ كَانَ كَثِيرًا»^(٢).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«مَا أَضْمَرَ أَحَدُ شَيْئاً إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَّاتِ لِسَانِهِ، وَصَفَّاتِ وَجْهِهِ»^(٣).

أخذ ابن المقفع هذا المعنى وبعض ألفاظه، فقال في أدبه الكبير: «إِيَاكَ أَنْ يَقُعْ فِي قَلْبِكَ تَعْتَبُ عَلَى الْوَالِي أَوْ اسْتَرْزَأْ لَهُ، فَإِنْهُ إِنْ وَقَعَ فِي قَلْبِكَ بَدَا فِي وَجْهِكَ، إِنْ كُنْتَ حَلِيمًا، وَبَدَا عَلَى لِسَانِكَ، إِنْ كُنْتَ سَفِيهًا»^(٤).

ثم كرر هذا في أدبه الكبير أيضًا، فقال: «وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَلَّمَا بُدِّهُ أَحَدُ بَشِّيَءٍ يَعْرَفُهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَقَدْ كَانَ يَطْمَعُ فِي إِخْفَاءِهِ عَنِ النَّاسِ، فَيَعِيرُهُ بِهِ مَعِيرٌ عَنْ السُّلْطَانِ أَوْ غَيْرِهِ، إِلَّا كَادَ يَشْهُدُ بِهِ عَلَيْهِ وَجْهُهُ وَعَيْنَاهُ وَلِسَانُهُ، لِلَّذِي يَبْدُو مِنْهُ عَنْدَ ذَلِكَ»^(٥).

فالمعنى بين حكمتي ابن المقفع وأمهما حكمة أمير المؤمنين عليه السلام واحد تماماً، وهو لا يستطيع أحد أن يبني ما أضمره مضمراً، لأنّ ما يضمراه القلب يتبيّن على

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٠٨ - ١٠٩.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ٥٩.

(٣) نهج البلاغة ٥٥٤.

(٤) الأدب الصغير والأدب الكبير ٨٤.

(٥) م. ن. ١١٦.

صفحات الوجه بتلوكها، وعلى اللسان بفلتاته، فضلاً عن تكراره ألفاظ علوية بنصها من نحو: «وجهك»، ولسانك «في حكمته الأولى». و «أحد، وجهه»، لسانه «في حكمته الثانية». وألفاظ أخرى حور في ثوبها دون معناها، فقد أبدل «ظهر» بـ «بدا» في حكمته الأولى، وبـ «يبدو منه» في حكمته الثانية. وأبدل «أضمر» بـ «وقع في قلبك» في الأولى وبـ «إخفائه» في الثانية.

ومن طرق ابن المفع الملتوية بالتكلّر هي أنه كان يأتي على الحكمة العلوية فيضمّنها، ثم يذكرها ثانية بالمعنى، وثالثة يقرّ بأنها ليست له فيقول: كان يُقال. وما أظن ذلك إلا ليضيّع مصدرها الأصل الذي لم يكن محبّاً لدى أسياد ابن المفع.

فمن الحكم العلوية التي فعل ابن المفع هذا معها قوله عليه السلام:

«وَكَانَ إِذَا بَدَهَهُ أَمْرًا نَيَّنَرَ أَهْمَاهَا أَقْرَبَ إِلَى أَهْوَى فَيُخَالِفُهُ»^(١).

ضمّن ابن المفع هذا في أدبه الكبير، فقال: «إذا بدهك أمران لا تدرى أيهما أصوب فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه»^(٢).

ثم كرر هذه في أدبه الصغير، فقال: «العاقل إذا اشتبه عليه أمران فلم يدر في أيهما الصواب أن ينظر أهواما عنده، فيحذر»^(٣).

وثالثة ذكر هذا لكن بمعناه، فقال: «وكان يقال: إذا تخلجتك الأمور فاشتعل بأعظمها خطرًا»^(٤).

(١) نهج البلاغة ٦٠٥ - ٦٠٦.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ١٢٦.

(٣) م. ن ٢٤.

(٤) م. ن ٤٢.

وبطريقة مماثلة تعامل ابن المقفع مع حكمة أمير المؤمنين عليه السلام التي تقول:
«من الحِكْمَةِ طاعُتُكَ مَنْ فوْقَكَ، وَإِجْلَالُكَ مَنْ فِي طَبْقَتِكَ، وَإِنْصَافُكَ
مَنْ دُونَكَ»^(١).

فضّلّ منها في أدبه الصغير مع تحوير جزئي وشكلي، فضلاً عن التأثير والتقديم
بين فقرتيها الأخيرتين، فقال: «وكان يقال: وقر من فوقك، ولن من دونك،
وأحسن مؤاتاة أكفاءك»^(٢).

أمّا في الأدب الكبير فقد أحذ المعنى المذكور، فقال: «لتكن حاجتك في
الولاية إلى ثلاثة خصالٍ: رضي ربك ورضي سلطانٍ، إن كان فوقك، ورضي
صالحٍ من تلي عليه»^(٣).

ومن طرقه الأخرى بالتكرار هي تقديمها وتأخيره في ألفاظ الحكمة العلوية،
فمن حكمة لأمير المؤمنين عليه السلام، قال فيها:

«الظَّفَرُ بِالْخَزْمِ، وَالْخَزْمُ بِإِجَالَةِ الرَّأْيِ، وَالرَّأْيُ بِتَحْصِينِ الْأَسْرَارِ»^(٤).

ضمّن ابن المقفع هذه الحكمة في أدبه الصغير بنصها، فقال: «الظفر بالخزم،
والخزم بإجالة الرأي، والرأي بتحصين الأسرار»^(٥).

ثم عاد في رسالة أخرى وكأنه بعثر كلمات الحكمة لما قال: «بالخزم يتم الظفر،

(١) عيون الحكم والمواعظ . ٤٧٣

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير . ٤٣

(٣) م. ن . ٦٩

(٤) نهج البلاغة . ٥٦١

(٥) الأدب الصغير والدب الكبير . ٥٣

بإجالة الرأي تظفر بالحزم»^(١)

وكان ابن المقفع في بعض الأحيان يعمد إلى نصين علويين أو أكثر فيلفقهما ويوردهما في رسالة، ثم يكرر هذا التلفيق في رسالة أخرى. فمن ذلك إنه آتى على حكمة أمير المؤمنين عليه السلام التي تقول:

«الْأَقَاوِيلُ مَحْفُوظَةُ، وَالسَّرَّايرُ مَبْلُوَةُ» وَكُلُّ نَفِيسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةً، وَالنَّاسُ مَنْقُوصُونَ مَدْخُولُونَ إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ، سَائِلُهُمْ مُتَعَنِّتُ، وَجِيَّبُهُمْ مُتَكَلِّفُ، يَكَادُ أَفْضَلُهُمْ رَأِيًّا يُرِدُهُ عَنْ فَضْلِ رَأْيِهِ الرَّضِيِّ وَالسُّخْطُ، وَيَكَادُ أَصْلَبُهُمْ عُودًا تَنَكُؤُهُ الْلَّحْظَةُ، وَتَسْتَحِيلُهُ الْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ»^(٢).

وعلى خطبة طويلة لأمير المؤمنين عليه السلام وصف فيها المنافقين منها:

«وَصُفُّهُمْ دَوَاءُ، وَقُوْلُهُمْ شَفَاءُ... يَتَقَارَضُونَ الْثَّنَاءَ، وَيَتَرَاقِبُونَ الْجُزَاءَ»^(٣).

فلفقهما في الأدب الصغير قائلاً: «الناسُ، إِلَّا قَلِيلًا مِنْ عَصْمِ اللَّهِ، مَدْخُولُونَ في أمورهم: فَقَائِلُهُمْ بَاغٍ، وَسَامِعُهُمْ عِيَابٌ، وَسَائِلُهُمْ مُتَعَنِّتٌ، وَجِيَّبُهُمْ مُتَكَلِّفٌ، وَوَاعْظُمُهُمْ غَيْرُ مُحَقِّقٍ لِقَوْلِهِ بِالْفَعْلِ، ... وَالحاِزِمُ مِنْهُمْ غَيْرُ تارِكٍ لِتَوْقُعِ الدَّوَائِرِ يَتَنَاقِضُونَ الْأَنْبَاءَ، وَيَتَرَاقِبُونَ الدُّولَ»^(٤).

أدّخر ابن المقفع تلفيقه هذا وجعله مقدمة لرسالته الدرة اليتيمة فقال: «وقد أصبح الناس - إِلَّا قَلِيلًا مِنْ عَصْمِ اللَّهِ - مَدْخُولِينَ مَنْقُوصِينَ، فَقَائِلُهُمْ بَاغٍ،

(١) آثار ابن المقفع .٣٤٢

(٢) نهج البلاغة .٦١٣

(٣) م. ن. ٣٥٥ - ٣٥٦

(٤) الأدب الصغير والأدب الكبير .٢٩ - ٣٠

وسامعهم عيَّاب؛ سائِلُهُم متعنٌّت ومجيبُهُم متکلٌّف، وواعظُهُم غير محقٌّ لقوله بالفعل،... يتقارضون الثناء، ويترقبون الدُّول، ويعيرون بالهمز، يكاد أحزمهم رأياً يلفتهُ عن رأيه أدنى الرضا وأدنى السخط»^(١).

ونلاحظ هنا - كما لاحظنا سابقاً - إنَّ ابن المقفع قد ضمَّن النص العلوي بنصِّه، وأجرى تعديلاً شكلياً على بعضِه الآخر، ثم يأتي على نصِّه الذي حور فيه ويحور فيه ثانيةً، فمثلاً قول الإمام عليه السلام: «يکاد أفضلهم رأياً يرده عن رأيه الرّضى والسخط». حور فيِ ابن المقفع طفيفاً لما قال في الْدَّرَة الْيَتِيمَة: «يکاد أحزمهم رأياً يلفته عن رأيه أدنى الرضا وأدنى السخط». ولكن في الأدب الكبير ذكر الفكرة بمعناها لـما قال: «والحازم منهم غير تارك لتوقع الدوائر».

هذا هو فيُض من غيض من تكرارات ابن المقفع لكلام الإمام علي عليه السلام، لأنَّ القائمة تطول جداً بهذه التكرارات، ولو لاها لذهب جانب كبير من كمية نتاجات ابن المقفع.

ولهذا دلالات على الرغم من إيمانها كاشفة عن نفسها إلا أنَّ منها:

١- إنَّ هذا التكرار دليل لا يضُلُّ على الكشف بوضوح إنَّ ابن المقفع كان على مداومة وإتصال متواصل بكلام أمير المؤمنين عليه السلام، وإستحضاره لهذا الكلام في جميع رسائله المشهورة بلا استثناء

٢- إنَّ هذا التكرار يكشف إنَّ ابن المقفع كان يرى في كلام أمير المؤمنين عليه السلام زينةً يزدان بها الكلام، وركيزة يرتكز عليها القول - بفنونه وأغراضه المتعددة - ولذا رغب في أن يزين كلامه بهذه الزينة إذا أنَّ «من عادة النفس سرعة الالتفات

(١) جمهرة رسائل العرب / ٣ - ٤٨ - ٤٩.

إلى ما أنسنه وعرفته»^(١).

٣- يستجلِّي هذا التكرار عمق إيمان ابن المقفع بـأنَّ في كلام أمير المؤمنين وأفكاره عليهما الطريقة المشلَّى في تحديد المشكلات، وتقديم الحلول الناجحة لها.

٤- إنَّ تكرار ابن المقفع لهذه الحكم العلوية دليل آخر على أنَّ هذه الحكم هي ليست لابن المقفع، وإنَّما لو كانت له لما حورَ فيها هنا، وأعادها بنصَّها هناك، ثمَّ نسبها للحكيم في مكانٍ ثالث.

(١) معايير الحكم الجمالي ٢٣٤.



الخاتمة والنتائج

كانت هذه رحلة شاقة وشيقّة استجلينا من خلالها الأثر المهيّب الذي تركه كلام أمير الكلام عليه كلّ من الحسن البصري وابن المقفع، ومن خلال هذه الرحلة توصلنا إلى حقائق عدّة غُطّيّت - طوعاً أو كرها - مئات السنين، منها:

١- تبيّن بوضوح أنّ كلام أمير المؤمنين عليه كان مدوّناً ومحفوظاً ومشهوراً منذ القرن الأوّل الهجري، وهذا سلكت الدراسة طريقين يدعم بعضهما بعضاً:

الأول:

الاعترافات الصريحّة بذلك من نحو شهادة الجاحظ وغيره، وكذلك أسماء الكتب التي ذكرها ابن نديم والطوسي وغيرهم، والتي اختصت بجمع كلامه عليه.

الثاني:

التأثير المهيّب الذي تركه كلامه عليه على النشر العربي في ذلك القرن والقرن

الذي بعده بطريقة تدلل على أن الكتاب كانوا يقرؤون كلامه عليه وينتقلون منه ما يشاؤون من جملة، أو مقطع، ولربما رسالة أو خطبة كاملة.

٢- تبین إبطال الشك في عهد أمير المؤمنين عليه مالك الأشتر، ذلك الشك القائم على الطول، وعلى أن العهد لم يكن موجوداً في زمن الطبرى، ولو كان موجوداً في زمنه لدونه في تاریخه، في حين إن الدراسة أثبتت أن ابن المفع معتمد اعتماداً مباشراً على وصايا العهد، فقد أخذ منه عشرات النصوص بين التضمين الحرفى، والمحور، والأخذ بالمعنى وغير ذلك، وعلى هذا فإن العهد كان موجوداً ومقرروءاً ومؤثراً قبل الطبرى بأكثر من مائة عام .

٣- من آثار كلام أمير المؤمنين عليه على الأدباء المذكورين، هو ذلك التفاوت في حجم النص الشري، من الطول المهيّب، بحيث وصل إلى درجة - التشكيك - إلى الطول، إلى التوسط، إلى الإيجاز الشديد بحيث لا تتجاوز الرسالة السطر الواحد أو بعضه، وهذه هي طريقة علوية بامتياز سار عليها الأدباء سيراً وأضحاً لا لبس فيه، فقد وجدنا عند البصري رسالة تربو على المائة سطر، وأخرى لا تتجاوز سطراً واحداً، وكذلك الأمر عند ابن المفع.

وبهذه الطريقة ثبت أيضاً أن الطول كان موجوداً في نصوصه عليه إلى درجة كان مؤثراً ومرغوباً في تقليده .

٤- بطلان الشكوك التي أثيرت حول علم الكلام أو علم التوحيد، ذلك العلم الذي برع به أمير المؤمنين عليه، وذلك لما رأينا أن هذا الفن من الكلام كان هناك من أخذه عنه عليه وتأثر به في القرن الأول الهجري كالإمام زين العابدين عليه .

٥- وجدنا أن أصحاب المعجمات اللغوية قد وثقوا الخطبة الشقشقية، وذلك

لما استشهدوا بالفاظ ومقاطع كثيرة منها، وصرّحوا بمبدعها، وهذا الاستشهاد دليلٌ جازم على صدورها من المنبع العربي الأصيل والمؤسس للكلام العربي .

٦- من التهم التي وجهت لكلام أمير المؤمنين عليه السلام وجود التقسيمات العددية فيه، وهذا تبيّن بطلانه من خلال أثر هذا الإسلوب الحرفي على الحسن البصري وابن المقفع وغيرهما .

والغريب إنّ هذا الأمر تعامل معه بعض الأدباء بمعايير فيها ازدواجية، وبطريقة فيها تحبط، فهم لما رأوه عند أمير المؤمنين عليه السلام عدوه أمراً مكذوباً عليه، بينما عند البصري - وبحكمهم - ميزة من ميزات نشره، ولا ننسى أنّ الجميع - إلى درجة لا يختلف فيها اثنان - متفق على كون البصري ذي ثقافة إسلامية عربية مخضبة، ولما وصلوا إلى ابن المقفع رأوا بأنّ هذا الأخير أتى بهذا الفن التشيّر من اليونان .

هذا كلّه أمر مجانب للصواب جملةً وتفصيلاً، لأنّ هذه التقسيمات أخذها الأدييان بالنص أو المعنى عن أمير المؤمنين، وسنذكر بعضها هنا .

من نحو قول: البصري «... وإنما إذا فكرت فيها الدنيا ثلاثة أيام ...» الذي أخذه من الحكمة العلوية: «إلا إنّ الأيام ثلاثة...».

ومن نحو قول ابن المقفع «.. إنما أنت في ذلك أحد رجلين»، فقد أخذه من عهد الإمام مالك: «.. إنما أنت أحد رجلين».

ومن نحو قول ابن المقفع أيضاً: «من ذهب حياؤه ذهب سروره، ومن ذهب سروره مقت، ومن مقت أوذى ...»، فكان قد استوحى هذا ما ورد في حكمة أمير المؤمنين «.. ومن كثر كلامه فقد كثر خطوه، ومن كثر خطوه قلل حياؤه، ومن

قل حياؤه قل ورעה ..».

أمّا قوله عليه السلام: «الصبر صبران: صبرٌ على ما تكره، وصبر على ما تحبّ»، فقد أخذه الأدييان كلاهما، حيث قال البصري: «الصبر صبران: صبر عند المصيبة، وصبر عن المعصية»، وقال ابن المقفع: «واعلم أنَّ الصبر صبران: صبر المرء على ما يكره، وصبره عما يحبّ».

وغير هذا كثير أشرنا له في طيات الرسالة .

٧- لم تخُلْ أَيِّ رسالة أو خطبة عند البصري من أثر علوِي بالغ، وكذلك رسائل ابن المقفع الأربع المشهورة (الأدب الكبير، الأدب الصغير، رسالة الصحابة، الدرة البتيمة) وأكثر من هذا إذ لم أجد ولا صفحة واحدة من صفحات الأدب الصغير تخلوا من أثرٍ لكلام الإمام عليه السلام .

٨- إنَّ هذا الأثر الذي تركه كلامه عليه يوضح دون ريب واقعية المقوله التي دونها الشيخ المفید (لولا كلام علي بن أبي طالب وخطبه وبلاعاته في منطقه ما أحسن أحد أن يكتب إلى أمير جند ولا إلى رعية) . فهذه الشهادة وما شابها من شهادة كثيرة جدًا من قبل النقاد والأدباء تبيَّن الآن وبالدليل أنها لم تكن من باب المبالغة، بل هي حقيقة ملموسة كان قد تنبأ إليها قديمًا، فجاءت هذه الدراسة تؤيد تلك الشهادات، والشهادات تشهد من جانها على صحة هكذا دراسات .

ولـ مـعـالـاة فـلـوـلا كـلامـهـ عـلـىـ لـمـ يـصـلـنـاـ نـتـاجـ الـبـصـرـيـ وـابـنـ المـقـفـعـ - لا كـمـاـ ولا نـوعـاـ - كـمـاـ وـصـلـنـاـ فـيـ هـذـهـ الـحـلـةـ .

٩- ثبت أنَّ جميع كلام البصري أو جلَّه من كلام أمير المؤمنين عليه بالحرف أو

المعنى أو بينهما، وعليه لم يثبت من الآراء القديمة حول مرجعية ثقافة البصري الأدبية إلاّ رأي الشريف المرتضى، الذي عدَّ كُلَّ كلام البصري أو غالبيته من كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام.

١٠ - كان البصري عندما يتحدث يُسأل عن بعض الأحاديث لمن هي، فينهر السائل ولم يُجبه، فأثبتت الدراسة أنَّ تلك الأحاديث تعود لأمير المؤمنين عليه السلام.

١١ - من المؤسف أسفًا شديداً إنَّ البصري وعلى الرغم من تأثيره الكامل بأمير المؤمنين عليه السلام لم يذكر اسمه ولا مرَّة واحدة، في حين يذكر أسماء الآخرين الذين يستشهد بکلامهم، إبتداءً من لقمان الحكيم، وانتهاءً بالخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل.

١٢ - لم يكن للحسن البصري أي أسلوب مميز مقارنة بكلام أمير المؤمنين عليه السلام، إذ كان الأسلوب العلوي مهيمناً هيمنة تامة على نثر البصري، سواء من ناحية الشكل أم المضمون.

١٣ - وجدنا إنَّ من النصوص العلوية هي نصوص قرآنية، أجرى عليها أمير المؤمنين عليه السلام بعض التغيرات، فكان البصري قد تأثر بعض هذه دون أن يتأثر بالنص الأصل.

١٤ - إنَّ الأديبين وعلى الرغم من كونهما يكتبون مدة حياتهم لسلطات تختلف مشروع أمير المؤمنين عليه السلام الفكري إلاّ أنَّهم بقوا مأسورين لکلامه عليه السلام.

١٥ - إنَّ الأديبين عاشا في العصر الذهبي للنشر العربي، وكانا يتطلعان إلى جلب أسماع متلقיהם، فعمدوا إلى التفتیش عن لباب الحكم وأبكار المعاني، فوجدوها في كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

.....أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الترجمة العربية

١٦- إنّ اغلب - ولربما جميع - تأثر الأدباء الذين شخصته الدراسة هو تأثر إتباعي وليس إبداعياً، بمعنى إنّهم لم يبدلا استبدالات جريئة في النص العلوي - وإن أقدموا على هذه الخطوة فأئمّهم يقترون - وهذا عائد إلى إيمانهم بأنّ النص العلوي نصٌ متكامل لا يمكن التجديد فيه تجديداً حسناً .

١٧- من الطرق التي اشتركت فيها الأديان هي التقديم والتأخير بين مكونات النص العلوي الذي يورده .

١٨- كان البصري يجمع نصوصاً علوية عدّة ويسبّبها في نصٍ واحد، ولكن هذا النص الواحد - لأنّه ملّق من نصوص عدة - بانَ عليه عدم الانسجام، وفي محاولةٍ من البصري لتذليل عدم الانسجام هذا جعل يربط بين المقطع والآخر بعبارة يخترعها هو من نحو تكرار (يا ابن آدم)، أو تكرار (احذرها) مخاطباً الدنيا، أو تكرار اسم صريح بعينه وغير ذلك، ولكن هذا الرابط لم يشفع للبصري فقد بقيت نصوصه الطوال يتتابعاً عدم الانسجام، والسبب هو ما بيناه لا غير .

١٩- كثيراً ما كان الأديان يكرّران بعض كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وليس مرّة واحدة فحسب، بل لربما يكرّران المقطع العلوي الواحد أكثر من خمس مرات، وهذا التكرار أو حضور النص العلوي الواحد في نصوص عدة - ويفنون مختلفة - للأديين عائد بالدرجة الأساس إلى كثرة قراءة ذلك النص وترديده وحضوره في ذهن الأديب أولاً، وثانياً إيمان الأديب الذي قام بهذه العملية بأنّ هذا الكلام - المكرّر - هو زينة يزدان بها النص الإبداعي، وذى قابلية على التأثير على المتلقى ولذا قاما بتكراره، أي طمعاً بنفعه الذي سيعود به على النص المتأثر .

٢٠- اتبعوا الأديان - وهم يكرّران كلام أمير المؤمنين عليه السلام - طرقاً عدّة فمرة يضمّنان النص العلوي حرفيّاً ويكرّرانه حرفيّاً أيضاً، أو يكرّرانه بتحوير طفيف،

أو يكرّر أنه بالمعنى، وفي مرات عدّة كان قد اتّبعا هذا كله، مع النص العلوي الواحد، بمعنى إنّها يضمّنانه بنصّه، ثم يكرّر أنه بنصّه أيضًا، ثم بتحوير طفيف، ثم بالمعنى ... وهكذا .

٢١- من طرق الحسن البصري في تكراره كلام الإمام عليه السلام هي أخذه للعبارة العلوية وتكرارها في مكانٍ واحدٍ، وفي أحيانٍ كثيرة بدون أي فاصل يذكر بين النص الأصل وتكراره، وهكذا تكرار يذمّه النقاد خلوه من الجدّة.

٢٢- من طرق ابن المقفع التي كان يكرر بها كلام أمير المؤمنين عليه السلام هي ذكره لذلك الكلام منسوباً لمن أسماه بالحكيم، ويكرّره ثانية - مع تغيير جزئي وطفيف - ولكن دون أن ينسبة لذلك الحكيم .

٢٣- صرّح ابن المقفع مراراً وتكراراً بتأثّره الكبير، فقال: إنّ جميع كلامه - إلّا استنقاقاتٍ صغّار - مأخوذ من أنسٍ لم يذكر أسماءهم الصريحة، بل أسهب في ذكر صفاتهم الخلقيّة والخلقيّة، والآن بيّنت الدراسة بالدليل تصدر أمير المؤمنين عليه السلام لهؤلاء الموصوفين .

٢٤- وجدت الدراسة أيضًا إنّ ابن المقفع كان قد تأثر تأثّراً نصّيًّا بالرسول الأكرم عليه السلام وببعض أئمّة أهل بيت النّبوة كالإمام زين العابدين، والإمام الصادق عليه السلام .

ومن هذه النتائج انكشف بطلان النظريات التي اتّهمت ابن المقفع - بسبب مدحه للقدماء وتأثّره بهم - وعده لا أخلاقيًّا، ويريد الجمود، ويجلّ الفرس ويعلّي من شأنهم، وينكلّ بالعرب، وبعد أمد طويل تبيّن إنّ ابن المقفع لم يكن يقصد إلّا أناسًا عربًا أقحاحًا، بل من سادات العرب وأشرفهم في الجاهلية والإسلام .

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الترجمة العربية ٤٣٠

٢٥- كان ابن المقفع يورد الحكم وينسبها للحكيم، هذا الحكيم فسر - من غير دليل - بالفارسي، والآن بينت الدراسة إنَّ الحكيم هو أمير المؤمنين عليه السلام .

٢٦- كان ابن المقفع يورد الحكم ويقدم لها بقوله «كان يقال»، أو «سمعت العلماء قالوا»، فوجدت الدراسة إن غالبية هذه الحكم ل الإمام علي عليه السلام .

٢٧- صرَح ابن المقفع باشتقاده أفكاراً من كلام الذين أسماهم بـ«الأولين»، وهذا الاشتقاد - أو ما أسميناه بالبسط - هو من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، فقد كان ابن المقفع يأتي على الحكمة العلوية الموجزة فيتوسّع عليها توسيعاً كبيراً حتى وجدنا بعض الزيادات التي يجريها ابن المقفع على النص العلوي مطابقة تماماً لشرح ذلك النص من قبل شراح (نهج البلاغة) .

ولما عرفنا بأنَّ ذلك الكلام المستقى منه هو لأمير المؤمنين عليه السلام، كان من العدل والرشاد أن نقول: إنَّ علي بن أبي طالب يقف على رأس هؤلاء «الأولين» لا على أنهم من الفرس أو اليونان .

٢٨- قلل ابن المقفع من إيراد الحكمة العلوية بطريقة الإيجاز إلى درجة لا تكاد تكون هنالك نسبة عدديَّة بين الحكم التي أوجزها والأخر التي بسطها، وما ذلك إلا لأنَّه كان على يقين بأنَّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام مسبوك سبِّحاً خاصاً على صعيدي الشكل والمضمون، وعليه فإنَّ أي شيء يُحذف منه سيهدِّ جزءاً لا يُستغنى عنه، بمعنى أنَّ تأثيراً سلبياً - حتمياً أو شبه حتمياً - سيكون من جراء عملية الإيجاز لو حصلت، لذا ابتعد ابن المقفع عنها .

٢٩- كثيراً ما كان ابن المقفع يقدم للمقطع العلوي الذي يضمنه بفعل الأمر أو لام الأمر، وما ذلك إلا رغبة منه للتاكيد أو للفت الإنباه إلى ما سيورده .

٣٠ - كثيراً ما كان ابن المقفع يحور شكلياً في كلام أمير المؤمنين للهـ، ومن ذلك استعماله الضمير بدلاً من الإسم الصريح، أو بالعكس .

٣١ - إنَّ من بواعث التأثير العلوي على ابن المقفع هو تلك الموسوعية الهايلة التي اتصف بها أمير المؤمنين للهـ قولاً وفعلاً، فهو المحارب العظيم، وهو المنظم العسكري، وهو الفيلسوف، وهو العابد الزاهد، وهو الاقتصادي، وهو السياسي.... فهذه الموسوعية وظَّفَ ابن المقفع جانباً كبيراً منها فوجدها - بشهادة كلامه - واعظاً، وسياسيًّا، وعسكرياً، واقتصادياً، وداعياً إلى الرزهد، فكان في هذا كلُّ منظماً دقيقاً يذكر المشكلة ويعطي دواعها، ونحن والكلُّ نعرف إنَّ ابن المقفع لم يمارس هذه الأمور والمهامات الجسمانية حتى تكون له تلك المقدرة والموسوعية الواسعة على تشخيص الداء ووصف ما يناسبه من دواء، ولكن العلة الكامنة وراء ذلك هي جمعه لكلام أمير المؤمنين للهـ ونظرياته الخالدة في هذه الموضوعات المتعددة .

٣٢ - كان ابن المقفع يشدد على النهي عن استعمال الرأي إذا كان الإمام موجوداً، لأن الإمام - بنظر ابن المقفع - له المقدرة العلمية التي تعينه على استنباط الحال الأمثل لكل معضلة، في حين لم يصل إلى هذه الدرجة عامة الناس بآرائهم، ولذا نصحهم ابن المقفع بالتخلص من آرائهم والامتثال لأوامر الإمام .



المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- الإبداع في الفن، أ. د. قاسم حسين صالح، دار دجلة، المملكة الأردنية، ط١، م٢٠٠٧.
- ٣- ابن المقفع، حنا الفاخوري، دار المعارف، مصر، د.ت.
- ٤- الإتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي، د.شفيع السيد، دار الفكر العربي، الكويت، م١٩٨٦.
- ٥- الإتجاهات الفكرية عند الإمام علي عليه السلام، د. رحيم محمد سالم، مركز الشهيدين الصدرین للدراسات والبحوث، ط١، م٢٠٠٧.
- ٦- الإنقاذ في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق سعيد المنذوب، دار الفكر، لبنان، ط١، م١٩٩٦.
- ٧- الأثر العربي في أدب سعدي (دراسة أدبية نقدية مقارنة)، د.أمل إبراهيم دار

الفكر العربي، ٢٠٠٣.

٨ - أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، أحمد حسين الباورى، دار المعارف، مصر، ط٤، ١٩٨٧ م.

٩ - أثر القرآن في الأدب العربي في القرن الأول الهجري، د. ابتسام مرهون الصفار، مطبعة اليرموك، بغداد، ط١، ١٩٧٤ م.

١٠ - الأثر القرآني في نوح البلاغة (دراسة في الشكل والمضمون)، د. عباس علي حسين الفحام، من إصدارات العتبة العلوية المقدّسة، ٢٠١١ م.

١١ - الاحتجاج، العالم الفقيه أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (من أعلام القرن السادس الهجري)، تعليق محمد باقر الموسوي الخرساني، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠٤ م.

١٢ - الإختصاص، الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن النعمان العكيري المشهور بالمفید (ت ١٣٤ هـ)، تحقيق علي أكبر الغفارى، السيد محمود الزرتدى، دار المفید، بيروت - لبنان، ط٢، ١٩٩٣ م.

١٣ - الأدب الإسلامي في عهد النبوة وخلافة الراشدين، د. نايف معروف، معروف، دار النفائس، بيروت - لبنان، ط٣، ٢٠٠٥ م.

١٤ - الأدب الصغير، ابن المقفع، شرح وتحقيق الأستاذ أحمد زكي باشا، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ط١٩٩٤، ١٤٢ هـ.

١٥ - الأدب الصغير والأدب الكبير، ابن المقفع (ت ١٤٢ هـ) دار صادر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٥ م.

١٦ - أدب العرب، مارون عبود، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٠ م.

١٧- الأدب المقارن، مجدي وهبة، الشركة المصرية العالمية للنشر (لونغمان)، ١٩٩١ م.

١٨- الأدب المقارن د. محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت - لبنان، ط٥، د.ت.

١٩- الأدب المقارن فان تيجم، دار الفكر العربي، د. ت.

٢٠- الأدب وفنونه دراسة ونقد، د. عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، ط٢، ١٩٥٨ م.

٢١- الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم من عصر علي بن أبي طالب عليه السلام إلى عصر ابن خلدون، د. كمال اليازجي، دار الجليل، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٨٦ م.

٢٢- الأسس الجمالية في النقد الأدبي، د. عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٦٨ م.

٢٤- إشكاليات القراءة والتأويل، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٤، ١٩٩٦ م.

٢٥- الإعجاز العلمي عند الإمام علي عليه السلام، د. لبيب بيضون، مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠٥ م.

٢٦- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط٥، ١٩٨٠ م.

٢٧- أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين (ت ١٣٧١ هـ) تحقيق وتحقيق حسن الأمين، دار التعارف، بيروت - لبنان، د.ت.

- ٤٣٨ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الشّرّ العربي
- ٢٨ - الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٧ هـ)، تحقيق سمير جابر، دار الفكر،
بيروت، لبنان، ط ٢، د.ت.
- ٢٩ - الإغتراب وأنواعه، عبد اللطيف محمد خليفة، دار غريب، القاهرة،
م ٢٠٠٥.
- ٣٠ - الإقتباس والتضمين في نهج البلاغة (دراسة أسلوبية)، د. كاظم عبد فريح
المولي الموسوي، م ٢٠٠٦.
- ٣١ - أمالي المرتضى (غور الفوائد ودرر القلائد)، علي بن الحسين الملقب بالشريف
المرتضى (ت ٤٣٦ هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ذوي القربي، قم -
إيران، ط ٢.
- ٣٢ - الأمالي، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٥٠ هـ)، تحقيق قسم
الدراسات الإسلامية، دار الثقافة، قم، ط ١، ١٤١٤ هـ.
- ٣٣ - الأمالي، الإمام أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان الملقب بالشيخ المفید
(ت ٤١٣ هـ)، تحقيق حسين الإستادولي، علي أكبر غفاری، بيروت - لبنان،
ط ٢، ١٩٩٣ م.
- ٣٤ - الإمام علي أسد الإسلام وقدّيسه، روکس بن زائد العزيزی، مطبعة النعمان،
النجف الأشرف، م ١٩٦٧.
- ٣٥ - الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، جورج جرداق، ذوي القربي، قم،
ط ١، ١٣٨١ هـ.
- ٣٦ - الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر، راجي أنور هيفا، دار العلوم، ط ١،
م ٢٠٠٥.

- ٣٧- آثار ابن المقفع (كليلة ودمنة، الأدب الصغير، الأدب الكبير، الدرة اليتيمة، رسالة الصحابة، الآثار الأخرى)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٨٩ م.
- ٣٨- آداب الحسن البصري وزهده ومواعظه، جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)، تحقيق سليمان الحرش، دار النور، دمشق - سوريا، ط ٣، ٢٠٠٧ م.
- ٣٩- أمراء البيان، محمد كرد علي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٧ م.
- ٤٠- بحار الأنوار، العلامة محمد باقر المجلسي (ت ١١١١ هـ)، تحقيق علي أكبر غفارى، دار إحياء التراث العربى، بيروت - لبنان، ط ٣، ١٩٨٣ م.
- ٤١- البخلاء، أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ)، علق عليه إحسان الطيبى، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط ٢، ٢٠٠٨ م.
- ٤٢- البداية والنهاية، الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقى (ت ٧٧٤ هـ)، حققه ودقق أصوله وعلق على حواشيه علي شيري، دار إحياء التراث العربى، ط ١، ١٩٨٨ م.
- ٤٣- البديع في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار المعارف، القاهرة، ط ١، ١٩٧٩ م.
- ٤٤- البديع في النقد الشعر، أسامة بن منقذ(ت ٥٨٤ هـ)، تحقيق د. أحمد بدوى، د. حامد عبد المجيد، مراجعة الأستاذ إبراهيم مصطفى، مطبعة مصطفى البابى، مصر، ١٩٦٠ م.

- ٤٠ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في التأثير على التأثير في التأثير العربي
- ٤١- البصائر والذخائر، أبو حيّان التوحيد (ت ٤٠٠ هـ)، تحقيق وتعليق أحمد أمين، السيد أحمد صقر، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ط ١، ١٩٥٣ م.
- ٤٢- البعد الفكري والتربوي في نهج البلاغة، العلامة الدكتور عبد الرسول الغفارى، مؤسسة أنصاريان، قم - إيران، ط ١، ٢٠١٠ م.
- ٤٣- البلاغة العربية، أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن الميداني، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٩٩٦ م.
- ٤٤- البلاغة الفنية، علي الجندي، مكتبة الإنجلو مصرية، ط ٢، ١٩٦٦ م.
- ٤٥- براءة الكتاب في العصر العباسي (دراسة تحليلية نقدية لتطور الأساليب)، د. محمد نبيه حجاب، مكتبة الطالب الجامعي، ط ٢، ١٩٨٦ م.
- ٤٦- بنور فاطمة اهتمت، عبد المنعم حسن، دار المعروف، قم، ط ١، ١٩٩٨ م.
- ٤٧- بنية الجملة ودلائلها البلاغية في الأدب الصغير دراسة تركيبية تطبيقية، أ.د. محمد كراكبي، علم الكتاب الحديث، أربد، الأردن، ٢٠٠٨ م.
- ٤٨- بيان إعجاز القرآن. حمد بن محمد الخطابي (ت ٣٨٨ هـ)، ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط ٢، ١٩٦٨ م.
- ٤٩- البيان في تفسير القرآن، آية الله العظمى أبو القاسم الخوئي الموسوي (ت ١٤١١ هـ)، دار الزهراء، بيروت - لبنان، ط ٤، ١٩٧٥ م.
- ٥٠- البيان والتبيين، أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ)، تحقيق د. درويش جويدى، المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠١٠ م.

- ٥٥- تاج العروس من جواهر القاموس، السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، دراسة وتحقيق علي شيري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤ م.
- ٥٦- تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، راجعه واعتنى به د. درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، ٢٠٠٥ م.
- ٥٧- تاريخ الأدب الإسلامي، د. عباس الترجمان، دار التبلیغ الإسلامي، ط١١، ٢٠١١ م.
- ٥٨- تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، ضبطه وخُرّج نصوصه وصحّحه يوسف علي بدوي، مكتبة الصفاء، الإمارات العربية، ط٢، ٢٠٠٨ م.
- ٥٩- تاريخ الأدب العربي، بروكلمان، نقله إلى العربية د. عبد الحليم النجار، دار الكتاب الإسلامي، ميدان العلم، قم، ط٢، ٢٠٠٨ م.
- ٦٠- تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، د. شوقي ضيف، ذوي القربي، قم، ط٢، ١٤٢٧ هـ.
- ٦١- تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، د. شوقي ضيف، ذوي القربي، قم، ط٢، ١٤٢٧ هـ.
- ٦٢- تاريخ الأدب العربي (العصر الأموي)، د. قصي الحسيني، دار ومكتبة الهلال، بيروت - لبنان ن٢٠٠٢ م.
- ٦٣- تاريخ بغداد، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ)، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٩٩٧ م.
- ٦٤- تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، مراجعة وتعليق د. حسين مؤنس،

دار الهلال ١٩٥٨ م.

٦٥ - تاريخ الطبرى (تاريخ الملوك والأمم)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠ هـ)، مراجعة وتصحيح لجنة من العلماء، مؤسسة الأعلمى، بيروت - لبنان، د.ت.

٦٦ - تاريخ مدينة دمشق، أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١ هـ)، تحقيق علي شيري، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٩٨ م.

٦٧ - تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط٤، ١٩٨٣ م.

٦٨ - البيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ)، تحقيق وتصحيح أحمد حبيب قصیر، د.ت.

٦٩ - تحرير التحبير في صناعة الشعر والنشر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الأصبع المصري (ت ٦٥٤ هـ)، تقديم وتحقيق د. حفني محمد شرف، القاهرة، ١٩٦٣ م.

٧٠ - التحرير والتنوير، الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور، دار سخنون للنشر، تونس، ١٩٩٧ م.

٧١ - تحف العقول عن آل الرسول الشيخ الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني (من أعلام القرن الرابع)، عنى بتصحيحه علي أكبر الغفارى، مؤسسة الفكر الإسلامي، لبنان، ط١، ٢٠٠٤ م.

٧٢ - تذكرة الحفاظ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، تحقيق محمد

- البجاوي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، د.ت.
- ٧٣- التذكرة الحمدونية، محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمودن، تحقيق د. إحسان عباس، بكر عباس، دار صادرة، بيروت، ط١، ١٩٩٦ م.
- ٧٤- تذكرة الخواص، العلامة سبط بن الجوزي (ت٦٥٤ هـ)، منشورات الشريف الرضي، قم، ١٤١٨ هـ.
- ٧٥- تطور الأساليب الشترية في الأدب العربي، أنيس المقدسي، دار العلم للملائين، بيروت لبنان، ط١، ١٩٦٠ م.
- ٧٦- التعازي والمراثي، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٦ هـ)، حققه وقدم له محمد الديباجي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، ١٩٧٦ م.
- ٧٧- التعاريف (التوقيف على مهامات التعاريف)، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٠ هـ.
- ٧٨- التعريفات، علي بن محمد الجرجاني (ت٨٢٦ هـ)، حققه وعلق عليه نصر الدين التونسي، شركة القدس، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧ م.
- ٧٩- تفسير القرآن العظيم، الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير (ت٧٧٤ هـ)، تحقيق سامي بن محمد، دار طيبة، ط٢، ١٩٩٩ م.
- ٨٠- التلخيص الحبير في تحرير أحاديث الرافعى الكبير، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، (ت٨٥٢ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٩ م.
- ٨١- التوحيد، محمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بالصادوق (ت٣٨١ هـ)، تحقيق وتعليق السيد هاشم الحسيني الطهراني، منشورات جماعة المدرسين

في حوزة قم، د.ت.

٨٢ - الثقات، ابن حبان، (ت ٤٣٥ هـ)، دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ط ١، ١٣٩٣ هـ.

٨٣ - ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الشعالي (ت ٤٢٩ هـ)، شرح وتعليق خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتاب العلمية، بيروت - لبنان، ١٩٩٧ م.

٨٤ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو حعفر بن جرير الطبرى (ت ٣١٠ هـ)، مطبعة مصطفى البابى، مصر، ط ٢، ١٩٥٤ م.

٨٥ - الجامع في تاريخ الأدب العربي، حتّى الفاخوري، منشورات ذوي القربي، ط ٣، ١٤٢٧ هـ.

٨٦ - الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١ هـ)، اعتنى به وصححه الشيخ هشام سمير البخاري، دار الأصمسي، الرياض، ط ١، ٢٠٠٢ م.

٨٧ - جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم، محمد عبد المطلب، الشراكة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)، ط ١، ١٩٩٥ م.

٨٨ - جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط ٢، ١٩٨٨ م.

٨٩ - جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفت، المكتبة العلمية، بيروت - لبنان، د.ت.

٩٠ - جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفت، المكتبة

العلمية، بيروت - لبنان، ١٩٣٧ م.

٩١- حقائق التأويل في متشابه التنزيل، الشريف الرضي محمد بن الحسين الموسوي، شرح العلامة الأستاذ محمد رضا آل كاشف الغطاء، دار المهاجر، بيروت - لبنان، د. ت.

٩٢- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت ٤٣٠ هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط ٤، ١٤٠٥ هـ.

٩٣- الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام، محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الحسين التجارية، ط ١١، ١٩٤٩ م.

٩٤- الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب، بيروت - لبنان، ط ٢، ١٩٨٠ م.

٩٥- حياة الحسن البصري ومسيرته العلمية، د. روضة جمال الحصري، دار الكلم الطيب، دمشق، ط ١، ٢٠٠٢ م.

٩٦- خزانة الأدب، أبو بكر بن علي بن عبد الله (ت ٨٣٧ هـ)، تحقيق محمد نبيل، أصيل بديع، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٨ م.

٩٧- خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي (ت ٤٠٦ هـ)، مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٨٦ م.

٩٨- خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣ هـ)، تحقيق أ. د. حمزة النشري وآخرون، ط ٢، د. ت.

٩٩- خصام ونقد، د. طه حسين، دار العلم للملاتين، بيروت، ط ٣، ١٩٦٣ م.

- ٤٤٦ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في التأثیر على التأثیر في التأثیر العربي
- ١٠٠ - الخطابة العربية في عصرها الذهبي، إحسان النص، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣ م.
- ١٠١ - ذخائر العقبي، أحمد عبد الله الطبری (ت ٦٩٤ھـ)، مكتبة القدسية، القاهرة، ١٣٥٦ھـ.
- ١٠٢ - دراسات في الأدب العربي، أنعام الجندي، دار الأندلس، بيروت، ط ٢، ١٩٦٧ م.
- ١٠٣ - دراسات في الأدب المقارن التطبيقي، د. داود سلوم، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٤ م.
- ١٠٤ - دراسات في النحو، صلاح الدين الزعبلاوي، المعارف، القاهرة، د.ت.
- ١٠٥ - دراسات في نهج البلاغة، آية الله الشيخ محمد مهدي شمس الدين، وثّق أصوله وحققه وعلّق عليه الأستاذ سامي الغريري، مطبعة ستار، قم، ط ١، ٢٠٠٧ م.
- ١٠٦ - الدر المنشور في التفسير بالتأثیر، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ھـ)، دار المعرفة، بيروت - لبنان، د. ت.
- ١٠٧ - دستور معالم الحكم وأثر مكارم الشيم، الإمام القاضي أبو عبد الله محمد بن سلام (ت ٤٤٥ھـ)، شرح محمد سعيد الرافع، مكتبة المقيد، قم، د.ت.
- ١٠٨ - دفاتر عباسية في الشعر والتأثیر والحضارة والأعلام، د. يوسف عيد، المؤسسة الحديثية للكتاب، طرابلس - لبنان، ٢٠٠٨ م.
- ١٠٩ - دلائل الإعجاز في علم المعاني، الإمام عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت ٤٧١ھـ)، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتاب العلمية، بيروت

- لبنان، ط١، ٢٠٠١ م.

١١٠ - ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس)، شرح وتعليق د. محمد محمد حسين، مكتبة الآداب بالجامعة، د. ت.

١١١ - ديوان البحترى، شرح وتعليق د. يحيى شامي، دار الفكر العربي، بيروت - لبنان، ٢٠٠٥ م.

١١٢ - ديوان زهير بن أبي سلمى، شرحه وقدم له الأستاذ علي حسين فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨ م.

١١٣ - ديوان صفي الدين الحلبي، شرحه وضبط نصوصه د. عمر فاروق الطباع، دار الأرقم للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٩٧ م.

١١٤ - ديوان معروف الرّصافى، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٧٢ م.

١١٥ - الراعي والرّعية، توفيق العكىكي، صصححه وضبط متونه سيد آباد الحسيني، مطبعة الغدير، ط١، ١٤٢٩ هـ.

١١٦ - رباع الأبرار وفصوص الأخيار، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، تحقيق طارق فتحي السيد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠٦ م.

١١٧ - رسائل البلغاء، محمد كرد على، دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة، ١٩١٢ م.

١١٨ - الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي، غانم جواد رضا، دار التربية، بغداد، ١٩٧٦ م.

٤٤٨ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الترجمة العربية

١١٩ - رسائل المرتضى، الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ)، تقديم السيد أحمد الحسيني، إعداد السيد مهدي الرجائي، مطبعة سيد الشهداء، قم، ١٤٠٥ هـ.

١٢٠ - روائع البيان في خطاب الإمام، د. رمضان عبد الهادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠٢ م.

١٢١ - روائع نهج البلاغة، جورج جرداق، مركز الغدير، مطبعة باقرى، ط ٢، ١٩٩٧ م.

١٢٢ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبعين الثاني، أبو الفضل شهاب الدين محمود الألوسي (ت ١٢٧٠ هـ)، ضبطه وصححه علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط ١، ٢٠٠١ م.

١٢٣ - الروض المعطار في خبر الأقطار محمد بن عبد المنعم الحميري (عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري)، تحقيق د. إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠ م.

١٢٤ - زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري (ت ٤٥٣ هـ)، ضبط وشرح د. زكي مبارك، دار الجيل، بيروت - لبنان، ط ٤، ١٩٧٢ م.

١٢٥ - سبيل المهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت ٩٤٢ هـ)، تحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٩٣ م.

١٢٦ - السرقات الأدبية دراسة في ابتکار الأعمال الأدبية وتطبيقاتها، د. بدوى

طbane، مكتبة الإنجلو مصرية، ط٤، د.ت.

١٢٧ - سنن الترمذى، محمد بن عيسى بن سورة الترمذى (ت ٢٧٩ هـ)، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط٢، ١٩٨٣ م.

١٢٨ - السنن الكبرى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق د. عبد الغفار سليمان، سيد كسروى، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٩١ م.

١٢٩ - سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، حسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط٩، ١٩٩٣ م.

١٣٠ - السيرة الخلبية، علي بن ابراهيم بن احمد الخلبي (ت ١٠٤ هـ)، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠ هـ.

١٣١ - سيكولوجية الفروق الفردية في الذكاء، أ.د. سليمان الحضرى، دار المسيرة للنشر والتوزيع، جامعة عين شمس - القاهرة، ط١، ٢٠٠٨ م.

١٣٢ - الشافى فى الإمامة، علي بن الحسين الموسوي الملقب بالشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ)، تحقيق عبد الزهرة الخطيب، راجعه السيد فاضل الميلاني، مؤسسة الصادق، طهران، ط٢، ١٩٨٦ م.

١٣٣ - شدرات الذهب في أخبار من ذهب، الفقيه الأديب أبو فلاح عبد الحى الحنفى (ت ١٠٨٩ هـ)، دار إحياء التراث العربى، بيروت - لبنان ن. د.ت.

١٣٤ - شرح أصول الكافي، المولى محمد صالح المازندرانى (ت ١٠٨١ هـ)، ضبط وتصحيح السيد علي عاشور، تعليق الميرزا أبو الحسن الشعراوى ن دار

٤٥٠ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في التراث العربي

التراث العربي، بيروت - لبنان، ط ٢٠٠٠ م، ١، ٢٠٠٠ م.

١٣٥ - شرح حكم أمير المؤمنين عليه السلام، الشيخ عباس القمي، العتبة العلوية المقدسة، ٢٠١٢ م.

١٣٦ - شرح ديوان المتّبّي، وضعه عبد الرحمن البرقوقي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠١ م.

١٣٧ - شرح المائة كلمة للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، شرح العالم الربّاني ميشم بن علي بن ميشم البحرياني (ت ٦٧٩ هـ)، تقديم جلال الدين الحسيني الأرموي، مؤسسة العروبة الوثقى، ط ١، ٢٠١٠ م.

١٣٨ - شرح نهج البلاغة، الشيخ محمد عبده، خرّج مصادره فاتن محمد خليل اللبون، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠١ م.

١٣٩ - شرح نهج البلاغة، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني الشهير بابن أبي الحميد (ت ٦٥٦ هـ)، قدم له وعلق عليه الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ط ٣، ٢٠٠٩ م.

١٤٠ - شرح نهج البلاغة، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني (ت ٦٥٦ هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط ١، ١٩٥٩ م.

١٤١ - شرح نهج البلاغة، كمال الدين ميشم بن علي بن ميشم البحرياني (ت ٦٧٩ هـ)، مؤسسة الآداب الشرقية، النجف الأشرف - العراق، ط ١، ٢٠٠٩ م.

١٤٢ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي (ت ٤٥٤ هـ)، دار الفكر العربي، بيروت - لبنان، ١٩٨٨ م.

- ١٤٣ - صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي القلقشندي (ت ٢١٢ هـ)، تحقيق د. علي يوسف الطويل، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٩٨٧ م.
- ١٤٤ - صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١ هـ)، دار الجيل، بيروت، د. ت.
- ١٤٥ - الصحيفة السجّادية الكاملة، الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (٩٥ هـ)، تقديم السيد محمد باقر الصدر، دار العلوم، لبنان، ط ١، ٢٠٠٨ م.
- ١٤٦ - الصناعتين (الكتابة والشعر) أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت ٣٩٥ هـ)، تحقيق علي محمد البحاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط ٢، د. ت.
- ١٤٧ - ضحى الإسلام، أحمد أمين مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٧، د. ت.
- ١٤٨ - طبقات الفقهاء، محمد بن جلال الدين المكرم (ت ٢٣٠ هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٧٠ م.
- ١٤٩ - الطبقات الكبرى، محمد بن سعد الزهراني (ت ٢٣٠ هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٦٨ م.
- ١٥٠ - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٩ هـ)، مطبعة المقتطف، مصر، ١٩١٤ م.
- ١٥١ - طرائق المقال في معرفة طبقات الرجال، العلامة السيد علي أصغر بن السيد محمد البروجردي، تحقيق السيد مهدي الرجائي، تقديم آية الله العظمى المرعشي النجفي، مكتبة المرعشي، قم، ط ١، ١٤١٠ هـ.

- ٤٥٢ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الشر العربي
- ١٥٢ - عبد الله بن المفعع (الأدب الكبير، الأدب الصغير، رسالة الصحابة)، دراسة وتحليل، تقديم يوسف أبو حلقة، مكتبة دار البيان، بيروت - لبنان، د.ت.
- ١٥٣ - عبد الله بن المفعع، جورج غريب، دار الثقافة، بيروت - لبنان، د.ت.
- ١٥٤ - عقيرية الشريفي الرضي، زكي مبارك، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د.ت.
- ١٥٥ - العقريات الإسلامية، عباس محمود العقاد، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط١، م٢٠٠٩.
- ١٥٦ - العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت٣٢٨هـ)، تحقيق محمد عبد القادر شاهين، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، م٢٠٠٩.
- ١٥٧ - علماء في رضوان الله، محمد أمين نجف، منشورات الإمام الحسين عليه السلام، بهمن، ط٢، م٢٠٠٩.
- ١٥٨ - علم الأدب، الأب لويس شيخو اليسوعي، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت - لبنان، ط٢، م١٩٢٦.
- ١٥٩ - علوم نهج البلاغة، د. محسن باقر القزويني، دار العلوم، بيروت - لبنان، ط١، م٢٠٠٣.
- ١٦٠ - علي إمام البررة، آية الله العظمى أبو القاسم الخوئي، قدم له آية الله العظمى علي الحسيني البهشتى، شرح السيد محمد مهدي الحرسان، دار الهادى للطباعة والنشر، ط١، م٢٠٠٣.
- ١٦١ - علي سلطة الحق، عزيز السيد جاسم، تحقيق وتعليق صادق جعفر

الروازق، الغدير، قم، ط١، ٢٠٠٠ م.

١٦٢ - علي كما وصف نفسه، السيد طاهر عيسى درويش، دار ومكتبة الهمال،
بيروت، ط١، ٢٠٠٤ م.

١٦٣ - علي من المهد إلى اللحد، العلامة السيد كاظم القزويني، مؤسسة النشر
الإسلامي، بيروت.

١٦٤ - العمدة في محسن الشعر وأدابه، أبو علي الحسن بن رشيق القير沃اني
(ت٤٥٦ هـ)، تحقيق محمد محبي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت -
لبنان، ط٤، ١٩٧٢ م.

١٦٥ - عيار الشعر، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوى (ت٣٢٢ هـ)، تحقيق د. طه
الحاجري، محمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٩٦ م.

١٦٦ - عيون الأخبار، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت٢٧٦ هـ)، شرحه
وضبطه ورتب فهارسه د. يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية،
بيروت - لبنان، د.ت.

١٦٧ - عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي (من أعلام القرن
السادس الهجري)، تحقيق الشيخ حسين الحسيني، دار الحديث، ط١،
١٣٧٦ هـ.

١٦٨ - الغارات، إبراهيم بن محمد الكوفي (ت٢٨٣ هـ)، تحقيق السيد جلال
الدين الحسيني، بهمن، د.ت.

١٦٩ - غريب الحديث، أبو عبد القاسم بن سلام (ت٢٢٤ هـ)، مطبعة مجلس
دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، ط١، ١٩٦٥ م.

- ٤٥٤ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الترجمة أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الترجمة أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الترجمة
- ١٧٠ - غر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد الأمدي التميمي (ت ٥٥٠ هـ)، تحقيق السيد مهدي الرجائي، مؤسسة الكتاب الإسلامي، مطبعة ستار، ط ٣، ٢٠٠٨ م.
- ١٧١ - الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨ هـ)، دار صادر، بيروت - لبنان، د.ت.
- ١٧٢ - الفتنة الكبرى، د. طه حسين، دار المعارف، القاهرة - مصر، ١٩٥٩ م.
- ١٧٣ - فجر الإسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٦٩ م.
- ١٧٤ - فحولة الشعراء، أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمسي (ت ٢١٦ هـ)، تحقيق ستارليس توري، دار الكتاب الجديد، ١٩٧١ م.
- ١٧٥ - فضائل الإمام علي عليه السلام، محمد جواد مغنية، منشورات دار ومكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٢ م.
- ١٧٦ - فن الأدب، توفيق الحكيم، مكتبة الدب ومطبعتها، المطبعة النموذجية، سكة الشابوري، د.ت.
- ١٧٧ - الفن ومذاهبه في الترجمة العربية، د. شوقي ضيف، دار المعارف، كورنيش النيل، القاهرة، ط ٦، ١٩٧١ م.
- ١٧٨ - فنون الأدب، تشارلتن، ترجمة زكي نجيب محمود، القاهرة، ١٩٤٥ م.
- ١٧٩ - الفهرست، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ)، تحقيق الشيخ جواد القيومي، مؤسسة النشر الإسلامي، ط ١٤١٧، ١٤١٧ هـ.

- ١٨٠ - الفهرست، أبو الفرج محمد إسحاق النديم (ت ٤٣٨ هـ)، دار المعرفة،
بيروت - لبنان، ١٩٧٨ م.
- ١٨١ - فوات الوفيات محمد بن شاكر الكتبى (ت ٧٦٤ هـ)، تحقيق علي محمد
بن يعوض، عادل احمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١،
٢٠٠ م.
- ١٨٢ - في الأدب العباسي، د. محمد مهدي البصیر، مطبعة النعمان، النجف
الأشرف، ط ٣، ١٩٧٠ م.
- ١٨٣ - في الأدب المقارن مقدمات للتطبيق، د. نجم عبد الله كاظم، عالم الكتاب
الحديث، إربد - الأردن، ط ١، ٢٠٠٨ م.
- ١٨٤ - في رحاب نهج البلاغة، مرتضى المطهري، العتبة العلوية المقدّسة، ٢٠١١ م.
- ١٨٥ - في النقد الأدبي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ١٩٦٢ م.
- ١٨٦ - القاموس المحيط، القاضي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي
(ت ٨١٧ هـ)، دار العلم، بيروت - لبنان، د.ت.
- ١٨٧ - قضايا بالحداثة، عبد القاهر الجرجاني، د. محمد عبد المطلب، مطبع
المكتب المصري، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٥ م.
- ١٨٨ - قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، مكتبة النهضة، بغداد، ط ٢،
١٩٦٥ م.
- ١٨٩ - الكافي، الشيخ محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٩ هـ)، تحقيق علي أكبر
الغفاری، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط ٣، ١٣٦٧ هـ.

٤٥٦ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في الشر العربي

١٩٠ - كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ)،
تحقيق د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار الهجرة، إيران،
١٤٠٩ هـ.

١٩١ - الكنى والألقاب، المحقق الشيخ عباس القمي، تقديم محمد هادي
الأميني، مكتبة الصدر، طهران، د.ت.

١٩٢ - كنز الفواد، أبو الفتح محمد بن علي الكراجكي (ت ٤٤٩ هـ)، الغدير، قم،
١٣٦٩ هـ.ش.

١٩٣ - لباب النقول، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١ هـ)، تحقيق
أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

١٩٤ - لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١ هـ)، أدب الحوزة، قم،
١٤٠٥ هـ.

١٩٥ - لغة الشعر بين جلين، د. إبراهيم السامرائي، المؤسسة العربية للدراسات
والنشر، ط ٢، ١٩٨٠ م.

١٩٦ - ما هو نهج البلاغة، العلامة السيد هبة الدين الشهريستاني، مطبعة النعمان،
النجف الشرف، ط ٣، ١٤٠٠ هـ.

١٩٧ - المجازات النبوية، الشريف الرضي محمد بن الحسين (ت ٦٤٠ هـ)، تحقيق
د. طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٧ م.

١٩٨ - بجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (من
أعلام القرن السادس الهجري)، تحقيق لجنة من العلماء، قدّم له السيد محسن
الأميني العالمي، مؤسسة الأعلمي، لبنان، ط ١٩٩٥ م.

- ١٩٩ - المجموعة الكاملة للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، عبد الفتاح، عبد المقصود، مؤسسة المختار، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦ م.
- ٢٠٠ - حاضرات الأدباء ومحاورات والبلغاء، أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصبهاني (ت ٢٥٠ هـ)، منشورات مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، د.ت.
- ٢٠١ - المحرقة الكبرى لكتب البشرية، الفكر الإسلامي د. نجاح الطائي، دار الهدى لإحياء التراث، ط١، ٢٠٠٩ م.
- ٢٠٢ - مختصر تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، د. محمود السيتاني، مشهد، إيران، ١٣٨١ هـ. ش.
- ٢٠٣ - مروج الذهب ومعان الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦ هـ)، تقديم يوسف أسعد داغر، قم - إيران، ط٢، ١٩٨٤ م.
- ٢٠٤ - المسbar الندي (دراسة في نقد النقد للأدب القديم والتناص)، أ.د. حسين جمعة، اتحاد الكتاب، دمشق، ٢٠٠٣ م.
- ٢٠٥ - المستدرك على الصحيحين ن محمد بن عبد الله الحكم النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ)، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٩٠ م.
- ٢٠٦ - المستطرف في كلٌ فن مستطرف، شهاب الدين محمد الأ بشيحي (ت ٨٥٠ هـ)، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، شركة الأرقام، د.ت.
- ٢٠٧ - المستويات الجمالية في نهج البلاغة (دراسة في شعرية النثر)، د. نوفل أبو رغيف، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠٠٨ م.
- ٢٠٨ - مسنن أحمد، الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط

وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط٢٩٩، م٢٠٩.

٢٠٩ - مشاكلة الناس لزمانهم، أحمد بن إسحاق اليعقوبي (ت٢٩٢هـ)، تحقيق وليم ملورد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١٩٦٢، م٢٠٩.

٢١٠ - مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، أبو علي الفضل بن حسن الطبرسي، تحقيق مهدي خوشنده، دار الحديث، ط١، د.ت.

٢١١ - المشككون بنهج البلاغة والرد عليهم، علي الفتال، دار المحجة البيضاء، بيروت، ط١، م٢٠٠٥.

٢١٢ - مصادر نهج البلاغة وأسانيدھ، عبد الزهراء الحسيني الخطيب، مطبعة القضاة، النجف الأشرف، ط١، ١٩٦٦م.

٢١٣ - المصنف، عبد الرزاق الصنعاني (ت٢١١هـ)، تحقيق وتحريج حبيب الرحمن الأعظمي، منشورات المجلس العلمي، د.ت.

٢١٤ - المصنف، عبد الله بن محمد أبي شيبة (ت٢٣٥هـ)، ضبطه وعلق عليه الأستاذ سعيد اللحام، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

٢١٥ - مطالب المسؤول في مناقب آل الرسول، محمد بن أحمد الشافعي (ت٦٥٢هـ)، طبع بإشراف السيد عبد العزيز الطباطبائي، مؤسسة البلاغ، لبنان، ط١، ١٩٩٩م.

٢١٦ - المعارف، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، تحقيق د. ثروت عكاشه، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

٢١٧ - معاني الأخبار، الشيخ الصدوق محمد بن علي (ت٣٨١هـ)، تحقيق وتعليق علي أكبر الغفارى، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٣٣٨هـ.ش.

- ٢١٨- معايير الحكم الجمالي في النقد الأدبي، د. منصور عبد الرحمن، المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٨١ م.
- ٢١٩- معجم آيات الاقتباس، حكمت فرج البدرى، الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠ م.
- ٢٢٠- معجم الأدباء، ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ)، دار المشرق، بيروت - لبنان، د.ت.
- ٢٢١- المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت٣٦٠هـ)، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.
- ٢٢٢- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ١٩٩٧ م.
- ٢٢٣- معجم رجال الحديث، آية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوئي الموسوي، طبعة منقحة ومزيدة، ط٥، ١٩٩٢ م.
- ٢٢٤- المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن احمد الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم، ط٢، ١٩٨٣ م.
- ٢٢٥- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤هـ.
- ٢٢٦- معجم المؤلفين، رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، د.ت.
- ٢٢٧- المعجم الوسيط، د. إبراهيم أنيس وآخرون، مكتب الثقافة الإسلامية،

٤٦٠ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في التأثیر العربي

ط١٤١٢ هـ.

٢٢٨ - المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، أشرف على طبعه عبد السلام هارون، تقديم د. إبراهيم مذكور، المكتبة العلمية، طهران، د.ت.

٢٢٩ - مع المشككين في نهج البلاغة، (مناقشة الشبهات والمؤاخذات)، عادل الأسدی، مكتبة العزيزی، أمیران، ٢٠٠٧ م.

٢٣٠ - مع نهج البلاغة دراسة ومعجم، د. إبراهيم السامرائي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ط١٩٨٧ م.

٢٣١ - المفردات في غريب القرآن، أبو الحسين بن محمد (ت ٥٠٢ هـ)، دار نشر الكتاب، ط٤، ١٤٠٤ هـ.

٢٣٢ - مقامات الحريري، أبو محمد القاسم بن علي الحريري (ت ٥١٠ هـ)، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، لبنان، ط٤، ٢٠٠٥ م.

٢٣٣ - من أروع ما قاله الإمام علي عليه السلام، محسن عقيل، دار المحجة البيضاء، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠١ م.

٢٣٤ - مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، الحافظ محمد بن سليمان الكوفي (من أعمال القرن الثالث)، تحقيق العلامة محمد باقر المحمودي، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ط١، ١٤١٢ هـ.

٢٣٥ - مناقب الخوارزمي، الموفق بن أحمد الخوارزمي (ت ٥٦٨ هـ)، تحقيق الشيخ مالك المحمودي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط٢، د.ت.

٢٣٦ - المتظم في تاريخ الملوك والأمم، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، (ت ٥٩٧ هـ)، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر

عطاء، راجعه وصححه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت ن ط١، ١٩٩٢ م.

٢٣٧ - من حديث الشعر والنشر، د. طه حسين، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٦١ م.

٢٣٨ - منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، المحقق حبيب الله الهاشمي الخوئي، تصنیف المحقق محمد باقر، تصحیح وتهذیب السيد إبراهیم المیانجی، المطبعة الإسلامية، إیران، ط٤، د.ت.

٢٣٩ - منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، قطب الدين سعید بن هبة الله الرواندي (ت ٥٧٤ھـ)، تحقیق السيد عبد اللطیف الكوهکمری، نشر مکتبة آیة الله المرعشی، قم، ١٤٠٦ھـ.

٢٤٠ - موسوعة الإمام علی بن أبي طالب رض في الكتاب والسنّة والتاريخ، محمد الريشهري، بمساعدة السیدین محمد کاظم الطباطبائی، ومحمود الطباطبائی، تحقیق مرکز بحوث دار الحديث، دار الحديث للطباعة والنشر، قم، ط٢، ١٤٢٥ھـ.

٢٤١ - میزان الاعتدال في نقد الرجال، محمد بن أحمد الذہبی (ت ٧٤٨ھـ)، تحقیق محمد البعجاوی، دار المعرفة، بيروت - لبنان، د.ت.

٢٤٢ - میزان الحکمة، محمد الريشهري، دار الحديث، قم، ط١، ١٤١٦ھـ.

٢٤٣ - المیزان في تفسیر القرآن، العلامة السيد محمد حسین الطباطبائی، مؤسسة الأعلمی، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٩٧ م.

٢٤٤ - الشر الفنی في القرن الرابع الهجري، د. زکی مبارک، المکتبة العصریة

النعمان، النجف الأشرف، ط١، ١٩٦٥ م.

٢٥٤ - نوادر وقصص من شرح نهج البلاغة، عبد الرسول زين العابدين، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠٨ م.

٢٥٥ - نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد بن عفيفي الخضري، تحقيق هيثم هلال، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠٤ م.

٢٥٦ - هوية التشيع، الشيخ د. أحمد الوائلي، دار الصفو، بيروت - لبنان، ط٣، ١٩٩٤ م.

٢٥٧ - الوافي بالوفيات، صلاح الدين بن أبيك الصفدي (ت ٧٦٤ هـ)، تحقيق أحمد الأرنؤوط، تركي مصطفى، دار التراث، بيروت، ٢٠٠٠ م.

٢٥٨ - الوساطة بين المتنبي وخصومه، علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٦٦ هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد العجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠٦ م.

٢٥٩ - وعاظ السلاطين، د. علي الوردي، دار دجلة والفرات، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠٩ م.

٢٦٠ - وفيات الأعيان وأئمّة أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان (ت ٦٨١ هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧١ م.

٢٦١ - يتيمة الدهر في محسن أهل العصر، أبو منصور عبد الملك الشعالي (ت ٤٢٩ هـ)، شرح وتحقيق د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العالمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٨٣ م.

الأطاريح والرسائل

- ١- ابن المقفع (حياته آثاره)، دلارا سينغ سندها، رسالة لنيل شهادة أستاذ في العلوم، كلية العلوم، الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٥٦ م.
- ٢- أبو العلاء المعري والشعر العربي في الأندلس (دراسة تحليلية في التأثير والتأثير) على كاظم محمد علي المصلاوي، اطروحة دكتوراه، كلية التربية - ابن رشد - جامعة بغداد، ٢٠٠٦ م.
- ٣- أدب ابن المقفع بين ناقديه قدّيماً وحديثاً (تحليل وموازنة) أكرم علي عنبر، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة المستنصرية، ٢٠٠٤ م.
- ٤- أدب عبد الله بن المقفع دراسة أسلوبية، عبد الحسين عبد الرضا العمري، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة المستنصرية، ٢٠٠٤ م.
- ٥- أثر الأدب النبوى في الأدب العربى حتى نهاية العصر الأموى، فؤاد جليل وهيب المجمعي، اطروحة دكتوراه مقدمة إلى مجلس كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٧ م.
- ٦- الأثر الدلالي للقرآن الكريم في نهج البلاغة، هادي شندوخ حميد، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة البصرة، ٢٠٠٨ م.
- ٧- التأثير والتأثير في النص النقدي العربي إلى آخر القرن السابع الهجري، أنوار سعيد، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٦ م.
- ٨- التناص في شعر أحمد مطر، عبد المنعم جبار عبيد، أطروحة دكتوراه، كلية التربية - ابن رشد، جامعة بغداد، ٢٠٠٩ م.

- ٩- التناص في الشعر الأندلسي في عهد دولة بنى الأحمر (٦٥٠ - ٨٩٨ هـ)، أسراء عبد الرضا، أطروحة دكتوراه، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، ٢٠٠٦ م.
- ١٠- حكم الإمام علي عليه السلام ومواعظه، تحقيق من شروح نهج البلاغة حتى نهاية القرن السابع الهجري، قاسم خلف مشاري السكيني، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة المستنصرية، ٢٠٠٨ م.
- ١١- الخطاب في نهج البلاغة بنائه وأنماطه ومستوياته (دراسة تحليلية)، عبد الحسين عبد الرضا العمري، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٨ م.
- ١٢- الإغتراب عند الإمام علي عليه السلام من خلال نهج البلاغة، محمد مشعاله داخني، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحج خضر، باتنة، ٢٠٠٩ م.
- ١٣- الخطاب في نهج البلاغة دراست موضوعية فنية، إيمان عبد الحسين علي، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة بابل، ٢٠٠٨ م.
- ١٤- مصطلحات السرقة الأدبية في التراث النقدي إلى نهاية القرن السابع الهجري، سندس محسن العبودي، رسالة ماجستير، كلية التربية (ابن رشد)، جامعة بغداد، ١٩٩٦ م.
- ١٥- التشر عنده الحسن البصري، سلافة صائب خضير العزاوي، رسالة ماجستير، كلية التربية (ابن رشد)، جامعة بغداد، ١٩٩٤ م.
- ١٦- نهج البلاغة في ضوء علم اللغة الاجتماعي، نعمة دهش فرحان الطائي، أطروحة دكتوراه، كلية التربية (ابن رشد)، جامعة بغداد، ٢٠١١ م.

المجلات

- ١- سجع أم فواصل، د. أحمد الحوفي، مجلة اللغة العربية بالقاهرة، ع ٢٧، س ١٩٧١ م.
- ٢- ما قيل في نهج البلاغة، عبد العزيز الطباطبائي، مجلة تراثنا، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ع ١٤١٤ هـ.



المحتويات

المحتويات

٧	المقدمة
١٥	التمهيد: مفهوم الأثرو
الفصل الأول		
كلام الإمام علي عليه السلام من حيث التوثيق والتأثير		
٢٩	المبحث الأول: نظرية توثيقية
٢٩	أولاً: جمعه المبكر و
٤٠	ثانياً: التشكيكات فيه
٤٤	الوقفة الأولى: مع المشككين
٥٣	الوقفة الثانية: مع شبهة الطول

٤٧٠ أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النشر العربي

٦١ الوقفة الثالثة: شبهة الصيغ الفلسفية
٦٩ الوقفة الرابعة: شبهة السجع
٧٥ البحث الثاني: إضاءة تمهيدية
٧٧ أولًا: الجانب الوراثي
٧٩ ثانيًا: الأثر النبوي
٨٢ ثالثًا: الأثر القرآني
٨٧ رابعًا: الشمولية في كلامه
٩٠ خامسًا: الإلهم الغيبى و
٩٥ سادسًا: هضمه لتراث العرب
٩٨ سابعًا: سداد الرأى و
١٠٤ ثامنًا: المحن التي

الفصل الثاني

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في نشر الحسن البصري

١١٩ توطئة
١٢٧ البحث الأول: في خطب الحسن
١٥٥ البحث الثاني: في رسائل الحسن
١٨٩ البحث الثالث: أثر خطبة المتقيين

المحتويات ٤٧١

٢١٥	المبحث الرابع: في مواعظ و
٢١٦	أولاً: التضمين
٢٢١	ثانياً: البسط والزيادة
٢٣٤	ثالثاً: الإيجاز
٢٤١	رابعاً: العكس

الفصل الثالث

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في نشر ابن المقفع

٢٥١	توطئة
٢٦٥	المبحث الأول: في رسالة الأدب الكبير
٢٦٦	أولاً: التضمين
٢٨٧	ثانياً: التلتفيق
٣٠٤	ثالثاً: البسط
٣٣٠	رابعاً: الإيجاز
٢٣٥	المبحث الثاني: في رسالة الأدب الصغير
٢٣٨	أولاً: التضمين
٢٤٢	ثانياً: التلتفيق
٢٥٧	ثالثاً: البسط

٤٧٢ أثر كلام الإمام علي <small>عليه السلام</small> في الشر العربي
٣٦٨ رابعاً: الإيجاز
٣٧٥ المبحث الثالث: في رسالتى الصحابة
٢٧٥ أو لاً: أثره في رسالة الصحابة
٣٩٣ ثانيًا: أثره في رسالة الدرة الـلـيـتـيـمـة
٤٠٠ ثالثاً: في رسائل أدبية أخرى
٤٠٧ المبحث الرابع: تكرار ابن المقفع
٤٢٣ الخاتمة النتائج
٤٣٥ المصادر والمراجع
٤٦٩ المحتويات